كتابات جديدة | ١

الدكتور محمد كامل حسين
عالمًا ومفكرًا وأديبًا

محمد محمد الجوادى



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٧٩

الدكتور محمد كامل حسين
عـالـمًا ومفـكـرًا وأديـبًـا

- فاز هـذا الكتاب بالجائزة الأولى لمجمع اللغـة العربيـة عام ١٩٧٨
- محمد محمد الجوادى ، مؤلف الكتاب ، هو الطالب المثالى لجامعة القاهرة

إهداء

الى والدى

اللذين ربيانى صغيرا

تصدير

بقلم الدكتــور عبــد الحميد حسن

موضوع هذه الدراسة شخصية فذة ، متعددة الجوانب والأبعاد والمواهب والقدرات ، الطبيب الانسان ، الجراح الماهر البارع ، المفكر العالم، اللغوى المبدع ، الكاتب المتطلع لرقى بلاده ، المغفور له الدكتور محمد كامل حسين .

والدراسةالحالية تحاول أن ترسم صورة عريضة ، ولكنها دقيقة — بقدر الامكان — لشخصية « الاستاذ » ، بذل كاتبها — طالب الطب الشاب — جهدا بحثيا متأنيا واعيا حيالها ، واضفى عليه ا حيوية وحيــاة ومعايشــة قد نفتقدها فى غيرها ، معتمدا على المنهج الوصفى والتحليلى المقــارن ، كما اســتفاد كثيرا من توجيهــات وتحقيقــات الآخرين .

ان الباحث طالب جامعى مجتهد ، غيور على تتبع واحياء تراث مجتمعه محب للعلم والمعرفة ، مشــغوف بالفكر والثقــافة ، ســباق المشاركة الايجابية فى كل عمل شبابى ، مثــال للتفوق ، ولعل فوزه بالمركز الاول فى مسابقة اكتوبر الثقافية حول كتاب «البحث عن الذات» خير دليل على ذلك .

والدراسة التى نقدمها — على ضوء الهدف المحدد لها — متكاملة البناء متناسقة التركيب ، فلقد أجاد الباحث الشاب فن تناول المادة العلمية ، وتعرض فى الباب الأول بأسلوب أدبى روائى طريف لنشــأة وتكوين الأستاذ الراحل، وتوصيف البيئة والمناخ الاجتماعى والسياسى للعصر الذى عاش فيه ، والذى يمثل مرحلة دقيقة هامة من مراحــل النهضة الحديثة فى مصر ، ومن خلال قراءة وتحليــل الانتاج الفــكرى والادبى واللغوى للدكتور كامل حسين أفرد البــاحث البــاب الثــانى لتوضيح الجوانب الفلسفية العميقة ، والقضايا الفكرية المتنوعة حيث

الحكمة ورجاحة العقل وسداد الرأى ، ثم خصص الباب الثالث لعرض جوانب من روائع الانتاج الأدبى حيث تزود الكاتب الفنان بثقافة عامة عالمية ممتازة ، اما الباب الرابع فقد خصصه للاهتمامات والآراء اللغوية فلقد كان الفقيد معنيا بالعربية لغة وقواعد ومعاجم ونحوا وصرفا .

والأستاذ بهذا ليس كما قد يبدو على السطح عالما موسوعيا فضفاضا بل هو عالم متكامل بالضرورة ، بل العالم الكامل بامتياز فهو الحاصل على جائزة الدولة فى الأدب والحاصل ايضا على جائزة الدولة التقديرية فى العلوم . هو عضو مجمع اللغة العربية ومجلس جامعة الأزهر وأيضا عضو الأكاديمية المصرية للعلوم ومؤسس الجمعية المصرية لجراحة العظام .. وغير ذلك من ضروب الشمول والتكامل كثير .

والدعوة الآن الى ابناء مصر من الشبان الا تكون مثل هذه الدراسة نهائية ، وانما ينبغى أن تأخذ هذه النظرة مأخذا جديا فى دراسة المزيد من الشخصيات المصرية الرائدة ، ومن المسلم به أن الشعوب كالافراد ، تسعى بلهفة الى اقاربها البارزين الناجحين النابهين وتتوارى من الخاملين الفاشلين ، والمطلوب هو الوعى بالتقدم وبالمنافسةالحضارية داخليا وخارجيا وأن يكون اهم مقوماتنا الحضاريه وصل واقعنا الحضارى بتراثنا الثقافى .

بهذه الروح العامة التى تلائم طبيعة الوضعية الجديدة لمجتمعنا المصرى ، وفى سبيل تحقيق الأهداف العلمية والعملية السامية نقدم الى المكتبة العربية هذه الدراسة .

والله الموفق ،

دكتور عبد الحميد حسن

تقــــديم

بقلم الدكتور حســين فوزى

هذا الكتاب يتلقاه بكل اعزاز الصديق القديم لمحمد كامل حسين منذ جمعتنا بمدرسة الطب المصرية (شــارع القصر العينى) دفعــة ١٩١٧ فهو سجل كامل لكثير مما ادى الطبيب والجراح الكبير خارج مهنته النبيلة ، فى مجالات الفكر والفن والأدب ، وكان « كامل » عندى اشبه برجال عصر الاحياء (الرينسانس) ، وعصر ازدهار الحضــارة العربية .

كتاب يقربه الى قلبى أن يكون واضعه طالبا بكلية الطب هــو محمد محمد الجوادى ، الطالب المثـــالى لجامعــة القــاهرة ، أترســمه صورة حية من صور جيلنا نحن ابناء مطالع القرن العشرين ، وكأنى اتوسم فيه ان يحتل فى جيله مركزا مساويا لمركز محمد كامل حسين، ولكن فى عصر لصقت بشبابه تهمة قاسية ، وصفها المتشائمون بجيل الشباب الضائع . ويكفينى أن التقى بأمثال محمد الجوادى من ابناء جيله — وحدث ذلك مرارا — لأنفى التهمــة الجــائرة . فلكل ثورة ضــحاياها وان اختلف نوع التضحية بين جيــل ثورة ١٩ ، وثورة ١٩٥٢ انما طغت النسبة المئوية فى هؤلاء على النسبة المئوية فى أولئك، بسبب استطالة عصر الكبت والحكم الشمولى .

وأن نلتقى ضمن هؤلاء بشباب من أمثال الجوادى ، فان فى ذلك دلالة على أن قبس الحضارات المصرية لم ينطفىء ، وأن نهضــــة مصر مكفــولة اذا ما حــل الســــلام بأرض الخصب والعطــاء ، مســـتشرفا اقتراب اليوم الموعود ، نســـتأنف الســير قــدما فى موكب الحضــارة العالمية ، كما كنا فيما بين عامى ١٨٥٠ ، و ١٩٥٠ . وســـوف تتولى شئون الوطن القلة النابهة فى مجموع أبناء النصف الثانى من هــذا القرن . وأملنا فيهم لن يخيب . بل نحن مطمئنـــون الى بزوغ فجــر القرن الأول بعد العشرين بالخير كل الخير .

وما بى حاجة الى الاشارة بما جاء فى هـذا الـكتاب حديثا عن محمد كامل حسين صاحب المصنفات الفذة فى ابواب القصص الفلسفى. فشهرة « قرية ظالمة » تعدت حدود الوطن الى آفاق الشرق والغرب. ومبادراته الفكرية فى « التحليل البيولوجى للتاريخ » وحول « وحـدة المعرفة » ، ووصـفه الرائع بل توصيفه لـ « الـوادى المقـدس » ، وفصول كتابيه الأول والثانى بعنوان « متنوعات » وغيرها مما تناوله الجوادى فى كتابه الموسوعى تجعل من كامل حسين رجـلا قمينا بأن يحمل لقب « بحر العلوم » لاحاطته المبدعة بشتى عناصر المعرفة .

انما يهمنى فى هذه المقدمة التنويه بما اشـتمل عليه الكتـاب من تسجيل صادق لناحية من نواحى جهاد محمد كامل حسين فى سـبيل تحرير اللغة العربية من أصفاد الماضى ، وهى ناحية أعترف بأن علمى بها لم يتعد اصداء ما توارد على من اخباره فى المجمع اللغوى .

وأضرب لهذه الناحية أمثلة مجتزاة من محاضر المجمع ، فهـذه صورة نيرة لديموقراطية العلم والعلماء ، حين يتواجه انصـار المـاضى من حكماء التراث الذى نعتز به جميعا ، وانصار الحاضر ممن يتقدمون بدستور التجديد . وكان كامل حسين المصباح المنير ، والفارس المجلى لفريق المجددين . وكل هؤلاء واولئك صادقو النية فى الدفاع المجيـد عن قوام حياتنا الفكرية : لغتنا القوميـة ذات التـاريخ التالد فى ابان رفعتها ، وقد استأنفت سيرها الظافر منـذ أواخر القرن المـاضى . وطوال هذا القرن ، بفضل الاعلام من كتابنا شقوا طريقـا لها يحملون اعلام التجديد فى كل باب من أبواب الفكر ، والعلم ، والفن ، والأدب.

جمع كامل حسين فى مقدمة كتابه « اللغة العربية المعاصرة » — وكان آخـر كتبه — مالا يريد أن تكون عليه لغتنـا القوميـة فى العصر الحديث . فهو يرفض العودة بما يصفه بالفصحى العالية الى ما كانت عليه فى صدر الاسلام . يرفض البحث فى أصـول اللغـة كما وضعها القـدماء ، مثلهم كمثل أهل الـكهف حين حسبوا أن عملتهم — وهى صحيحة غير زائفة — يمكن أن تكون رائجة يقضون بها حوائجهم . بل مثلهم كمثل علماء الحفائر ، علمهم له قيمته التاريخية الكبرى دون أن يكون ذلك مدعاة للاحتذاء بما يجدونه فيها .

والذين يقصرون علمهم على ما عرفه القـدماء : مثلهم كمثـل من يسير فى طريق وعرة ، محمولا على عربة « كارو » تجرها دابة منهوكة،

وعلى بعد خطوات من طريق واسعة ، معبدة تقطعها السيارة فى دقائق. والذين يستخدمون القواعد مثلهم كمثل من يستخدم مغزل اليد وهو يسمع من حوله ضجيج الآلات التى تغزل آلاف الامتار فى الساعة الواحدة . والذين يعتقدون ان كل مالا يرد فى المعاجم خطأ . مثلهم كمثل الذى يدخل السجن طواعية واختيارا ، ويضع نفسه تحت امرة السجان ، وكان فى غنى عن ذلك لو قدر قيمة الحرية وجمال الانطلاق الفكرى الحر ، او كالذى يرفض أن يستضىء بالكهرباء ويفضل عليها سراج الزيت . والذين يريدون المحافظة على اللغة فيرفضون كل جديد ، مثلهم كمثل من يريد ان يحافظ على جمال الأزهار ، وطيب رائحتها ، بوضعها فى خزائن حديدية ، فتؤدى تلك المحافظة الى ذبولها . فالمحافظة على الكائنات الحية لا تكون الا بتطويرها ، وجعلها مطابقة للبيئة التى تعيش فيها .

وقصارى القول : محمد كامل حسين يطالب بانقاذ الفصحى العالية من عنت الذين يعلمون وعبث الذين لا يعلمون . كما يرى مستحيلا تجاهل دور التفكير العلمى كله . ويعنيه أن تكون لغتنا دقيقة فى غير تعقيد ، واضحة فى غير ابتذال ، متفقة واساليب التفكير الحديث .

وفى جلسات المجمع اقترح كامل حسين أن يكون للعدد حالة واحدة تتعلق به وحده دون نظر الى تمييزه .

وقد شارك سائر اعضاء المجمع فى مناقشة هذا الاقتراح ، وانتهوا الى أن مقترح الدكتور محمد كامل حسين فى جنس العدد مخالف للقواعد .

وحاول الدكتور غير مرة أثناء النقاش الذى استمر طويلا فى اكثر من جلسة أن يستحث الأعضاء على مبدأ التيسير والتسهيل ، وهاجم كتاب الأشمونى ، ووصفه بأنه « جحر ضب خرب » وألفية ابن مالك بأنها الستار الحديدى القائم بين اللغة وبين أهلها . فأصروا على ان مقترحه فى جنس العدد ليس به تيسير .

ثم عادت المجادلات الحامية الى اشدها عندما تقدم كامل ببحثه عن « القواعد العامة لوضع المصطلحات العلمية » واللغة العلمية ليست مسالة كرامة (كما أشار عضو محترم) ولا هى انجليزية أو فرنسية أو عربية ، وانما هى اللغة التى تقوم على الدقة فى التركيب، وتقبل النمو .

وفي الدورة الثامنة والعشرين تعرض المجلس لموضوع « كتابة الاعلام الأجنبية بحروف عربية» وكان المجمع قد اقترح أربعا وعشرين قاعدة جديدة تنتظر الاقرار . وأحس « كامل » تقاعسا من زملائه عن الأخذ باقتراحه ، وانهم يميلون الى اقرار القواعد الجديدة مما لا يساعد قط على حل الصعوبة . فقال : نحن نريد طريقة منطقية للقارىء العربى يستطيع بها أن ينطق الاسم الأجنبى صحيحا .. ثم واصل الكلام: لقد قضيتم على صلاحية العربيةلأن تكون لغة للرياضيات حين رفضتم ما اقترح بصدد قواعد العدد . وستقضون على صلاحيتها لتكون لغة للجغرافيا ، والتاريخ وأسماء الاعلام اذا أقررتم كل هذه .

تلكم مختزلات مقتضبة تصور جهود مجمع علمى يتميز كما قلت بديموقراطية سليمة ، شرطها الاساسى اتفاق الجميع على مبدأ تخطيط عملى للاستحداث ، دفعا بلغتنا فى طريق التطور والتقدم ، لا أن نقف عندما قال به القدماء منذ قرون طويلة . كل هذا الجدل هو الذى حضنى على لفت نظر القارىء الى الفصول اللغوية ليطالعها بامعان وتبصر ، حتى يبلغ عبقرية التجديد اللغوى عند رجل متمكن من لغته تمكن علمائها ، يعشقها مجددة لشبابها ، لاثباتها على الهرم .

فاذا فرغ القارىء من هذه الملحمة اللغوية الرائعة فسوف يهدأ سره ، وهو يطالع ما يشاء من فصول كتاب محمد الجوادى الأخرى ، فهى الشاهد على أن بطل تلك الملحمة كاتب عظيم ، ثوب ادبه القشيب لغة صافية ، حسن بيان ، وسمو فكر ، ودقة تعبير .

والحق أنك لا تفاضل بين أسلوب كامل حسين الأدبى والفلسفى والقصصى ، وبين لغته العلمية ، فهذه أدب فى بيانها ، علم فى شفافيتها ، ووضوحها ، ودقتها ، وقد ردت على هدية الأدب لها بما نتبينه فى أدب محمد كامل حسين من رصانة العلم ، وحصافته واعتداده وايمانه .

دكتور حسين فوزى

مقدمة المؤلف

ليس هـذا الكتـاب الا مجموعة من الفصول تتفق مع بعضها فى روحها ، وان اختلفت فى نصها ، ذلك أن هـذه الفصـول كتبت فى زمن واحد لتكون كتابا واحدا .

وتفصيل الكتاب على النحـو الذى يطالعنـا به فهرسه تفصيل غريب فكم من فصـل لا تزيد صفحاته على صفحة واحـدة ، وكم من صفحة يضمها فصل واحد . والحق أن تفصيل الكتاب على هذا النحو قد اتعب مؤلفه ، ولم يهون عليـه هـذه المشقة الا رغبته فى أن يريح قارئه .

والدكتور محمد كامل حسين موضـوع هـذا البحث واحد من اثنين يحملان نفس الاسم مسبوقا بنفس اللقب ، ولكن اللقب الأخير يختلف فصاحبنا من اسرة السبكى ، والآخر من اسرة المخزنجى ، فأما السبكى فدونك الكتاب بأكمله عنه ، واما المخزنجى فقد كان — رحمه الله — استاذا للادب العربى فى كلية الآداب بجامعة القاهرة وقد صنف والف كثيرا فى الأدب المصرى والاسلامى والفاطمى والمملوكى . غير أن الكتب والقوائم والفهـارس الببليوجرافية لا تفرق بين الرجلين أبدا . ولعل فى تعاصر الرجلين عذرا للببليوجرافيين ، ولكن يبدو أنه عذر أقبح من الذنب فقد عاش هؤلاء الببليوجرافيون معهما فى نفس العصر .

ولقد عاش الدكتور كامل حسين ستة وسبعين عاما الا أياما ثم مات وله من العمر أكثر من ذلك بكثير ، ثم كان له بعد موته من الذكر عمر ثان .

وسوف يمضى الباب الأول فى هذه الحياة يوجه « الأضواء » على معالمها البارزة حتى يتسنى للمبصرين أن يروا جوانب العظمة فى حياة كامل حسين . وستسطع هذه الأضواء حينا ، وقد تخفت احيـانا ، غير انه من المؤكد انها لن تكون مبهرة تذهب بالأبصار التى ستبصر حياة باهرة بغير شك .

أما آثار الرجل فستقتسمها ابواب ثلاثة :

الباب الثانى عن الدكتور محمد كامل حسين مفكرا
والباب الثالث عن الدكتور محمد كامل حسين اديبا
والباب الرابع عن الدكتور محمد كامل حسين لغويا

وسيجد القارىء فى هذه الأبواب الثلاثة صوت كامل حسين عاليا ، ولكنه سوف يجد أيضا صدى لهذا الصوت يصدر عن المؤلف. وسوف يحس القارىء أن المؤلف حريص كل الحرص على أن يجعل « صداه » يتجاوب مع صوت كامل حسين ، ولكن أنى لمثل هذا الصدى الضعيف المتقطع أن يبلغ مبلغ هذا الصوت القوى الأخاذ .

وكأنى بالمؤلف يريد أن يؤلف من الصوت وصداه سيمفونية رائعة ، وقد فاته أن الصوت وحده لم يكن الا سيمفونية رائعة أروع من تلك التى بدا له أن يؤلفها .

وسوف يشعر القارىء أن هناك نواحى عظيمة فى كامل حسين لم يتناولها هذا الكتاب ، حينئذ لن نرجوه أن يعذرنا فحسب ، ولكننا سنطلب اليه أن يضرع الى الله أن يوفقنا الى الكتابة عن هذه العظمات.

وسوف يجد نقاد الأدب العربى فى هذا الكتاب مادة غزيرة تدور اقلامهم فيها بالتمحيص والتحليل والنقد ، والحق أن ما ينتقد فى هذا الكتاب كثير جدا لسببين ، فالسبب الأول يرجع الى أن كثافة ماينتقد فى كل صفحة فى الكتاب كثافة مرتفعة ، والسبب الثانى يرجع الى ان عدد صحفاته كبير .

وسيجد الذين يتحرجون من نقد كامل حسين — رحمه الله — فرصتهم فى أن ينتقدوا المؤلف بلا شك ، وسيجد آخرون آراء يدلهم عليها هذا الكتاب لا يمانعون فى أن تكون محل نقدهم . ولعل المؤلف حين علم ذلك من كتابه حمد الله انه ان لم يضف به الى الأدب العربى شيئا ، فسيضيف به الى نقد الأدب العربى أشياء .

وأما الباب الأخير من الكتاب فهو الببليوجرافيا ولايستطيع المؤلف ان يدعى أن الباب يعرض اعمال كامل حسين والاعمال التى كتبت عنه عن بكرة أبيها فعلم ذلك عند الله وحده ، ولكن هذا الباب يعرض كل ما تمكن المؤلف من البحث عنه ، والتحقق منه ، والرجوع اليه بعد جهد جهيد .

وليست هذه الكتب والفصول والمقالات والدراسات التى اشار اليها الباب الخامس هى كل مراجع هذا الكتاب ، بل ان هناك طائفتين اخريين من المراجع .

اما الطائفة الأولى فتتعلق بمنهج البحث ، وقد رجع المؤلف فى هذا الصدد الى كل الرسائل الجامعية التى اجازتها اقسام اللغة العربية وآدابها فى جامعة القاهرة ، والى ما امكنه الرجوع اليه من رسائل الجامعات الأخرى ، كما رجع الى الكتب التى تتناول تراجم الأدباء وسير المفكرين ، وكان حريصا فى هذا كله ، وبهذا كله ، على دراسة السبل التى سلكها الرواد من قبله ، ثم ظل على حرصه هذا حتى هداه الله الى الصراط المستقيم فسلك بالقارىء فيه .

كان المؤلف يبحث عن طريق لا يذهب بوقت القارىء ولا يستهلك جهده فلما وجد هاتين الصفتين فى طرق كثيرة حفزه ذلك الى أن يتخير من هذه الطرق طريقا يخرج منه سالكه، وقد ساءه ان الطريق قد انتهى به عند هذا الحد ، فوضعت نهايته حدا لسعادته ومتعته بالطريق . واظن ان الله سبحانه وتعالى قد هدى المؤلف الى هذا الطريق القصير السهل الممتع الممتنع .

وأما الطائفة الثانية فتضم كل ما كان من شأنه ان يصنع مناخ هذا البحث وجوه ، وأن يوفق بين تفاصيله وفصوله ، وتنتظم هذه الطائفة عددا من الصحف والمجلات ومحاضر الجلسات والنشرات والأدلة التذكارية .

غير ان مراجع هذا البحث لا تقف عند ما رأته العين من سطور مخطوطة ، ذلك أن حظ المؤلف قد أتاح له اللقاء باثنتى عشرة شخصية من كبار الشخصيات يحدثونه عن كامل حسين ، ولعل المؤلف حين يسرد سماءهم فى ختام مقدمته لا يشكرهم بقدر ما سيشكر ذكرهم الكتاب ، ولا يقدر فضلهم بقدر فضلهم على هذا الكتاب ، فلأساتذتى الدكاترة : حسين فوزى ، وكامل منصور ، ومحمد عبد الحليم العقبى ، وبول غلمونجى ، وعبد العزيز السيد ، وابراهيم بيومى مدكور ، ومصطفى كمال حلمى ، وعبد الحافظ حلمى ، وعائشة عبد الرحمن ، ومصطفى الشكعة ، وجلال موسى ، وعصام الهنامى لهم جميعا منى كل حب وتقدير وثناء .

محمد محمد الجوادى

الباب الأول

حياة

محمد كامل حسين

بسم الله الرحمن الرحيم

ولد الدكتور محمدكامل بن على حسين فى مطلع هذا القرن فى يوم العشرين من مارس سنة واحد وتسعمائة والف ، بسبكالضحك(١) من أعمال المنوفية ، أو كما يسميها العامة سبك التلات بالتاء المثناه ، وهى واحدة من سبكين فى المنوفية ، أما الثانية فهى سبك الاحد موطن آل خطاب السبكى الذين انشأوا الجمعية الشرعية وتولوا أمرها حتى عهد قريب . وكان والده مدرسا للغة العربية ، وذكر لى أستاذنا الدكتور حسين فوزى أنه كان صديقا للشيخ محمد عبده .. وتوفى والده وهو طفل رضيع فكفله أخوه الأكبر محمد الصادق بك وكان يقيم بالقاهرة فى الحلمية الجديدة التى كانت فى ذلك الوقت موطنا من مواطن العلماء وطبقة المثقفين يجدون فيها هدوءا يبعدهم عن ضجيج الحياة ... ولما تقدم الزمن بهما انتقلا الى حلمية الزيتون وظل الدكتور كامل حسين يسكن فى حلمية الزيتون فى الفيلا رقم ٨ من شارع البشرى حتى وافاه الأجل .

وكان لكامل شقيقان : الصادق بك الذى ارتبطت حياته بحياته.. تخرج فى مدرسة المعلمين وترقى فى الوظائف الحكومية حتى صار مراقبا عاما لحسابات الحكومة .. وألف كتاب « البيت السبكى » (٢) كما ترجم كتاب الأخلاق وسفر المزامير وتوفى عام ١٩٦٤ . والشقيق

(١) سبك هى اسم التمساح فى اللغة المصرية القديمة وكان المصريون يعتقدون أن التمساح يضحك فى موسم الفيضان فرحا بالنيل ومن هنا جاءت التسمية .

(٢) هو البيت الذى ينتميان اليه ، وقد اشتهر نسبهم الى الخرج ، ومن أبرز هؤلاء هؤلاء السبكية العالم الدينى الكبير تاج الدين السبكى .

الثانى هو الأستاذ احمد حسين تخرج أيضا فى مدرسة المعلمين وعمل بتدريس الانجليزية ، وترقى حتى صار من كبار مفتشيها وتوفى عام ١٩٧٢ .

وكان بمصر حين شب كامل حسين نوعان من التعليم : الأزهرى والمدنى وكانت طبقة المتعلمين قليلة العدد وان ارتفعت نسبتها فى مديرية المنوفية نوعا ما نظرا الى ضيق مساحتها وميل السكان الى الهجرة وكان اغلب التعليم فى بداية القرن ازهريا ثم زاحمت مدرسة المعلمين الأزهر ثم بدأ مع جيل الدكتور التخرج من المدارس العليا كمدرسة الطب ومدرسة الزراعة ومدرسة المهندسخانة . والتحق الدكتور أو قل الحق بالتعليم المدنى وكان تعليمه الثانوى فى المدرسة الالهامية (بنبا قادن الان) وهى من المدارس التى كانت تتمتع حينذاك بسمعة طيبة وكانت لا تزال تدرس العلوم باللغة الانجليزية بينما كانت المدارس الثانوية الأخرى قد بدأت التدريس بالعربية قبلها بسنتين .

وفى المدرسة الالهامية تكشفت لأساتذته موهبته الفذة وذكاؤه النافذ وتفوقه فحفوا به يعدونه ليكون أول البكالوريا ليرفع من شأن مدرسته فوق المدارس الأميرية ، وكان فى نفسه ضيق من ذلك يشعر انه ليس بحاجة الى مثل ما يفعل مع فرس السباق . وقد تحقق له ما أريد به فكان أول البكالوريا قسم ثان سنة سبع عشرة واهدته مدرسته الالهامية ساعة ذهبية .

والتحق كامل حسين بمدرسة الطب على راس الدفعة التى تضم ستين طالبا وظل الأول على دفعته طوال سنى دراسته ، ولم تكن أوليته على درجة او درجتين وانما كانت اولية فائقة بمراحل حتى أن زملاءه كانوا يقولون عنه انه ليس بأولهم وانما أول الفرقة السابقة عليهم .

وفى مدرسة الطب التقى كامل بزملاء له يعرفون الفرنسية اذ درسوا بها فى المرحلة الثانوية ، فرغب كامل حسين وبعض زملائه فى تعلمها فاشير عليهم أن يلتحقوا بمدرسة برليتز وكان أحد زملائهم قد

تلقى فيها دروسا فى الفرنسية وهو ما يزال طالبا بالثانوية • وتعلم كامل حسين الفرنسية فى هذه المدرسة وساعدته قراءته فى هذه اللغة على اجادتها وظل سعيدا بها طوال حياته وكان يردد « اننى مدين لهذه اللغة بأسعد ما حققت وعرفت من تجاريب الحياة • »

وكانت مصر سياسيا الى ذلك الوقت من القرن العشرين استمرارا لمصر القرن التاسع عشر فهى محتلة من قبل الانجليز ومرتبطة ارتباطا ما بالكيان العثمانى والخلافة الاسلامية •

ومع بداية هذا القرن لاحت فى الأفق نذر الحرب العالمية الأولى وانضمت تركيا الى المانيا فى مواجهة بريطانيا وحلفائها •• أما مصر فارتبطت بالحلفاء املا منها فى الحصول على استقلالها من الاحتلال الانجليزى بعد أن (تحررت) من العثمانيين • وانتهت الحرب بانتصار الحلفاء وانتظرت مصر انتهاءالاحتلال ولكن بريطانيا أخذت تماطل فكانت ثورة ١٩١٩ تعبيرا عن رغبة الشعب فى استقلاله ، وكانت ثورة عارمة امتدت حتى شملت انحاء القطر المصرى وحتى ضمت مختلف فئاته وتعطلت الدراسة فى مدرسة الطب كما تعطلت فى غيرها وكان كامل حسين على أبواب السنة الثانية ، وشارك كامل حسين فى ثورة ١٩١٩ وكانت جماعته تتألف منابراهيم عبد الهادى ومحمد حلمى الجيار ووصفى عمر وحسين فوزى والمرحومين زكى مطر ومحمود عز العرب وكانوا يجتمعون بمنزل محام شرعى من اعضاء الهيئة الوفدية بشارع المبتديان له ثلاثة أولاد : محام ، مهندس ، وزميل لهم وهيأ لهم ذلك المنزل أن يكونوا على اتصال بأخبار الثورة التى لم تكن تنشر فىالصحف وكانت نفوسهم هادئة متعقلة ولم يحدث أن ارتكبوا أى شطط أو اعتداء أو انضموا الى جمعية سرية •• ويحكى الدكتور حسين فوزى فيقول : « لم أعرفه غاضبا — يقصد كامل حسين — الا فى ليلة من ليالينا فى صحن الجامع الأزهر الشريف ابان ثورة ١٩١٩ ، وقد ذهبت جماعتنا لمقاومة خطيب من خطباء الحفل يزمع اثارة الخلاف بين الوفد المصرى والأحزاب السائدة وقام كامل من قرفصائه غاضبا يحرك خيزرانه ليست له ويعلن بأن الخطيب لا يفهم شيئا مما يتعرض له وهاج القوم وأزاحوا الخطيب عن منبره ». كانت تلك السنة التى تعطلت فيها الدراسة ذات أثر كبير فى الطلبة وتحررهم تحررا اختلف نوعه ، وتباينت درجاته • فقد قضت على المستقبل العلمى لبعض الطلبة بينما سافر آخرون

للدراسة فى المانيا حتى لا تضيع عليهم هذه السنة ، اما كامل حسين القارىء المشغوف بالمطالعة فلا شك انه استفاد كثيرا من سنة كهذه .

تخرج كامل حسين فى مدرسة الطب مع مطلع سنة ١٩٢٣ (وكانت الدراسة فى مدرسة الطب اربع سنوات واشهرا تمتد الى اول العام الميلادى التالى) فعمل فترة بالمستشفيات المركزية ثم فى مستشفى البدراوى بسمنود ثم سافر الى لندن فى بعثته العلمية سنة ١٩٢٥ . والفقرات التالية للدكتور حسين فوزى تلقى الضوء على بعض جوانب من حياة الدكتور فى أوربا : « وسافر الى لوندرة ولحقت به بعد بضعة أشهر ولكن الى باريس وكنا نتبادل الزيارات وجاءنى فى خلال اقامتى بتولوز لنصعد سويا فى جبال البيرنييه ونبدأ مراننا على التزحلق (الاسكى فى سوبر بانيير) وذهبت اليه فى انجلترا فقدم على من ليفربول ليصطحبنى الى المتحف البريطانى والناشونال جالارى ومتحف الرويال كولدج للجراحة ومتحف التاريخ الطبيعى وقد أضعت عليه فرصة مشاهدة سباق التجديف بين جامعتى اكسفورد وكمبردج » .

« وفى باريس دعوته الى الأوبرا (فاوست) والى متحف اللوفر وحضرنا افتتاح مسرح بيجالالذى أنشأه واحد من أسرة روتشلد لنشهد استعراضا رائعا على المسرح الدائر من وضع الممثل ساشا جيترى تأثر كامل بواحد من مناظره يصور مبادرة الوزير كليمنصو لزيارة صديقه المصور الانطباعى الكبير كلود مونيه يعلن له فى بهجة عامرة خبر انتصار فرنسا وهدنة ١٩١٨) .

وفى لندن تعرف كامل حسين بكثير من المصريين فى النادى المصرى ويذكر الدكتور كامل منصور أن أول معرفته به كانت فى مناظرة من المناظرات التى كانوا يعقدونها فى النادى وكانت تلك المناظرة عن اللغة العربية كلغة للعلوم . وكانت لندن حينذاك البلد الكبير من الامبراطورية العظيمة تمثل درجة من الرقى الحضارى لم يكن المصريين عهد بها لا من قريب ولا من بعيد . وهو رقى يحمل فى ثناياه كثيرا من البعد عن حياة دينية مستقيمة نشأ عليها صاحبنا فى بيت عائلة علماء مسلمين يؤمنون بأكثر عقائد الانسان استقرارا واستمرارا وتقدما وهو الدين ، ولم يكن له فى لندن شأن الا العلم فعكف عليه راهبا فى محرابه ، وكان مجتمع لندن يضمر للمسلمين الاحتقار لأنه تقدمهم فى الحرب والسياسة ، واستعبدهم وأسترقهم فى العلم والثقافة ، ثم جرهم فى الحكم والادارة .

ومن يوم لآخر يجد صــاحبنا نفسه بين ضروب راقية من التقدم يود لو استطاع أن يجعل لمصر منها نصيبا فتراه يكتب ضمن مقــالاته فى السياسة الأسبوعية والتى كان يوقعها بتوقيع مستعار (ابن سينا) عن « مهمة الجامعة المصرية » . وعن البحوث العلمية : نقصها ووسائل علاجها . كمــا تنشر له السياسة الأسبوعية أيضا محاضرة فى النادى المصرى بلندن عنوانها « نحن والعلوم التجريبية » يركز فيها على ضرورة الاهتمام بالمعامل .

وعاد كامل حسين من بعثته سنة تسع وعشرين يحمل زمالة كلية الجراحين الملكية ليكون من احاد يعدون على اصابع اليد فى مصر يحملون هذه الشهادة .. ولكن على باشا ابراهيم يطلب اليه ان يعود فيتخصص فى جراحة العظام ويعود كامل حسين مرة ثانية يحمل درجة الماجستير فى جراحة العظام من ليفربول فكان بذلك أول مصرى يجمع بين زمالة كلية الجراحين بانجلترا وماجستير جراحة العظــام من ليفربول . وعاد كامل حسين مرة ثانية فى أول فبراير سنة واحد وثلاثين لينشىء شيئا اســمه جراحة العظــام فى مصر « وما كان طب العظام فى مصر علما ولا شبه علم وكان العلاج فيه يجرى على طريقة المجبراتى البدائية وقد ادرك بفطنته أهمية هذا العلم بعد تعدد الحروب وتعميم وسائل النقل الآلية » كما يقول الأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف ، وان كان الانصاف يقتضى أن نذكر أن الدكتور بيومى كانت له محاولة فى هذا الصدد وان لم تكن على أســاس علمى . وغنى عن البيان أن كامل حسين كأى رائد وفى مصرنا بالذات — لقى عنتا وعانى كثيرا حتى صــار لقســم جراحة العظام شأنه .

وتدرج كامل حسين فى مناصب هيئة التدريس مدرسا للجراحة سنة ١٩٢٩ فأستاذا مســاعدا للدراسات العليا للجراحة سنة ١٩٣٦ فأستاذا لجراحة العظــام سنة ١٩٤٠ . وكانت جمعية الهلال الأحمر المصرى قد نشأت فى رعاية على باشا ابراهيم وأنشأت مستشفى الهلال الأحمر للحوادث والاصابات ســـنة ســبع وثلاثين فكان هــذا أول مستشفى تخصصى للحوادث فى الشرق الأوسط . واســتطاع كامل حسين أن يجعل من هذا المستشفى الذى لازمه أربعين سنة جامعــة صغيرة ، فكان منارة فى هذا العلم والفن واســـتطاع هــذا المستشفى بفضله أن يبلغ شأوا بعيدا ومراحل متقدمة فى هذا الفن حتى صــارت له مكانة عالية مرموقة . ولمــا أنشىء قسم الحــوادث فى قصر العينى فيما بعد كان على غراره .

كان كامل حسين جراحــا ماهرا بارعا مبدعــا وشهد له الجميع بالكفاءة النادرة والقدرة الخارقة وحدثنى استاذنا الدكتور كامل منصور ان حسن شاكر افلاطون باشا وكان عميدا لكلية العلوم كان على رأس بعثة علمية لارتياد بعض الأودية فى شمالى السودان عند جبل علبة .. ووقع به الجمل ثم وقع عليه مرات فتدغدغت ركبته ونقل الى القاهرة بالسكة الحديد ، وتولى علاجه كامل حسين فلما شفى افلاطون باشا ارسلوه الى أشهر جراحى العظام فى العالم وقتها وكان فى زيورخ فدرس الحالة وقال : انه ما كان يمـكن عمل أحسن مما عمله كامل وقرر أن العملية اقتضت من الدكتور كامل سبعة عشر مسمارا فى ركبة افلاطون باشا .. وكان افلاطون باشا يمشى بعدها وكأن لم يصبه شيء .

وعندما أصـــيب الملك فاروق فى حادث القصـــاصين فى أوائل الأربعينات جاء على باشا ابراهيم بكامل حســـين ليعالجه ضمن فريق الأطبـــاء الســـتة الذى ضمهما هما وعبد الوهاب مورو باشا وعبد الله الكاتب باشا وعباس الكفراوى باشا طبيب الملك الخاص . وكان كامل حسين أصغر هؤلاء وكان وجوده كطبيب شاب وبعيد عن أجواء القصور الملكية مثار حفيظة عند اناس ما . فلما انتهوا من عــلاج الملك انعم على فريق الأطباء بالباشوية فيمــا عدا كامل حسين فأنعم عليه بالبكوية . ولم يســـتعمل كامل حســـين هذا اللقب اطلاقا ، شأنه فى ذلك شأن ألقاب المفكر والأديب التى أضفيت عليه بحق فلم يكن يبـــاهى بهـــا أو يذكرها لنفسها ، بل كان يعتبر نفسه طبيبا فحسب ، ولم يكن يذكر قبل اسمه ولا بعده الا كلمة الدكتور ، وظل على هذا طيلة حياته .

اعتز كامل حسين بمهنة الطب اعتزازا لا يدانيه اعتزاز ، وتسنم الذروة بين الأطباء التى تتقاصر دونها العزائم والهمم على حــد تعبير استاذنا الدكتور أحمد عمار ، وشهد له تلاميذه واقرانه بالأمانة المتناهية فى عمله والانسانية التى لم يعرفوا لها حدا . وكانت براعة كامل حسين فى فنه براعة على المستوى العالمى شهد له بها عظماء الجراحين فى العالم فكانوا يقولون لمن يذهب اليهم من المصريين كيف تجيئوننا وبينكم كامل حسين ؟

وكانت علاقته بالمريض مثالا رائعا للمعانى النبيلة والأخلاق السامية والتقاليد الشـــامخة ويكفى أن نذكر أنه ما من مريض أجرى له كامل حسين عملية الا وزارة فى نفس اليوم مهما يكن من أمر المجامع واللجان

والنوادى والصالونات وصحته ومزاجه ولا يعرف الدكتور جلال موسى استثناء لهذه القاعدة . وتستطيع اذا ان ندرك المدى الحقيقى لقـول استاذنا الدكتور عثمان سرور أن كامل حسين كان طبيبا بغير مرضى ، فكل مرضاه قد تحولوا الى أصدقاء .

لم يكن كامل حسين طبيبا انسانا بارعا فحسب ولكنه كان مفكرا وعالما قبل أن يكون طبيبا فلم يكن يعنى بأن يستنبط المرض من الأعراض استنباط الأطبـاء ولكنه مزج الطب بالفكر على نحو بدا معه لتلامذته وكأنه فيلسوف . ولعل هذا هو المعنى الذى كان واضحا فى سيرته وعمله كطبيب هو نفسه المعنى الذى عبر عنه فى مذكرة البحث العـامى التى قدمها الى المجلس الاعلى للعلوم، حين يدعو الى تزود العلماء بثقافة عامة عالية وعلمية ممتازة فيقول « وقبل أن يكون الانسـان عالما ممتازا فى الكيمياء يجب أن يكون عالما ممتازا أولا ثم يكون عالمـا كيميائيا ؛ وكذلك استاذ الجامعة فى علم بعينه يجب ان يكون أولا صالحا لأن يكون أستاذا فى الجامعة ، ثم يكون بعد ذلك أستاذا فى علمه الخاص » .

كان كامل حسين عالما « على أدق وأكمل ما يراد بهذا الوصف فهو يؤمن بالتجربة ايمانا لا يقل عن ايمانه بالعقل ، يؤمن بها لأنها سـبيل كشف الحقيقة ، وكسب المعلومات وكان يرى أن التجربـة هى حجر الزاوية فى البحث العلمى وهى الأسـاس الذى يقوم عليه ولا يقـوم الا به ولكنها ليست غاية العلم بل هى أولى مراتبه . وهو يؤمن بالعقل ايمانا كامـلا لأن التجربة تنصب عادة على وقائع جزئية لا يفيد منهـا العلم الفائدة المرجوة الا أن استخلص معها العقل القضايا الكلية والأحكام العامة ، ولكنه يقصد بالعقل ذلك العقل العلمى الذى يحلل ويعلل لا ذلك العقل الاقطـاعى الذى يسلم ويستسلم فلا ينقد ولا يناقش ولا يخترع ولا يفكر . نظر كامل حسين الى العلم على أنه عقلية ومنهج فكان بذلك كما قال الدكتور أحمد عمار عالما عالمى النزعة .

اما وطنية كامل حسين وقوميته فأمر لا يحتاج الى التدليل وهما أعظم بكثير من وطنيات وقوميات أخرى تتخذ صور الشعارات والأقوال والأمانى . وهل تصدر مثل هذه الأعمـال الأدبية العظيمة فى عربيتها الفصحى ، وهذه الآراء اللغوية المبدعة الا عن مخلص لهذه اللغة وأهلها، غيور عليها ، حريص على بقائها ، يفهم معنى المحافظة على اللغة فهما علميا عميقا يستند الى الوقائع ، والأسلوب العلمى ، والنظر الى المستقبل

على نحو ما سنبينه فى الباب الرابع ان شاء الله · وقد يكون من المناسب أن نذكر هنا قوله « ان نظريتى فى الدفاع عن العرب والمسلمين الا ارد على الأجنبى فأقول انت مخطىء ، ولكن بقولى ان ما عنــدكم اكثر مما عندما فيما ينتقد » .

وكثيرا ما تعجب الناس ما الذى دفع كامل حســين الى ان يهتم هذا الاهتمام بالعربية لغة وقواعد ومعاجم ونحوا وصرفا وان يكون له هذا العطــاء الفكرى الفصيح الشامخ فيها ؟ واظن أن الجواب على هذا السؤال يكمن فى وطنية هذا الرجل .

وقد احببت ان اطمئن على نصــيب رايى من الصــحة فســألت أســتاذنا الدكتور مصطفى الشكعة هل تعتقد ان الدكتور كامل حسين كأديب اضاف شيئا الى اللغة ؟ فقال لى بلا شك من كتب شيئا يعد من الأدب العالمى — يقصد قرية ظالمة — فقد أضاف الى لغته خصوصا وهى لغة غير عالمية، وكان كامل حسين نفسه يكررالقول بأن احدا لن يستطيع أن يأتى بعمل ذى بال الا أن يكون ذلك بلغته الأصلية ·

وكثيرون من رواد نهضتنا فى العصر الحاضر اخذوا يقرءون فى الثقافة الأجنبية ما ان تهيأت لهم اللغة التى تســاعدهم على ذلك اما كامل حسين فلم يحدد لقراءته لغة ما مع ان لغته الانجليزية كانت اقوى منها عند الآخرين بفضــل دراسته فى الالهــامية وفى مدرسة الطب وقراءاته ، ولكنه اخذ — على حد تعبير أستاذنا الدكتور حسين فوزى — يتوغل فى العربية .

ولا نستطيع أن نقول بغلبة ثقافته العربية كما اننا لا نســتطيع ان نقول بغلبة ثقافته الأجنبية تلك التى كانت مثــلا رائعا للثقافة الغربية عند المثقفين العرب بما قرأ ودرس وفهم وامتدت اليه تلك الثقافة من عصور متباينة فى الفكر الغربى ·

أضف الى ذلك اهتمامه بالثقافات الشرقية الأخرى قديمها وحديثهــا فكان يقرأ فى الديانة الهندوكية والكونفوشيسية ويتبين لك بوضوح مدى الالمام الواسع لدى هذا الرجل بتاريخ الأمم والشعوب والحضارات

اذا قرات كتابه (التحليل البيولوجى للتاريخ) وهو قد القاه محاضرة سنة خمس وخمسين وتسعمائة والف فما بالك بما أصاب من الثقافة بعد هذا التاريخ .

قرأ كامل حسين فى فلسفة اغطنيوس وتوما الاكوينى بقدر ما قرأ فى الغزالى والفارابى وتبحر فى التاريخ والفلسفة وعلوم الدين وتاريخ الطب وعلوم العربية ودرس معجمات اللغة دراسة لا تقل عن دراسة المتخصصين وفى هذا يقول أستاذنا الدكتور ابراهيم مدكور : « قل ان نجد من يقبل على الثقافة اقباله ومن يحب القراءة حبه فلا تكاد تذهب الى محاضرة عامة فى علم أو ادب أو فلسفة الا وتراه فى مقدمة المستمعين ولا يكاد يظهر كتاب قيم فى العربية أو الانجليزية او الفرنسية الا ويسارع الى قراءته ». وكانت لمكتبته مزية فريدة ذلك أن كامل حسين لم يقتن يوما كتابا ليحتفظ به فيها وانما ليقراه أولا ثم انه قد يحتفظ به فيها . هذا التنوع فى الثقافة والامتداد بها امتدادا لا نهائيا فى غير مجال التخصص وهو النابغ فيه يجعل من كامل حسين نموذجا لرجالات عصر النهضة كما يقول استاذنا الدكتور حسين فوزى فكامل يمثل الشخصية الحضارية (الهومانزم) والتى تؤثر فى عصر من العصور وتؤشر الى نهضة أو احياء .

وفى تأبينه له أمام الاتحاد العلمى المصرى قرأ الدكتور حسين فوزى ترجمة حرة لعبارات تتضمن حكم الشاعر بولتسيانو على صديقه الكونت « جوفانى بيكوديلا ميراندولا » وهو من رجال القرن الخامس عشر بعد ما حذف منها ما يشير الى اهتمام الكونت بالاسلام وتساءل أليست هذه صفات كامل حسين ؟

تمتع كامل حسين بعضوية نادى محمد على (نادى التحرير الآن) وكان هذا النادى يضم النخبة المفكرة من رجال مصر بالاضافة الى رجال العائلة الملكية ولم تكن عضوية ذلك النادى فى ذلك الوقت بالشىء القريب المنال وانما سهلها عليه الدكتور على باشا ابراهيم ، وكان كامل حسين يجتمع بلطفى السيد يوميا فى هذا النادى ويصف أستاذنا الدكتور ابراهيم بيومى مدكور مجالس لطفى السيد التى جمعت بينه وبين كامل حسين فيقول « وكم كانت ملأى بالأدب والحكمة والعلم والفلسفة والتوجيه والاصلاح .. وتمر بنا أمور لها شأنها وقل أن نفكر فى تسجيلها مع أنها من ذخائر الماضى وعدة المستقبل وما أشبهها

بمجالس (الامتاع والمؤانسة) الا انها لم تجد أبا حيان معاصرا يعنى بتدوينها ، وكان صوته فيها مسموعا وكلامه عذبا وتعليقه واضحا ونقده سمحا . وكان حديثه فى هذه المجالس يدور غالبا حول الأدب واللغة والاصلاح والتجديد » .

كان كامل حسين صديقا للطفى السيد ولعبد الحميد بدوى الذى كان صديقا لأخيه الصادق بك ولطه حسين وكان لارتباطه بهذه الأسماء الثلاثة اللامعة شأن كبير فى حياته ، وعندما وقف يؤبن طه حسين وهو آخر الثلاثة لحاقا بالرفيق الأعلى قال : « عرفت لطفى السيد فوجدت الحكمة ورجاحة العقل وسداد الرأى والسمو الخلقى . وعرفت عبد الحميد بدوى فكان الذكاء الوهاج والعلم الواسع العميق ، ويكفينى أن رجلا مثل ظفر الله خان رئيس محكمة العدل الدولية أخبرنى شخصيا أنه كان يعد عبد الحميد بدوى الأب الروحى له ، ثم عرفت طه حسين فوجدته جمع الى فضائل صديقيه هذين قوة فى العزيمة لا تزيدها المقاومة الا شدة ، وصلابة فى الرأى حين تتحول المقاومة الى مناوأة حتى اذا صرح له الشر وأصبحت المناوأة عداء سافرا وجدت له قوة خارقة ، جمعتنى به صداقة من نوع نادر بعدنا بها عن صخب الحياة وعن مشاكل الساعة حتى حين تكون ملحة ، وكنا نعكف على الهروب من الحياة المحمومة التى يحياها الناس حولنا وكأنا نريد بلقائنا أن نجد — على الاقل فيما يتعلق بى — السكينة والتأمل والايحاء »

ونحن مع أستاذنا الدكتور بول غليونجى فى ان « كامل حسين مع لطفى السيد وطه حسين ثالث ثلاثة ختم بهم عصر ارتفع فيه الفكر العربى والآداب العربية الى سدرة المنتهى (كما ارتفع الشعر العربى الحديث بشوقى وحافظ ومطران) بل ربما امتاز كامل بعدما تنجلى رؤية التاريخ بمرور الزمن بتنوع الموهبة ، وان كان تواضعه يأبى عليه أن يجعل نفسه ندا لهما بل كان يكتفى بأن يعد نفسه من مريديهما » .

وكان طه حسين يرى ان الشخص الحقيقى الذى تستطيع الاعتماد عليه فى انشاء جامعة هو كامل حسين لهذا اختاره طه حسين عندما كان وزيرا للمعارف ليكون مديرا لجامعة ابراهيم (عين شمس الآن) .

ولم يكن للجامعة من معنى الجامعة حظ كبير فقد انشئت تجميعا لبعض المعاهد العالية المتفرقة آنذاك ، كانت الفكرة أساسا من انشاء هذه

المعاهد بجانب الجامعه المصريه التركيز على الدراسات العلميه المهنية، ولكنها تحولت ــ عندما ثار طلابها يطالبون بمساواتهم بخريجى الجامعة ــ الى جامعة عين شمس وتكونت الجامعة على النحو التالى :

١ ــ كلية العلوم : من شعبة العلوم والرياضـــة بكليـــة المعلمين بالأورمان واختير الدكتور كامل منصور عميدا لها .

٢ ــ كلية الآداب : من شعبة الآداب بكلية المعلمين بالأورمان واختير الأستاذ ابراهيم نصحى قاسم المؤرخ عميدا لها .

٣ ــ كلية الزراعة : المعهد الزراعى بشبين الكوم وعميدها المرحوم احمد عبد اللطيف النيال وكان عميد المعهد منذ ١٩٤٧ .

٤ ــ كلية الطب : فرع كلية طب قصر العينى بمستشفى الدمرداش بالعباسية وعميدها المرحوم الدكتور محمود أبو بكر الدمرداش .

٥ ــ كلية التجارة : المعهد العالى للتجارة بالمنيرة وعميدها المرحوم عبد اللطيف حسين منذ ١٩٥٣ .

٦ ــ كلية التربية : معهد التربيـــة بالمنـــيرة وعميدهـــا الدكتور عبد العزيز القوصى .

٧ ــ كلية الهندسة : المعهد العالى للهندسة التطبيقية بالعبـــاسية وعميدها عبد الوهاب كامل من ١٩٥٣ .

٨ ــ كلية البنات : المعلمات بالزمالك وعميدتها قاسمة فهمى .

٩ ــ وكانت الكلية الوحيـــدة التى أنشئت استكمالا للجامعة هى كلية الحقوق وعميدها المرحوم عثمان خليل من ١٩٥٤) .

وعين الأستاذ مصطفى نظيف وكيلا للجامعة .

وقد حفلت الفترة الأولى من حياة الجامعة بالمشكلات المتعددة فى النواحى المختلفة المالية والادارية والمتعلقة بهيئات التدريس (وكانت ترقياتهم على ١٣ درجة) ومع أن هذه المشـــكلات لم تكن تترك مجالا أمام كامل حسين للتجديد الا أن كامل حسين كان له الفضل الأكبر فى خلق كيان الجامعة ومنشآتها وكلياتها حتى صار لجامعة عين شمس برغم هذه الظروف خط واضح متميز خاص بهـــا ترتفع به الى مستوى الجامعـــات الحقيقية برغم عمرها القصير وقد ساعد كامل حسين فى وضـــع نظام الاعداد للدرجات الجامعية وادخال مقررات دراسية فى الدراسات العليا

بحيث أصبح الماجستير دراسة وبحثا . وكان فى مجلس الجامعة يستقبل الأفكار الجديدة ويقلبها بشىء من التؤدة والاتزان .

وعرف عنه — وهو مدير للجامعة — يفض منازعاتها — مراعاته للاعتبارات النفسية الكامنة وراء تلك المنازعات ، وجاء قراره فى واحدة من تلك الحالات تحليلا نفسيا لنفسيات المتنازعين .. وكان مما يحز فى نفسه أن تتدهور بعض الخصومات داخل الجامعة الى أسلوب يقلل من وقار العلم .

ولما ظهرت مسألة نصاب أعضاء هيئات التدريس فى عهد اسماعيل القبانى وطلبت الوزارة البيانات وعد كامل حسين العمداء والأساتذة العاملين معه بعدم الرد على خطاب الوزارة ولكنه طلب منهم احاطته بالبيانات حتى يدافع بها عن الجامعيين اذا ما اقتضى الأمر .

ولم يسترح كامل حسين الى البقاء فى هذا العمل الادارى ، وكان يشعر أنه ليس مديرا للجامعة ، بل مديرا للمستخدمين فانتهز أول فرصة تمكن فيها من ترك الجامعة وقدم استقالته وقبلت فى يناير ١٩٥٤ .

وفى سنة ١٩٥٧ حصل كامل حسين على جائزة الدولة فى الأدب عن كتابه «قرية ظالمة» (ولم تكن الدولة قد بدأت بعد فى منح جوائزها التقديرية) وفى سنة ١٩٦٦ منحت الدولة جائزتيها التقديريتين فى العلوم الى الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين والاستاذ الدكتور محمد نجيب حشاد ولأول مرة فى تاريخ هذه الجائزة يفوز كل من العالمين فى أول مرة يرشح فيها . كما منح شاعر الشباب احمد رامى التقديرية فى الآداب ، والدكتور حسين فوزى التقديرية فى الفنون ، والدكتور محمد عوض محمد التقديرية فى العلوم الاجتماعية وكان الدكتور عوض عضوا مع الدكتور كامل فى المجمع وقد رشحه المجمع لنيل هذه الجائزة وفى الجلسة التالية لفوزهما بالجائزة هنأهما أعضاء المجمع وقال الدكتور محمد عوض « ولو كان للمجمع — بقصد مجمع اللغة العربية — أن يرشح لجائزة العلوم لما وجد أفضل ولا أعظم من الدكتور كامل وهذا الرجل وحده فى الكره الأرضية الذى يجمع بين جائزتى العلم والأدب ولقد كان لى الشرف أن أكون مقرر لجنة الأدب التى رشحته لجائزته وقد أثبت أن العلم والأدب صنوان وانك لكى تكون عالما محققا وباحثا عظيما كالذين أراهم حول هذه المائدة يجب أن تكون أديبا وأن تكون ملما باللغة خير المام » .

ثم قال الدكتور عوض « والسر فى فوزنا معا بالجائزة هو اننا نجلس متجاورين هنا حول هذه المائدة فمن شاء أن يحصل على الجائزة فليحضر ليجاور الدكتور محمد كامل حسين وبذلك يفوز أعضاء المجلس دائما » .

وقد عبر الدكتور كامل حسين للصحفية عواطف عبد الجواد على صفحات الجمهورية عن انه رغم حصوله على جائزة الأدب قبل حصوله على جائزة العلم الا انه يحس بالسعادة كلها فى حصوله على جائزة العلم « لأن العلم بالنسبة لى هو الأساس أما الأدب فهو هواية » .

ولم يكن الدكتور كامل يجد غرابة فى حصوله على الجائزتين لأنه كان يعتقد أن الأصل هو الوصول الى الحقائق بالأسلوب العلمى حتى تلك الحقائق التى تختص بالمعنويات » ، ونحب أن نصحح ما اشتهر من أنه حصل على جائزتى الدولة التقديريتين فى العلوم والآداب فنقول انه منح جائزة الدولة التقديرية فى العلوم ، وجائزة الدولة فى الأدب .

وكانت الأمم المتحدة قد قررت بناء على اقتراح البانديت نهرو فى سنة ١٩٦١ أن تجعل عام ١٩٦٥ عام التعاون الدولى ووضعت لذلك برنامجا خاصا يبدأ بسبع محاضرات عن « التعاون الدولى » تلقى على الهيئة فى نيويورك ودعا السكرتير العام المستر يوثانت لالقاء هذه المحاضرات سبع شخصيات يمثلون الاتجاهات الفكرية الكبرى فى وقتها وهم :

١ ــ البرتو كمارجو رئيس جمهورية كولومبيا السابق .

٢ ــ جبريل مارى داريو سفير السنغال فى باريس .

٣ ــ ادجارفور رئيس وزراء فرنسا السابق .

٤ ــ محمد كامل حسين .

٥ ــ الله كريم بروهى وزير العدل الباكستانى السابق .

٦ ــ ديمترفتش مليو نشيكوف نائب رئيس أكاديمية العلوم السوفيتية .

٧ ــ والتر ليبمان : الكاتب الأمريكى .

وأعد كامل حسين خطابا جامعا بالانجليزية ، وواجهته مشكلة كيف يقرأ خطابه بصورة لائقة ؟ ولم يكن يستطيع القراءة الا اذا وضع النص قريبا جدا من عينيه ، وسجل كامل حسين خطابه على جهاز تسجيل صغير وضعه خلف بعض الكتب وجعل فى أذنه سماعة صغيرة يستمع بها الى حديثه فى الجهاز ثم يعيده على الحاضرين فاذا ما صفقوا ضغط على زر الايقاف حتى ينتهوا من تصفيقهم ، وتعجب الحاضرون من ارتجاله خطبة طويلة فى غير لغته عميقة المعانى لم يتنحنح فيها أو يتلعثم مرة واحدة دون أن يعتمد على نص مكتوب .

كان الدكتور كامل حسين رجلا مثاليا وكان لا يغتفر لنفسه ما قد يغتفره للناس — أو على حد تعبيره فى وصف لطفى السيد — لم يكن يأخذ الناس بما أخذ به نفسه من الصرامة ، وحدثنى غير واحد من المحيطين به أن كتابات الدكتور كامل حسين عن الأخلاقيات والمثاليات والضمير وصفاء النفس لم تكن الا تعبيرا عما يمارسه حقيقة فى حياته.

وقد ولج كامل حسين الحياة فى جل صورها فى نطاق من مثالياته فكان له من ذلك خبرة بالحياة والاحياء قل أن نجد عند اضرابه خبرة تدانيها .

« وكان كامل عملاقا قياسا بالخلق العادى ، ولكن أحدا لم يشعر بسموه الفكرى والانسانى وان كان حجمه الحقيقى يبدو فى كل كلمة يتفوه بها وفى كل سلوك يسلكه » كما يقول أستاذنا الدكتور غليونجى وقال لى أستاذنا الدكتور العقبى انه « طيلة ثلاث سنوات كنت التقى فيها بكامل حسين نعد كتاب (طب الرازى) مرتين كل أسبوع لم يغتب كامل حسين انسانا كائنا من كان ولا ذكره بسوء ولا صدرت عنه أية اساءة .

وكانت القفشات اللغوية والملح النابعة من سرعة الخاطر من ملامح كامل حسين ، كان حاد الفؤاد يكشف للعبارة المألوفة مدلولا جديدا لم يفطن اليه أحد . وكما يقول أستاذنا الدكتور بول غليونجى « كان لا يتناول النقد الا بروح النكتة اللطيفة المصطنعة بلون من الأدب أو الفلسفة وكان ذهنه فى هذا كما كان فى كل زاوية من زوايا حياته ـ مثالا من التوأم التام الخالى من الانفصام الفكرى الذى يتسم به كثير من العلماء والفلاسفة وهم يفكرون فى واد ويعيشون فى واد آخر وينطقون بلغة فى خلال حياتهم الفكرية غير لغتهم فى حياتهم الدنيوية » .

كان قليل الكلام ، شديد الاتزان ، عفم اللسان ، هادىء الصوت، رقيق الابتسامة ، لاذع النكتة دون أن يجرح بها أحدا ، « ذكى الملامح والبصر والوجـدان ، زكى السمت والنفس والضمـير ، رضى الخلق والشمائل ، نبيل السجية والطبع قوى القرين والتجلد » كما تقول الدكتورة بنت الشاطىء .

وكان حييا : القى الدكتور عمر فروخ بحثا فى مجمع اللغة العربية عن المدارك القديمة فى اللغة وأشـار الى المدارك الجنسـية وأعرض عن ذكر امثلتها الكثيرة فقال الأستاذ محمد بهجة الأثرى :نحن فى مجمع اللغة وارى أن لا حياء فى أن يسمى الاستاذ الاشياء بأسـمائها : فرد الدكتور كامل وقال : « قال الأستاذ العقاد : لا حياء فى الأدب ويقول الأستاذ الآن : لا حياء فى اللغة فما الشيء الذى بقى الحياء فيه ؟ ورأيى انه لا ضرورة لذكرها » .

وكان يكره الفضـائل المرهقة ولا يؤمن بها يقصـد بالفضـائل المرهقـة أن تطلب من النـاس ما ليس فى امكانهم كأن تطلب من الصديق تضحيات فى سبيل الصـداقة ، والمرحوم الاسـتاذ محمـد عبد الحليم عبد الله كان يرى فى ذلك سر الهدوء النفسى وحب الناس اللذين تميز بهما الدكتور كامل « وكيف به وهو لا يحمل عتابا ، هل يحمل كرها ؟ » . وكان مثالا فى الرزانة يحركه عقل فاحص وتسانده فلسفة فى الحياة وفى كل أمر يدور حول صاحبها وتضع كل رأى فى موضعه حسب ميزان العقل وتبعا لمكانه .

وكان كامل حسين والكلام لأستاذنا الكبير محمد شوقى أمين « كبير العقل كبير النفس اتسع عقله لكثير من الوان المعرفة ، وهتفت نفسه بجـوانب شتى من الاصـلاح العلمى واللغوى وجمع بين الأدبين أدب النفس وأدب الدرس » فكان كما عبر عن نفسه . « أبعد ما يكون عن أن يمس احساس انسان أن من قريب وأن من بعيد » . وكان له بينه وبين نفسه وبينه وبين الناس وفاء ومتـانة خلق عجيبتان قلمـا تظفر بأيهما فى هـذا العصر . ويوم أن انتهت مدة رئاسـته المجمع العلمى المصرى وأبى عليه الأعضاء الا أن يحددها ، وكان قانون الجمعيـات فى ذلك الوقت قد صدر وتضمن اجازة تحديد الرئاسة أبى كامل حسـين وقال قولته المشهورة (التقليد الراسخ أقوى من تقلبات التشريع) فدل على احترام رائع للتقاليد العلمية التى كثيرا ما نادى بوجودها فى البيئات العلمية المصرية .

وكانت فى كامل حسين صفات المعلم ، فما بخل على انسان مهما كانت علاقته به بعلم ، وكان ينتهز الفرصة ليعلمك شيئا .. فى الطب .. فى السياسة .. فى الأدب . فاذا القى اليك القول شعرت بالقيمة التعليمية التى يحملها قوله .

ونحن مع أستاذنا الدكتور أحمد عمار حين يقول : « والعصر الذى عاش فيه كامل حسين يمثل مرحلة دقيقة من مراحل النهضة الحديثة فى مصر . اذ حفل هذا العصر بجملة من الدعوات الى الانبعاث العلمى والتقدم الحضارى لملاحقة الركب الماضى الى امام ولكأنما الأقدار قد هيأت لكامل حسين أن تتمثل فيه عصارة تلك الحقبة بأفضل ما فيها من قيم ومثل واهداف .. وما كان له ان يبلغ هذا الشأو منها لولا ما أتيح له من المواهب العقلية ، تلك المواهب التى جعلت منه مثالا فريدا فى البحث العلمى والتوجيه الاجتماعى » .

وحين يقول « أن كامل حسين يؤمن بأن شرف الحياة هو الاخلاد الى صومعة المفكر والتعبد فى محرابه والتصوف فى خلواته » . ألم تكن كلماته الأولى فى حفل استقباله عضوا بمجمع اللغة هى :

« سادتى :

لعلكم تغفرون لى ما أشعر به من زهو حين اجد نفسى بين هؤلاء النفر الكرام من العلماء والمفكرين وقد تفضلوا فاختارونى لهم زميلا ولا أعرف احدا لا تستخفه الغبطة — حتى تبلغ به هذا القدر من الزهو المباح — حين يصيب حظا من هذا الشرف العظيم ، والتشريف فى غير ميدان الفكر قد يرفع قدر المرء عند الناس لكنه فى مجال الفكر تشريف حق، يعظم به قدر المرء عند نفسه ، مثله فى ذلك مثل الفروسية قديما فى ميدان الخلق ، كلاهما يطهر النفس ، ويسمو بها سموا يعصمها من الابتذال ، فلا يجمل بها بعده ما كانت تتحرج منه من قبل ، والتسامى عقلا أو خلقا أمر نادر فى الحياة الحديثة ، فهى عنيفة ملحة ، شغلنا عنفها والهانا والحاحها عن التفكير فى غير ما يعرض لنا من شئونها يوما بعد يوم ، وفيها من الصخب المعنى ، والابتذال المرير ، والاضطراب، والقلق ، مالا طاقة للنفس البشرية به ، فهى فى حاجة الى الهدوء والاطمئنان والاستقرار ، أمور نلتمسها فلا نجدها الا فى الحياة الفكرية حين تخلص من شوائب الشهوات الجامحة ، والرغبات العاجلة ، والتهالك على المنفعة القريبة » .

نعم كان الدكتور كامل حسين رجل استقلال وانفراد ذا عقل يتوقد وقريحة تستجيب وقلم يعينه بالابانة والافصاح .

أما ايمان الدكتور كامل فكان من ذلك النوع الذى يقوم فى النفس على أساس راسخ من العلم والعقل والاستنتاج والاستنباط والمقارنة بين الأديان وكان شديد الاطلاع على الثقافات الدينية الأخرى وصاحب آراء فى فلسفتها كما سنبينه فى فصل آخر بالتفصيل .. وكان تفتحه لكل العقائد والأفكار يحمل بعض المتزمتين على الضيق به .

وكان على صدق عقيدته الاسلامية منجذبا بصفة خاصة الى السيد المسيح دون التسليم — طبعا — بألوهيته ، وكان يكره التعصب فى الأديان ، وكان حريصا على زيارة الأماكن المقدسة لدى اليهود والمسيحيين والمسلمين وبلغ به ذلك الحرص أن زار دير سانت كاترين على جمل اذ لم تكن هناك وسيلة حينذاك غير الجمل . والقى محاضرة فى كنيسة ميدان الشهيد عبد المنعم رياض بالقاهرة هاجم فيها فكرة التثليث فى المسيحية مع أن عددا كبيرا من الرهبان كانوا يستمعون الى محاضرته ، ولما احتدت عليه واحدة من المسيحيات الحاضرات بسبب مهاجمته التثليث لم يفقد كامل حسين أعصابه ورد عليها قائلا : لست أنا وحدى الذى أهاجم التثليث ولكن نصف المسيحيين يشاركوننى الرأى !

نعم كان له من الشجاعة فى ابداء آرائه الدينية ما جعله يتحدث فى تليفزيون روما عندما استضافوه عن « الصلاة فى الاسلام » . وقد جمع الدكتور كامل حسين الى ايمانه الكامل العقل الكبير الذى ساعده على فهم ايمانه بحيث لم يخلط بين ايمانه وبين عقليته العلمية . ولم يكن يخلط فى ايمانه بين العقل كعقل والايمان كايمان فكان يرى أن التفسير العلمى للقرآن بدعة حمقاء على نحو ما سنفصل فيه القول فى فصل آخر .

وكان يمارس الرياضة البدنية بانتظام ، وفى اعتدال ، فكان اذا نزل بلدته ارتدى الزى الرياضى وقطع المسافة من سبك الضحاك الى بنها اثنى عشر كيلو مترا ماشيا على خط السكة الحديد ثم يعود راكب وحدث ذات مرة فى أثناء الحرب العالمية أن شاهده خفير نظامى من أولئك الخفراء فصمم على أنه جاسوس من الفرنجة الذين يجيدون العربية

ويخادعون بها المصريين واشهر بندقيته فى وجه كامل حسين ووضـع يده على الزناد وهم بقتله لولا أن الله سبحانه وتعالى الهم كامل حسين أن يسأل ذلك الخفير اليس لك عمدة ؟ وهنا عاد الى ذهن الخفير انه ليس الحاكم بأمره فى هذه المنطقة ، فتراجع وذهبا الى العمدة وكان صديقا لكامل حسين .. ترى كم كانت تخسر مصر لو لم يلهم الله كامل حسين ذلك السؤال ؟

والى فترة قريبة من وفاته كان يذهب الى النيل يبتغى النزهة فيركب مركبا مع بعض أفراد العائلة يقضى به وقتا بين السماء الزرقاء والمياه الصافية .

أبعد كامل حسين نفسه عن الأضواء او كما يقولون « كان بعيدا عن الجماهيرية » ولم يكن فى ذلك بدعا بين اقرانه قادة الفكر واعلام العلم فى مصر فى عصرنا هذا ومن ذا الذى يعرف للدكتـور عمار فضله على اللغة والأدب أو للدكتور العقبى فضله على تاريخ الطب ولولا شهرة هؤلاء العمالقة فى تخصصاتهم الطبية لندر أن تجد من يعرفهم . أولئك قوم رضوا من الحياة ان يرضوا ضمائرهم ونفوسهم فلما أرضوها هانت عندهم الأضواء .

وفى مارس سنة ثلاث وسبعين أصدرت الهلال عددا خاصـا عن (أطباء أدباء) وكان الموضوع الأول فيه « الطبيب محمد كامل حسين اديبا » للأستـاذ الدكتور ابراهيم بيومى مدكور ، وفى هذين دلالة على مكانة كامل حسين بين الأطباء والأدباء الذين يتحدث عنهم العدد وهم :

ابن سينا — الدكتـور أحمد عمار — الدكتور محمد شرف — د . أحمد زكى أبو شادى — د . أحمد عيسى — ابراهيم ناجى — وذلك بالاضـافة الى الأطبـاء الأدبـاء فى العـراق وفى الاندلس وفى الأدبين الانجليزى والفرنسى الذين تحدث عنهم العدد بصفة مجملة .

لم يسمح الدكتور كامل حسين لنفسه أن يفرغ ذات يوم ومع هذا فلم يكن ليقصر فى أمر ما من الأمور التى شغلته أو شغل نفسه بها وكان السر فى ذلك تنظيمه لوقته وتقديره لقيمته وما بالك به يستغل الوقت القليل الذى يحضر فيه المريض فى الرد على خطاب أو اعداد مذكرة .

وكان له مزاج طابعه الاعتدال فى كل شىء فى مأكله ، ومشربه ، وملبسه وانفاقه ، ومنزله .. فكان أنيقا بلا تعمد ولا تطرف ، ولم يكن

يغرم بالديكورات وانك لتجد عيادته خلوا منها ، ولا بالسطحيات ولا بالافكار أو الاعمال التى تكون السطحية طابعها المميز ، ولم يكن يحب الثراء ولا الغنى . وكان رجلا عمليا يحب السيارة الفولكس واحتفظ بسيارة من ذلك النوع بالاضافة الى سيارته التاونس حتى وفاته .

وكان فى حياته الشخصية مثال الاستقامة فلم يكن يدخن ولم يعاقر الخمر ، وكان يبكر فى استيقاظه ، ويبكر فى نومه اذ لم يكن من هواة السهر ولا ما يتعلق به . ولم يتزوج كما لم يتزوج أخواه من قبل وكان لارتباطه الشديد فى شبابه بأخيه الصادق بك وانشغالهما بأمر المحاورات العقلية بعض السبب فى انشغاله عن الزواج فى حينه . وكانت لهم شقيقة وحيدة تزوجت وانجبت وهى صغيرة وتوفى عنها زوجها وهى صغيرة أيضا فانضمت اليهما بأولادها فكان لهما بها تعويض عن حياة عائلية يحتاج اليها الانسان فيلجأ الى الزواج . وقد يكون من الطريف أن نذكر هنا بعض ما يتعلق بهذا الموضوع :

سئل الدكتور كامل حسين « هل هو من أتباع مذهب أبى العلاء » فأجاب « هناك احصائية حديثة مفادها أن عدد السعداء فى العالم الثالث من الزواج ٧٪ فلهذا اخذت بالاحوط » . وذكر مرة أخرى فى جلسة مع بعض الأصدقاء أنه بسبب بيتين من شعر شكسبير قد أحجم عن الزواج ولكنه لم يفصح : أى بيتين هما . ومرة ثالثة قال : أن الانسان يولد ويتعلم ويعمل ويتزوج وينجب ويموت وانا لم أتزوج حتى يتأجل الموت خطوتين » . وعندما سأله محمود عوض عن ذلك اجابه : « ليس لدى تفسير اقدمه لك وافضل الا نتحدث فى هذا الموضوع » أما استاذنا الدكتور محمد عبد الحليم العقبى فيرى أن عدم زواجه لم يكن عداء للمرأة وانما ضنا بوقته على الزواج . وكان الدكتور كامل يشجع الشبان على الزواج .

كانت علاقة كامل حسين بأخيه الصادق بك علاقة وثيقة من الحب فى وقار ، والاحترام فى عطف ، وكان ارتباطهما فوق المعقول ارتباطا يدهش له كل من عاصر كاملا أو عاصر الصادق بك حتى يجد نفسه يعاصرهما معا كوحدة واحدة وقد اراد الدكتور حسين فوزى أن ينبهنى الى ان اتأمل فى أخلاقهما التى وصلت الى درجة عظيمة من السمو فقال انظر لقد سماهما والدهما ياسمين صدقا عليهما « الصادق والكامل » .

وكان الدكتـــور بارا جادا بأقاربه وذرية اختـه وكان يحـرص حتى آخر أيامه على أن يشرح لهم ما غمض عليهم فهمه من دروسهم . وكانت ابوته حية ـ على حد تعبير أستاذنا الدكتورالشكعة ـ فكان يتابع امينة بنت الأستاذ أمين الخولى كما قالت والدتها الدكتورة بنت الشاطىء صديقا وأستاذا راعيا فى دراستها للماجستير فلم يكن يخطئه يوما أن يطل عليها صباح مساء وأعطاها يوم راحته الأسبوعية ضيافة وصحبة يتذاكران ويطالعان ويتدارسان جديد البحوث فى الفلسفة والرياضيات ملتمسا لها من هذه الجولة الفكرية فى (الوادى المقدس) ما يحفظ لها ارادة الحيـاة وملتمسا فى صحبتها ومحـاورته معها ما يجلو نظريته الثاقبة فى (وحدة المعرفة) الى أن توفيت فى السابع عشر من اغسطس سنة أربع وسبعين وتسعمائة والف ومن يومها تهيب زيارة منزلها » .

لم يفرط احد ممن صـادقوا كامل حسـين فى صـداقته ، حتى أولئك الذين تشغلهم تبعات الحكم والسياسة ، وكان وزراء الصحة المتعاقبين من تلاميذه المفرطين فى حبـه ، وهيأت الظروف له اتصـالا بعديد من رجال الثورة والحكم فعرف محمد نجيب وهو مدير للجامعة، وكان لكمال الدين حسين مصاهرة وقرابة مع عمدة قريته فكان يأبى عليه الاستقالة ، وكان الدكتور ابراهيم بدران والدكتور عبده سلام من تلاميذه المفرطين فى حبه ، وعاصره الدكتور مصطفى كمـال حلمى فى المجلس الأعلى للجامعات فتوثقت بينهمـا الصلة . وكذلك استمع اليه الدكتور عبد القـادر حـاتم فى المجالس القومية فكان يكبره ، وعرفه حسين الشافعى فى اخريات حياته فتوثقت بينهما الصلة .

وربأ كامل حسين بنفسه عن جو السياسة والحكم والأحزاب وان لم يمنعه ذلك من أن يعايش أحداث الوطن التى تعـاقبت عليه بعقلـه ووجدانه ويتأثربها ولها تأثرا شديدا وروى انه كان يحرم على الطلبة الجامعيين الانتماء الى الأحزاب وفرض عقوبة صارمة على من يخالف هذا الأمر معللا ذلك « بأن افهامهم البريئة تقصر عن فهم أســاليبها الملتوية ومسالكها الوعرة » . ونذكر هنا قولة له جاءت عرضا فى بحثه (اللغة والعلوم) « ولا ينتظر من السياسيين أن يتفقوا فان الاتفاق مناقض لطبيعة عملهم » .

وكان يعانى فى عينيه من قصر النظر وقد أجريت له أكثر من عملية فى الخارج ، وكانت مشكلته فى السـنوات الأخيرة حين حال ضـعف بصره دون مواصلة القراءة أن يجد وسيلة يتابع بها أمهات المؤلفات فى

العالم فكان يقرأ له وكان يستعمل أجهزة التسجيل فيستمع الى الكتب المقروءة على شرائط وكان حريصا على ان يقرأ ويتابع . وفيما عدا ذلك تمتع كامل حسين بصحة جيدة الى ما قبل وفاته بشهور اذ اصيب بما اعياه واعيا الأطباء معرفته وكان نوعا من الهبوط فى وظيفة الكبد على الأرجح ، وكان قد أصيب فى صغره ببلهارسيا لم يتم علاجها وظل رغم مرضه حريصا على حضور اللجان وشهده الاستاذ محمد زكى عبد القادر فى لجنة اللغة العربية بالمجلس القومى للتعليم وهو لا يكاد يعرف يتثبت فى جلسته ولكنه كان ثابتا فى علمه وعقله وفكره وطريقة ادراكه .

وفى سنة ١٩٤٥ أصبح كامل حسين عضوا عاملا فى المجمع العلمى المصرى (Institut d'Egypte) فى شعبة البيولوجيا ولما رشح رئيسا للمجمع قبل الدكتور أحمد رياض تركى وكان رئيسا للمجمع قبله الترشيح فى منصب نائب الرئيس لما علم انالدكتور كامل حسين هو المرشح للرئاسة ، وفى سنة ١٩٤٦ أختير عضوا مراسلا لاكاديمية الجراحة فى باريس وفى نفس العام زميلا للجمعية البريطانية لجراحة العظام . واتصل كامل حسين بالجمعية الدولية لجراحة العظام والاصابات وضم اليها جراحى العظام المصريين وكان أول من مثل مصر فى اجتماعات مجلس ادارة الجمعية وظل كذلك حتى عام ١٩٧٠ اذ استقال احتجاجا على قرار الجمعية باختيار اسرائيل مقرا لانعقاد مؤتمر الجمعية سنة ١٩٧٢ بعد ان لم يستطع واد هذا القرار ولكنه راى الا تقطع الصلة بالمجتمع الدولى وعين خلفا له يوالى رسالته فى حضور اجتماعات الجمعية ومتابعتها والاتصال به .

وفى سنة تسع واربعين أسس الجمعية المصرية لجراحة العظام وظل رئيسا لها ولما أبى الا أن يتنازل عن الرئاسة أختير رئيس شرف لها مدى الحياة وأهدى مكتبتها قبل وفاته مجموعة كبيرة من كتبه الطبية تجدها الآن فى مكتبة كامل حسين بالجمعية فى الاسكندرية .

وفى الثالث من مارس سنة اثنين وخمسين انتخب كامل حسين عضوا عاملا فى مجمع اللغة العربية فى الجلسة السادسة عشر من جلساته فى الدورة ١٨ وكان انتخابه من رابع مرة بأغلبية عشرين صوتا وكان مجموع الحاضرين أربعة وعشرين عضوا . وهو بهذا « السابع والخمسون » بين الخالدين فاذا علمت أن ثلاثة وأربعين من الخالدين عينوا على أربع مرات (١٩٣٢ ، ١٩٤٠ ، ١٩٤٢ ، ١٩٤٦) وجدت أن كاملا كان هو

العضو الرابع عشر المنتخب اى الذى رغبت اغلبية الأعضـاء فى وجوده معهم ويعد كامل حسـين خامس طبيب يدخل مجمع اللغة العربية بعد الدكتور على باشا ابراهيم (١٩٤٠) والدكتور على توفيق شوشة (١٩٤٢) والدكتور محمد شرف (١٩٤٦) ، والدكتور احمد عمـار (١٩٤٩) أما الكرسى الذى شغله كامل حسين فى المجمع فهو الكرسى العاشر الذى شـغله لأول مرة الأسـتاذ احمد السـكندرى (١٩٣٣ — ١٩٣٨) ثم الأسـتاذ احمد حافظ عوض (١٩٤٢ — ١٩٥٠) واسـتقبله الدكتور ابراهيم بيومى مدكور فى الجلسة السـادسة والعشرين فى التاسع عشر من مايو سنة اثنتين وخمسين وتسعمائة والف ، وفى نفس الجلسة بدا الدكتور كامل نشاطه فى المجمع مشتركا فى المناقشات التى دارت فى جلسة المجلس الخاصة والتى عقدت بعد انتهاء مراسم الاستقبال ، وفى الجلسة التالية تقرر ضم الدكتور الى لجنة المعجم اللغوى الوسيط. وفى الدورة التـالية وهى الدورة التاسـعة عشر كانت نسبة حضور الدكتور كالآتى : حضر ١٨ جلسة من جلسات المجلس واعتذر عن عدم الحضور فى ٥ جلسات وتغيب عن أربع جلسات وقد أردت بهذا أن أدلل على اهتمام كامل حسين باللغة والمجمع اللغوى الذى لم يحل بينه وهو فى قمة العمل الادارى ومتطلباته مديرا للجـامعة وبين حضـور نسبة كهذه تعد خيالية فى مثل ظروفه .

وفى الجلسة الثانية للمجلس فى الدورة الحادية والعشرين تقرر ضمه الى لجنة الطب وفى الجلسة السادسة للمجلس فى نفس الدورة اختير عضوا بلجنة شكلت لمراجعة اعمال المجمع . وفى الجلسة الثالثة عشرة للمجلس فى الدورة الرابعة والعشرين عرض رئيس المجمع على الأعضاء اقتراح لجنة الأدب التى انعقدت فى صباح ذلك اليوم أن ينضم اليها الدكتور محمد كامل حسين والأستاذ محمد شفيق غربال والأستاذ حامد عبد القادر ووفق على ذلك . وفى الجلسة السابعة للمجلس فى نفس الدورة كلفه المجمع بأن يبلغ المجلس الأعلى للعلوم رغبة المجمع فى أن يكون نشر كتـاب « القـانون » ضمن مشروعات السنوات الخمس ، واختير الدكتور كامل حسين مع الدكتور أحمد عمار لتمثيل المجمع فى المؤتمر الطبى العربى التاسـع والعشرين الذى عقد فى المدة من الرابع والعشرين الى الثامن والعشرين من مايو ١٩٦١ .

واختير الدكتور كامل حسين مع الدكتور طه حسـين لعضـوية اللجنة العليا للاشراف على المعاجم التى تصدرها وزارة الثقافة .

واختير الدكتور كامل حسين عضوا فى الأكاديمية المصرية للعلوم سنة ثمان وستين وتسعمائة والف ولما كانت الرئاسة تسير فى الأكاديمية طوعا للسن فقد أختير نائبا للرئيس سنة واحد وسبعين ورئيسا سنة اثنين وسبعين . وطلب اليه فى المجمع المصرى للثقافة العلمية أن يتحدث فى تاريخ الطب ولم يساعده بصره على ذلك فعهد الى زميله الدكتور العقبى فحاضر وكامل يستمع اليه .

وكان من حظ مجالس العلوم المختلفة التى توالت نشأتها مختلفة اسماؤها (ابتداء بالمجلس الأعلى للعلوم وانتهاء بمجالس البحوث) أن يكون كامل حسين عضوا فيها يرعى الحركة العلمية ويعمل على اقامتها على اسس وقواعد راسخة ويعنى فيها بتعريف مفهوم العلم والمنهج العلمى وعلاقتهما ببعض وتعد محاضرته (البحث العلمى) ضمن وثائق المجلس الأعلى للعلوم والتى نشرها فى الجزء الثانى من متنوعات دستورا حقيقيا للبحث العلمى واصوله وقواعده ومراتبه . واختير الدكتور كامل حسين ضمن لجنة عهد اليها انشاء متحف لتاريخ الطب . كما اختير عضوا فى اللجنة التى عهد اليها بدراسة الاعتراف بالجامعة الأمريكية فى القاهرة .

أما فضله على تاريخ الطب والعلوم عند العرب فيكفى أن نشير الى ان كامل حسين هو الوحيد الذى كتب عن الرازى كتابة عالم فتحدث عنه من جميع النواحى العلمية فكان تكريمه تكريم رجل عارف . وكان كامل حسين من الأوائل الذين نبهوا الى فضل العلماء العرب فكتب فى مجلة جمعية تاريخ العلوم عن (ابن رشد) . وامتد فضل كامل حسين على تاريخ الطب الى قدماء المصريين فنشر برديه ادوين سميث بعد ترجمتها الى العربية عن ترجمة ادوين سميث الانجليزية وقدم لها بمقدمة اثبت فيها لهذه البردية قيمتها العلمية العظيمة فى طب العظام . كما كان الدكتور عضوا مبرزا فى الجمعية المصرية لتاريخ العلوم .

وقد ظل عضوا بمجلس جامعة عين شمس حتى وفاته يشارك بارائه السديدة فى صنع اجيال الجامعيين واختير فى ١٩٧٠/٥/٣٠ عضوا بمجلس جامعة الأزهر فكان لها من وجهات نظره الثاقب حظ كبير واختير الدكتور رئيسا لمجلس البحوث الطبية فى الثامن من ابريل سنة ثلاث وستين . وكان الدكتور لفترة طويلة من حياته عضوا بالمجلس الأعلى للجامعات والمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم

الاجتماعية وكان له فيهما آراء سديدة ناصحة كثيرا ما أخذ بها عندما اتجهت النية الى الاصلاح .

ولما انشئت المجالس القومية المتخصصة اختير عضوا فى المجلس القومى للتعليم ، وكان حريصا على أن يبدى آراءه فى التعليم العام وتدريس اللغة العربية حرصه على ابدائها فيما يتعلق بالتعليم الطبى والجامعى .

وفى يوم الأحد السادس عشر من ربيع الأول سنة سبع وتسعين وثلثمائة والف من الهجرة الموافق السادس من مارس سنة سبع وسبعين وتسعمائة والف ميلادية انتقل كامل حسين الى الرفيق الأعلى فى هدوء كما عاش حياته فى هدوء فنعته الى الأمة الجامعات ، وهيئات البحث العلمى ، ومجامعه ووزاراته ، وكبار الأطباء ، ومجمع اللغة العربية ، والنقابات ، والجمعيات الطبية ..

وقد قرر مجمع اللغة أن يكون موضوع المسابقة الأدبية لعام ١٩٧٨/٧٧ « الدكتور محمد كامل حسين عضو مجمع اللغة العربية مفكرا وأديبا » وهذه هى المرة الأولى التى يكون فيها موضوع مسابقة المجمع حياة عضو من اعضائه .

واقامت نقابة الأطباء حفلا لتأبين الدكتور كامل حسين بدار الحكمة مساء السبت الثالث والعشرين من ابريل سنة سبع وسبعين وتسعمائة والف تحدث فيه الدكتور عبد العزيز السيد وزير التعليم العالى الاسبق وعضو مجمع اللغة العربية ، والدكتور ابراهيم بدران وزير الصحة السابق ، والدكتور مصطفى كمال حلمى وزير التعليم السابق ، والدكتور حمدى السيد نقيب الاطباء ، والدكتور احمس الحمامصى أستاذ جراحة العظام .

وقد خصص مجمع اللغة جلسته الثالثة والثلاثين لتأبين الفقيد بقاعة الجمعية المصرية للاقتصاد السياسى والاحصاء والتشريع يوم الخميس الثامن والعشرين من أبريل سنة سبع وسبعين وتسعمائة والف وقام بالتأبين الدكتور ابراهيم بيومى مدكور رئيس المجمع والدكتور أحمد عمار نائب رئيس المجمع والقى الدكتور ابراهيم أدهم الدمرداش عضو المجمع قصيدة شعر فى تأبين الفقيد قال فيها :

خلت المجامع من أديب مصقع ونعى النعاة حكيمنا فى المجمع
وغدوت أبحث فى الوجوه عن الذى قد كان ملء عيوننا والمسمع

سر له في خلقه أفضى بـــه   لمن اصـــطفى من عالم متضلع
واذا قرأت له ســباك يراعه   واذا شفاك عرفت سر المبضع
وتقول ان جاءتك منه رســـالة   عبد الحميد ترى أم ابن مقفع ؟
هو كابن سينا فى الشفاء وكابن رشـ   ـد والغزالى فى الخطاب المشبع
أفكـــاره أزواجـــه وبنـــــاته   وبنوه مرضـــاه وثبت الاصبع
بوركت يا كف الأديب الألمعى   وسلمت يا كف الطبيب اللوذعى
لهفى على رجل يبيت على الثـــرى   بلغ الثريا فى ســـمو الموضع
لكنها سنن الحياة تواترت   فغدوا وليس لغابر من مرجـــــع

واستطرد الدكتور الدمرداش الى حكمة الحياة والموت فى بقيـــة قصيدته التى بلغت واحدا وأربعين بيتا .

وبدأ الاتحاد العلمى المصرى ســـنة جـديدة فى الاحتفال بذكرى علمائنا الراحلين فاقام فى يوم [illegible]عاء السابع من ديسمبر سنة سبع وسبعين وتسعمائه وألف الاتحاد الاجتماع الأول لتخليد ذكرى علمائنـــا الراحلين بتأبين المغفور لهما المرحومين الدكتور محمد كامل حســـين ، والأستاذ يونس سالم ثابت وقد ألقى الدكتور حسين فوزى ، الأستاذ محمد شوقى أمين ، الدكتور أحمس الحمامصى كلمة فى تأبين الفقيد وألقى الدكتـــور ابراهيم الدمرداش قصيدته والقى الأســـتاذ الغزالى حـــرب قصيدة فى تأبين الفقيد أعقبها بكلمة . أما جامعة عين شمس فقد قررت اطلاق اسمه على اكبر مدرجات الجامعة وشكلت لجنتين لتخليد ذكراه .

الباب الثانى

محمد كامل حسين مفكرًا

يقول المستشرق الفرنسى جاك برك انه أحصى عشرة مفكرين فى العالم العربى على المستوى العالمى منهم كامل حسين. اما الأمم المتحدة فانها دعت كامل حسين فى عام التعاون الدولى سنة ١٩٦٥ واحدا من «سبع شخصيات يمثلون الاتجاهات الفكرية الكبرى فى الوقت الحاضر». وفؤاد مسلم وهو رجل عايش البيئات الفكرية العالمية يقول ان « اسم كامل حسين كان علما على الفكر المصرى المعاصر فى الأوساط الدولية » . ولا يختلف اثنان فى مصر – من الذين يؤخذ برأيهم – على أن كامل حسين من أعلام المفكرين المصريين فاذا كان الأمر مع غير كامل حسين فان شقة الخلاف تتسع . وقد قيل ان كامل حسين كان مفكرا قبل أن يكون أديبا ، وعندى ان هذا لا يوفيه حقه فلم يكن كامل حسين أديبا الا لانه كان مفكرا مبدعا توسل بالأدب الى عرض فكره .

وتفكير الدكتور كامل حسين كما ستبين عنه فصول هذا الكتاب تفكير انسانى ، يحدوه الاخاء والتكافل ، وتتغلب عليه النزعات الانسانية ، بل وتوجهه هذه النزعات الى السمو بالانسان حيث ينبغى له أن يسمو .

والانسانية فى تفكير الدكتور كامل ليست تلك الانسانية التى تمثل « نهاية اليائس » أو « الفردوس المفقود » فى تفكير كثير من هؤلاء الذين اصطلح على تسميتهم بالمفكرين ، ولكنها « المنبع » الذى يروى وينمى أفكار الرجل ، وينطلق بها فى المجال الانسانى الرحب .

وهو تفكير آمن لا ترهبه نزعة داخلية أيما كانت تلك النزعة ، ومهما كانت سيطرتها على صاحبها ، حتى ان تلك النزعات الى العدل،

والحرية ، والخير ، والحب ، والجمال ، والقيم الانسانية لا تدفع كامل حسين فى سبيل الدعوة اليها الى الالتواء بفكره ، فهو مؤمن بالفكر المحض وأثره فى الحياة والسلوك الانسانيين ، مؤمن بأن يظل الفكر خالصا لوجه الفكر ، وغنى عن التبيين أن تفكيرا مثل هذا لا ترهبه تلك النزعات الداخلية قمين بألا ترهبه سلطة خارجية أيا كانت الصور التى تتمثل فيها هذه السلطة الخارجية ، فما عرفنا فى كامل حسين المفكر رهبة من بطش الرأى العام ، ولا خوفا من الرأى الحاكم ، ولا ازورارا عن الحق فى أمر من الأمور حين يحمى الباطل فيه فى هذا الأمر ذوو الجاه والباه .

أما وصف تفكير كامل حسين بأنه تفكير علمى فليس ترتيبا على كونه عالما بقدر ما فى التفكير نفسه من سمات العلمية ، ولو انا أردنا أن نضرب مثلا للتفكير العلمى عند كتابنا العرب ما وجدنا خيرا من تفكر هذا الرجل مثلا حيا لهذا النوع من التفكير .

والعلمية فى تفكير كامل حسين لا تقف عند حد الجو العلمى الذى يدور التفكير فى فلكه ، وانما هى فى طريقة التفكير ، وبرهاينه .

وليست الواقعية فى فكر الرجل هى البعد عن الغيبيات ، فهذا منهج فى الواقعية ينتهجه الملحدون ، ومن هم قريبون منهم فى اتجاهاتهم الدينية . ولا هى بالاذعان للواقع المستتر المستقر ، والخضوع للنظم المستتبة . وانما هى هى « واقعية » التغيير ، التى تضع فى الاعتبار ديناميكية الزمن واستاتيكية القيم ، وتردد النشاط الانسانى بين الصعود والهبوط .

وأصل المرونة فى تفكير الدكتور كامل انه تفكير أصيل ، حى ، متحرك يواجه متطلبات الموقف بما اختزن من طاقة على مواجهة المواقف المختلفة ، لا بما هيأته له الخبرة السابقة ن حلول جاهزة .. هو اذا يبنى الأفكار السامقات ولا يشيد سابقة التجهيز .

وفى تفكير الدكتور كامل بعد ذلك خصلتان عظيمتان :

الخصلة الاولى هى المسئولية فهو شاعر بمسئوليته ازاء القضايا التى يتناولها، لا يهرب من المشكلات منتظرا أن تأتى حلولها من السماء ، أو فى زمن لاحق ، أو بعد تغيير الأوضاع القائمة ، وهو لا يذهب بتفكيره الى برج عال ثم يدعى أن هناك زمنا طويلا أمام الانسانية كى تصل الى هذا البرج ، وانما يضع كامل حسين فى حساباته كل السلبيات

القائمات ثم يواجه هذه السلبيات ، فتذهب هذه المواجهة ببعض هذه السلبيات وتضع بعضها الآخر فى احجامها الحقيقية .

أما الخصلة الثانية فهى « الابتكارية » ، وقد يظن ان الابتكار يتعارض مع الاصالة ، والواقع ان الابتكار ليس الا صورة من صور الاصالة ، وفكر كامل حسين خير دليل على هذا الرأى .

وبهاتين الخصلتين : الابتكارية ، والمسئولية وضع تفكير كامل حسين صاحبه على راس هؤلاء الذين يستطيعون تحقيق التقدم ، والرفاهية لمجتمعاتهم عن طريق الفكر .

لم يكن كامل حسين المفكر موسوعى التكوين يتكون فكره من قطع متجاورات من العلم والأدب واللغة وانما نبع تفكيره وانتاجه من ثقافة متصلة لا انفصام فيها .

وكانت فى فكره أصالة لم نعهدها فى كثير من اعلام عصرنا الحديث فلم يكن (كما قال أستاذنا الدكتور عبد العزيز السيد) «يخبر ما يقرأ ثم يخرجه مرة أخرى مختلفا فى الشكل لا فى المضمون كما يفعل كثير ممن يدعون المعرفة ولكنه كان يتمثل ما يقرأ أو يسمع من أفكار ومعارف كما يتمثل الجسم السليم الغذاء فيحيله الى جزء من تكوينه ثم يخرجه شيئا جديدا فيه الصدق والعمق والأصالة . لم يكن كامل حسين اذن من رواد الأفكار ولكنه كان من صناعها .

وكان الجمود الفكرى أكره شىء اليه فكان يحرص على أن يثير عمليات الارتباط الذهنى فى تفكير المستمع أو القارىء حتى يجعله يرتب افكاره ويصل بها الى نتائج حتى وان كانت هذه النتائج هى المعتقدات القديمة نفسها .

ولم يكن يقبل أمرا من الأمور على علاته مهما يكن هذا الأمر ، وما فعله كامل حسين بالمواضيع الدينية واللغوية وبحوثه ومقالاته ودراساته (وخاصة الأمور الثابتة والمستقرة فيهما التى يجد الناس الحرج أن يمسوها من قريب أو بعيد) خير شاهد على ما نقول .

كان كامل حسين يطبق التفكير العلمى التجريبى الاستقرائى على كل ما يصادفه فى الحياة وكان يؤمن أن هذا التطبيق سيرتفع بلا شك بمستوى النتائج التى يحصل عليها فكان يقيس النظر الى أمور المجتمع

والحياة بمقياس علمي .. وهذا يكفي لاتهامه عند بعض الناس بالعلمانية ولكنه لم يكن كذلك فقد كان يعرف للعقل حدوده وان معرفته لهذه الحدود لتظهر واضحة جليلة في ثنايا فصول كتابه « قرية ظالمة » .

وكان كامل حسين يعنى بوضوح الفكرة ويعتقد أن الفكرة الواضحة وان تكن خاطئة خير من الفكرة الغامضة وان تكن صوابا ، وفى هذا يصفه الدكتور مدكور بأنه كان ديكارتيا أكثر من ديكارت نفسه .

الفصـــل الأول

●● نظرية وحدة المعرفة

وقد آن الأوان لنتنـــاول نظرية « وحـدة المعرفة » ، وقبـــل أن نعرض للبناء الجديد للمعرفة عنده والذى يقوم على نظرية تفضال للقوانين، سنتناول الفصول الأولى من الكتاب وهى التى تتعلق بالمعرفة ، وتعريفه لها ، وتعليله لاضطرابها ثم ننتقل الى جهاز التفكير ، وصفاته ، ثم نذكر تقسيمه لمذاهب التفكير الى خرافى علمى وفلســـفى دينى ، ثم تعريفه للحقيقة ، وحديثه عن أنواعها ، ثم ننتهى من الفصول الأولى الى ذكر رأيه فى بعض الآراء والمسلمات القديمة ، أو بعبارة أصح تعليله لهدمه هذه المسلمات ·

ثم نذكر قواعد نظرية تفاضل القوانين التى يقوم عليها البناء الجديد للمعرفة ، ونفصل القول فى القوانين والأشياء ، والقوانين العليا والدنيا، والنظام العام للكون والمعرفة والفجوات فيه ، ثم نورد بعض الحلول التى أوجدتها النظرية للمشاكل القديمة ·

المعرفة :

هى مطابقة بين نظامين : نظام الكون، ونظام العقل. وتشابه هذين النظامين ليس فرضا يحتاج الى برهان ، ولكنه جوهر امكان المعرفة · ورغم ان النظام الكونى أزلى ثابت مستقر ، الا ان المعرفة فى الواقع مفككة، وفيها شوائب كثيرة ليس أصلها خلافا بين النظامين .

وانما أصل هذا الاضطراب ثلاثة أمور : —

(أ) ان العقل حين أخذ نفسه بالبحث فى أسرار هذا الكون لم يبدأ حيث يجب البدء ، فقد بدأت المعرفة بالانسانيات ، ثم اتبعتها بعلوم الحياة ، ثم بالماديات ، ومن هنا نشأ الاختلاف ، فالنظام الكونى يبدأ من

اسفل الى أعلى ، ونظام المعرفة يبدأ من أعلى الى أسفل وعلة هذا ان الكشف عن قوانين المادة يحتاج الى اجهزة دقيقة معقدة لم تكن فى متناول الانسان عند أول عهده بالتفكير ، فى حين ان جهاز الكشف عن الانسانيات هو التفكير الخالص ، وهو ميسر للانسان منذ أول الأمر ·

وكان طبيعيا أن ينشأ فى أذهان المفكرين ما نسميه بالحقيقة المنطقية أى تلك التى تعتمد فى اثباتها على المنطق وحده ، وهذا هو مكمن الخطأ الأول الذى أصاب الفلسفة فقد تعددت المذاهب التى أريد بها تصوير الواقع ، ومع ذلك لم يكن لأحد أن يعرف أيها يطابق الواقع ·

(ب) ان علمه لم ينم نموا طبيعيا .

(ج) لم يقدر للعقل أن يلم باشتات هذا العلم فيراه جملة واحدة ·

جهاز التفكير :

هو العقل وفيه خصائص ثلاث :

(أ) **لا يطيق الفوضى** ، وهذا الخوف من الفوضى سبب من أسباب الرغبة القوية التى تدفع العقل الى تنظيم كل ما يعرض له ، بل ان هذه القوة التنظيمية غريزية فيه ، والدليل على ذلك ان قواعداللغات منطقية من قبل أن يعرف أهلها شيئا عن النظام الذى تقوم عليه ، وتنظيم حياة الناس خلقيا واجتماعيا واقتصاديا يبدأ قبل أن يتبينوا خطر الفوضى فى هذه الأمور ·

(ب) **لا يحتمل الفراغ** : ومن ثم فهو يحاول أبدا أن يكون علمه كافيا لتفسير ما غمض عليه ، والاتزان العقلى لا يتم للانسان الا اذا كان علمه مهما قل يملأ فراغ عقله .

(ج) **لا غنى له عن تجسيم المعنويات** : فهو يمثل الايمان بالعبادات ويصور الجمال ، ويتغنى بالحب ، وقد لا يكون الانسان الا جهازا يحول المعنويات الى ماديات ، ويدرك المعنويات فى الماديات من حوله ·

ولهذا كله فان العقل لا يستقر حتى يجد نظاما يرتاح اليه ، فان وجده كان خيرا ، والا فلا مانع من اختراع نظم مصطنعة لا تقوم على أساس من الواقع ، وهذا هو أصل الخرافات ·

مذاهب التفكير :

ويقسمها الدكتور الى : ـ

(أ) خرافى علمى : موضـــوعه ربط الأشياء بعضها ببعض وكشف العلاقات بين الأسباب والمسببات ٠

والخرافات أول العلم ، والعلم خرافات ثبتت أصولها ، وقوام هذا المذهب الخرافى العلمى هو قدرة العقل على تنظيم ما يعلم وحاجته الى هذا التنظيم ٠

وجوهر التفكير عند البدائيين ربط الأشياء بعضها ببعض ، فاذا رأى أحدهم رجلا يموت ، ونجما يهوى ، ربط عقله بين هذين الأمرين فتراه يعتقد ان موت هذا الرجل انما يرجع الى هذا النجم الذى هوى ، وعلى هذا النحو تنشأ الخرافات ، والأمر فى الخرافات ليس أمر فائدة تعود على البدائيين من وجـــودها وانما هى شىء لا منــاص منه فى أول عهود التفكير .

والفرق بين الخرافة والعــــلم فرق نســبى كالفرق بين البرودة والحرارة ، فهو فرق فى درجات التحقيق فى مذهب فكرى واحد ٠

هذا التفكير مداره السببية يبدأ بأوائل الأمور وينتهى بأواخرها وخير ما فيه أن المعقول فيه يوافق الواقع وبذلك فالحق فيه أوضح ٠

وموضـــوع هذا النــوع من التفكير تحقيق العــلاقات القائمة بين الأشياء ٠

(ب) فلسفى دينى : يبدأ بأواخر الأمور ويفسرها تفسيرا كاملا ، وهو يعد قضاياه حقا مطلقا ، اذا وافقها الواقع فالواقع صواب ، وان خالفها فالــواقع خطأ الى أن يصـــوبه التأويل ومن آثار هذا المــذهب : الدين والأخلاق ، والفلسفة ، والاجتماع . وقد يكون المحدثون على حق فى تهاونهم بهذا المذهب فوجه الصواب والخطأ فيه صعبالتحقيق، ومعايير الحق مختلفة ، وفى اكثر انظمته تناقض واضح وان تكن كلهــا معقولة .

وخصائص العقل لا تؤثر فى الحقائق نفسها ، وانما تحدد صورتها فى نفوسنا ٠ فهذا النظام قائم سواء أفهمناه على وجه أم على آخر ، أم لم نفهمه ، ولكن فهم نظام العقل يحدد صورة هذا النظام فى المعرفة ، كما تحـــدد خصائص جهاز التصوير الصورة التى يلتقطها لما يكون أمامه ٠

البراهين على الحقيقة :

الحقيقة هى وضع كل ظاهرة مادية أو معنوية موضعها من النظام الكونى ولابد من اثبات الحقيقة بنوع من أنواع البرهان ·

والبرهان : امكانية اخضاع العلاقة بين موضوعات البحث لنظام رياضى ثابت مهما يكن تعقيده ·

أما المذهب الفلسفى الدينى فالبرهان فيه برهان نفسى ، ومقياس الحق فيه الالهام والشعور النفسى ان ما يعتقده المرء هو الصواب · وكما أن الفلاسفة يميلون الى الغض من قدر البرهان النفسى فى اثبات الحقائق الدينية لانها لا تقوم على المنطق ، فان العلماء يميلون الى الغض من قدر التفكير الفلسفى لانه يقوم على المنطق وحده لا على الواقع · « والحقيقة ان الدين يملأ فراغ النفس بما لا تستطيعه الفلسفة ، فهو أكثر منها شمولا وأقدر على تناول ما نجهل حقيقته » · واذا كانت الفلسفة أقل من الدين تحقيقا لغاياتها ، فهى أقل من العلم قدرة على تناول الحقائق الواقعية وهكذا يخلص الدكتور الى القول بأن الدين والعلم هما طرفا المعرفة ، والبراهين النفسية والمنطقية كافية لاظهار ما هو خطأ ولكنها لا تحدد الصواب لكثرة المذاهب الصحيحة عقلا ونفسا ·

وعلينا أن نقيم بناء المعرفة من جديد على أن يكون أساسه مانعرفه معرفة كاملة من نظـام الماديات ، وهـذا أمر ممكن وان لم يكتمل علمنا بتفاصيل هذا النظام بعد والأمر فى ذلك مثل الأمر فى المثلث اذا عرفت قاعدته وزاويتاه أمكن معرفة الكثير من خصائصه وان لم يكمل رسمه وانى أعتقد أن علمنا بالماديات والحياة بلغ الحد الذى نستطيع معه أن نقيم هذا البناء الجديد للمعرفة » · ولابد قبل اقامة البناء الجديد للمعرفة من هدم كثيرمن الآراء القديمة مهما تكن عزتها على المفكرين ، ومهما يكن وضـوح صـوابها ، ولا شـك أن الزمن قد أضفى على الكثير من المذاهب القديمة قدسية ليس من السهل أن نتغاضى عنها ولكن هذا الهدم ضرورى اذا أردنا أن نقيم بناء جديدا للمعرفة ·

الاخطاء القديمة :

(أ) العلة الغائية :

يقوم هذا المذهب على تحديد أغراض بعينها تراد لذاتها وعلى ان هذه الغايات تؤدى على نحو ما الى تهيئة الأسباب التى تنتهى اليها ·

ولم يتبين أحد كيف تعمل الغايات نفسها على خلق الوسائل المسببة لها ، وعلم المفكرون هذه الصعوبة فأوجدوا لها حلولا مختلفة كلها تحاول أن تكشف عن قوة تعمل على تهيئة الأسباب لبلوغ الغايات ·

أما رجال الدين فرأوا ان الله بقدرته يعمل على أن يكون العالم كله وسيلة لتمجيده ، وعمل الخير ·

وعلماء الانسانيات يرون هذه الغاية فى قوة النظم الاجتماعية وهى عند العلماء بقاء الجنس ، وموامة التركيب الجسمى للبيئة وهم سواء فى تمكن مذهب العلة الغائية منهم جميعا، يضعون الغاية أولا ، ثم يبحثون عن النظام الرائع الذى أدى الى تهيئة أسبابها · وما بيناه من ان العقل بدأ تفكيره بأواخر الأمور يبين لنا طبيعة نشأة هذا المذهب ·

وعندنا ان هذا المذهب يجب أن يعدل عنه تماما ، جملة وتفصيلا ، والا يلجأ اليه أبدا ، فهو خلط من ناحية المنطق ، لأنه يقوم على اتخاذ التوافق بين أمرين دليلا على انهما خلقا ليتوافقا ، وعلى ان أكثرهما تعقيدا خلق فى أبسطهما الصفات التى توافقه ، وهو عقيم من الناحية الفلسفية، لانه يضع للمعرفة حدا لا تتعداه هو هذه الغايات ، ويجعل البحث مقصورا على ما دون ذلك ·

وقد أدى مذهب العلة الغائية الى عجز تام فى الفلسفة الدينية عن تفسير وجود الشر ، وفى الفلسفة عن تفسير وجود الفساد ، وفى العلم عن تفسير وجود الأنواع وتعددها ·

واما كونه خطأ من الناحية العلمية فواضح من ان أحدا لم يستطع حتى الآن أن يبين الكيفية التى تستطيع بها غاية ما أن تخلق الوسائل التى تؤدى اليها · واما انه عقبة فى سبيل فهم الكون فهما عقليا تاما ، فذلك واضح لأنه أصبح حجر عثرة فى سبيل الوحدة فى التفكير لأن الغاية التى تفسر العالم كله بما فيه من تفصيلات متعددة لم تعرف بعد ·

والمذهب الذى ندعو اليه يرى ان هناك قوانين ، وان بين هذه القوانين افضليات، وان نظامها يؤدى الى الغايات، وليست الغايات سببا فى هذا النظام فالخير مثلا ليس غاية والا لكان الشر محالا ، وانما وضع الله للكون نظاما محكما ينتهى الى غايات لا مفر منها فيها الخير والشر .

(ب) التفكير الثنائى :

يقصد به التقسيم الى حار وبارد ، رطب ويابس ، خطأ وصواب وهو تفكير طبيعى أصله ان الانسان جعل نفسه مركز العالم ، ثم وضع الأشياء كلها عن يمينه ويساره . والفهم الحق لطبيعة الأشياء يقضى على مثل هذه التنظيمات التى تقوم على المقابلة بين صفات عارضة ، ولن يستقيم التفكير حتى نتخلص من اعتبار الانسان مقياسا تقاس به الأمور وعندما تعرف حقيقة الأشياء وقوانينها فستزول أكثر مظاهر هذا التفكير .

واذا فهمنا النظام العقلى والكونى فهما حقا فقد يصبح من الممكن أن نقيس الخطأ والصواب كما تقاس الحرارة والبرودة على انهما درجات مختلفة لتأثير واحد على النفس البشرية .

« وما العين الا جهاز لقياس موجات الضوء ، وما الأذن الا جهاز لقياس سرعة ذبذبة الهواء وما الذوق الا جهاز لقياس تركيز ايونات الهيدروجين ، وما الجلد الا جهاز لقياس سرعة ذبذبة الجزئيات » .

(ج) الزمن :

كنه الزمن غامض كل الغموض ، ولن نستطيع أن نتصوره مجردا عن الأشياء وانما نفهمه فى الواقع بتقدير أثره فى الأشياء ، أو أثر الأشياء فيه ، أما فهمه مجردا فلم يستطعه الانسان بعد ولا نحسبه يستطيعه فى المستقبل . ولا نعنى بالزمن ذلك الزمن الرياضى (البعد الرابع) ولا الزمن الفيزيائى وانما نعنى الزمن التاريخى .

وفرض العلماء ان الكائنات العليا هى آخر الكائنات ظهورا ، فرض لا دليل عليه فالتطور زيادة مطردة فى التعقيد التركيبى للكائنات ، وليس ضروريا أن نقيس التعقد زمنيا ، ولعل التطور عملية تركيبية خاصة بما ركب فيها من صفات .

والانسان يدرك الأبعاد الثلاثة ادراكا مباشرا ، ولا يدرك البعد الرابع الا تقديرا ولا مفر عنده من ادماج هذا البعد الرابع فى الأبعاد الثلاثة على

نحو ما ، واذا كان الكون ذا أبعاد أربعة فالانسان لا يستطيع أن يعرفه الا كما تعرف النملة سطح الكرة ، وهذا التصورالناقص يؤدى حتما الى تشويه فى المعرفة كذلك التشويه فى خرائط الكرة الأرضية حين ترسم على سطح مستو يكون لها أوجه كثيرة من الحق ، ولكنها مشوهة تشويها يجعل « الاسكا » مثلا أبعد ما تكون عن « سيبيريا » وهى فى الواقع أقرب ما تكون اليها ، وهذا لا يمنع من أن تكون صورة الكون فى العقل الانسانى دالة على كثير من الحقائق الصحيحة ٠

الحقيقة :

الحقيقة دينيا هى ما أنزل الله على عباده ، والمذهب الدينى فى تعريفها أكثر المذاهب استقرارا وكمالا ولكن الكمال نفسه خلق فيه هنات أهمها ان التفكير الدينى لم يستطع تعيين صفات الذات العلية العليمة القديرة الا بما هو انسانى، والحقيقة عند الفلاسفة غاية يبلغونها بالتفكير يصدر عنها الصواب ، وليس التحليل وسيلة لبلوغ الحقيقة وان يكن وسيلة ناجحة فى بلوغ الحقائق الصغيرة التفصيلية ٠ والتفكير الفلسفى جعل الانسانيات مفتاح الحقيقة وهى لا تصلح لذلك ، فالحقيقة ليست غاية محددة ، وانما هى معرفة علاقة شىء بآخر ، وقد يكون هذا الفهم متواضعا ولكنه وحده لا يؤدى الى الالمام بالصورة الكاملة للقوانين الكونية ، وكلما زاد علمنا بحقيقة شىء من الأشياء قلت عنايتنا بالتعاريف ٠

واذا كانت التعاريف تصلح لتوضيح نظام العقل ، فهى لا تصلح لفهم طبيعة الأشياء ٠ والحقيقة عند العلماء علاقة محددة بين شيئين حتى اذا كثرت العلاقات الى الحد الذى يجعلنا نعلم جميع العلاقات بين جميع الأشياء ، أصبحت المعرفة بالحقيقة كاملة وتحديد العلاقة المعروفة بالسببية هو مكمن الضعف فى تعريف العلماء للحقيقة ، فالسببية علاقة بين شيئين ولكنها من أنواع كثيرة ، ولكل سبب سبب أعمق منه وعندى ان السببية يجب أن تكون مباشرة أو ملاصقة ٠

والبناء الجديد للمعرفة يقوم على نظرية تفاضل القوانين ٠

قواعد نظرية تفاضل القوانين :

(أ) الأشياء وقوانينها شىء واحد لا وجود لأحدهما بدون الآخر ، والأشياء تجسم لقوانينها ، والقوانين هى التى توجد الأشياء ٠

(ب) القوانين العليا أكثر تعقيدا من الدنيا ، والأعلى هو الذى لا يعمل الا فيما عمل فيه الأدنى .

(جـ) القانون الأعلى ليس له أثر فى تغيير عمل القانون الأدنى .

(د) يعمل القانون الأعلى فى تاريخ حياة ما هو أدنى منه ، دون أن يغير من قوانين هذا الذى هو أدنى .

وهذا الأثر الذى يعمله هو القضاء والقدر .

(هـ) يستطيع الشىء الأدنى أن يعرف وجود ما هو أعلى ، ومن المستحيل عليه أن يعرف كنه ما هو أعلى منه من القوانين ، والأشياء .

(و) فى كل طبقة من القوانين ، وبين الطبقات المختلفة تدرج بجعلها منتظمة تنظيما هرميا .

(ز) كل شىء وقانونه ينظر الى ما هو أعلى منه على انه اله قادر قاهر لا يسأل عما يفعل .

ملخص النظام العام القائم على نظرية « هرارشية » القوانين :

(أ) فى الأصل (وهو تعبير تركيبى ، أما فى الأول فهو تعبير زمنى) كان هناك شىء واحد متناه فى الصغر له خاصية القدرة على الاتحاد مع أشباهه على نسب مختلفة ، فكان البروتون والالكترون .

(ب) استمرت قوة الاتحاد بين البروتونات والالكترونات ، فكانت الذرة هى نتيجة القوانين الذرية ، وسبب وجود القوانين الكيميائية .

(جـ) استمرت قوة الاتحاد هذه مع الأشباه وغير الأشباه بين الذرات ، فكان الجزىء الذى هو نتيجة القوانين الكيميائية ، وسبب وجود القوانين الفيزيائية .

(د) كل اتحاد تم فى طبقة من هذه الطبقات كان نتيجة لقوانين هو دليلها ومجسمها ، ويخرج من هذا الاتحاد شىء جديد يخلق طبقة جديدة من القوانين لم يكن لها وجود .

(هـ) من هذا يتبين أن القوانين المغناطيسية الكهربية أدنى من قوانين الذرة ، وهذه أدنى من قوانين الكيمياء ، وهذه أدنى من قوانين الفيزياء ، والسبب فى هذا الاعتبار ان الأعلى من بينها لا يعمل الا فيما سبق أن

عمل فيه الأدنى فالقوانين الفيزيائية لا تعمل الا فيما سبق أن عملت فيه القوانين الكيميائية ·

(و) ثم كانت فجوة فى الطبيعة ، والفجوات محتملة ، اذ لم يكن على الطبيعة أن توجد كل الاحتمالات الرياضية للاتحادات المختلفة فى كل طبقة ·

(ز) فى كل طبقة من القوانين والأشياء المادية كان ازدياد التعقيد سببا فى قلق تركيبى ، ولهذا كان الاشعاع فى الذرات المعقدة القلقة ·

(ح) اختصت ذرة الكربون لسبب خاص فى تركيبها بقدرتها على الاتحاد مع غيرها من الذرات اتحادا واسع المدى ، الى أقصى حد ، فكانت الجزيئات الضخمة المعقدة ، وهذه الجزيئات تصبح لتعقيدها قلقة التركيب مثل الذرات القلقة ذات الاشعاع ·

(ط) كانت المركبات التى تتكون منها المادة الحيــة نتيجة طبيعية للتعقيد البالغ فى تكوين جزيئاتها ، ثم اتحدت هذه المركبات فكانت الخلية التى اكتسبت صــفات الحياة : المقاومة ، والمرونة ، والتكيف وهى سر تأثر الخلية بما يحيط بها دون أن تفقد بذلك شخصيتها ·

(ى) اتحدت الخلايا فكانت الكائنات ، وظلت هذه محتفظة بصفاتها الحيــوية ·

(ك) اتحاد الخلايا نوعان ، تكاثرى واستكمالى (Consummation and Summation) فالتكاثرى اغلب فى حياة النبات وهو الذى ادى الى وجودها ، أما فى الحيوان فالتكاثر محدد بالاستكمال ، أى « وقوف التكاثر عند حد تكوين الأعضاء » ·

(ل) وكما ان التعقيد البالغ حد القلق فى الجزىء خلق فيه صفات جعلته يقبل قانونا أعلى هو التكيف والمرونة ، فكانت الحياة ، فكذلك التعقيد فى الحيوان خلق فيه صفات جعلته يقبل قانونا أعلى هو المعنويات فكان الانسان ، فالمعنويات هى النتيجة الطبيعية لتعقد العضــو العصبى فى الانسان وهو المخ ومن ثم كانت الذاكرة والعقل ·

(م) والمعنويات ثلاثة : العلم وقد تكفل به المخ كجهاز الكترونى ، والجمال وهو نظام فى الأشياء يجعل أثرها موافقا لنظام حواس الانسان فيجلب هذا التجاوب بينهما لنا السرور ، والفضــائل وهى نظـام فى الأشياء يجعلها تتجاوب ونظام العقل ·

(ن) ومن صفات الحياة الملازمة لها الكبح ، وهو قدره الكائن على الامتناع عن عمل ما مع مقدرته عليه ٠

(س) والله بالنسبة للانسان ، كالانسان بالنسبة الى النحلة مثلا ، حين يهيىء لها الانسان الراحة والغذاء ويعفيها من جهد صنع الشمع، كل ذلك عن علم وقدرة ، وفهم، وارادة ، فهى تعلم بوجود شيء عال مريد دون أن تستطيع تصور الانسان ، وكذلك الانسان يدرك وجود ذات علية عالمة ، قادرة ، مريدة تعمل فى حياته ، ولكنه لا يستطيع أن يتصورها ٠

القوانين والأشياء :

عرفنا ان الأشياء وقوانينها أمر واحد لا وجود لأحدهما بدون الآخر وقد ضل الناس حين قسموا الصفات الانسانية الى معنوية ، مادية أو حسبوهما منفصلين واخذوا يدرسون قوانين الحياة منفصلة من قوانين الطبيعيات ، وبلغ ذلك غايته عند من يؤمنون بتناسخ الأرواح ، فالجسم يبلى لأنه مادة والروح تبقى لتعود يوما الى حيوان آخر ، انسان أو غير انسان .

القوانين العليا والدنيا :

اختص الانسان بقدرته على تقبل المعنويات وهى عنوان الانسانية ، وجهاز هذا التقبل هو العقل ، وهذا الجزء من عمله يختلف عن عمله ، من حيث هو جهاز التفكير وهو ما تناولناه من قبل ، فالعقل يلقى على الأشياء ضوءا ينيرها فتتبين حقيقتها وهو لهذا عضو المعنويات ٠ ووظيفته من هذه الجهة انه يمثل القوة الفنية التى يقع منها تجسيم المعنويات فى صورة حسية ، وان عليه التأثر بما حوله من الماديات وتحويلها الى معنويات وهذا التأثر **هو العاطفة** ٠

فالجمال يوجد حين يتجاوب نظام شيء ما ، ونظام العضو الذى يدركه فتكون بينهما (هارمونية) تحدث اللذة ٠

وهذا هو التفسير العلمى للفضائل ، والفنون ، والحب وهى مميزات الانسان الكبرى .

وأعلى قوانين الكون هى القوانين الخلقية وبخاصة نواهيها ، وهى

التى تثبت ان الضمير حين يدعو الانسان الى الاحجام عن عمل ما يرغب فيه ويقدر عليه انما يمثــل ارقى صفة فى الوجود ، وهــذا هــو سر التحريم فى الأديان ، وهذا هو موضع الضمير من القوانين الكونية ٠

واذا فهمنا أثر القوانين العليا فى القوانين الدنيا ، أمكن لنا بسهولة ويسر أن نفهم القضاء والقدر على انه ذلك الأثر ٠

سقف المعرفة :

يقصد بسقف المعرفة ان الشيء الأدنى يستطيع أن يعرف وجود ما هو اعلى ولكنه لا يعرف من صفاته الا ما يتعلق بقانونه هو (اى الأدنى) ومن المستحيل أن يعرف كنه ما هو أعلى ، وبعبارة أخرى ان معرفة الادنى محدودة بسقف هو سقف المعرفة ٠

الربوبية :

شرحناها فيما قبل بالعلاقة بين النحل والانســان ، فان النحلة لا تستطيع أن تفهم حكمة هذه الأعمال ولها أن تعدها ارادة مطلقة لقوة عالمة قادرة ، غير مقيدة بنظام أو قانون، تملك القدرة على ابادتها، كما استطاعت من قبل أن تحسن اليها ، ومن ثم فهى تخشاها ٠ وهذا شرح علمى موضوعى للربوبية يطابق رأى رجال الدين ٠

الفجوات :

(أ) الفجوة الأولى : المادة والحياة

لنا فى تاريخ علمنــا بالموجات الأثيرية عبرة تدلنا على ان وجود الفجوات لا يمنع وحدة النظم والقوانين المختلفة ٠ وقد ظن الناس قديما اختلاف الحياة تماما عن الجماد ، فلما حضرت البولينا تبين لهم ان الكيمياء الحيوية ، لا تختلف عن كيمياء الجوامد ثم أسرفوا فى الظن فحسبوا الحياة مجرد كيمياء عضــوية ٠ نعم أصــل الحياة كيميائى فيزيائى ، ولكنها بتعقيدها خلقت قوانين جديدة هى قوانين الحياة ٠ والقول بالقوة الحيوية أو الطبيعية غموض ليس من العلم فى شىء ، ثم كان لعلمى الوراثة ، والاجنة التجريبى أثر فى تحديد النظريات الحديثة للحياة ٠

وهو يعترض على علماء الوراثة حين جعلوا الجينات أصــلا لصفات

بعينها ، فالطول ليس صفة تورث ، وانما الذى يحدد الطول هو عـدد مرات انقسام خلايا النمو فى الانسان .

وكذلك قول علماء الاجنة ان تاريخ الجنين يعيد تاريخ الجنس ، تصوير للواقع لا مسوغ له ، وهو عنده ــ ليس الا كقول من يجـد فى مركب ما هيدروجينا واكسجينا فيقول بان أصله كان ماء . وضـلال البيولوجيين فى نظريات التطور انهم حسبوها عملية زمنية ، فقالوا ان أبسط الكائنات أقدمها ، وأرقاها أحدثها ظهورا ، ولو كان عامل التطور كما يقولون به لكانت الحياة اليوم نوعا واحدا راقيا كاملا متغلبا على كل ما عداه .

وكل ما يدل عليه التطور فى حقيقة الأمر ، هو ان هناك تصاعدا فى التعقيد يتبعه كمال فى التركيب ، وتوافق أتم بين الكائن الحى وبيئته .

وهذا القلق الحيوى المنظم ، هو سر صفات الحياة التى نشهدها ، فالتكيف ليس تغيرا سطحيا يعرض للفرد ليقيه ضررا ، أو ليصلح من تركيبه تبعا لبيئته ، بل هى علاقة معقدة تمتد الى أصول الخلايا وخواص تركيبهـا ، ويكون التكيف نتيجة تأثر الحيـوان بما حـوله ومقاومته لهذا التأثر .

أما التكاثر فهو يزيد حجم الكائن الحى حتى يبلغ حدا ، لا يتفق ونظام تركيبه فينقسم ، ولو فهمنا انقسام الخلية فان كثيرا من التساؤلات حول الحياة ستصبح مفهومة معقولة . ولعل ترتيب محتـويات الخلية ساعة الانقسام شبيه بترتيب الذرات فى الشريط المغناطيسى .

أما التركيب النهائى للكائن فهو يتوقف على العوامل التى تؤثر فى الخلايا النهائية عند انتهاء نموها ، ولكنه يتأثر الى حد ما بالظروف المحيطة بهذه الخلايا .

وهكذا نستطيع أن نعبر الفجوة الأولى بين المادة والحياة على جسر ان ثمة صفات خاصة فى ذرة الكربون جعلتها تقبل التعقيد الكيميائى البالغ الذى سمح بوجود الجزئيات الضخمة القابلة للحياة .

(ب) الفجوة الثانية بين الحيوان والانسان :

وسنعبر هذه الفجوة على جسر القوة الخاصة التى تتمتع بها خلايا الجهاز العصبى ، ومع انه لم يثبت بعد ان عمل المخ الكترونى صريح ،

فان فسيولوجيا المخ تقوم من غير شك على قوة ان لم تكن الكترونيـــة فهى قريبة منها .

والعلم البسيط الناشىء عن التركيب الخلقى لجهازنا العصبى هو الالهام ، والمعقد هو الذكاء ولنا أن نتساءل هل يسمح تركيب المخ له أن يقوم بوظائف الذاكرة والخبرة والعلم والحكمة والارادة ؟ ثم بالحب وتقدير الجمال والأخـلاق والايمان والضـمير ؟ أو بعبـارة أخرى ما هى علاقة فيسيولوجيا المخ بسيكولوجيا العقل ؟ وقد يكون فى تفسيرنا لحدوث السرور علاقة بهذا البحث فان الحواس اذا أدركت أمرا منظما صادف نظامه توافقا فى نظام الأعضاء الخاصة به أحدث ذلك فيها حركة منظمة تنتقل الى مسالك المخ فان وافق نظام المؤثر نظام المسالك ، تم تسجيل هذا المؤثر على نحو منظم ، وعندئذ يحدث السرور وهو تفسير محتمل يرى منه أن النظام هو أساس معرفتنا للجمال ، وهو ما نجده واضحا جدا فى الموسيقى .

وتفاعلات الحياة فى الخلايا تخلق تيارات تسلك المسالك التى مهدتها الطبيعة أولا والتى مهدتها العوامل الخارجية ثانيا ، ثم هى تغير من هذه المسالك أيضا على قدر قوتها أو ضعفها ، وتوافقها أو اختلافها مع المسالك الداخلية التى يحدثها وجود الحياة داخل المخ . هذه التفاعلات الجديدة تكون التفكير والارادة . وبنفس الطـريقة تسلك التفاعلات الصـادرة مسالك التفاعلات الواردة . وما الفضائل الا هذه الأعمال التى تسلك مسالك موائمة ، ويستريح اليها الانسان . ومما يؤيد هـذا الرأى ان اكثر الفضائل تدل عليها اعمال مصدرها فكر منظم ، فالصدق نظام ، والكذب فوضى .. وهكذا .

وكل ما نريده بهذا هو أن نثبت انه ليس من المستحيل أن يكون هناك أصل طبيعى (ولا نقول مادى) للأخلاق . وأوضح ما يكون قانون الكبح ، هو ما يكون فى الجهـاز العصبى بوجـود نوعين من الأعصـاب (Sympathetic and para-sympathetic) احدهما مهدىء والآخر منبه . وعليه فان كل أعمال الانسان يجب أن تؤخذ على أنها ليست من عمل الارادة وحدها اذا قويت قام الانسان بها واذا ضعفت امتنع ، وانما أعمال الانسان كحركة القلب توازن بين الارادة الفاعلة ، والكبح . وفى هذا النظام ضمان لحسن مواجهة الظروف دون تعرض للخطر .

وقانون الكبح في المعنويات هو الضمير ، وهو أرقى القوانين الانسانية اذ انه لا يعمل الا بعد عمل الارادة ، وهو أمر طبيعي حيوى ثابت • وعلى هذا فان المخ يفرز الذكاء ، والذكاء هو القدرة على استيعاب أكبر عدد من المؤثرات الخارجية واختزانها وايجاد مسالك الكترونية تربطها بعضها ببعض وبالعقل ، وهو أثر الحياة الداخلية التلقائية داخل المخ وهى تتأثر بنظامه الداخلي ، والضمير وهو قانون الكبح وهو عمل طبيعي للمخ تنشأ عنه قوة الامتناع عن المحرمات وعما يعتبر خطيئة •

وهكذا فان فى المخ جماع الصفات الانسانية الخاصة التى اصبح بها أرقى الكائنات ولعلنا نكون بذلك قد بدانا اول الطريق لايجاد الأصل الطبيعي للأخلاق وهو ما بحث عنه الفلاسفة • وقد صادف العقل (المعرفة) فكانت وظيفة من وظائفه توغل فيها واستعذب نتائجها واصاب بها الفوائد .

(ج) الفجوة الثالثة بين الانسان والله :

لماذا لا يكون الانسان هو القوة العليا للكون ؟ لأن أعلى قانون (شيء هو الذى لا يؤثر فيه قانون آخر أعلى منه فهل الانسان كذلك ؟

ان علم الانسان التام بما هو ادنى منه لا يقوم دليلا على انه يستطيع ان يعلم شيئا عما هو اعلى منه بل على انه أعلى ما يعرف من الكائنات . اما ان وجود الله فرض لا داعى له لفهم الكون فمردود عليه بأن المسألة ليست مسألة فرض بل حقيقية واقعة ، فالحيوان الذى يذبح قربانا لآلهة البدائيين ، ليس فى حاجة الى فرض وجود الخرافات لفهم ما يدفع الانسان الى ذبحه ، وهى مع ذلك موجودة وانما يكون الأمر عنده أمر قضاء وقدر .

وصفات الله عند الانسان محدودة بما هو فى متناول العقل الانسانى وسنضرب مثلا لذلك صورة الظل ، ما هى الا صورة الانسان حين تعمل فيه الشمس وليس فيها ما يدل على صفات الشمس .

استطاعت نظرية **وحدة المعرفة** أن تفسر ما هو غامض ومجهول ومعقد بما هو واضح ومعروف من الأمور البسيطة نوعا . وهذا بالطبع لا يقودنا الى القول بأنها مجرد نظرية تصويرية ، او شارحة للعلاقات والأمور المعقدة بتمثيلها بأمور اقل منها تعقيدا . فلم يكن هذا هو غاية

النظرية ، ولكن النظرية في فروضها وتفسيراتها ، وامثلتها استطاعت أن تفسر ما هو غامض ومجهول ومعقد بما هو واضح ومعروف من الأمور البسيطة نوعا ، وفضلا عن الفائدة المباشرة من ذلك في فهم الغامض وتبسيط المعقد فان اتساق الأمور الغامضة والبسيطة معا ولو عند التمثيل لها بعضها ببعض يدل دلالة ما على وحدة المعرفة .

وتتميز نظرية وحدة المعرفة بالخصوبة فهى تساعد على حل مشكلات عديدة مازلنا حتى وقتنا هذا الذى بلغت فيه المعرفة حدا كبيرا « من العلم فى حاجة الى حلها حلا عقليا لا نتكلفه لها . ومن هذه المشكلات القضاء والقدر » ، وتساعد نظرية وحدة المعرفة على أن تسقط من المعرفة ما يكون فيها من آراء تخيلية لا يراد بها الا ملء كل فراغ فى نظام المعرفة .

وقد ذكرت النظرية أن من خصائص العقل الذى يعد جهاز التفكير انه لا يطيق الفراغ ومن ثم فهو يحاول ابدا أن يكون علمه كافيا لتفسير ما غمض عليه ثم قالت أن وجود الفجوات امر طبيعى اذ لم يكن على الطبيعة أن تملأ الاحتمالات .. ولا ريب أن هذا يساعد مساعدة كبيرة على قيام العلم — فى جميع صوره على أسس لا تحتمل الاختلافات التى تؤدى به الى صورة غير علمية على الاطلاق .

وبنظرية وحدة المعرفة يمكننا أن نتعمق الظواهر الكونية الى حد أبعد كثيرا مما وصلنا اليه من قبل ذلك اننا وجدنا منهجا كاملا نستطيع ان نجد فى فروضه المختلفة وترتيباته المنطقية ما يساعدنا على هذا الفهم والتعمق وترك البحث فى الظواهر الى الجوهر الحقيقى وهوماتعنى بالبحثعنه وحدة المعرفة عنه عرضها للأمور وترتيبها لها . وعندى أن مطابقة نظرية وحدة المعرفة للواقع هى أعظم مزاياها وهى فى الوقت نفسه موطن الضعف فيها ، لا من حيث قيمتها كنظرية وانما من حيث «التطبيق» فنظرية وحدة المعرفة لمفكرنا الكبير لا تحقق هدفا أيا كان غير الهدف العلمى الفكرى .

أما النظريات الفكرية الأخرى التى تكون أساسا لمطامع معينة فانها لا بد أن تأخذ صبغة ما كالتحليل المادى والحتمية التاريخية ..... الخ) فى هذه الصبغة يتمثل لنظرية أو لأخرى راية يلتف حولها ويقاد بها . أما نظرية وحدة المعرفة فترمى الى تقنين الواقع واصلاح منهج دراسته وماذا يجعل ذوى المطامع يلتفون الى مطابقة الواقع وهم لا يريدونه؟

وفضلا عن ذلك فان النظرية تتصل أولا وأخيرا بالعلم ولهذا فهى تستعصى على من يريدها سلاحا سياسيا أو الاتماعيا وتبقى بمنأى عن ذلك كله .

وواضح أن عظمة النظرية العلمية الفكرية ، تكمن فى هذا الارتفاع وكذلك يكمن موطن الضعف فيهـا وهو بعدها عن التطبيق والذيوع . وليس فى هذا ما ينقص من قدر نظرية وحدة المعرفة فغايتها كما يقول المؤلف « الاصلاح المنهجى » بترتيب أجزاء المعرفة ترتيبا يطابق الترتيب الطبيعى للقوانين . الكونية بدءا بالماديات ثم تقـام عليها قوانين الحياة وعلى قوانين الحياة تقام قوانين الانسان وبهذا تصبح المعرفة هرما قائما على أساس الطبيعيات .

وقـد رفعت النظرية من قدر الايمـان حين جعلته أكبر المعنويات الانسانية وأشملها وجماع النظام العقلى كله لأنه يدل على نظام فى التكوين العقلى .

وتعرضت النظرية لمشـكلة اثبات وجود الله فحلتها حلا عقليـا مقبولا حقا وهو فى الوقت نفسه لا يقود الى مفاهيم خاطئة . فقد حرص الدكتور على أن يؤكد أنه انمـا يفسر المعنويات تفسيرا طبيعيا وقد نفى كثيرا أن يكون تفسيره تفسيرا ماديا وقد نجح فيما يتعلق ــ ولو بالناحية اللفظيـة ــ أن يسير على هـذا الخط الا عنـدما قال « أما قـول المؤمن ان النفس والضمير امور لا يمكن فهمها من تركيب الانسان فيرد عليه أنه من الممكن تفســير ذلك ماديا ، وهى محـاولة أن لم تكن ناجحة فقـد ثبت أنه ليس مسـتحيلا » وقد يكون ورود هذا التعبير فى كـلام الدكتور مشارا به الى انه من الممكن (عند غيره) .

وللدكتور مفاهيم قد لا تكون صائبة تماما مائة فى المـائة ، اذا طابقناها بالتعريفات ، فلو نظرنا الى المستحيل عنده لوجدناه ينتقى بمجرد المحاولة وان كانت خاطئة وهذا فى الواقع ينتفى معه الاستبعاد ولا تنتفى معه الاستحالة . ونظرية وحدة المعرفة نظرية « مفتوحة » بمعنى انها تتقبل التطور الطبيعى الحادث فىالمستقبل ولاترى فيه شذوذا بل انها ترى أن زيادة العلم بناحية من نواحى البحوث العلمية تبين لنا نظاما لا شك فيه ، فالعالم كله وكذلك المعرفة مجموعة من الأشياء المنظمة تنظيما يختلف بساطة وتعقيدا حسب طبيعة هذه الأشياء من التكوين ، ولا يشذ عن ذلك عقل الانسان ولا ضميره » .

ولا يقول بنظرية وحدة المعرفة الا « طبيب » وواضح جدا أن طريقة تنظيم الأفكار فيها ، وطريقة النظر فى الأمور واستنتاج صورة عامة للحالة عموما مع عدم معرفة كل الأجزاء والترتيب العقلى للأعراض المختلفة ، ورد الاعراض الى سبب غير ظاهر ، وان بدا أن هذه الأغراض مرتبطة ببعضها ارتباط السبب والمسبب كل هذا تفكير طبى أكلينيكى . والواقع أن تفكير الدكتور كامل حسين فى « وحدة المعرفة » جاء من حديث الناس عن الذاكرة فى المخ انها تشبه التسجيل الالكترونى فوجد فى هذا حلا فسيولوجيا لعقدة المعنويات . وكان يقول عن كتابه انه ليس بحثا فلسفيا ولكنه « فكرة برقت لى تتبعتها بمعلومات كلها مستقاة من أصولها العلمية » .

● ● معركة العقاد حول وحدة المعرفة

بدأت معركة العقاد فى يوميات الأخبـار تحت عنـوان اقتباس أم توارد خواطر يوم الأربعاء الرابع عشر من نوفمبر سنة اثنين وستين وتسعمائة والف بسؤال وجهه عبد العزيز البدرى من ميت غمر دقهلية يسأل فيه عن تشابه بين آراء الفيلسوف الكسندر صمويل أبى الفلسفة المثالية التجريبية وبين آراء الدكتور كامل حسين فى وحدة المعرفة .

وقال العقاد ان التشابه تام خصوصا بين ما كتب الدكتور وما كتب الكسـندر صـمويل فى كتـابه « Space, Time and Diety » أى المكان والزمان والربوبية وقد نشره سنة ١٩٣٤ . كذلك فان بعض آراء هذا الفيلسوف التى تدور حول بحث الجمال والفن مفصل فى كتابه الآخر عن « الجمال وصور من القيم الأخرى » .

وقد لخصنا ــ أى العقاد ــ من المذهب الفيلسـوف فى كتابنا عن الله الـذى الفناه قبل سـتة عشر عاما ص ٢٥٢ ــ ٢٥٤ الجـانب الذى يتناول الربوبية وصفات المادة . وعدنا فى كتابنا عقائد المفـكرين الى بيان مذهبه وعقيدته ببعض الايجاز . ثم قال الأستاذ العقاد فى النهاية أما السـؤال عن توارد الخواطر فالأسـتاذ المؤلف أولى منا بالاجابة عنه .

وفى الصفحة الثالثة من « الأخبار » يوم الأربعاء الحادى والعشرين من نوفمبر تحت عنوان « الدكتور محمد كامل حسين يرد على اتهام الأستاذ العقاد » قال الدكتور ما ملخصه :

(١) لا أظن العقاد جادا فهو لم يقم الدليل بل ترك الأمر الى ، مع علمه ان البينة على من ادعى .

(٢) اصالة كتابى ، وأمانتى العلمية فوق الشك .

(٣) المعنيون بالعلوم فى شغل عن أن ينقلوا معلوماتهم عن ملخصات ولو كان الملخص هو الاستاذ العقاد .

(٤) لو كان الأمر يتعلق بى ما عنيت بالرد ، فالاتهام لا يقوم على وقائع محددة ولكن المسألة وجوه تتعلق بالحياة الفكرية عندنا ، ويحسن أن توضع الأمور فى نصابها .

(٥) والأستاذ العقاد رفعنى فوق نفســه اذ جعلنى ندا لرجل يقوم هو بتلخيص كتابه ، سوى بين كتابى وكتاب فيلسوف يراه من أعظم الفلاسفة ومن ثم فان كتابى وفلسفتى جديران بتلخيص الأستاذ العقاد واشادته اذا ثبتت أصالة كتابى .

(٦) وهى ثابتة من غير شك ، فبناء الكتاب يسير فى تســلسل منطقى علمى ، وليس فى منطقه ثغرة وقد يتبين أن المذهب الفكرى الذى يقــوم عليه الكتاب خطأ كله ولكنه لا يمكن الطعن فيه بأنه منقول ، وأسلوب الكتاب وترتيبه لا يدعان مجالا للشك فى أنه أصيل .

(٧) والأستاذ العقاد صادق الحس فى الشعر والأدب ، ولكنه ليس كذلك فى البحوث العلمية وما يقوم عليها وصدق الحس فى العلوم ينشأ من ممارستها ممارسة طويلة ، وقد خانه الحس حين ذكر أن التشابه تام بين كتابى وكتاب من يلحقه اليه لأن الفرق بين المذاهب العلمية قد يدق على من لا يحسن العلم بها وسأسوق أمثلة تبين ما يدعيه الأستاذ العقاد من تشابه ، ليس الا نتيجة عدم تبصره بحقيقة مذاهب التفكير العلمية .

(أ) فما رأى الأستاذ فى رجل يقول ان التشابه تام بين شوقى فى قصيدته قفى يا أخت يوشع ..

وبين معلقة عمرو بن أم كلثوم : —

ألا هبى بصحنك . . . .

وان شـــوقى سرق قصـيدته من المعلقــة ، لأن القصيدتين تتفقان وزنا وقافيه .

ألا يرى الأستاذ العقاد أن ذلك الرجل لا عهد له بالشعر .

(ب) وما رأى الأستاذ العقاد فى رجل يقول أن رفائيل سرق صورة ليوناردو لأن الصورتين تصوران العذراء وطفلها ألن يكون رد العقاد على هذا الرجل — اذهب وتعلم نقد التصوير !

(ج) وما رأى الأستاذ العقـــاد فى الرجل لا حس له فى الموسيقى يرى التشابه تاما بين جميع الأوبرات .

(د) وماذا يرى الأستاذ العقاد فى جهل رجل يظن التشابه تاما بين جامع السـلطان حسن ، وجامع قايتباى لأن فى كل منهما قبابا ومآذن

ومنبرا ومجرابا ألا يرى الأستاذ العقاد فيها جميعا نقص حس فى الأمور التى يتناولها الناقد ؟

(٨) وأصالة العقاد فى الشعر والأدب حملته على أن ينقل الى ميدان العلوم الفلسفية أسلوبا فى النقد لا يصلح للعلوم ، وذلك أن بضـاعة النقد القائم على دعوى السرقات الأدبية لا تنفق فى سوق البحوث العلمية وما يقوم عليها ، والمشتغلون بالعلوم لا يؤمنون بهذا الأسلوب ويفضلون أن يتركوه للأدباء والقدامى منهم بالذات وخاصة من ينقدون الشـعر العربى (وله صفات خاصة قد تجعل النقد بدعوى السرقة مقبولا فيه). أما فى العلوم فلا يمكن أن يكون هذا سبيل النقد الحق لان كل نظرية علمية تقوم على حقائق سابقة ، ولم يقل أحد أن هاكسلى سرق من داروين لأن كليهما أثبت التطور ، أو أن توينبى سرق من شبنجلر على تشـابه آرائهما ، والعلوم تبحث عن الحقيقة وهى ثابتة .

(٩) والتفاضل بين البحوث يقوم على نجاحها فى اثبات الحقيقة ، وعلى الطريقة المؤدية الى هذا الاثبات ، وعلى ايجاد مذهب مستقيم متكامل يضم اشتات القوانين الطبيعية ، والانسانية والسماوية ، ويحدد علاقاتها . وليرجع الأستاذ العقاد الى كتاب وحدة المعرفة يجد فيه شرحا وافيا لهذه المسألة .

(١٠) ألا يعلم الأستاذ العقاد أن كتب التوحيد تؤدى كلها فى آخر الأمر الى اثبات وجود الله ؟ ، فهل كل منها مسروق من الآخر ، وهل الأمر كذلك فى كتب التطور والنسبية ؟ ، ويجب أن يعلم الأستاذ العقاد أن أكبر

ما يشغل المفكرين فى العصر الحاضر هو البحث فى الأساس المادى للمعنويات، وستكتب مئات الكتب فيه وسترد عبارات الزمان والمكان والتطور ، والوراثة والربوبية ، فهل ورود هذه العبارات يجعل التشابه تاما بينها وبين الكتاب الذى تشرف بتلخيص العقاد ٠

على انى لم أعثر على معلومات عن هذا العلم من أعلام الفلسفة الانجليزية ، ودائرة المعارف البريطانية لا تعرفه ٠

ولا أدرى هل هو فيلسوف لجأ الى العلوم ليثبت نظرية ، أم هو أصلا عالم طبيعى امتد به التفكير الطبيعى الى أن شمل المباحث الفلسفية وهما مذهبان مختلفان جدا مهما يكن التشابه فى الموضوعات واللغة ٠ وكتاب (وحدة المعرفة) من النوع الثانى مثله فى ذلك مثل كتب جوليان هاكسلى ، وهنرى بوانكاريه فهو أصلا كتاب علم أراد مؤلفه أن يثبت ان المذهب العلمى يمكن أن يهدينا الى الحق اذا امتد الى ميدان الفلسفة والدين واذا كان صمويل هذا من الفلاسفة فمذهبه أبعد ما يكون عن مذهبى بل ان كتاب (وحدة المعرفة) ينعى على الفلسفة أشياء كثيرة والفرق بين المذهبين دقيق ، ولا يخفى على ذوى الحس العلمى المرهف وكتابى كل لا يتجزأ ويجب أن يقرأ من الأول الى الآخر وأن يدرس بعناية واغفال أى جزء يصعب تتبع الجزء التالى ٠ والغالب أن العقاد (كما يفعل الأدباء حين ينقدون قصة أو رواية) قرأ فصلا عن (الربوبية) وظن أنه باب قائم بذاته ، وفاته انه ليس الا طبقا لنظام مذهبى معقد سابق عليه ولو أنه قرأ الكتاب كله لرأى فيه أشياء لا يمكن أن تكون قد صدرت عن صمويل لأصالتها ومن ذلك نظرية القوانين والأشياء ، وتفاضل القوانين ، وعلاقة القوانين العليا بالدنيا ٠ والتفسير العلمى للقضاء والقدر ولا أظن أحدا سبق اليه ٠

وتساءل الدكتور ما للعقاد يزج بنفسه فى ميادين لا يحسنها ؟ وقال أن العقاد ذو ثقافة واسعة ولكن تقديره لثقافته العلمية مبالغ فيه جدا ٠ والعصر الحاضر يرى أن يبلغ الناس أوج الثقافة عن طريق التخصص لا العكس وقد كنا فى الماضى نقنع بالعلم التحصيلى ، وكان الناس يظنون أن العالم هو الذى قرأ أحسن ما كتب الغربيون ولكننا نحرص الآن على أن يكون علمنا أصيلا وشتان بين العلم بالتحصيل والقراءة والعلم بالممارسة والخبرة ٠ وقديما عاب الناس حتى فى العلوم النظرية أن يكون الانسان صحفيا لم يلق العلماء ، ومن طبائع الأشياء أن يكون العلم بالاطلاع أمرا يزهو به المطلع لكثرة ما حصل وقرأ ، على حين أن العلم بالخبرة وهو وحده العلم المنتج يجعل صاحبه مهموما لكثرة ما يجهل ٠

الأول يدعو الى الغرور والثانى يدعو الى التواضع وختم الدكتور رده برجاء العقاد رجاء حارا أن يقرأ وحدة المعرفة قراءة درس واستيعاب ، فقد يرى ان يلخص هذا الكتاب كما لخص كتاب صمويل . « ولعله سيشرح فلسفتى فى كتابه عن نفسه وهو الكتاب الذى سيظهر قريبا والذى سيكون عنوانه من غير شك التواضع يشير بذلك الى أن العقاد لخص فلسفة صمويل فى كتابه عن الله .

٣ ــ وفي اليوم التالى (الخميس الثانى والعشرين من نوفمبر) فى نفس المكان من جريدة الأخبار تحت عنوان «**مثل فى التواضع والخبرة بالدراسة**» رد الأستاذ العقاد على الدكتور كامل فقال :

اننا سئلنا عن نقل فأحلنا عليه ، مجاملة له وابقاء على كرامته ونقل بعض فقرات من كلام الدكتور كامل عليه ثم عقب بقوله :

« فنحن من الناس الذين لا يحسنون التفرقة بين المذاهب العلمية » ولم نمارس المباحث الفكرية كما مارسها الدكتور كامل وهو طبيب عظام. ونحن نحتاج الى التواضع لفهم فلسفته ، وقد ألفنا عشرين كتابا منذ عشرين سنة فى الفلسفة الالهية وعقائد المفكرين والفلسفة القرآنية وابن سينا وابن رشد وباكون والحكم وتناولنا القديم والحديث » ثم استنكر على الدكتور ادعاءه على كتاب يزعم أنه لم يقرأه أنه يستحيل أن تكون فيه تلك الآراء التى لا يجوز أن تخطر على بال أحد ثم قال عن الدكتور كامل انه لايحسن البحث والدعوى ، ولا يحتاج الا الى التواضع ، ولا ينبغى له أن يخوض فى الفلسفة لأنها غريبة عن تجهيز العظام ، وانه لم يمارس البحث طويلا ولا قصيرا والا لعرف صمويل وليس من الفلاسفة المعاصرين من هو أشهر منه فى عالم الثقافة الأدبية ، وقد عرفته دائرة المعارف ص ٥٧٦ جـ ١ وذكر العقاد أجزاء من دائرة المعارف عن صمويل الكسندر وتلخيصها لمذهبه . ثم قال ان الصفحات من ٣ ــ ١٦١ من كتاب الدكتور كامل تحكى مذهب هذا الفيلسوف . وعاد الى مهاجمة الدكتور فوصفه بأنه ليس طويل الدراسة للمباحث الفكرية وانه ليس بالرجل الذى يعلمنا ادب التواضع ، لأن المتواضع يذكر الحياء الواجب حين تحدثه نفسه باحتقار هذا الصمويل « بغير ذنب جناه غير فلسفته التى يتعالى بها الهمام ، وليس الدكتور محقا فى بحثه ولا تمحيصه لأن الباحث المحق لا يدعى على دائرة معارف تملأ الأرض انها خالية من ذكر الفيلسوف وهى تنوه بشأنه هذا التنويه . ولا نريد بعد ان نتعلم على يد الدكتور درسا فى التواضع لاننا قد نحس بعد مقالاته اننا فى حاجة الى درس آخر يعوزنا

الى الآن ، ذلك الدرس هو الكبرياء التى كان ينبغى أن نتعلمها ليعلم الدكتور كيف يتواضع أمام من هم اخبر منه بما يدرســون ولعله يراجع برنامج الدروس اللازمة لنا وله بعد استيفاء هذا البحث فى اليوميات التى لا يستحيل أن تبصره يومئذ بمواضع التبصير ٠

٤ ــ ويوم الاثنين الموافق السادس والعشرين من نوفمبر طلعت جريدة الأخبار تقول فى صفحتها الثالثة :

« **الدكتور زكى نجيب محمود ينضــم الى الأستاذ العقاد فى اتهام الدكتور محمد كامل حسين ٠٠ أقســم بالله أننى ضربت كفا على كف !**
وكان مما قاله الدكتور زكى :

لو قال الدكتور كامل أنه استوحى ذلك الكتاب لقلنا قد يكون كذلك أما أن ينكر كل علاقة له بالكتاب وصاحبه فأمر يستحيل تصديقه٠ ولا عبرة لنا بمكانة الكسندر فذلك لا شأن له بالموضوع فقد يكون أتفه التافهين ، وربما عن لأحد أن يأخذ عنه بل ربما كانت العلة السكوت عن ذكر المصدر الأصيل هى أنه فى رأى الناقل مصدر مظلم مجهول قد لا تراه الأبصار ٠

وذكر الدكتور زكى انه منذ ثلاث سنوات فى ندوة اذاعيــة حول هذا الكتاب شكر للدكتور كامل أنه (قدم) هذه المادة لقراء العربية ٠

٥ ــ وفى اليوم التالى (الثلاثاء الموافق السابع والعشرين من نوفمبر) تحت عنوان (**الرعب عند بعض المفكرين !!**)

(الدكتور محمد كامل حسين يرد على الدكتور زكى نجيب محمود)
رد الدكتــور كامل حسين فقال : انه ما يزال يرى أن الجدل حول اصالة الكتاب جدل عقيم وانه رد على أهم ما فيه ولولا أن الأخبار طلبت منه الرد على الاتهام الجديد ما فعـــل ٠ أما الدكتور زكى فأظنه كان فى الاذاعة موضــوعيا فى رده حين ذكر أنه لا يفهم كيف يكون الايمـــان نتيجة طبيعية لتكوين المخ الانسانى ، وليته عاد الى مثل هذا النقد الموضوعى ولم ينزلق الى دعوى السرقة الأدبية والمسألة هى أزمة التفكير الأصـــيل ، فبعض المفــكرين عنـــدهم رعب من التفــكير الأصـــيل ، لا يحاولون الا أن يكون لهم سند من اسم مشهور ، فاذا حاول غيرهم هذا التفكير غضبوا أن يكونوا مسبوقين وكل جديد عندهم غير مقبول، وليتهم يحاولون التفكير المستقل الأصيل الصادق . واعتبر الدكتور

كامل المسألة منتهية وقال (ليكتب من يشـاء ما شـاء كل على قدر صدقه وعلمه أو حسده وادعائه) .

وقال العقاد (للأخبـار) فى نفس (العمـود) انه سيتناول فى يوميات الغد (النقل) فى كتـاب الدكتور كامل ، وسيذكر ما يثبت أن اسم الكتاب نفسه مستعار من كتاب الفيلسوف الانجليزى « أما الرعب فهو شىء يفهمه الدكتور لأنه لم يستطع أن يفهم اننا كنا أصحاب رأى مستقل فى مذهب الفيلسوف الانجليزى حين شرحناه منذ ١٦ سنة » . ثم تعجب من أن يسمع الدكتور كامل حديث الدكتور زكى يشير فيه الى كتاب صمويل الكسندر ، ثم يقول انه لم يسمع بهذا الصمويل .

— وفى اليوم التالى الأربعاء الثامن والعشرين من نوفمبر كتب الأستاذ العقاد مقالا طويلا تحت عنوان (مثل من التحقيق والخبرة للدراسـة العلمية) أخذ يسرد فيه أقوالا من كتابى كامل حسين ، وصمويل الكسندر ويطابق بينها .

٧ — ثم أن الدكتور كامل حسين قرأ ما كتب صمويل الكسندر وقارن بين كتابيهما وخرج بمقال مفصل نشره فى (المجلة) فى يناير سنة ثلاث وستين وتسعمائة وألف تحت عنوان « **حول وحدة المعرفة** » وستعرضه فى النقاط التالية :

(١) قال الدكتور فى البداية أنه لم يدع يوما من الأيام أنه فيلسوف أو مغرم بالفلسفة .

(٢) وكرر قوله ان المشتغلين بالعلوم لا يألفون هـذا النوع من النقد .

(٣) ثم ذكر أنه رأى أن يتولى المقـارنة بين الكتابين فى جو هادىء فينبه الى ما جاء فى كتاب (الكسندر) من حلول فلسفية لمسائل تناولها كتاب (وحدة المعرفة) ويقارن بين الأسلوبين فى البحث وهذا هو الأمر الأول . أما الأمر الثانى فهو ذكر ما ورد فى وحدة المعرفة ولم يرد فى كتاب صمويل الكسندر على قدر علمه به ، والأمر الثالث هو القول فى الجزء المتشابه من الكتابين وسنعرض لآرائه فى هذه الأمور الثلاثة .

(أ) أما الأمر الأول فان الكسندر رجل فلسفة يعنى بالمغزى والقيم أما البيولوجيا فتعنى بوسيلة التطور و (الميكانزم) التى يتم بها ، والكسندر قد جعل للجمال فلسفة عالية أما أنا فقد جعلت الجمـال والحب عملية فسيولوجية مخية الكترونية ، وحديث الكسندر عن الخير والشر والأخلاق

حديث طويل لأنه فلسفي ، أما وحدة المعرفة فقد ردت المعنويات الى شيء محتمل أساسه هو فسيولوجيا المخ · واستشهد الدكتور لكل من هذه المقارنات بعبارات مطولة من الكتابين ·

• • وهناك أمور وردت في وحدة المعرفة ولم يرد لها ذكر في كتاب الكسندر ومنها : —

(ا) البحث في اسباب تفرق اجزاء المعرفة .

(ب) بعض الأمثلة المتعلقة بتاريخ المعرفة (كمثل الرجال الثلاثة على حافة كبيرة وفي وسطها شجرة باسقة يغطيها الماء) وهو مثل ضربه الدكتور ليبين به كيف يكون الادراك ناقصا عند كل من الثلاثة حتى آخرهم الذى استطاع أن يصل الى أكثر مما وصل اليه زميلاه .

(ج) نظرية الهرم المقلوب وصفا للمعرفة ·

(د) تناول العقل من حيث هو جهاز التفكير والبحث في صفاته التي تتعلق بالمعرفة لا في كنهها ·

(هـ) تقسيم مذاهب التفكير الى خرافي علمي وديني فلسفي ·

(و) الحملة على « العلة الغائية » ·

(ز) رفض ان يكون مبدأ (تنازع البقاء والبقاء للأصلح) هو السبب في التطور .

• • أما فيما يختص بالجزء المتشابه من الكتابين وهو الأمر الثالث فقد قال الدكتور :

(أ) اعتذر عن جهلي بصمويل الكسندر .

(ب) دعواى انى لم أعرفه ليست ناشئة عن الرغبة في دعوى الابتكار ولكنها الواقع ·

(ج) أكبر التشابه هو استعمال تعبير (هير أرشيه القوانين) وهى كلمة قديمة معروفة يتعلمها البيولوجيون من أول يوم في دراستهم الأولى .

ولم تكن الاليكترونات في كتابى الكسندر واوسبنكي قد بلغت ما بلغته اليوم (وهو ما وضح في وحدة المعرفة) ، وعلاقة هيرارشيتى القائمة على الذرة والالكترونات بهيرارشية الكسندر القائمة على

النسبية كالعلاقة بين النسبية والجاذبية ، والنسبية تشمل الجاذبية وهى أثبت أصولا وأخصب .

وأنهى الدكتور كلمته بقوله : أليس خيرا من ذلك كله أن ندع كتاب « وحدة المعرفة » ومؤلفه فليس هو آخر كلمة فى الموضوع وأن يتفضل أحد مفكرينا فيبدى لنا رأيا أصيلا فى المعرفة وهل يمكن توحيدها ؟وهل يكون هذا التوحيد عن طريق النسبية كما فعل الكسندر أم عن طريق الذرة والالكترونات (كما فعلت) أم عن طريق ثالثة يكشفها لنا ويكون له من الأمة خير الثناء .

٨ — وأخرج العقاد كتابه « يوميات » ونشر فيه بالطبع مقالاته الثلاث التى دخل بها معركة « وحدة المعرفة » . وفى حديث صحفى أجراه محمود عوض مع الدكتور ذكى محمود عوض الدكتور كامل بمعركة العقاد هذه فقال الدكتور كامل : من العجيب أن من يريد الرد على صمويل الكسندر لايجد غير كتابى ، وعلى كل فقد انتهت المعركة وقتها الى اقتناع العقاد بخطئه فراجعه محمود عوض قائلا : ان العقاد أعاد نشر رأيه فى كتابه (يوميات) وسأله هل أنت متأكد يا دكتور من أنه تراجع ؟ ، فقال نعم وتقابلت مع العقاد بعد ذلك فى اجتماعات ومناسبات مختلفة وكان الحديث وديا ولم يعد العقاد الى فتح هذا الموضوع .

وكتب عامر العقاد فى كتابه « معارك العقاد الأدبية » يرد على قول الدكتور كامل فقال : « لم يعتذر العقاد حيث لا مجال لاعتذاره لأنه سجل أن الدكتور قد أخذ الكتاب بأفكاره وتبويبه تماما ، وقد تدخل الدكتور زكى يوم ذاك وأعلن رأيه الى جانب العقاد ، وسياق المنطق كما هو معروف لا يعنى لو أخذنا بزعم الدكتور الا أن العقاد قد تراجع عن رأى فما هو هذا الرأى الذى تراجع عنه العقاد ؟ هل تراجع عن أن الدكتور أخذ من صمويل والأخذ ثابت ؟ أم عن ماذا ؟ هذا مجرد سؤال للتاريخ وللحقيقة وللمؤرخين من كتاب الأدب المعاصر » وقد أبدى الأستاذ عامر العقاد سؤالا نود أن نوفيه حقه من الاجابة بالاشارة الى بعض الظروف التى أحاطت بمعركة العقاد :

(١) لا نستطيع أن نقول بوجود هذا التسائل من ميت غمر وأرجو أن نعيد النظر فى صيغة السؤال التى أخذ منها الأستاذ الكبير عبارة وجعلها عنوان اليوميات (اقتباس أم توارد خواطر) .

(٢) ومما يزيد فى شكنا أن الأستاذ عامر العقاد نفسه قال فى كتابه معارك العقاد الأدبية : « وبعد أن قرأت الرسالة على العقاد قال لى : ان صاحب السؤال من القراء الجادين وأن التشابه تام بين الافكار فى كتاب الدكتور كامل وبين قواعد مذهب الكسندر ويبدو أن صاحب السؤال من التلاميذ الأشقياء الذين يريدون أن يوقفوا الدكتور مواقف محرجة عن طريقنا ، ونحن لا نملك تجاهل السؤال لأننا مطالبون أمام الحقائق العلمية بالرأى القاطع فى هذه القضية هذا من ناحية أما الأخرى فان الدكتور كامل زميل لنا بالمجمع وصديق وفى هذا موقف حرج لنا ان نحن اتهمناه علنا بسرقة أفكار الرجل الآخر » .

(٣) فى عرضه للمعركة ابان الأستاذ عامر العقاد عن أن العقاد أخذته الحمية فى ردوده على الدكتور كامل لأن الأمر تعلق بعلمه (أى علم الأستاذ العقاد) و ... من صفاته الشخصية .

(٤) لم يكن الدكتور كامل يرد الا بعد درس وتمحيص ولم يتناول اتهامات العقاد تناولا علميا الا بعد بدء المعركة بأكثر من شهر عندما نشر مقاله ـ حول وحدة المعرفة ـ فى عدد المجلة يناير ١٩٦٣ وهو المقال الذى لم يرد عليه العقاد فيما نعلم .

(٥) وكان الأستاذ العقاد يتناول القلم فيكتب رده ويخرج رأيه الى الناس فى اليوم التالى وان منهم من لم يكمل بعد قراءة رد الدكتور كامل .

(٦) لم يكن هناك ما يسوغ دخول الدكتور زكى نجيب محمود الا أن يكون ذلك المسوغ نفسيا . خاصة وأنه لم يضف جديدا الى الموضوع وانما كرر اتهام العقاد وضرب كفا بكف ثم فلسف لنا كيف نختار من نسرق أفكاره ؟

(٧) اتهم الأستاذ العقاد الدكتور بالسرقة والنقل وقد رد الدكتور كامل حسين بأن هذا لا يعنى المشتغلين بالعلوم انما يعنيهم منهج البحث وظل الأستاذ العقاد سائرا على نفس الطريق فى اثبات النقل ولم يناقش فى منهج البحث مع ايماننا أنه كان يستطيع ذلك ، أما الدكتور كامل فلم يمض فى الدعوة الى مناقشة منهج البحث فحسب ولكنه رد على العقاد دعوى النقل فى مقال علمى .

(٨) كان الأستاذ العقاد جدليا ولا كان الدكتور كامل كذلك وقد اعترف الأستاذ العقاد للدكتور كامل فى تعقيبات كثيرة فى مؤتمرات

ومجالس مجمع اللغة العربية بفضله على البحوث اللغوية والدراسة وما الى ذلك مما اضطرته ظروف المعركة أن يحاول نفيه عن الدكتور وقد اعترف الدكتور للأستاذ العقاد بصدق الحس فى الشعر والأدب و ٠٠ و ٠٠ فى مجاله ولا أرى فى قوله (أن ثقافة الأستاذ العقاد العلمية مبالغ فيها ٠٠) مبالغة ولا بعدا عن الحقيقة وقد لا يكون الأستاذ العقاد هو المبالغ فى ثقافته العلمية ولكن المبالغة أصابتها على كل حال ٠

(٩) أما أن صلحا قد تم بين العملاقين فأمر لا ريب فيه وقد حدثنى الدكتور العتبى أنه طلب الى الدكتور أحمد بدوى زميلهما فى المجمع أن يصلح ذات بينهما ، وقد فعل ٠

(١٠) وبعد ؛ فنحن مدينون لعبد العزيز البدرى بفضـــل كبير ! ولعل الأستاذ عامر العقاد يعلم أن أمورا كثيرة كانت تستأهل اعتذار العقــاد وامتناعه ، وأمــر « النقل » لا يعد أمــرا من هذه الأمور وانما كان « لافتة » للاتهام وبالطبع فاننا لا نستطيع أن نزيل لافتة الاتهام لأن أمره قد خرج من ايدينا واصبح ملكا للتاريخ ٠

●● الوادى المقدس

سنة ثمان وستين أخرج كامل حسين كتاب (الوادى المقدس) ، وطبعته له دار المعارف ، ونشره فى أوساط محدودة وذات مستوى فكرى معين ، وكان حريصا على أن يعرف رأى هؤلاء فيه ، وقد نشر فى الفرنسية ، وترجمه الأسقف بيشوب كراج الأسقف الانجليزى للشرق الأدنى الى الانجليزية ، وراجع كامل حسين الترجمة ، وقد رات النسخة الانجليزية النور عن قرب . وقد قلنا عن (وحدة المعرفة) انه كتاب يعطى نظرية جديدة فى فلسفة المعرفة هى نظرية وحدة المعرفة . وعن التحليل البيولوجى للتاريخ .... نظرية جديدة فى فلسفة التاريخ ، هى نظرية التحليل البيولوجى للتاريخ . ولكننا لن نقول عن (الوادى المقدس) وهو كتاب يتعلق بفلسفة الديانات انه الكتاب المقدس لدين جديد وان كان يعرض فلسفة دينية جديدة على نحو ما سنتبينه فى هذا الفصل .

يضم هذا الكتاب تسعة وستين فصلا فى سبعة أبواب هى : الوادى المقدس ، التطهير ، التطهر عن طريق الدين ، الهدى والضلال، الحقائق الأبدية ، الحرمان ، الضباب . وسنمس هذا الكتاب مسا رفيقا فى عرض سريع يراعى ترتيب الكتاب ، وهو عرض لا يغنى عن قراءته ، وانا لنرجو أن يشوق اليها :

الباب الأول (الوادى المقدس) :

« الوادى المقدس هو البقعة من الأرض ، والقطعة من الزمن والحال النفسية التى تسمو فيها فوق طبيعتك ، وطبيعة الأشياء

وضرورات الحياة وحدود العقل . هو حيث يكون ايمانك بما تؤمن به ايمانا خالصا لا يشوبه شك ولا يعتريه ضعف . هو حيث يملك عليك هذا الايمان عقلك كله ، وارادتك كلها . هو حيث تقف خاشعا فى غير رهبة ، خاضعا طواعية للمثل التى ترضاها لنفسك ، وان لم يشهد عملك رقيب ، لا يحملك على مشقة ذلك الا الايمان وحده ، لا ترجو على ما تعمل جزاء ولا شكورا ، هو حيث يحتوى قلبك حب عميق خال من كل غل أو حقد .. » وهكذا يمضى مفكرنا الكبير فى سرد تعريفات وصفية للوادى المقدس .

ثم يحدثنا أن احلام الخير كلها تتحقق للمرء فى الوادى المقدس، الذى هو أيضا المأوى الذى يقى من عواصف الشر ، ويمضى هذا الفصل فيحدثنا عن (الرجل الاعلى) الذى يرغم الناس على الخضوع لارادته الغالية ، فيقول عنه انه لا يزيده المجد الا ظمأ .

ثم يقول « وليس النجاح فى هذه الدنيا مانعا من التطهر ، وليس التطهر عائقا عن بلوغ النجاح الدينى ، ولكن الجمع بينهما عسير ، واذا لم يكن لك مفر من الاختيار بين النجاح والطهر فخير لك أن تختار التطهر » ويعلل لك تلك الخيرية . ويبين لك خطأ الذين يرون أنهم فى غير حاجة الى التطهر ، والذين يحسبون أن الحياة الحيوانية أصل يمكن الاكتفاء به وان التطهر طارىء عليها ، « والواقع ان النزعة الى التطهر طبيعية فى الانسان بل هى عنوان انسانيته » . ثم ينصحك الا تنساق وراء ما يقنع به هؤلاء أنفسهم حين يقولون أن الشر من طبع الانسان وانه لا يدفعه الا شر مثله أو أقوى . فيقول « هذا التوهم أصل من أصول الشر » ، « أو ليس الشر سوء ظن متبادل ؟ وقد تكون له أسباب عميقة ومصادر قوية ولكنه ليس الا سوء ظن على كل حال » .

ويبدأ الفصل الثانى بتقرير أن الشر ليس من صنع الانسان ، وليس فيه ما يجذبنا اليه ، وانما هو فساد فى العلاقات بين الناس ، ثم يحثك على الجهاد فى سبيل التطهر وأوله الا تفسد هذه العلاقات فتقيم الاطمئنان فى ضميرك فيتحقق لك بذلك السلام بينك وبين نفسك « فأملك فى الانسانية يبدأ بتحقيقك أملها فيك ، ولا يفتن فى عضدك الا يقدر الناس خيرك فانه لا يعفيك شىء من أن تبدأ بنفسك فتطهرها قبل ان يدهمك الناس بالشر » .

ويقول لك الفصل الثالث ان التطهر ليس معنى خالصا ولا هو

عمل خالص وانما هو معنى فى النفس يتمثل اعمـالا ، وهو ما تحمله الاعمال من مغزى تتـأثر به فى النفس وانت تبنى حياتك عمـلا فوق عمل ، والأعمال الطيبة لا يتم بها وحدها طيب الحياة الا أن تكون حياتك صـادقة ، أى متسـقة وقوانين النفس البشرية ، « فاذا لم يكن قوام حياتك الطهر فلن يقوم عوجهـا ما تكون قد حققت من أعمال طيبة ، وليس فى ذلك ما يدعو الى اليأس فالطهر لا يفسـده بعض الشر حين تعمله عرضا أو تعمله مرغما » .

واذا اردت ان تكون حياتك طيبة صادقة فاعلم ان الحياة الصادقة تقوم على السلم بينك وبين نفسـك ، ويحققه الايمان ، وبينك وبين الاقربين ويحققه الحب ، وبينك وبين العالمين ويحققه الخير . فالايمان والحب والخير تؤدى الى الطهر كمـا قد تكون نتيجة لـه وفى مجـال النفس تختلط الوسائل والغايات .

والايمان هو أقوى هذه الامور فى تطهير النفس وهو وحده الذى لا يضل به أحـد فان ضل به بعض الناس فليس ذلك من أثر الايمان ، وانما يأتيهم الخطأ من سـوء فهمهم لمغزى ما يعملون ، يحسـبونه من الايمان وهو الى الشر أقرب .

« ويدلك على أن الايمان يكفى وحده لتطهر النفوس ما تراه من طهر الاتقياء والمنقطعين للعبادة ، فالطهر فيهم اكثر منه فى كبار المحبين أو كبار الحكماء » ، « وقد تظن أن التطهر فى كبـار الاتقياء والمنقطعين للعبادة عمل لا يفيد منه أحـد سواهم ، وفى هذا الرأى ظلم لهم فهم اذ يبنون حياتهم على الطهر لا يريدون الا السلم النفسى » .

وحبك الاقربين لا يطهر النفس اذا كان الدافع اليه بيولوجيا كما تحب الطير انائهـا وصغارها ، أو اجتماعيا حيث يتقـارب النـاس ويتحابون رغبة فى بلوغ مزايا لا تتحقق بغير هذا التساند . ثم يحدد غاية الحياة فيقول انهـا ان تطمئن نفسـك الى سلم شـامل ، « وعلى الانسـان وقد أوتى نفسا تستطيـع ان تستشف المغزى الذى تحملـه الأعمال الا يغفل هذا المغزى » ، « ولكل انسـان مزاجـه الخاص يحدد له ما هو المعروف وما هو المنكر » . والعبرة فى الخطيئة اذن تتعلق بالاثر السيء الذى يتركه عمل ما فى نفس فاعله ، ولان الطبيعة البشرية متشابهة فان هناك شبه اجماع على أن بعض الامور سلم على النفس ، وبعضها حرب عليها ، وهذا هو الحلال والحرام . ولانك ان لم تطمئن الى شيء فتطهرك به قليل فهو لا يجبرك أن تخضـع للفضيلة من حيث

هى أمر وانما « يكون حيندالك سبيلك الى التطهر ان تعلم ان فى نفسك جهازا خاصا يتأثر ببعض الامور اثرا فيه مرضاه لها ، وان امورا اخرى تسبب لها الاذى والقلق وان واجبك لنفسك ان تتبع الاولى وتأبى الأخرى ، وسيدهشك أن تجد توافقا يكاد يكون تاما بين الامور التى تراها معروفا ، والامور التى تراها منكرا ، وبين ما أمر الله به ونهاك عنه ».

والتطهر طبيعى فى النفس البشرية ، اصله استقطاب فطرى فيها ، وغايته الوادى المقدس · ولا مفر لك من اقامة السلم بينك وبين نفسك على نحو ما قبل أن يستقيم الأمر بينك وبين الناس ، اما قولك ان هذا من ظلم الحياة ، وقسوة الزمن ، وتحكم القدرة وتخبط الحظ ، فغموض يدعو الى الحيرة والقلق ، وما الحياة والزمان والقدر والحظ الا تعبير عن العلاقات بين الناس . وهذا الغموض فى علاقات الناس اصل من أصول الشر بينهم . وقد تظن ان الشر من طبع الجماعات ، وان احدا لا يستطيع وحده ان يغير من هذه النزعة فى الناس حين يجتمعون ، والواقع أن أكثر الشر يحمل عبأه فى آخر الأمر رجل واحد يستطيع ان يتجنبه ، فالقنبلة الذرية لا تلقى بنفسها على الناس وانما يلقيها عليهم رجل ذو عقل ، وله وحده فى آخر الأمر القول الفصل . والشر الكامن فى القوة انسانى محض بل الشر كله من عمل الانسان لانه يستطيع تجنبه .

وكثير من الناس يرون أن التطهر النفسى ليس ذا اثر بعيد فى تحقيق السلم بين المرء وجماعته ، وهم يصيبون برأيهم هذا نجاحا كبيرا ، ولكن الفساد يدب فى هذه العلاقات عاجلا أو آجلا ، فاذا أصابك شىء من ذلك فانى لك حينذاك أن تتثنى هذه العواطف ، وكيف يتحقق لك سلم ما اذا ما فقدت السلم الاجتماعى ، ولم تجد فى قرارة نفسك سلما داخليا عميقا ينجيك من مرارة الاخفاق وقسوة اليأس ؟.

والسبل الى الوادى المقدس متعددة والمتطهرون أخوة والعوامل المطهرة هى الايمان والحب والحكمة ومن العبث أن يحاول الانسان أن يتطهر بما ليس من طبعه أن يتأثر به ، ومن الخطأ ان نحدد للناس طريقا للتطهر ونرغمهم عليه ، وخير ما فى الايمان الايمان ، وخير ما فى الحب الحب ، وخير ما فى المعرفة المعرفة ، مهما يكن ما تؤمن به ، ومهما يكن ما تحب ، أو من تحب ، ومهما يكن موضوع ما تعرف .

وليس الخير شيئا محددا، وانما هو كل ماترضى عنه نفسك رضاء تاما ، حين لا يؤثر فيها عامل خارجى من أى نوع يكون . والشر هو ما تعمله ثم تلتمس عذرا عنه ، واكبر المذاهب التى اهتدى بها الناس الى الخير ، وأسهلها فهما ، وأوضحها محجة ، وأقربها فعالا ، وأدناها الى النجاح ، هو الدين ، وقوامه الايمان بالغيب أى بما لا يقوم عليه برهان حسى من رؤية أوسع ، والخير من معدن الايمان بالغيب ، ففضله على الشر فضل لا يقوم عليه برهان حسى دائما . وليس عجيبا أن يكون الوئام تاما واضحا .

أما طريق الحب والجمال فهما سبل اخرى وعرة المسالك ، ضيقة الدروب غير مأمونة النجاح ، ولكنها على كل حال تؤدى ببعض الناس الى الخير ، ولها أهلها الذين لا يهتدون الا بها ، وقد تكون ممن لا يتطهرون الا بما يتفق والعقل وهذه اضيق الطرق وأصعبها .

أما العلم فلم يهتد به أحد بعد ، ولكنى لا اشك اننا سنجد بعد امد قد يطول أو يقصر منفذا الى الخير عن طريق العلم .

« وجدير بالأديان الكبرى ألا تختلف اختلافا كبيرا فكلها تصدر عن أصل واحد هو الايمان بالغيب الى غاية واحدة هى بلوغ الوادى المقدس وسبيلها واحد وهو التطهر ولكن أهلها اختلفوا » . وليس فى امور العقيدة حق وباطل ، وليس هناك حق منفصل عن الايمان ، والايمان جزء لا يتجزأ من الحق كأنه البعد الرابع الذى لا يتم الايمان الا به .

أما علة الخلاف بين اهل الأديان فهو اختلاف التركيب السيكولوجى للناس ، وموقفنا من الله لا يكون الا خوفا ، أو حبا ، او أملا وفى نفس كل متدين شىء من هذه الأمور الثلاثة ولكن احدى هذه العواطف تغلب على غيرها فى النفس الواحدة تبعا لمزاجها الخاص بها. ويقسم مفكرنا المتدينين تقسيما سيكولوجيا فيقول :

« فان كنت ممن يدفعهم الى الخير خوفهم من الله ، وخشيتهم من عدله حين يبطش بالظالمين والخاطئين ، وان كنت ممن يمنعهم من الشر أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون وان عدله لا يخطىء ، اذا كنت من هؤلاء فأنت موسوى مهما يكن الدين الذى تدين به .

وان كنت تشعر فى قرارة نفسك ان الذى يدعوك الى الخير حبك الله ، وحبك الناس الذين يحبهم الله ، واذا كنت ترى أن تجنب الناس

شرك لأن الله يحبهم كما يحبك ، وانك تفقد حبك الله حين تؤذى أحبابه وهم الناس جميعا ، فانت عيسوى مهما يكن الدين الذى تدين به .

واذا كان الذى يدفعك الى الخير أملك فى الله ، والرغبة فى الجزاء الأوفى والنعيم المقيم ، وان كنت تشتاق الى القرب من الله قربا يكفل لك النعيم السرمدى والسعادة الخالدة فانت اســـلامى مهما يكن الدين الذى تدين به . ويصف الدكتور تقسيمه هذا بأنه أقرب الى فهم الواقع ، من تقســيم الناس الى يهــود ومسيحيين ومسلمين . ثم يستطرد فيقول « ومن المسيحيين من هم موسويون يؤكدون الخوف من الله يتبعون أوامره ويقدسونها حرفيــا ، بل منهم من يرون أن عليهم أن يحملوا الناس على العقيدة الصحيحة ولو بالقتل والتعذيب هؤلاء موسويون نفسيا ، ولعلنا لا نخطىء اذا قلنا انهم يوشعيون وهم يحسبون أنهم مسيحيون .

ومن المسلمين من هم موسويون بطبعهم كالخوارج الذين كانــوا يؤمنون بالعدل مهما يكن فى تحميمه من قســوة ، يطيعون أوامر الله كما يفهمونها ولو خالفت زمام الدين مخالفة صريحة » .

ومن المسلمين من هم عيسويون فى طبيعة مزاجهم ، فالشيعة يشعرون انهم فى حاجة نفسية الى شهيد يقدسونه ، يعتقدون انه مات فى سبيلهم ، فهم يحبونه حبا يدفعهم الى حب من يحبون هذا الشهيد .

الباب الثانى (التطهر) :

الانسان حيوان يجاهد أن يتطهر ، وجهاده هذا موضع تميزه على كل ما عداه من الكائنات . والتطهر قانــون النفس البشرية الاكبر ، وليس التطهر عرفا بين الناس ، ولا ترفا عقليا ، بل هو قانون نفسى قائم له اصوله ، وغاياته ، ووسائله ، ولو لم يغفل الناس هذا الاصل النفسى للتطهر ما اضطربوا فى فهم نفوسهم ونزعاتهم . والتطهر مظهر من مظاهر قانون كونى عام هو الاســتقطاب والاســتقطاب يقــوم على أمرين :

الاول : وجود قوة كونية قادرة فعالة (كافية) للتأثير فى الاشياء المهيأة لقبول أثرها ، هــذه القوة تتجــه بالمستقطب الى القطب ، وهى خارجة عن الشىء المستقطب .

الثانى : هو وجود صفة فى الشىء المستقطب تجعله قابلا للتأثر بالقوة الموجهة الى القطب .

والاتجاه المباشر بين القطب والمستقطب هو محور الاستقطاب وهكذا يمضى الدكتور كامل فى شرح قواعد الاستقطاب فهو فى الجماد : استقطاب الابرة المغنطة ، وفى النبات نموه رأسيا الى السماء وفى الحيوان هجرة الطير • ثم يخلص الى أن أغلب حالات الاستقطاب التى نعرفها يقينا يكون فيها القطب أمرا كونيا عاما ، ولا يتغير ، وهو دائما خارج عن الشىء المستقطب ، وكذلك محور الاستقطاب يظل ثابتا ، وانما يكون التغير فى صفات الشىء المستقطب وفى ما يحيط به من قوى يشتد بها استقطابه او يضعف ، ويستقيم بها اتجاهه او ينحرف عن محوره الطبيعى • كذلك حياة الانسان لا تتم من حيث ان الانسانية هى ما يرتفع به الانسان عن الحيوان الا بعاملين : قوة عليا خارجة عن الانسان تهديه الى ما تتم به انسانيته ، وصفة فطرية فيه تهيئه لهذا التأثر •

ثم يعرض لك المذهبين اللذين يصدر عنهما رأى الناس بعضهم فى بعض ، فالذين يسيئون الظن بالانسان هم الذين يرغبون فى هدايته بتأكيد الغايات العليا ، وتحديد سبل الصعود الى هذه الغايات ، فهم يؤكدون ان المعصية واقعة ان لم نعمل على اجتنابها ، وان الظلم واقع ما لم نكبح جماح الظالمين • والذين يحسنون الظن يصدرون فى رأيهم عن دراسة النفس الانسانية فى حالتى العصيان والطاعة ، وعن تفهم العوامل التى تحملها على الخير والتى تدفعها الى الشر • وكلا الرأيين صواب ، والخلاف بينهما يرجع الى اختلاف النقط التى يبدأ منها تفكير أصحاب كل رأى ، هؤلاء يبدءون من الله ، ويصلون الى الانسان ، واولئك يبدءون من الانسان ، وليس ما يمنع أن يصلوا الى الله ، والذين يرون أن العصيان أصل فى الطبيعة البشرية يدعون الى الخير عن طريق الطاعة ، اما الذين يظنون ان الانسان طيب بطبعه ، يريد الخير بفطرته الا أن يحيد به عن الحق عامل من عوامل الشر فيرون انه اهدى للناس أن تقوى فيهم دوافع الخير ، وموانع الشر وأن نبين لهم عوائق الخير ، ودوافع الشر ، فيكون تطهرهم عن علم وفهم •

الباب الثالث (التطهر عن طريق الدين) :

يبدأ هذا الفصل بتقرير ان التطهر هو ارتفاع النفس عن الطباع الحيوية البحتة ولم يعرف الناس فى تاريخهم الطويل شيئا أقوى من الدين فى تطهير النفوس ، وعن طريقه بلغت النفس الانسانية أقصى

ما بلغته من سمو . والتدين هو استقطاب النفس لقطب الخير المطلق وهو الله .

والدين على ذلك ظاهرة كونيــة نفسـية ، والبحث في التطهر بالدين يشمل مباحث ثلاثة ، في طبيعة النفس الانسانية ، وفي القدرة الالهية ، وفي الايمان من حيث هو الصلة بين الله والانسان . أما الطبيعة البشرية فهي في اول امرها غفل حتى اذا اهتدت فعـلا كان لنـا ان نسميها ضميرا ، والنفس الانسانيـة بفطرتهـا تسـتهدي الخير ، وأكثر الناس طيبون بطبعهم ، والاعمال السيئة لا تدل دائما على ســوء في طبيعة فاعليها ، اليس من طبــع النـار أن تضيء ثم يحـدث ان تكون مصدر دخان ، ولا يدل ذلك على طبعهـا ؟ واهتــداء النفوس فطرى خلقي ، أما ضلالها فمكتسب يأتيهـا من عوامل خارجة عنهـا طارئة عليها . والعيب الخلقي في النفوس لا يكون الا ضعفا في قدرتها على الاهتداء ومظهر ذلك النفس الهامدة ، واصـحاب النفوس الهامـدة يعملون الخــير حين يعملونه على غــير هــدى ، ويتجنبون الشر حين يتجنبونه غير واعين ، وهم لا يحفلون بمغزى ما يفعلون ، وهم يظنون انهم في غنى عن أن يتعهدوا نفوسهم بما يقوى استهداءها أو يروضـها على الخير يحسـبون انهم يستطيعون ان يهتدوا بالعقل وحده . وهذا الظن خطأ قديم لان الطبع هو الذى يحدد أسلوب الناس في الحياة ، وأغراضهم منها ، وليست الغايات هي التى تحدد طبـاع الناس « **ذلك ان التكوين السيكولوجي لكل انسـان ثابت دائما ، والعقل لا يغير من هذا التكوين شيئا ، ولا عمل له في الواقع الا ان يعين على تنفيذ ما تتجه اليه النفس بما ركب فيها من طباع** » .

وفهمك لله تطـور على نحـو يشــبه التطور الذى حدث في فهم البشرية كلها لله ، فقد عرفته طفلا على انه كلمة ترددها اتباعا لاوامر صدرت ممن هم أكبر منك سنا وعلما ، حتى اذا بلغت السن التى يدرك فيها عقلك المجردات تخيلته كائنا أعلى ، منزها عن صفات المخلوقات جميعا ، والتنزيه يجعل القدرة الالهية من امور الغيب بعد ان كانت حاضرة محسوسة عند البدائيين ، والناس يختلفون في موقفهم من الغيب بين مؤمن ، ومتشكك وملحد ، والذين يعجزون عن فهم القدرة الالهية كلها دفعة واحدة يستطيعون حين يبحثون أمر هذه القدرة ان يقصروا بحثهم على ما تتطهر به النفس ، ولا يكون هـذا عيبا وان كان نقصا . وليس صحيحا ما يظنه بعض الناس من أن الخير في نفوسهم

وانهم يهتدون اليه بعقولهم ، هؤلاء ينسون انهم لم يعرفوا الخير الا بعد أن عرفته الانسانية قرونا طويلة عن طريق استقطابنا لله .

والايمان قوة كامنة في النفس السوية ترجع الى طبيعة تكوينها ، وهو أصل الصلة بين الله والناس اى بين القطب، والنفس المستقطبة . ويعرف الايمان فيقول : « والايمان هو أن تؤمن أن أمور الغيب تجرى على نحو يمكن الاطمئنان اليه وأن تثق بأن مالا تعرف يسير على نظام يشبه ما نعرف لأن الاطمئنان الى ما نعرف ليس ايمانا بل هو ثقة » . والنفس البشرية لا مناص لها من أن تؤمن بشيء والذين لا يؤمنون بشيء أصلا قليلون وهم المشوهون نفسا الذين يعرضهم الحادهم الى اضطراب نفسى عميق ، وعدم الايمان مصدر أكثر الأمراض النفسية ، وضعف الايمان أكبر أسباب القلق النفسى .

« وقد تسمى ما تؤمن به عقلا أو علما وقد تظن أنك تؤمن بالطبيعة ، كل هذه تعابير مختلفة عن شيء معنوى غيبى على نحو ما ، تؤمن به فلا تضطرب نفسك ، والعبرة ليست بما تؤمن به ولكن العبرة – على الأقل من حيث صحة النفس – تكون بقوة ايمانك أى بما فى نفسك من قدرة على الاهتداء بما تؤمن به » .

« وليكن ايمانك بما تؤمن به قويا . والذين يؤمنون ايمانا قويا بالعقل أو بالطبيعة أقرب نفسا الى كبار المؤمنين بالله وأقرب الى الطهر من ضعفاء الايمان فى كلتا الطائفتين » .

ثم نراه وكأنه يخاطب الملحد أو قليل الايمان فيقول :

« وسيتبين لك ان نفسك لا ترتاح حقا الى ايمان شامل قوى الا حين تؤمن بالله ، وان الخلاف بينك وبين المؤمنين اختلاف فى التعبير عن الايمان وهو اختلاف فى المظهر لا يدل على خلاف فى جوهر الايمان ، وانك فى حقيقة أمرك لا تكفر بالله وانما تكفر بما يقال لك عن الله » .

« والرضى النفسى وحده هو الدليل على أن الاهتداء بالله حق . وخير العقائد ما يتفق وتفكيرك ، ومن الخطأ أن تظن ان العقائد هى الايمان .

وهذا فصل يحدثنا عن « العبادات وفلسفتها » فينتهى الى أن الحق فى امرها انها تؤثر فى النفوس فتجعلها أكثر قبولا للهداية وأكثر قدرة على الاستهداء . وقد يزعجك ما ترى من خلاف بين المتدينين

وقد ترى ان الأصـــل فى الأديان أن تتفق فان اختلفت فذلك لعيب فى المتدينين لا فى الأديان ، واكثر الشر عند المتدينين يكون حين تتـــكون منهم جماعة لها سلطان دنيوى ، وقوة فعالة ولكن هذا عيب الاجتماع وليس عيبا فى الدين . وبعض المؤمنين يظنـــون أن الخـــلاف يزول اذا حملوا الناس على اعتناق دينهم كأنهم يريدون أن يكون العالم كله على دين واحـــد ، وغيرهم يرى أن التوفيق بين الأديان يتم عن طريق الفهـــم العقلى لما فى كل دين من تعـــاليم ومبادىء سامية وصحيح أن أصـــل الخـــلاف الجهـــل ، ولكن الفهم العقلى لعقيدة تخالف عقيدتك لايؤدى الى الفهم الروحى ، والاطمئنان النفسى الى هذه العقيدة فهذا أعمق من الفهم العقلى .

وظن آخرون أن التسامح طريق الى ذلك ، والأصل فى التسامح أن تستطيع الحياة مع قوم تعرف يقينـــا انهم مخطئون ، كأنك تتجـــاهل عقائد الآخرين ، والدين اعز على النـــاس من أن يكون تجـــاهله مؤدبا للتفاهم الحق . أما نظرية الوادى المقدس فقـــد تؤدى الى التفـــاهم المنشـــود اذ هى لا تحملك على التساهل فى شىء من دينـــك ، ولا على احتقار عقيدة غيرك ، وهى وحدها التى تعلم الناس ان التـــدين يبدأ من نقطة واحدة هى النفس الانسانية ، وينتهى الى غاية واحدة هى الله ، وان التطهر به يتم بعد ذلك على اختلاف طباع النفوس المتطهرة .

« والدين ليس مســـئولا عما ارتكب الناس باســـمه فى تاريخهم الطويل » ثم يعرض لما يزعج بعض من نشأوا على التفكير الحديث مما يقول به المؤمنون فيقرر أن ما تراه غير معقول فى معتقدات المتدينين قد يكون ضروريا لصحة نفوسهم وانه قد لا يكون لهم عنه محيص .

« فلتؤمن بما تعتقد أن نفسك تتطهر به ، ودع لغيرك أن يتطهروا كما تريد نفوسهم فانك لا تدرى ما ينقص النفس ولا ما هى فى حاجة اليه لاستكمال حياتها السوية. وليس عيبا فى التدين أن المتدينين يختارون دينهم طبقا لبيئتهم ونشأتهم فهذا أمر طبيعى » ، وكل ما عدا الله لا وجود له بالنســبة الى النفس وان كان له وجود فى الحواس. والدين لايعرفون الله لا يهتدون حقا وانما يهتدون بحواسهم اهتداء ناقصا وحياتهم كلها ضباب لأن حواسهم لا تخترق ، حجب الغيب ، ولا ترتفع الى ما فوق العقل والذكاء . والتعبير عن الأمور الغيبية يحتاج الى رمز يقربها من لغة الدنيا ، والرمز ضرورى للتقريب بين أمور الغيب وأمور الدنيا ،

ولكنه ليس ضروريا لفهم النفس امورها الخاصة بها. على أن الاسراف فيه يخرج به عن غايته حين يظن البسطاء انه حقيقة واقعة ، وانه وما يرمز اليه شيء واحد ، والاسراف في الرمز يشل التفكير السليم والاسراف في الرمز في التعبير عن الغيب مرهق للنفس ، غير مقبول عقلا .

ومما تقوى به نفسك التأمل في امور الغيب وهو نوع من التعبد لا يقدره الناس حق قدره ومن عوامل الهدى ان تتعود العمل الصالح. وليس هناك تناقض بين ما تأمر به صحة النفس ، وما تأمر به صحة الجسم ، والهدى لا ينهى عن شيء فيه صحة الجسد ، وانما ينهى عن الفوضى والنظام أصل في التكوين النفسي ، وهو أصل في التكوين الجسمي والفوضى أصل الاضطراب في الحالتين . وقد يكون الزهد لتطهرك ولكنه ليس شرطا له . والبعد عن الناس يباعد بينك وبين عامل قوى من عوامل الضلال ، ولكنك في غنى عن هذا العنف على نفسك، لو هذبت رغباتك واخضعتها للتطهر وليس هذا مستحيلا .

وقد لا يعجبك أمر بعض المتطهرين دينا فيصرفك ذلك عن التدين ، تحسبه لا ينتهي الى غير هذه الحال ، وقد لا يعجبك ما تراه في حياتهم من السلبية ، واكثرهم يعنى بتجنب الشر اكثر من عنايته بعمل الخير. فاعلم أن التدين عند غير المتطهرين أصله ايمان مزعزع فيه ضعف يحتاج الى تقويته بالاسراف والشطط ، اما التدين عند المتطهرين فأصله ايمانك ايمانا بالغا قويا بما تؤمن به وفي هذا الايمان خير لك ولمن حولك ، ثم يبين الحد الفاصل بين الحماسة التي قوامها الاخلاص . وبين التعصب الذي يقوم على التوهم فيقول : فالحق هو كل ما كان الدافع اليه حبك شيئا بعينه حبا خالصا ، والباطل هو كل ما كان الدافع اليه كرهك شيئا بعينه كرها شديدا وان كان ما تكره شرا . وحب الخير لا يؤدى الا الى الخير ، وكره الشر قد يؤدى الى الخير في أول الأمر ثم تغلب عاطفة الكره ، وقد يكون العنف الذي حمل المؤمنين في تاريخ البشرية على تعذيب مخالفيهم دليلا على ضعف في ثقتهم بعقيدتهم .

الباب الرابع (الهدى والضلال) :

الهدى أن تظل في صراطك المستقيم ، وهو الخط الذي يصل بينك وبين الله رأسا في غير اعوجاج . والضلال أن تحيد عن فطرتك ، فتخرج عن الصراط لاى غرض مهما كان جميلا ، لأنه ينتهي آخر الأمر

حتما الى غير الله . وأول الضلال حيرة بين أمور تستقطبها ، وهو الشرك وآخره أن تأتم بغير الله صراحة وعمدا ، وهو أبشع مظاهر الكفر « فأول الضلال أن تسير مع الركب وأن تستنير ما يعمله الناس من حولك ، تسعى الى ما يسعون اليه ، عاملا على أن تتفوق عليهم فى ما يتنافسون فيه ، وهو داء الاذكياء . وآخره أن تقود الركب وتسوقهم الى عمل ما يحبون وانت تظن انك تحملهم على عمل ما تحب ، وانت فى الواقع فريسة لرغباتهم وشهواتهم ، حبا فى بقائك مقدما فيهم وهو داء الجماعات » . وقد تهتدى النفوس وهى ضعيفة ومقدساتها باطلة كما هى حال البدائيين ، وقد تضل نفوس قوية مقدساتها حق كما حدث فى محاكم التفتيش . وليس للهدى والضلال معيار الا المعيار النفسى البحت .

ومن الشرك ما هو ظاهر ، ومنه ما هو مقنع . والشرك الواضح يكون بعبادة الاوثان ومن السهل التخلص منه ، ولم يعد له شأن فى العصر الحاضر . والله لا يأمر بالشر ابدا ، وانما يأمر بالخير والسلم والحب ، وكل ما يحملك على غير ذلك شرك بالله ولو حسبته طاعة . والحد الفاصل بين الهدى والضلال ألا يضار أحد بعمل تعمله .

ومن العوامل الضالة فى هداية الناس أن يتبعوا رجالا بعينهم يطيعونهم فى ما يأمرونهم به ، وفى كل عصر رجال فيهم قدرة بالغة تؤثر فى من حولهم فتحملهم على الطاعة مختارين او مرغمين راضين او كارهين . وليس اتباعك رجلا صالحا ضمانا لك انك تسير دائما فى طريق الخير الا أن يكون متبوعك نبيا معصوما . وليس عجيبا أن ينقطع خبر السماء ، لأن كل وسيلة يمكن أن يهتدى بها الناس على اختلاف مشاربهم قد وضحها الأنبياء ايضاحا تاما ، وليس فى الناس من يحتاج فى اهتدائه الى معتقدات جديدة أو ايمان جديد . وانما يحتاج الناس فى هذا العصر الى فهم جديد ، وتعبير حديث عن المعتقدات التى بينها الانبياء من قديم الزمان .

رضاؤك عن نفسك هو السعادة ، ومن الطبيعى أن تقابل ما يعمله الناس لك بالمثل ، ولكنك اذا اردت أن تسمو فوق هذا فلك أن تأخذ بمذهب الخد الأيسر ، أما تهذيب ما تعمله بالناس فأمره

اليك ويكون ذلك بامتناعك عن ايذاء غيرك ، الا ان يكون فى ذلك دفاع عن نفسك وهذا أمر نادر . ثم يحدثنا مفكرنا الكبير عن تطهير الجماعات . فيقرر أن أحدا لا يستطيع حتى الآن أن يجد سبيلا الى تطهير الجماعات ، والأديان التى تطهر بها الانسان الى أكبر حد لم تنجح فى تطهير جماعات المتطهرين بها مهما يكن اخلاصهم لدينهم قويا . وحين يجتمع الناس يؤثر كل منهم فى الآخر ويكون الانحراف عن الصراط المستقيم أمرا محتوما . ولا يمنع الجماعة من الضلال ان يكون كل فرد فيها مهتديا لأن الاستقطاب الجماعى لا قانون له ولا يمكن العمل على أن تتجه الجماعة كلها الى الخير . وهداية الجماعة أمر بعيد الا بالقوة ، والقوة تؤدى عاجلا أو آجلا الى الظلم او الضلال ، والوقاية من أثر الجماعة فى الناس لا يكون الا بالحيلولة بينها وبين القدرة على افتراس مخالفيها ، ولا يكون هذا الا بتغيير عظيم فى النظام الاجتماعى كله . وقد يباح لك أن تضل مع الناس ، ولكنه لا يباح لك أن تضل بالناس. ولا يدعوك أحد أن تنكص على عقبيك حين تقدم الجماعة التى تنتمى اليها على أمر فيه عليك خطر فهذا لا يليق . والحيرة بين الضمير والواجب هى أكبر المشاكل النفسية ، ولن يحلها الا الفهم الحق للجماعة : طبيعتها ، وحدودها وحقوقها .

وقد يكون من أنجح الوسائل للتوفيق بين الفرد وضميره ، وبين واجبات الجماعة أن نعمل على الحد من سلطان الجماعة ويكون ذلك بتقليم أظفارها وحماية الفرد من سطوتها .

ثم يبحث الدكتور فى الأمور التى يرتبط بها الناس حين تتكون فيهم جماعة فهذا البحث فى نظره أقرب الوسائل الى الاصلاح . وأول النور أن نجعل للروابط ذات المغزى النفسى القول الفصل فى تقسيم الجماعات التى لها علينا حق الولاء فنقسم الناس الى متطهرين وغير متطهرين ، والى مهتدين وغير مهتدين ، والى مؤمنين ، وغير مؤمنين ، ثم نقسم المتطهرين الى من سبيلهم اليه التدين ، أو الجمال أو العلم ونقسم المتطهرين دينا كما بينا من قبل الى من يقودهم الى التطهر ، الخوف من الله ، أو الحب له ، أو الامل فيه . هذه أمور ذات مغزى سيكولوجى اما الروابط الأخرى مثل الوطن ، والتاريخ ، فليس لها مغزى عميق ، الا من حيث أثرها فى التقريب بين الطباع الانسانية المتشابهة فى تكوينها السيكولوجى حين يجمعها وطن واحد ، أو تاريخ واحد .

هذا التقسيم النفسى اقرب الى الحق من التقسيم القومى الى اوطان ، أو الاجتماعى الى طبقات ، وعلى هذا يكون ولاؤنا للجماعات التى تربطنا بها روابط ذات مغزى سيكولوجى اصيل . على أن الولاء لأى أمر يجب أن يكون له حدود لا يتعداها ، تلك هى حدود الضمير . ومما يزيد فى طغيان الجماعة انتماء قوم كثيرين لها يشعرون ان حياتهم خلو من كل ما يجعل لها قيمة ، فهم يدخلون الجماعات ، يلتمسون فى ظلها بريقا ينفعهم ويستمدون منها سلطانا لا يستطيعونه وحدهم ، والجماعة تزيد فى طغيانهم وهم يزيدون جماعتهم شططا ، يريدون أن يبلغوا شيئا من فتات النفوذ والقوة التى تكون للناس مجتمعين ، ولو قدر الناس ان ينقسموا جماعات تربط افرادها علاقات وثيقة ترجع الى توائم نفسى عميق لاستقرت كل جماعة بأهلها ، ولكان ولاء الفرد لجماعته ولاء ثابتا دائما كاملا ، والولاء صفة جميلة محببة الى النفس والعبرة فيه تكون بقدرته على تطهير النفس ، فان لم تتطهر بالولاء فارجع الى نفسك لتتبين أين ضلت بك الطريق ، وأعمل على أن تعدل عن طريق الخطأ الذى قد تكون وقعت فيه بجهالة وانت لا تريد الا الهدى واصعب ما فى الحياة فى هذا العصر ان تختار اى انواع الولاء الواجبة عليك اجدر بك ، وايها يستحق منك التضحية والاخلاص . وسبيل الهدى التى يراها الدكتور كامل فى هذه الحيرة أن تجعل ولاءك للواجب محدودا وأن تجعل هذه الحدود بحيث لا تتعدى ولاءك لضميرك بحال من الأحوال . وهو يدعو الى التفريق بين الولاء للواجب والولاء للضمير وهذا التفريق وان كان عسيرا مرهقا الا انه قد يعين على البت فى سلوكك فى عظائم الامور .

ثم يبحث عن أعماق النفوس ويقسمها أربعة أنواع : فهى اما أن يكون أصل طبعها الهدوء التام أو الكبح الهادىء أو الاندفاع المتزن ، أو الاندفاع العنيف وتفصل القول فى هذا التقسيم تجدها فى فصل « التقسيم السيكولوجى للناس » . والدين والجمال والعلم قوى توجيهية وليست قوى محركة ، وليس بينها تناقض ولا تعارض ، ولكل منها حد يجب ألا تتعداه ، فالدين يهدى ، والجمال يرضى ، والعلم يعلم . ويحدثنا الدكتور بعد ذلك عن أن الجمال الحسى فى جوهره تنظيم لما هو كائن فى الطبيعة على غير نظام ، والجمال المعنوى تنظيم لامور معنوية ، ومنه الايمان فهو تنظيم للامور الغيبية .

والمتدينون يسرفون حين يقولون ان حب الجمال أصل كل ضلال

وان نزعة النفس الى اللذة والسرور تدعوهم عاجـــلا او آجلا الى تخطى حدود الطهر ، ويقيمون الحجة على ذلك بما نراه فى كبار رجال الفنون من شطط وهذا القول خطأ من ناحيتين : الاولى انهم يقيسون أثر الجمـــال فى النفـوس بما نراه فى نفـوس صانعيه ، وعلينـــا أن نقدر حب الجمال بأثره فى نفوس المتذوقين ، والثـانية أن المتدينين يرون ان الطهر اعمال بذاتها يجب ان نعملها ، واعمال اخرى يجب أن نجتنبها والواقع أن الطهر ليس نوعيا وان أصله اتجاه نفسى صحيح . وعشاق الجمال قصروا بلا شك فى تأكيد الجمال النفسى الذى يقترن بالحب الحسى فيكون به سمو نفسى عظيم . وينتهى هذا الباب بقول مفكرنا « ومن المهام التى يجب ان يضطلع بها العصر الحديث أن يثبت الأصل السيكولوجى للدين ، والأصل الفسيولوجى للأخلاق » .

الباب الخامس (الحقائق الأبدية) :

فى دنيا النفس حقائق أبدية وهى أمور عليا ، ثابتة ، دائمة . عليا لأنها بمعزل عن الضعف الانسانى ، ثابتة لا يرتفع اليها الفســـاد الذى يحدثه التغيير ، دائمـــة لأن الزمن لا يعمل فيها ، وليس شىء أحب الى النفس من أن تؤمن بحقائق لها صفات السمو ، والثبوت ، والدوام . ولعل الوادى المقدس لا يكون الا هذه الحقائق الابدية حين تطمئن اليها النفس اطمئنانا تاما . ولعل أكبر ما يعنى الانســـان هو أن يهتدى الى حقائق من هـــذا الطراز وان يطمئن اليها بقلبه كله لا يخامره فى صحتها شك .

وهناك طريقـــان يؤديان الى ايمانك بالحقـــائق الابدية ايمانا فعـــالا : أن تؤمن أن الله أصـــل الهـــدى ، وان نفسك غايته ، أو أن تؤمن أن نفسك أصـــل الهدى ، وان الله غايته ، ولك أن تختـــار أى الطريقين أقرب الى نفسك وكل حقيقة تؤمن بها ايمانا نفسيا خالصـــا يقوم على توافق بينها وبين تكوين نفسك هى بالنسبة اليك حقيقة أبدية ، وسترى أن اصدق تعبير عنها هو أن نقول أنها سماوية مهما يكن رأيك فى هذا التعبير ، فهذا خير لك من انكارك لها ، لما فى هذا الانكار من خطر على السلم بينك وبين نفسك .

ويـؤكد الـدكتور المعنى الـذى ســبق أن اشـــار اليه من أن القول بأن الله أصـــل الهـــدى ، أو القــول بأنه غاية الهـدى كـلاهما

قول حق يؤدى الى اهتداء النفوس ، ولك أن تؤمن بكليهما أو أن تختار أيهما اقرب الى نفسك . يعطى مفكرنا فى تفسير قوله تعالى « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين » مفهومين أولهما فهم الآية على أنها تاريخ واقعى وثانيهما فهمها على ان النفوس التاريخية يتمثل فى تاريخها تاريخ الناس ثم يكون من الناس أفراد فيهم قوة بالغة على الاستهداء يتجهون الى الله فى عزم وثبات ويؤثرون فيمن حولهم أثرا قويا ، يحمل هؤلاء على أن يتجهوا اليهم فيتجهوا بذلك نحو الله . ثم يقول « وليس بين هذين الفهمين للنبوة تناقض فكلاهما يعبر عن حقيقة أبدية واحدة » . يعرض هذا الفصل الخلاف بين المسلمين والمسيحين فى التكفير والفداء ويقول : « والمسلمون لا يروقهم الفداء ولا يؤمنون بالتكفير عن الذنوب بما يقع على غير المذنب وعندنا أنه لا تزر وازرة وزر اخرى ولا نستطيع أن نتطهر بما لا نؤمن به وهذا هو المغزى العميق لما نشعر به من انكار للصلب » . ثم يناقش تاريخ العبادة ، التى هى علاقة بين العبد والمعبود تختلف فى طبيعتها وقوتها باختلافهما ، ويدلل على أن تاريخها يدل على انها تتطور تطورا واضحا يرجع الى رقى نفوس العابدين ، وسمو تقديرهم لما يعبدون .

وخلاصة راى الدكتور ان الأديان المنزلة هى التى ارتفعت بالعبادة الى أرقى درجاتها ، جعلت المعبود قوة منزهة عالية هى الله ، وجعلت العبادة سبيلا للهداية والسمو . ونحن حين نقول أن الله أرقى المعبودات ، وان عبادته أرقى العبادات لا نقول ذلك اصطلاحا أو جزافا ولكنها حقيقة ثابتة أبدية » .

والالحاد نقص فى فهم البشرية وطبيعتها ، وهو نقص يجب أن يعمل الناس على تلافيه ، وبذلك وحده تتحقق لهم النفس المطمئنة . وهذا فصل (المثل الأعلى) : —

والمثل الأعلى عند المسلمين : النفس المطمئة .

والمثل الأعلى عند المسيحيين : النفس المحبة .

والمثل الأعلى عند الموسويين : النفس العادلة .

والمثل الأعلى عند البوذيين : النفس المتخلصة .

ورغم أن هذه المثل العليا تختلف اختلافا بينا الا انها كلها تؤدى الى الصحة النفسية ، اذا ما وافق المثل الأعلى ما ركب فى نفس المؤمن به من طباع . واختلاف المثل العليا السماوية لا يرجع الى اختلاف فى هداية الله للناس ، ولكنه اختلاف فى قبول النفس الانسانية للهداية ، وقدرتها على استيعاب كل معانى الخير .

والنفس عضو فى التكوين الانسانى مثلها مثل العين ، وهى العضو الذى من شأنه أن يتأثر بالقوى التى تعمل فينا من غير طريق الحواس ، وهى تنظم اثر هذه القوى فينا ، وتحمينا من الخوف ، الذى نشعر به ازاء الغيب . والغيب لا تدركه المعرفة لأنه اذا عرف لم يعد غيبا ؛ ومهما تتسع معرفة الانسان فهى محدودة بقوة عقله ، ولا يدرك القوى الغيبية الا النفس من حيث هى العضو الذى يتأثر بها .

أما العقل فهو العضو الذى من شأنه ان يتأثر بالقوى التى تأتينا عن طريق الحواس ، والذكاء هو العضو الذى يتناول الأشياء التى نعرفها ، وعلاقات بعضها ببعض من غير بحث فى أثرها فى هدايتنا ، والأصل فى النفس أن تهيىء لنا الاطمئنان الى الغيب ، وهى تحمينا من الرعب الذى يعترينا ازاء ما نجهل ، ذلك أن المجهول له اثر مرهق فى اكثر الناس ، ويزداد خطر هذا الأثر كلما زاد جهلنا بما يحيط بنا من قوى لها فى حياتنا أثر لا نعرفه . والخوف من الغيب أكثر فى البدائيين منه فى المتقدمين لكثرة ما يجهلون ، ومن المتقدمين أنفسهم من لا يخلصون من هذا الخوف وأن ظنوا أنهم ينكرون القوى الغيبية انكارا تاما ، وقد لا يكون هذا الانكار الا نقصا فى تكوينهم النفسى .

والتقدم العام فى أمور الانسان يؤدى الى تقدم فى صحة النفس ، وصحة العقل ، وصحة الذكاء ، ولكنها ليست أمورا متلازمة ، وقد يجمع الانسان بين عظم النفس ، وقوة العقل ، وحدة الذكاء ، ولكن هذا أمر نادر جدا ، واجتماعها فى نفر قليل لا يدل على أنها أمور متشابهة ، أو متلازمة أو متعلقة ببعضها . **والطهر شيء لا تفاضل فى تقديره ، والانسان فى وقت بعينه لا يكون الا متطهرا أو غير متطهر ، ولا يمكن أن تكون حاله من الطهر على قدر . وهذه الصفة — غير الرياضية — فى أمور النفس تجعل البحث فيها عسيرا ، على من نشأوا على ان الرياضيات اصل كل علم ثابت .**

والبحث فى أدواء الانسان يجب أن يتناول ما يعترى هذه الأمور

الثلاثة : النفس والعقـــل والذكاء من عيوب تقعد بهـا عن أداء عملهـا أداء كاملا ٠

فالنفس تتأثر بالحرمان ، والعقل يصـــاب بالملل ، أما الذكاء فأكثر عيوب النقص ٠

وأكمل الحب حبك لله ، اذا كان من أثره فيك أن تحب من يحبهم الله وهم الناس جميعا ٠

وليست الاخـلاق الا الصـورة النفسية لقانون الكبح الذى هـو قانون عام فى أكثر الكائنات الحية ، وقد يعيش الانسان دون ان يكون على خلق قوى ٠ ولكن حاله عند ذلك تكون كحال القلب الذى قطع عنه عصب الكبح ٠ هذا القلب يؤدى عمله من غير شك ، ولكنه يصاب من جراء ذلك بالارهاق ، ونقص فى القدرة على مقاومة الصدمات ، وعجز عن التمتع بالراحة التى يهيئها له عصب الكبح ٠ ثم هو فوق ذلك أقل قدرة على « التكيف » من القلب الطبيعى ٠

ومن الناس من تنقصـــهم الثقة بكفايتهم فيتضخم فيهم الغرور ، ومنهم من ينقصهم السمو النفسى الصـحيح فيتضخم فيهم التعالى والكبرياء ٠

والفرق بين النشاط الأجوف والنشـــاط الحق ان النشـــاط الذى ينشـــأ عن الحرمان لا ينتج خيرا ، ولا يسد النقص الذى يكون بصاحبه ، ولا يؤدى الى الرضى النفسى ، كحال الغدة الدرقية ، والنفس المطمئنة فى غير حاجة الى الغرور ٠

والملل قليــــلا ما يعترى النفوس ، فأثر الدعاء والصـــــلاة فى نفس المؤمن يظل قويا أبدا رغم تكراره يوما بعد يوم ، وهى ظاهرة لا نراها فى غير الأمور النفسية العميقة ، رغم أن الملل ظاهرة عامة فى الكائنات الحية ، واوضح ما تكون فى الانسان ٠

اما اعراض الناس عن التطهر واستخفافهم بالدعوة اليه ، فمرده الى الملل ، حين تظل أساليب الوعظ والدعوة الى الخـير على نمط واحـــد ، واذا آمنت ، واحببت ، وعرفت فقـد أوتيت الحكمة « **ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا** » والوادى المقدس هو جماع الايمان ، والحب ، والمعرفة ، وهو موضع الحكمة ، ومكان الطمأنينة ، وسر السعادة ٠ ومع أن مفكرنا يدرك أن النفس لا تتعلق الا بأمر الغيب ، والايمان

به ، وان هدايتها عامة لا تتعلق بالأحداث ذاتها ، الا انه دعا الى البحث فى امرها لأن الحياة لا تستقر الا ان يكون لها أصـــل ثابت ، لا يغير منه الزمن شيئا ، وليس فى حياة كل منا شيء أثبت من النفس . ومن عمـل النفس المطمئنة المؤمنة أن تهيىء لحياتك جوا جميـلا هادئا . تنمو فيه حسناتك على خير وجه ، كما تنمو الزهور فى الجـو الدافىء المعتدل نموا يزيد بهجتها وجمالها .

الباب السادس (الحرمان) :

وقد أفردنا لدراسة (الحرمان) فصــلا خاصـــا من هــذا الكتاب تناولنا فيه هذا الباب وفصـــل (الحرمان) فى الجزء الثانى من « متنوعات » .

الباب السابع (الضباب) :

تصدر أعمال الناس او يحسبون أنها تصدر عن حسن تقديرهم للمستقبل ، وهم يقدرونه قياسا على الماضى ، كما يتصورونه ، ثقة منهم أن سنن الكون واحدة وان علمهم بالماضى على حق ،وانهم يعرفون اسباب الأحداث الماضـــية يقينا ، ثم يستخلصون من ذلك قواعــد يحسـبونها صادقة كل الصدق ، ويحسـبون أنهم بها يقدرون المستقبل قدرة . ولكن هل للناس أن يثقوا بالعقل ، هذه الثقة المبالغة ؟ أو ليس من واجبهم أن يعرفوا حدوده ، ومواطن قوته ، وضعفه ، وخطئه .

ثم يتحـــدث عن القـــوة المبصرة فيقول « ويجـــد مــن قــدرة العقل على معرفة الأشـياء أن تكون من البعد أو الدقة بحيث لا يستطيع أن يتبين حقيقتها ، أو أن يكون فى الأمور ، التى يتناولها غموض يمنعه ان يتبين دقائقها ، وهو فى هذا أسوأ حالا من العين لان العين تدرك أن بينها وبين معرفة المرئيات ضبابا ، ولكن العقل لا يعرف ما يحول بينه وبين الصواب ، وهو يظن أنه يعرف معرفة واضحة » .

ليس الخطأ أن نحتكم الى العقل ، ولــكن الخطأ كل الخطأ أن نسرف فى الثقة به فتتعدى حدود طاقته ونحمله مالا قبل له به » .

وكثيرا ما يقع أحد الناس ذكاء ، وأصوابهم حكما فى أخطاء واضحة لا يقع فيها من هم دونهم ذكاء وعلما .

والســـبب فى ذلك هو اسرافهم فى الثقة بقدرتهم على معرفـة المستقبل ، ولو عملوا فى حدود الدائرة التى ينيرها لهم العقل ، ما وقعوا فى هذه الاخطاء .

وقد يقال أن التشكيك فى قدرة العقل على معرفة الصواب يعوقنا عن اتخاذ قرارات حاسمة فى أمور الدنيا ، وأنه يدعو الى الاحجام ، والحـــذر ، ولا يدعو الى الاقدام والشـــجاعة . وليس هذا صحيحا فأنت تستطيع ان تكون شجاعا مقداما فى حدود ما تبصره واضـــحا وضوحا تاما . وانت تستطيع بعد مران يسير أن تعرف حدود عقلك دون عناء أو تردد . قدر للانسان أن يعيش فى هذه الحياة الدنيا يكتنفه الضـــباب من كل جانب ، وان يكون له عقل يضىء ما حوله الى مـــدى يختلف باختلاف نوره ولكنه على كل حال نور محدود .

وكان خيرا للانسان لو راض نفســـه على التفـكير الخـاص بمن يعيشـــون فى الضباب يقدر خطوه على حذر لا يتخطى عقبة الا اذا أبصر ما وراءها واضحا ، كأنه يراه رأى العين .

وليس له أن يقدر المستقبل البعيد ابدا ، أو أن يبنى على هذا التقدير أعماله . الا أن للانسان حياة أخرى غير حياة الضباب هذه التى هى سلسلة من القرارات يتخذها ، وهو فى حيرة من أمرها أصواب هى أم خطأ ؟

هـــذه الحياة هى حياة النفس ، وهى حياة ثابتـــة عميقة مشرقة جميلة ، يرى معالمها واضحة فى غاية الوضوح . «هذه هى حياة الوادى المقدس ، حيث كل شىء يشرق عليه نور الايمان ، فيه يجتمع المتطهرون على اختلاف نزعاتهم وفيه ترى الحسنات يذهبن السيئات » . وفيه ترى لحسناتك شأن ، يجعلك بها فخورا ـ ولو أمام نفسك وحدها .

« يبـــدأ الناس حياتهم الدنيـا وهم فى طريق واضحة مشرقة مستقيمة ثم يغريهم ما يرون على جانب الطريق من أشـــجار عالية ، يرونها مثقلة بالثمار ، يرون ذلك من خلال الضباب ، فيخرجون عن طريقهم تدفعهم الى ذلك رغبتهم فى الاســـتزادة من المعرفـــة بها ، والاستمتاع بخيرها حتى اذا جاءوها لم يجدوا فيها ما كانوا يؤملون ، ويحـاولون العودة الى الطريق المســـتقيم والوادى المقدس ، وأكثرهم يضلون عنه .

وهم يعيدون بذلك خطيئة آدم ، وهى خطيئة لا يكاد ينجو منها أحد من أبنائه منذ خلق الله الارض ومن عليها .

واليك الآن خاتمة الكتاب بتمامها :

« تحدثت اليك طويلا ، وعرضت عليك أمورا كثيرة تتعلق بنفسك ولم أقف لاسأل من انت ؟ اما وقد انتهيت من هذا الحديث فاحسب أنى فى الواقع كنت اتحدث الى نفسى .

على انى ارجو ان يكون هناك من يصلح له هذا الحديث كما اظن أنه صلح لى » .

ونبدأ من حيث انتهى الكتاب وهو ما اثبتناه بنصه فى الفقرة السابقة نبدأ لنتسائل هل هذا الكتاب سيرة ذاتية تعرض هموم وهواجس كامل حسين ؟ هل هو تاريخ حياة ايمانه ونفسه ؟ أم أن الوادى المقدس كتاب للقارىء قبل أن يكون عن المؤلف ؟ وهل أفكار الوادى المقدس أفكار للتداول، أم أنها أفكار معبرة عن مفكر فحسب ؟

والوصول الى اجابة على هذا السؤال صعب عسير ، وفيما عدا أنه تقرير حقيقة فهو لا يفيد البحث فى كثير ولا قليل . وفى الوادى المقدس آراء يحاول بها صاحبه أن يقنع بشىء معين ، والأمر فى هذه الآراء ليس له علاقة بالطرف الثانى لعملية الاقناع أهو نفسه أم القارىء . وفيه علم منظم ، وتفكير مرتب والامر فى كليهما لا يحتاج فى نقده الى البحث عن متلقى هـذا العلم ، أو المخاطب بهذا التفكير . وفى الوادى المقدس فلسفة ، ولا أظن أن المرء يخاطب نفسه بفلسفة ، ويخاطب الناس بفلسفة اخرى ، مما قد يدعونا الى البحث فى أمر المخاطب ، حتى ندرك أى الفلسفتين تلك . وفى الوادى المقدس لهجة تقديرية هى الصق بالطبيب من اسمه ، هذه اللهجة التقديرية لا يخاطب بها الطبيب الناس فحسب ، ولكنه يخاطب بها نفسه أيضا وبالقدر ذاته . والبحث فى هذه اللهجة فى الوادى المقدس لن يغير من تقديرنا لتلك (اللهجة التقديرية) . وفى الوادى المقدس دعوة الى السلم بينك وبين نفسك ، وبينك وبين الاقربين ، وبينك وبين العالمين ، وهى دعوة يدعو اليها المرء نفسه كما يدعو اليها الاقربين ، وكما يدعو اليها العالمين .

والاستاذ فتحى رضوان يحسب اننا اذا تناولنا الكتاب على أنه (سيرة ذاتية) فسيرتفع قدره لما سنجده فيه من أشياء خطيرة ، ومصارحات

جريئة . وعندي ان الكتاب مرتفع القدر على اي صورة من الصور تناولناه . ويكفى الوادى المقدس مثلا أن يثبت أن الغيبية رقى فى الفكر الدينى ، وأنه لابد من الايمان بقوى غير مدركة فوق المرئى والمسموع والملموس . ويكفيه أن يثبت أن الالحاد ردة الى الوراء فى مسيرة هذا التقدم الانسانى وليس رقيا رافضا . ويكفيه هذا ليكون عند رجال الدين كتابا عظيما ويكفيه عند الانسانية ودعاتها ليكون كتابا عظيما أنه يجمع الناس جميعا ليلتقوا على الفكر « التقاء جميع البشر الذين يؤمنون » ويكفيه عند المحدثين والمشتغلين بالعلوم . انه كتاب يصور الحقائق العليا على انها امتداد طبيعى للحقائق الدنيا .

وكتاب الوادى المقدس يجعل للاخلاق أساسا فسيولوجيا وللايمان أصلا سيكولوجيا ويدعو الى التطهر على أنه القانون الطبيعى للنفس البشرية لا تستقيم اذا حادت عنه . ولو مضينا نعدد كيف يكون هذا الكتاب عظيما عند كل طائفة وبكل مقياس ما وجدنا الى ذلك سبيلا .

واوضح ما فى الكتاب هو ذلك الارتفاع اللانهائى بقيمة النفس الانسانية وأظن أن هذا الامر واضح جدا فى عرضنا للكتاب ، ولكننى مع ذلك أجدنى مشوقا الى الاشارة الى أربعة أمور .

(١) الى « المقياس النفسى » ذلك المقياس الذى يجعلك مفكرا تقيس الخير والشر به ، حيث يقول .

« الخير هو كل ما ترضى عنه نفسك رضاء تاما حين لا يؤثر فيها عامل خارجى ، من أى نوع يكون ، والشر هو ما تعمله ثم تلتمس عذرا عنه فتقول هذا عمل لم اكن لاعمله لولا كذا وكذا » .

(٢) والى « الرضى النفسى » حيث يقول « والرضى النفسى وحده هو الدليل على أن الاهتداء بالله حق » .

(٣) والى « المعيار النفسى » حيث يقول « ليس للهدى والضلال معيار الا المعيار النفسى البحت » .

(٤) والى « البرهان النفسى » حيث يقول « والبرهان النفسى هو وحده البرهان الذى تثبت به صفات الله » .

والكتاب دليل واضح على سمة فكرية فى كامل حسين هى

« التجديد » فهو يقلب الرأى المرة تلو المرة ولا يقف عند رأى ارتآه من قبل دون أن يناقشه مرة أخرى ، ومن ذلك انه كان قد ابدى من قبل رأيا مضمونه أن الترهيب أكبر دليل على الأنانية ، وعاد فى (الوادى المقدس) ليقول : « وقد تظن أن التطهر فى كبار الأتقياء والمنقطعين للعبادة عمل لا يفيد منه أحد سواهم ، وفى هذا الرأى ظلم لهم فهم اذ يبنون حياتهم على الطهر لا يريدون الا السلم النفسى » .

وفى حديثنا عن قرية ظالمة قلنا كأن المؤلف اراد ان يلقى المسئولية على الجماعة فى حادث الصلب ولم يبد فى حينها رأيا كالذى ابداه هو فى رأيه ذاك حين قال فى « الوادى المقدس » : « وقد تظن أن الشر من طبع الجماعات ، وان احدا لا يستطيع وحده ان يغير من هذه النزعة فى الناس حين يجتمعون ، والواقع أن أكثر الشر يحمل عبأه فى آخر الامر رجل واحد ، يستطيع أن يتجنبه ، فالقنبله الذرية لا تلقى بنفسها على الناس وانما يلقيها عليهم رجل ذو ضمير ، وله وحده فى فى آخر الأمر القول الفصل » .

ولا أرى الدكتور كامل حسين حين يقول :

« وفهمك لله تطور على نحو يشبه التطور الذى حدث فى فهم البشرية كلها لله » . الا متأثرا بقول البيولوجيين ان تاريخ حياة الجنين يعيد تاريخ حياة الجنس الحى رغم أنه لا يوافقهم على قولهم هذا . ويذكرنى هذا بانه لا يسلم بالتحليل النفسى سيكولوجيا ولكنه لا يأبى ان يستخدمه فى نقده الادبى ، وحديث الوادى المقدس حديث مسلم ، روح الحديث تقول لروحك ذلك ، والنص ايضا ينص على ذلك فى بعض المواضع ، مثل قوله فى حديثه عن (عقيدة التكفير والفداء فى المسيحية) والمسلمون لا يروقهم الفداء ولا يؤمنون بالتكفير من الذنوب بما يقع على غير المذنب ، وعندنا أنه لا تزر وازرة وزر أخرى ، ولا نستطيع أن نتطهر بما لا نؤمن به ، وهذا هو الفرق العميق لما تشعر به من انكار للصلب»

ويقول الأب جومييه إن الكاتب مقتنع انه بالرغم من الاختلافات التى تفرق مختلف المجموعات من المؤمنين ، فانه يوجد أساس واحد يجتمع عليه كل البشر ذوو الارادة الحسنة ، وهدف كتاب الوادى المقدس اذا هو تقديم مكان هذا الاجتماع . ولهذا السبب يركز الكاتب بشدة على الوجوه النفسية من المسألة ، ويتجنب اختياريا كل اعتبار عقائدى ،

وسبيله الموصل الى هذه الغاية هو الاقتناع بأن القوانين النفسية العامة تستطيع أن تتغلب على ما يبدو وكأنه اختلاف فى المواقف الدينية .

تريد نظرية الوادى المقدس أن ترشد الناس الى أن كل الديانات تبدأ من نقطة واحدة هى النفس الانسانية ، وانها جميعا ترنو الى نفس الهدف وهو الله جل جلاله ، وفى الطريق تختلف التفاصيل تبعا لحماس كل فرد .

ثم يلفت الأب جومييه النظر الى اننا نجد فى هذا العمل بعض الآراء فى الاسلام « والمكانة العلمية للكاتب تسمح له بذلك » ومع أن مفكرنا مقتنع تماما وبعمق بأن الايمان جزء من طبيعة الانسان فانه يؤثر عدم تحديد موضوع الايمان ، فالمهم بالنسبة له هو الايمان فى حد ذاته ، وليس موضوعه أو مادته .

وأحب لك أن تستمتع معى بالحكمة البالغة فى قول مفكرنا الكبير « فلتؤمن بما تعتقد ان نفسك تتطهر به ، ودع لغيرك أن يتطهروا كما تريد نفوسهم فانك لا تدرى ما ينقص النفس ولا ما هى فى حاجة اليه لاستكمال حياتها السوية » . وهو قول على ايجازه وعلى تعارضه الى حد ما مع آراء الداعين الى الايمان على صورة معينة يحمل من قوة الحجة مالا يحمله قول آخر .

وقد لفت أستاذنا الدكتور العقبى نظرى الى تسمية الدكتور كامل حسين لاتباع موسى بالموسويين ولاتباع عيسى بالعيسويين ولنا بالمسلمين لا المحمديين ، وقال : انها أول مرة يسمى فيها أتباع الديانات الثلاثة هكذا وهى تسمية لها مغزى عميق يدركه المسلمون الذين يعرفون من دينهم « الاسلام » الذى جاء به محمد ولا يتعلقون به الا من حيث هو انسان نبى .

وقد كان الدكتور كامل حسين حريصا فى الوادى المقدس كما حرص فى (متنوعات) من قبل على أن يهاجم المنحى القائل بمناقضة العلم للدين (وقد بينا هذا فى فصل « القرآن ») .

و « الظلم » الذى حظى به الدكتور من قبل بدراسة عن معناه فى القرآن الكريم وبقصة (أى الطريقين أهدى) له نصيب أيضا فى (الوادى المقدس) فانت تبلغ واديك المقدس بحب الضعيف لا بكره الظالم ، والمظلوم أقوى من الظالم اذا استطاع أن يصل الى واديه المقدس

عنـدئذ سـيرى نفسـه اعظم خلقـا واعلى قدرا « ويكفيك هـذا السـمو دون ان تشـوب فيك عاطفـة مرذولة كالانتقـام او الثـأر من الظالمين ، فالظلم والانتقام سـلسلة من الشر مفرغة لا فكاك منها » . ونسـتطيع أن نقـول ان مقاومة الظلم فى الوادى المقـدس مقـاومة سلبية « باللجوء الى الوادى المقدس لتجـد فيـه الشـفاء من القلق واليأس .. وهل يتصور ان يقاوم الظلم قوم يائسون قلقون ؟ » وهذه المقاومة التى يحدثنا عنها الوادى المقدس سـبيل بالطبع من سـبل مقاومة الظلم وقد عرف العالم من غاندى مقاومة الظلم مقاومة سـلبية وهى سبيل شبيهة بما يدعو اليه الوادى المقدس ، ولكنهـا على اية حال ليست السبيل الوحيد الى مقاومة الظلم . والعنف يخالف مذهب المؤلف مخالفة صريحة فيما يتعلق بمقاومة الظالمين ، ولكن الدكتورة سهير القلماوى (ولها قدرة على ادراك مالا ندركه) تقرر أن العنف فى مقاومة النفس هو قوام التطهر عنده فهو ادعى الى فعاليتها .

والكتاب بعد ذلك كله محرك للفكر، أو مثير له، أو موقظ أيها تشاء أو أيها احسست أو أيها فعل بفكرك ، وأسلوبه علمى تجريبى مستنتج . وادق وصف له أن نقول انه من كتب الدكتور كامل حسين أو انه من دراسـاته أو انه عرض لنظرية من نظرياته وهو فى كل ذلك ممتع من حيث استطاع ان يمزج بين الحقيقة العلمية والخبيئة البشرية والتأمل الفلسفى ، من حيث ذلك كله ومن حيث لا ندرى أن نعبر عنـه وان ادركناه وادركه الناس جميعا معنا .

وقد تساءل الأستاذ فتحى رضـوان اليس فى حب الأم لطفلهـا كل ما يتطلبه الداعى الى الوادى المقـدس أو المتحـدث عنه بقوله : « حيث يحتوى قلبك حب عميق خال من كل غل او حقد لا يعتريك معـه قلق أو ندم ولا يصيبك فيـه خيبـة أو يأس » . نعم ، ولكن الدكتور كامل عاد فى كتابه بعد صفحات عندما فصل القـول فقال ان حبك الأقربين لا يطهر اذا لم يكن فيه ما يسمو على الناحية البيولوجية كحب الطير لاناثها وصغارها .

وعالم كامل حسين عالم فسيح افسحه التسـامح وهو لا يطرد الملحدين من عالمه الدينى بل يضفى عليهم صفة الايمان فهم يؤمنون بالله ولكنهم يطلقون عليه اسما آخر كالعقل والطبيعة ، والاختلاف فى التعبير

عن الايمان اختلاف فى المظهر لا فى الجوهر وهو يردد فى واديه المقدس كلمته فى قرية ظالمة (على لسان زوجة وجل الاتهام) انك لا تكفر بالله وانما بما يقال لك عن الله .

وقد عبر الوادى المقدس عن نفسية صاحبه فهو يؤمن ايمانا خالصا بالله على النحو الذى يؤمن به المسلمون ، وبرسول الاسلام وسنته وجوهر الاسلام ، ولكنه لايقبل الدين التقليدى بقضه وقضيضه على حد تعبير الأستاذ فتحى رضوان : فهو « كتاب يكشف عن نفس صاحبه فى صراحة وصدق يطلعك على مايعانيه فى غير مداراة ولا اعتذار ولا كذب » .

●● التحليل البيولوجي للتاريخ

تاريخ الانسانية الطويل حافل بالفترات المتشـــابهة فى ســـماتها وخصائصها ، وان بعدت مكانا أو زمانا ، ثم أن هـذا التشابه لايقف عند حد ، ولا تحكمه فى ظاهره قاعدة ، وأنك لتجد أمة من الأمم تبدأ من حيث أنتهت غيرها ، وتلحظ التقدم الحضارى يبلغ قمته عند قوم ثم ينحـــدر عندهم ليبلغ القمة عند آخرين ، وينتصر هؤلاء على أولئك ثم يعود أولئك فينتصرون على هؤلاء ٠

وأصبح أولو العلم بالتاريخ ، وقد صـــارت لهم قدرة على التخمين بمستقبل الحياة فى صورها المتعددة عند أمة من الأمم ، لا يدعون فى ذلك علما بالغيب ولا بالباطن ولا الهاما ، وانما يقولون لك انها الأيام أو انها الحياة ، وهو تعبير مبهم يكتنفه الغموض من جل نواحيه ٠

وقد حاول عظماء المفكرين فى العصـــــور المختلفة أن يتبينوا فى التاريخ تلك القوة الخفية التى تملك زمامه ، أو بعبارة أخرى بحثوا فى ماهية القوى التى تحرك الاحداث على هذا الوجه الذى تتحرك عليه ونشأت لنا من هذه المحاولات نظريات عديدة سكن بعضها فى الكتب حتى فقدت القدرة على الحراك ، وســـكن بعضها رءوس الذين هيأت لهم الاحداث أن يلعبوا بأزمة الحوادث فيغيروها متأثرين بتلك النظريات ٠

ومن أبرز هذه المذاهب ، مذهب (المـــادية التاريخية) لماركس . وقد تحول هذا المذهب بنسبة غير قليلة من البشر تحولا خطيرا ، ومذهب (التحدى والاستجابة) لتوينبى ، ومذهب (وحدة الصـــور التاريخية) لشبنجلر ، وسنجد أنفسنا فى هذا الفصل مع مذهب لاتقل قيمته العلمية – على أسوأ الفروض – عن هذه المذاهب الشهيرة ، وان قلت قيمته العملية لانه لايتيح لنفسه أن يوجه الأحداث وجهة ما ٠

ذلك هو مذهب التحليل البيولوجي للتاريخ للدكتور محمد كامل حسين وقد القاه في محاضرة في جمعية الدراسات التاريخية في فبراير سنة خمس وخمسين وتسعمائة وألف ثم أخرجه في كتاب يحمل هذا الاسم ٠

والفقرات التالية تعرض لنا لمحات سريعة خاطفة عن بعض آراء الدكتور كامل حسين التي يقوم عليها هذا المذهب ، وقد راعينا فيها ترتيبه في العرض حتى يبدو عرضنا في النهاية أقرب الى « التلخيص المخل » لهذا الكتاب الذي يصعب تلخيصه بسبب التركيز الشديد في أفكاره ٠٠

ذهب الدكتور الى تعريف التاريخ بأنه أثر الزمن في كائن حي بعينه هو الانسان من حيث هو انسان ٠٠ ثم قرر أن الزمن والانسان وهما عنصرا التاريخ فيهما متغيرات كثيرة تجعل قوانينهما معقدة الى أبعد حد والزمن لايعمل في الجماد ومن هذا استطرد الدكتور الى أن الحياة قد لا تكون الا الصفة الخاصة التي تجعل الشيء قابلا للتأثر بالزمن ٠ والتاريخ يعمل عمله في الانسان على ثلاثة أوجه :

* الحياة الداخلية — حياة الافراد : (الطباع والغرائز) ولا أثر للزمن فيها ٠

* الحياة الخارجية — حياة الجماعات : (مظاهر النشاط الاجتماعي الانساني) وأثر الزمن فيها دوري تعلو وتهبط على التوالي ٠

* الحياة العقلية — التفكير والعلوم : وأثر الزمن فيها التقدم المطرد ٠

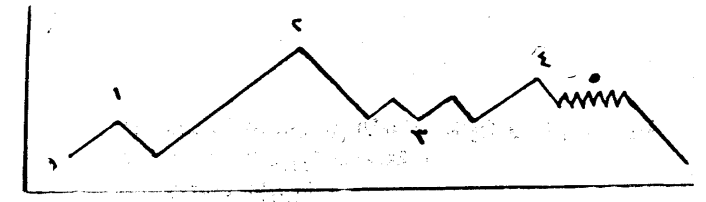
وينتقل الدكتور الى عوامل التفوق التي نالت بها الأمم امتيازات في التاريخ فيذكر أنها :

١ — عامل التفوق الجسمي ٠
٢ — الشخصية والخلق ٠
٣ — التفوق في المال ٠
٤ — التفوق في العلم ٠
٥ — التفوق العددي ٠

ويقسم الدكتور كامل حسين التاريخ السياسي والقومي الى عدة عهود ويطبق هذا التقسيم على انجلترا وفرنسا والمانيا وروسيا على النحو الذي يبينه الجدول الاتي :

العهد	أنجلترا	فرنسا	ألمانيا	الروسيا
١ ـ العبودية التامة للفرد	اليزابيث ١	لويس ١٤	فردريك الاكبر	بطرس الأكبر
٢ ـ العصر الذهبى تحت حكم الفرد	شارل ١	لويس ١٦	غليوم ٢	نيقولا ٢
٣ ـ الضعف بعد العصر الذهبى	البورتيان	الثورة الفرنسية	جمهورية فيمار	١٩١٧
٤ ـ الثورة : أول نجاح للجماعة على الفرد	كرومويل	نابليون	هتلر	ستالين
٥ ـ الفرد يستعيد نفوذه		١٩٤٨	؟	؟
٦ ـ الثورة الثانية : التغلب النهائى على نفوذ الفرد	الحياة البرلمانية	نابليون ٣	العهد الحاضر	العهد الحاضر
٧ ـ ضعف بعد الثورة الثانية لا يبلغ حد عودة الفرد		الجمهوريات		

وعندما يطبق الدكتور كامل حسين تقسيمه هذا على تاريخ الفنون يكون أثر الزمن فى الفنون على النحو التالى :



١ ـ الرواد　　　　٢ ـ العمالقة
٣ ـ الكلاسيكية الاولى (المقلدون)　　　　٤ ـ الكلاسيكية الثانية
٥ ـ مذاهب صغيرة متعددة ..

ويخلص الدكتور الى أن أهم ما في حياة الأفراد هو الغرائز والحياة الداخلية ولهذا فان أثر الزمن فيهم قليل جدا ، وأهم ما في حياة الجماعات هو الفنون والحياة الخارجية وأثر الزمن فيها دورى .. وأهم ما في حياة المدنيات هو العلم والحياة العقلية وأثر الزمن فيهما مستمر ..

ونستطيع أن نقول أن فكرة هذا الكتاب سارت على عرض تاريخ الأفراد والجماعات والمدنيات عرضا يتيح استنتاج أثر الزمن في كل منها من ناحية ومن الناحية الأخرى : عرض تاريخ - الحياة الداخلية (الطباع والغرائز) والحياة الخارجية والعلم والحياة العقلية عرضا يتيح استنتاج أثر الزمن في كل أيضا .

ثم المناظرة بين العرضين الأول والثاني تلك المناظرة أو قل المزاوجة التي بدت منطقية تماما والتي خلص منها الدكتور الى استنتاج ما ذكرناه في الفقرة الأخيرة من عرضنا للكتاب ، ولا يخلو الكتاب مع ذلك من آراء سديدة وأفكار مبتكرة تعرضنا لها عند حديثنا عن فكر الدكتور .

وعلى حين أن هذا الكتاب ألقى محاضرة الا أن ذلك لا يمنع اطلاقا من أن نعبر عنه دائما « بالكتاب » لا نعتمد في تسويغ هذا على أنه طبع ككتاب بل ان « التحليل البيولوجي للتاريخ » كتاب بالدرجة الأولى أو قل أنه كتاب ألقى في محاضرة ، وقد استطاع مفكرنا الكبير في محاضراته هذه أن يتناول المادة التاريخية تناولا كليا عاما دون أن يضل وسط تفصيلاتها أو يتشعب مع جزيئاتها فتم له بذلك أكبر عامل في نجاح تحليله .

وقد يكون من المناسب أن نعرض لعنوان الكتاب أو (اسم النظرية) بالتحليل وبالتعليل فهذا الكاتب يبدأ من منطلق واضح هو أن التاريخ يتناول حياة الانسان من حيث هو انسان وبهذا يبحث أثر الزمن فيما هو انساني بحت ومن هنا كان الشبه بعلم البيولوجيا الذي يتناول أثر الزمن في الكائنات الحية من حيث النمو والتكاثر والانحلال والفناء والتطور .. الخ .. ثم أن هناك تشابها بين القوانين البيولوجية والتاريخية من نواح عديدة فكلاهما كما تقول أستاذتنا الدكتورة بنت الشاطىء :

(١) احتمالية تصدق على الأعداد الكثيرة والحقب الطويلة .
(٢) لا تنفى السببية الملاصقة .
(٣) لا تحتم الجبرية .

والكتاب حافل بالآراء القوية والفروض الخصبة ولا شك أنه أثار أمورا هامة ، وحرك قواعد ساكنة ، ونشط عقولا راكدة ، وصحح مفاهيم

خاطئة ، وقد أعانت العقلية الطبيـــة مفكرنا على شيء تهيأ لمذهبه معه الارتفاع الى منزلة كبيرة فى الناحية العلمية ، وذلك الشيء الذى كان نتاج هذه العقلية هو تفاديه جمع التاريخ كله على نمط واحد فتراه يفرق بين حياة الأفراد ، وحياة الجماعات وحياة المدنيات ويفرق بين حياة الغرائز وحياة الفنون ، وحياة العلوم ، حتى نتجت عندنا تسعة قوانين فكانت أقرب الى الصواب بكثير جدا جدا من قانون واحد كما فعل غيره ممن تناولوا التاريخ جملة ليطلقوا عليه حكما شاملا .

ولم يكن كامل حسين يهدف الى أن يخرج بحكم عام شامل يجبر عليه التاريخ ، وانما كان يهدف الى أن يحلل التاريخ تحليلا يخرج له به سر هذا التاريخ .. والكتاب ينبئنا أن الحياة العقلية سيكون لها **الغلبة** على سواها وسيصبح لها النصيب **الأكبر** فى تكييف تاريخ المستقبل .. وهو ما نلحظه يوما بعد يوم خلال أكثر من عشرين سنة هى عمر الكتاب وقد تبين للناس صحة ما قرره الكتاب من ثبات طبائع الانسان وغرائزه ثباتا عجيبا رغم كل التوقعات التى ظنوها تجيء أثرا للزمن ولا يعرف غيره الكتاب [illegible] من نفى سلطان الزمن على الطبائع والغرائز الا جوهر الأديان السماوية والكتاب بعد ذلك مثال للرصانة بلا ادعاء وللوقار المترفع عن الضجيج والتهريج والاعلان ، وللفكر الأصيل الناضج الذى يؤمن بالعلم ويرى المستقبل له ، ومثال للانسانية الخيرة المتفائلة وللحس المرهف والعلم الجامع يستمد قوته من الصدق والجمال كما تقول أستاذتنا الدكتورة عائشة عبد الرحمن

●● فى التاريخ المقارن
« محنتان متشابهتان »

نشر هذا البحث فى مجـــلة « الكاتب المصرى » ثـم فى الجزء الأول من (متنوعات) ثم فى (الذكر الحكيم) ٠٠ أما المحنتان المتشابهتان فهما محنة خلق القرآن عند المسلمين ، ومحنة التجسد عند المسيحيين ، والدكتور يرى فيهما خير مثال لوحدة التطور التاريخى (التى أخذ بها بعض المفكرين وعلى رأسهم شبنجلر فى كتابه اضمحلال الغرب وانكرها آخرون مثل فيشر فى كتابه تاريخ أوربا ، وهو بالاضافة الى ذلك يؤمن أنه « لو آمن الناس بوحدة التطـــور التاريخى عن علم واطمئنان لزالت الوحشة بين المدنيات المتباينة وبين الشرق والغرب مثلا ، ولسهل على الناس أن يلتقوا فى صعيد واحد حين يعلمون أنهم كانوا يسيرون فى طريق واحد » ، ولا يفوت الدكتـــــور أن يطمئننـــا الى أن المحنتين كلتيهما أبعد عن التفكير الحديث من أن تثير عند المؤمنين من المسلمين أو المسيحيين أى أثر يزعج ايمانهم أو يمس شعورهم بحال ما ٠

أما أوجه الشبه من الناحية الفكرية :

١ ــ كانت عقيـــدة المؤمنين الأولين من المسلمين والمسيحيين تتمثل فى الايمان الطاهر النقى البسيط الذى لا يشـــوبه التفكير الدقيق فى ظاهرة ما ثم لم يلبث الناس أن بحثوا وتفلسفوا ولكن ايمانهم كان لايزال قويا فلم يقدهم بحثهم الى الكفر وانما التمسوا الهداية عن طريق التأويل ، وتبين بعد قليل أن بعض هذا الايمان يجب أن يضحى به حفظا لقدسيه البعض الآخر ، وهنا بدأت تنشأ الطوائف المختلفة ٠

٢ ــ رأى كبار العلماء والأتقياء من المسلمين ومعهم الجمهور ان مما

يمس قداسة القرآن القول بأنه مخلوق ، واحتجوا بأنه لم يرد على ذلك نص ، لا فيه ، ولا عن النبي ولا عن الصحابة فالقول به جراة على العقيدة الصحيحة .

وكذلك كان بين المسيحيين من يؤمن ايمانا صادقا بأن الاتحاد بين ثاني الثالوث وبين نفس انسانية وجسم بشرى كان اتحادا حقيقيا دائما ، وكان ذلك رأى المسيحين الشائع حتى أوائل القرن الخامس الميلادى وكان تقديس مريم من أهم مظاهر الايمان الصحيح .

٣ – كان من المسلمين من حكموا العقل مع الايمان وهم المعتزلة فهالهم أن يشركوا مع الله شيئا فى قدمه ، وكانوا يرون أن القول بقدم القرآن يتنافى مع التنزيه الواجب لله على كل مسلم .

وكذلك كان بين المسيحيين من رأى أنه لا يليق بالاله ان يكون قد اقام تسعة أشهر فى جسم مريم وأن يكون قد خرج من أحشائها كما يخرج الناس ، وأبى الأتقياء أن يتصوروا الطهارة الالهية قابعة فى جسم ادنى غير طاهر ولم يؤمنوا بأن الله الذى يشمل العالم يمكن أن يحد من نفسه فى جسم مريم وهالهم أن يكون الله قد عذب وصلب ، وأزعجهم أن يكون مبعث الروح الأبدية قد لقى حتفه فوق جبل كالفارى .. ورأوا أن يفرقوا بين طبيعتى المسيح :

(أ) فمنهم من آمن أن المسيح رجل عادى فلما عمده يحيى فى نهر الأردن حلت فيه الروح القدس فى صورة حمامة ، فلما سلمه الحاكم الرومانى الى اليهود تركته هذه الروح العالية يتالم ويعذب ويصلب .

(ب) ومنهم من قال بأن جسم المسيح ليس كالاجسام ، وأنه كان يأكل مع الحواريين دون أن يجوع أو يعطش ، فهو فوق العيوب الجسدية وأن الشكل والمادة فيه كلاهما الهى .

(جـ) أما الرهبان المصريون فتمسكوا بأن الهيئة الهية انسانية لما ورد فى التوراة من أن الله خلق الانسان على هيئته .

٤ – وكان من المسلمين فريق رأوا واجبا عليهم أن يبتعدوا كل البعد عن هذه الآراء المارقة ، فأسرفوا فى تقديس القرآن حتى قالوا أن نطقنا به قديم وأن حروفه قديمة وهو شطط لا يسوغه الا شدة الرغبة فى مقاومة الآراء غير المألوفة .

وكذلك قام بين المسيحيين من أنكر أن المسيح ولد وكبر ، وقالوا أن ما رآه الحواريون لم يكن الا شبحا جعله الله القادر على كل شيء فى

صورة انسان ليلقى الى الناس تعاليمه ، وأن تاريخ رسالة المسيح كان تمثيلا على مسرح بيت المقدس لمصلحة الناس ، واعترض عليهم أن مثل هذا الخداع لا يليق بالواحد القهار · ولكنهم كانوا يرون كما رأى كثيرون بعدهم أن الخداع لهداية الناس مباح ·

٥ ــ وفريق رأى ان كلام الله يجب أن يطلق على شيئين مختلفين ، كما هو الشأن فى كلام الناس : الكلام النفسى وهو القائم بذاته وهو الأزلى القديم أما القرآن المكتوب المقروء فهو حادث بلا شك ·

وكذلك كان بين المسيحيين من آمن بفصل السيد المسيح عن ربهم وكانوا يحترمون مريم على انها أم المسيح ، وكان يؤذيهم أن تسمى أم الله ·

٦ ــ واشتد الجدل بين هذه الفرق وأصبح الجدل بين المسلمين منحصرا فى القول بأن القرآن مخلوق أو مجعول ، وقتل الناس للفرق بين هذين اللفظين ·

وانتهى عند المسيحيين الى : هل المسيح من طبيعتين أو فى طبيعتين ؟ وقتل الناس للفرق بين حرفى الجر اللذين لا يستطيع الانسان فى هذا العصر ان يجد فى الفرق بينهما ما يسوغ هذا العداء الحاد ثم وضع رجال الكنيسة الحد الفاصل بين الحق والباطل وبين الكفر والايمان وان كان هذا الفرق أحد من السيف ·

اما أوجه الشبه من الناحية السياسية فواضحة :

١ ــ حاجة الداعين الى عقيدة معينة الى استعمال القوة السياسية لحمل الناس على الايمان بها فقد اشتد المأمون فى استعمال القوة فرأى ان من لم يقل بخلق القرآن فهو مرتد ويحل قتله ، وأمر ولاته أن يمتحنوا الناس فمن لم يقل بقوله ضربت عنقه ·

ومع ان الامبراطور لم يبدأ فى حمل الناس على عقيدة معينة أول الأمر الا أن البطارقة فى القسطنطينية والاسكندرية كانت لهم قوة سياسية كبيرة ، فكان القديس كيرولس بطريق الاسكندرية يستخدم عماله فى الضغط على الحكام المدنيين ، وطرد اليهود من المدينة لكفرهم ، وذبح اتباعه فتاة وثنية كانت تعلم الفلسفة فى الاسكندرية وسلخوا لحمها عن عظامها بقطعة من المحار داخل الكنيسة ·

اما نسطورس بطريق القسطنطينية فقد أستمد قوته من الامبراطور فقال له عند تولية الحكم اعطنى الأرض خالية من الكفار

وانا أعطيك مملكة السماء ، وبعد خمســة أيام احرق ديرا لمخالفيه في العقيدة ٠

٢ ـ سرعان ما أنقلب الخلاف الدينى البحت الى خـلاف على النفوذ الدنيوى فمثلا غضب الواثق على أحمد بن نصر ودعا الى قتاله لقوله بخلق القـرآن وان كان كثـيرون يرون أن سبب ذلك أكثره يرجع الى ثورة أحمد بن نصر وخروجه من الطاعة ٠

أما عند المسيحيين فقد صارت الغايات الدنيوية واضحة جدا فى كل أدوار الخلاف وتدخل رجال قصر الامبراطور فى المعركة واشتركت فيها أسرة الامبراطور ينصرون احدى العقائد اليوم ، وينصرون الاخرى غدا ، ولهم يأنف كيرولس نفسه أن يستخدم الذهب فى ترجيح رأيه على رأى عدوه بل قبل على نفســه أن يعلن فى غموض وعلى مضض ازدواج طبيعة المسيح وهو ما لم يكن يؤمن به ـ ليتمكن من حمل الامبراطور على الانتقام من عدوه ٠٠

٣ ـ أصبح الجمهور المؤمن الساذج عاملا قويا فى النزاع فى الحالتين ، فكان نفوذ عامة الشعب عند المسلمين فى جانب المحدثين والسنيين ، ووجدوا بطلهم فى أحمد بن حنبل لصلابته ، واتجهت أنظار رجال الدولة اليه ، ولم يســتطع المعتصم أن يقتله كما قتل غيره لالتفاف النـاس حوله ، ولو قتله لكانت فتنة ، واضطر الى اخراجه من السجن بعـد أن ضرب وعـذب لأن النـاس ـ اجتمعـوا حوله وضجوا حتى خاف السلطان ، ولعله أعجب هو أيضا بشجاعته وثباته ٠

وكان للجمهور عنـد المسيحيين دور حاسـم جـدا فى هذا النزاع الدينى ، وكان أكثر الناس مخلصين للعذراء لا يريدون أن يعتنقوا مذهبا ينقص من جلالها وواضح أن التعمق فى بحث طبيعة المسيح لا يوافق بساطة ايمان الجماهير فصـاحوا فى مجمع أفيسوس الثانى أن من قسم المسيح فليقسمه الله ، ولتمزق أعضاؤه وليحرق حيا ٠

٤ ـ ومن غرائب المصادفات أن يلجأ المأمون الى تجريح مخالفيه أمام الجمهور فيقول عن أحدهم أنه كان يسرق الطعام بالانبار ، وعن آخر انه مشغول بأكل الربا عن الوقوف على حقائق التوحيد ٠

وأن يرى رجال الدين فى أحد المجامع المقدسة أن ينسبوا الى رجال الدين من مخالفيهم أمورا مخجلة ، فقالوا عن أحدهم ان له عشيقة ، ان بيته كان مفتوحا للعاهرات وتوسلوا بذلك الى عزله ونفيه ٠

٥ ــ سياسة المجامع وعقدها لحسم النزاع بالمناقشة : وحدث فى كلتا الحالتين أن أصبحت قرارات هــذه المجامع خاضعة للقوة ، قوة السلطان تارة ، وقوة الجماهير والأتباع تارة أخــرى : فالمأمون دعا وجوه المحدثين ومخالفيه فى الرأى وأمرهــم أن يقولوا بقوله وقد وافقــوا عــلى ذلك لأنهم لم يستطيعوا أن يقاوموا السلطان ، وخاصــة ان العقل والحجة كانا فى جانبه وهذه الحادثة فتت فى عضد المحدثين والعامة وأحزنتهم ، ونعى أحمد بن حنبل على من وافقوا المأمون على رأيه خضــوعا للســلطان ، وكان يقول انهم لو خالفوه حينذاك لنامت الفتنة قبل أن تستفحل .

أما امبراطور القسطنطينية فقــد دعا الى مجامع كثيرة ، وتاريخ هذه المجامع طويل ، والذى يهمنا منــــه الآن هو أن أقوى أسلحة المناقشــة فى هــذه المجامع لم تكن الحجة والاقناع ، وانما كانت القوة والمال وعــدد الأتبــاع ، ووقعت حوادث عنيفة جــدا فى هــذه المجامع التى وصــفت بعد بأنها مقدسة ، فحدث فى مجمع افيســـوس الثــــانى أن بطــريق الاسكندرية شتم زميله بطريق القسطنطينية ورفسه وضربه ضربا أدى الى موته بعد أيام ، وأحاط الجنــود بالقسيسين الحــاضرين فهــرب هؤلاء تحت الكراسى ووراء المنبر ووضعوا امضاءاتهم على أوراق بيضاء ملئت بعد ذلك بالطعن على طريق الاسكندرية .

٦ ــ كان لموت الأمراء أثر ظاهر فى تاريخ الحركتين ، فلمــا مات الواثق وبويع المتوكل لم يتحمس للقول بخلق القرآن ، ولم يحمل الناس عليه ونامت الفتنة ، وقيل للفريقين : اذا كان قد وسع النبى والصحابة أن يسكتوا عن ذلك وسعكم ما وسعهم .

وفى القسطنطينية حدث أن وقع الامبراطور من فوق فرسه ومات ، فتغيرت الحال وانقلب المهزومون الى منتصرين ، وغالى هؤلاء فى الانتقام من أعدائهم وساموهم العذاب على ما ارتكبوا حين كان السلطان معهم .. وقال الامبراطور الله يشــهد انه غير مسئول عن هذه الفوضى ، وحمــل بذلك المتخاصمين كيرولس ويوحنا صاحب انطاكية على التصافح فتصافحا خشية وحذرا لا عن التسامح القلبى الذى تدعو اليه المسيحية .

وكذلك حدث عند المسلمين عنــدما انتصر الحنــابلة أن انتقموا لأنفسهم من المعتزلة وكالوا لهم بكيلهم وتمكنوا من الحكومة فأسرفوا فى حمل الناس على اتباع مبادئهم بالعنف .



والحقيقة أن تحليل الدكتور للمحنتين المتشابهتين ينم عن علم واسع بتاريخ الدينين والمذهبين وفلسفتهما وفلسفة التاريـخ كما ينم عن قدرة فائقة فى التحليل ، والتأمل ، والفهم ، وربط الأحداث ، والبراعة (الطبية) تظهر عندما يرجع الدكتور الأعراض والمظاهر الى أسبابها الحقيقية ولا يقف أمام الاعراض ليربطها ببعضها ربط السبب بالمسبب وهو مانبهنا اليــه وكررنا القول به أكثر من مرة .

والدراسة بعد ذلك دراسة رائدة فى التاريخ المقــارن وقد تكون أعظم برهان على صحة نظرية التطور التاريخى ولا اغالى اذا قلت أنها من حيث هى برهان تفوق البراهين التى برهن بها أصحاب النظرية أنفسهم على صحة نظريتهم .

الفصل السادس

●● حياتنا الفكرية

كانت الحياة الفكرية فى مصر المعاصرة من أهم الامور التى تشغل بال كامل حسين (ان لم تكن شغله الشاغل) حتى انه جعل النصيب الأكبر من كلمته التى القاها فى حفل استقباله عضوا بمجمع اللغة العربية للحديث عن (الحياة الفكرية فى مصر الحديثة) مع أن العادة جرت على أن تكون مثل تلك الكلمة كلها حديثا عن (العضو السالف) ، وكان لا يفتأ يدعو الى الاستقلال الفكرى ، وأن دعوته هذه لتتخذ صورة الدعوة المباشرة يدعو اليها أدباءنا أو تأتى ضمنا فى كلماته وكتبه ومقالاته ،

وسنعرض الآن الآراء التى وردت فى :

(١) خطبته فى حفل استقباله عضوا بمجمع اللغة العربية وقد وضع لها عنوان (الحياة الفكرية فى مصر الحديثة) عندما نشرها فى الجزء الثانى من كتابه (متنوعات) ٠

(٢) كلمته فى حفل تأبين الدكتور طه حسين فى الحفل الذى أقامه مجمع اللغة العربية ٠

(٣) مقدمة الجزء الثانى من كتابه (متنوعات) ٠

(٤) كلمة له فى (المجلة) يوليو ١٩٦٩ ٠

وسنلخص حديثه عن « الحياة الفكرية » فى كلمته فى حفل استقباله :

اريد ان احدثكم عن الحياة الفكرية فى مصر الحديثة فانى ممن لايزالون يؤمنون بالفكر المحض وأثره فى الحياة العامة ، وأكثر الناس

على ان المحدثين يفضلون العمل على الفكر ، وان الغلبة اليوم لما سميناه الماديات ، واننا فقدنا الايمان وهجرنا الاخلاق واختلط علينا الخير والشر .. الخ) ولا اريد دفاعا عن المحدثين ولكنى اقول أن هذه آراء مبسطة لا تصدق الا على ظاهر الامور واصل الخطأ فيها ما طرأ من تغيير على مكان الفكر فى حياة الناس ، وعلى الصور التى تتمثل فيها الاخلاق .. فقديما كانت حياة كل قوم ابوابا متفرقة كل منها قائم بنفسه وكان الفكر المحض أرفعها شأنا أما اليوم فحياة كل قوم وحدة عقلية متصل بعضها ببعض ، وان يكن الفكر قد خرج من عزلته ونزل عما أسبغته عليه من مجد قديم فان ذلك لم يزده الا قوة لتغلغله فى شتى امورنا والناس فى عصرنا هذا لم يفقدوا الايمان وانما شكوا فيما يؤمنون به ولم يهجروا الكثير من الفضائل الفردية التى عكف عليها الاولون الا ليستبدلوا بها فضائل اجتماعية ، ولم ... الا..الخ) كل ذلك تحول فى المعنويات لا انكار لها وقد يكونون مخطئين ولكنى أعتقد أن عصرنا عصر ايمان وأخلاق ، وأن تغير لونها فمن الملحدين من هم احرص الناس على عقيدة واشدهم دفاعا عن مبدأ ولا اشك أنهم حين يبلغون الغاية فى مكانهم سيعلمون ان ما أنزل على النبيين هو الحق لان العقل البشرى كان حينذاك اكثر قبولا للمبادىء السامية وأكثر احساسا بها منه فى أى عصر تلاه ، وكثيرون يظنون أننا سائرون الى انحلال خلقى تام واحسب أننا على النقيض من ذلك نسير صوب الكمال ويجب علينا أن نظل نعنى غاية العناية بالمعنويات وبالفكر وبما يدق عن المحسوسات فأن مستقبل البشرية الى الكمال لا الى الانحلال •

« لا يزال الفكر المحض أكبر قوة فى العالم ، ولن تحدد الحروب والدمار تاريخ النصف الثانى من قرننا وانما يحدده ما يتم بين المدنيات المختلفة اليوم من تواؤم أو اختلاف ، وفى العالم اليوم مدنيات كبرى لا تزيد على الخمس ولا شك ان أهلها سيبلغون ما بلغه الغربيون فالمساواة سنة العالم الحديث وقد بلغنا من المساواة بين الأفراد الشىء الكثير ، وبدات المساواة بين الدول ، أما المساواة فى التفكير فستكون من عمل المستقبل القريب فالزمن يعمل على المساواة والناس يعملون على التساوى » •

« واذا كانت المدنيات كلها ولت وجهها شطر المدنية الغربية فان ذلك ليس اعجابا بها أو خضوعا لقوتها بل يرجع ذلك الى أن

طبيعة التفكير البشرى فى جوهرها واحدة وان كل ثقافة لا يقف بهـا النمو ستجد نفسها على نهج يؤدى بها الى ما يشبه المدنية الغربية » ولا يفرق بين المدنيات شيء مثل اختلافها فى النمو ، وأصعب ما فى هذا التساوى التوائم بين العقليات ، وتقارب التفكير ويكون ذلك بالتحول او الاندماج او المسايرة على أساس المساواة .

فأما التحـول فمحـال عنـد أكثر البـاحثين لأن الفـكر أثبت اصولا والصق بالطبع من أن يتحول طواعية واختيـارا .. وآخـرون يرون الاندماج ممكنـا واستعاروا صفة ذلك من علم البلورات ، وغير هؤلاء رأوا الامر ابسـط من ذلك وعندهم ان الفـرق بين المدنيـات المختلفة مع شدته لا يمنع من التفاهم بينها اذا بلغت درجة من النمو واحدة وان كثيرا من الفروق زمنى فبعض المدنيات كانت أسرع من غيرها نمـوا ، ولمصر فضـل السبق فى هـذا المضـمار فقد كانت فى طليعة البلاد التى حاولت اللحاق بالمدنية الغربية ومن أكثرها توفيقا . واذا كان اليابانيون قد أصـــابوا نجـاحا أسرع فذلك لأن مدنيتهم تختلف عن المدنية الغربية فى تصوراتها، وموضوعاتها، وعقائدها اختلافا شـديدا فلم يقع بينهما تصادم عنيف أما مصر فقد كانت مسرحا لصراع قوى بين مدنية فتية طاغية وبين مدنية عريقة وقف بها النمو زمنـا ، وكان لهذه المدنية رأى فى أكثر ما يعرض له التفكير الغربى من شئون وكان على هـذا الرأى أن ينتصر او ينهزم أو يتحول .. وفيما فعلته مصر منذ قرن ونصف درس للبلاد التى تعمل اليوم على اللحاق بالمدنية الغربية .

ثم يعرض التاريخ اتصال مصر بالفـكر الغربى فيذكر أن الحدث الذى دفع مصر الى الدخول فى التاريـخ الحـديث هو تلك الحملة الفرنسـية القصيرة الأمد البعيـدة الأثر ، ثم اننـا أخـذنا نجرع من الحضارة الغربية جرعا قويا نروى به ظمأ شديدا وأهل البدو وهم أعلم النـاس بالظمـأ يقولون : الجرع أروى والرشـيف أنقـع ، وبعض خصائص التفكير الحديث فى مصر يرجع الى طباع فينا وبعضـها يرجع الى هـذا التـاريخ ، فنحن فى بلد فيه النـور القوى والظـل الحاد ، وفيه الجدب والخصب متجاوران ، ومن هنا كان ما فينا من التفكير بالنقيضين فالقـول عندنا أما حق أو باطـل والأمر اما خـير أو شر .. ومن دقة الحس أن نميز بين درجات من الحق والخير متقاربات فليس فى الحيـاة شر مطلق ولا خير بحت . ومثل هـذه الأحـكام النهائية ضعف فى التفكير ، وقديما كانت الحقيقة أمرا ثابتـا ولكنهـا

اليوم أمر يختلف تقديره فنجد له أوجها متعددة تبعا لاختلاف وجهات النظر ، ومن الهرولة التى هى من الصفات الواضحة فى التفكير المصرى ما هو واضح من فقدان التعاصر فهذا مفكر ممتاز يغلب عليه طابع المفكرين الفرنسيين فى القرن الثامن عشر وهذا كاتب يغلب عليه طابع الشعراء فى القرن التاسع عشر .. وانى أقدر ما اخرجه المفكرون والأدباء والعلماء فى مصر أخيرا غاية التقدير (والكلام سنة اثنتين وخمسين) ولكنى أجد فيه صفة غريبة فما زال أكثره يشبه الاصداء تتجاوب من مواضع مختلفة ولا يستطيع احد ان يجمع بين الاصداء فيجعل منها قطعة موسيقية .

وحسب المفكر أن تكون آثاره متسقة مع روح عصره اتساقا يزيد فى التراث الفكرى لذلك العصر وليس عليه أن تكون أعماله من اروع الأعمال واعظمها فالمجد الفكرى عند اى قوم لا يقوم على الأعمال الخالدة وحدها ..

وفى تأبينه لطه حسين قال الدكتور كامل « لا يعجبنى أن أرى من كبار مفكرينا من يعكف على كتابات من هذا النوع أو ذاك (كالوجودية) لا يصدرون الا عن تقليد للغربيين بعد أن بين لنا طه حسين طريق الجمع بين الثقافتين » .

وكان يرى انه على كتابنا ان يأخذوا أسلوب الحضارة الغربية لا مادتها ، ففى عدد المجلة « يوليو سنة تسع وستين » بعد أن تحدث الدكتور عن « الشعر العربى » قال انما دعانى الى نشر هذه الدراسة ما دار من نقاش حول (ترجمة جوته لبعض الابيات من قصيدة — تأبط شرا) « وليسمح لى أصدقائى فى المجلة ان اعتب عليهم فى أمر آخر فيخيل الى انهم يمثلون فئة ممتازة من المفكرين والأدباء المجددين والتقدميين ، وعندى أن أدباء هذه الفئة على ما فيهم من مواهب ضلوا طريقهم حتى أصبح عملهم لا يفيد الثقافة المصرية المعاصرة الا قليلا ، ومنهم من يفخر انه يكتب عن فولتير مثلا كما يكتب الفرنسيون وليس فى هذا فخر للمؤلف المصرى — وهذه الدراسات فى أحسن حالاتها لا تزيد على المحاضرات التى تلقى فى الجامعات هناك وقد يكون فيها فائدة بيداجوجية لمن لا يعرف ولكنها ليست مفخرة للمؤلف عند المواطنين ، ولا ترفع من قدر التفكير المصرى عند الغربيين وهم اشد اعجابا بالمؤلف المصرى الذى يدلهم على وقع فلسفة فولتير أو شعر راسين على المصريين وأثر ذلك فى بيئة

تختلف عن الفرنسية تماما .. « وعندى ان حظ الأمة فى المجـددين التقدميين أسوأ من حظها فى المحافظين الرجعيين وليس هناك تفاضل فى التبعيـة ، والذين يتبعون سـارتر ليسـوا أرقى من الذين يتبعون أسـلوب بديع الزمان ، وليسـوا اكثر منهم فائدة فى تقـدم الثقـافة العربية ، وأرجو أن أرى المجـلة تدعو الى تأصيل الأدب فيكون قائما على تطور صادق ويجب أن نقلع تماما عن التقيد بأحدث الآراء وأحدث المذاهب الأدبية وأحدث الأجهزة وأحدث البحوث العلمية التى لا يكون لها جذور فى حياتنا العقلية » وصدق الدكتور كامل حسين .

● ● التعاون الدولى والسلام العالمى

كان الدكتور كامل حسين من دعاة السلام العالمى وكان يستند فى دعوته الى تفكير جدى ، وكان يلقى المحاضرات فى مركز تطوير العلوم التابع لليونسكو (بجامعة عين شمس) على الاجانب الذين يأتون الى هـذا المركز فيتحـدث اليهم عن وسـائل السـلام العـالمى حديثه عن الشئون الثقافية والتيارات الفكرية فى حياتنا المصرية ٠

وكان الدكتور واحدا من سبعة من كبار المفكرين فى العالم الذين دعاهم يوثانت السكرتير العام للمنظمة الدولية الى القـاء المحاضرات أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة عام خمس وستين ٠

وقد نشرت جامعة عين شمس الكلمة التى القاها الدكتور كامل حسين بالانجليزية ونشرت « المجلة » فى ابريل سـنة خمس وستين ترجمة للكلمة قام بها الاستاذ عبد الرازق يسرى وسنعرض فى الفقرات التالية الأفكار التى ضمتها هذه الكلمة :

(١) التعاون الدولى هو العمـل الانسـانى العظيم الذى حققه عصرنا ولم يكن لغير عصرنا أن يحققه .

وهو انتصار لهيئة الأمم فهى صـاحبة الفكرة بأكملها وهو أهم طريق يبشر بالسـلام العالمى ذلك الهدف الذى افتقدته الانسانية كل هذا الزمن الطويل ويبدو انه أصبح الآن قريب المنال .

(٢) ثم تحدث عن المشروعات التى تشترك فيها عدة أمم وقسمها الى ثلاثة أنواع : ــ

(أ) انشاء محطات القوى الكبرى وهو نموذج لما ينبغى أن يكون عليه التعاون الدولى فنجاحها مؤكد وفوائدها لا يتطرق اليها الشـك

وكرامة البلاد لا تجرحها المعونة المقدمة لها بأى وجه من الوجوه فضلا عن ان مواهب اهل البلد وكفايتها ينتفع بها الى أقصى حد .

(ب) **المعونة الفنية** التى تقدم للناس فى كافة انحاء الأرض، واقترح ان تترك كل منظمة رعاية المشروعات الصغيرة للسلطات المحلية فهذا يزيد من فرص نجاحها مما يساعد على دعم الثقة فيها وهى ضرورية .

وعبر عن رأيه فى أن تعطى الاسبقية للمسائل التى حلت عقدتها علميا ، وضرب المثل لذلك برأيه فى مقاومة الأمراض .

ونبه على تجنب النتائج السريعة ودعا الى اتباع سياسة طويلة المدى . أما الأمم التى استقلت حديثا فالجامعة امر حيوى بالنسبة لها فهى تواقة الى تعلم العلوم والى تنمية تكنيك التفكير العلمى وهذا ما تحققه الجامعة بالاضافة الى توفيرها عددا ضخما من أصحاب المهن الحرة لا سيما التعليم ..

وتطرق به الحديث الى البحث العلمى فذكر ان الباحثين فى مثل هذه الدول حديثة الاستقلال محتاجون الى المعونة الدولية للحصول على الأجهزة غالية الثمن حتى يؤدوا دورهم على وجه مرض .

ثم تحدث عن الأنماط السيكولوجية فى تصنيف الأعمال الابداعية وهو حديث افردنا له الفصل الثانى والثلاثين .

وينبغى أن يخلو التعاون الفكرى من كل أثر للتميز وقد أشار البعض الى أن التاريخ يمكن ان يكتب بطريقة لا تبرز الصراع بين الأمم وهى فكرة ممتازة ولكن مثل هذا التاريخ قد لا يستسيغه أحد فالثقافة لن تكون لها قيمة ما لم تكن شخصية بوجه ما .

(جـ) **المعونات لاسعاف المناطق المنكوبة** : — وعنده انه لم يحقق النتائج المنتظرة منه بسبب الألم النفسى، والواجب فى مثل هذه المعونات « أن تكون طبيعية جدا أسهاما فى ايجاد احساس عام بالخير فيقتنع الناس بأنهم يعيشون فى عالم طيب يتعاون فيه الناس وقت الشدائد » وهذا يؤدى الى احساس عالمى أفضل بكثير من عرفان الجميل المحدود الذى يقوم بين أمتين ..

(٣) وتحدث عن الأثر المتبادل بين العلم والتعاون الدولى فقال :

انه لولا استخدام الاسلوب التكنولوجي الحديث على اكمل وجه ما امكن ان ينشأ التعاون فقط ، وكذلك فان العلم قد افاد من التعاون الدولى اذ زادت ثقة الناس به لما أصابه من نجاح ، والعلم بطبيعته عالمى وليس هناك من شيء يضارعه فى قدرته على تحقيق التفاهم الدائم بين اناس على اختلاف مشاربهم وكلما ازداد انتشاره وتغلغل فى حيـاتنا ازداد التفاهم بين الناس « ومن سوء الحظ أن وجهة النظر الداعية الى نشر العلم لا تؤيدها الأمم جميعا فالسـياسة التى تبدأ بالخلاف وتنتهى بالتراضى لا يتوقع من اصحابها مشاطرتنا فالساسة لا يرون العلم الا وسيلة لايجاد القوة التى يمكن ان يستخدموها او أن تستخدم ضدهم وهم لا يكادون يهتمون به باعتباره احسن وسـيلة لتحقيق التفاهم العالمى » ..

«ولاداعى لبناء سياستنا على الفرض القائل بأن الطبيعة البشرية لا تنطوى على مبادىء سامية صالحة للاستعمال العـالمى فليس هنـاك من عيب فى الطبيعة البشرية وانما مأساتنا اننا لم نستطع أن نبتكر نظـاما اجتماعيا سياسيا يرفع مستوى الاخلاق الجماعية الى مستوى الاخلاق الفردية » .

(٤) وهنـاك مجموعتان من الالتزامات تتحكم فينـا : الاولى التزاماتنا تجاه الدين وكبار المصلحين بأن نسمو على ما بقى فينا من غرائز ، الثانية التزاماتنا تجاه المجتمع وهى التزامات عملية محضـة لا تهتم الا قليلا بالأخلاق والضمير وعندما تتصـارع هذه الالتزامات فان اغلبية الناس تفضل أن تطيع التزاماتها الاجتماعية والى هذا يرجع سلوك المجتمعات فهى لا تتـأثر الا بمصـالحها الذاتية كما تعبر عنها الالتزامات الاجتماعية . « وسيطرة الالتزامات الاجتماعية على الناس من القوة بحيث انها تحول أفضل غرائزنا الى حوافز قوية للنزاع المرير وانه لمن المحزن التفكير فى أن انبل الطوائف البشرية وهى عاطفة التضحية بالنفس لانقاذ الآخرين تعبر عن نفسها بقتل الآخـرين ممن يجيش فى صدورهم نفس هذا الشعور النبيل » .

(٥) ثم فـرق بين « منع الحـرب » و « اقرار السـلام » فقـال ان الاول سياسى والثانى اجتماعى سـيكولوجى وقد نجحت الأمم المتحدة فى الأول « ولم تنشأ اية نظرية سياسية جديدة خاصـة بمنع الحرب اللهم الا فكرة قوات الطوارىء الدولية ولكنها ليست وسيلة عالمية لمنع

الحروب جميعا .. ومازالت النظريات السياسية القديمة الخاصة بمنع الحرب تخامر اذهان الناس رغم أنه من الواضح انها قد اخفقت .

(٦) وتعرض للحديث عن « توازن القوى » (وقد ذكر من قبل انه اكبر مقومات نشوب الحرب) فقال ان اختراع سلاح جديد أقوى من سواه كان كافيا لاقناع احدى الدول بأن الميزان مال لصالحها فكانت الحرب ظاهرة العدوان تعلن لاتفه الأسباب حتى يضمن المتفوق الفوز .

(٧) وعن فكرة « الأمن الجماعى » التى سيطرت على التفكير السياسى فترة من الزمن قال « أنها أدت الى نتيجة واحدة هى اقحام عدد من الناس أكبر من ذى قبل فى المعركة .

(٨) اما الدعوة الى « نزع السلاح » فانه « لا يمكن أن يكون مقدمة للسلام فى نظر الرجل العادى والمشكلة القديمة تتلخص فى أنه اذا كانت لديك الثقة فلا لزوم لأن تنزع سلاحك » .

« ومعاهدة التجارب النووية المحدودة « هى القشة التى تبين الاتجاه الذى ينبغى أن تكون الريح آتية منه لا أكثر ، غير انه لسوء الحظ لا يمكن حتى التسليم بأنها تبين من أين تهب الريح بالفعل » ..

والحقيقة أن نزع السلاح لا يمكن اتخاذه نقطة البدء فى حملة من اجل السلام العالمى وان كان سيتحقق بطريقة طبيعية عندما تتوطد اركان السلام ..

(٩) واما التسامح فلم يعد « يصلح اساسا للمودة بين الناس فهو يعنى ضمنا أن كل جانب يعلم علم اليقين أن الجانب الآخر مخطىء ولكنه مستعد أن يتغاضى عن هذه الحقيقة ويتحملها » ..

وعبر عن امله فى « أن تكون هناك ثقة متبادلة بين الناس أكثر كثيرا من مجرد التسامح » « ومعرفتنا الآن بالأجناس والثقافات كافية لاقناعنا بأن هناك رجالا مستقيمين معقولين لهم مبادىء سامية فى كل مكان » .

« وهناك طرق كثيرة تؤدى للكمال والاستقامة اللذين ليسا « حكرا خاصا بأى جنس أو ثقافة » .

(١٠) ولو درسنا التمييز « دراسة تحليلية لتبين لنا أن أسبابه ليست غائرة الجذور على الاطلاق بل انها سطحية جدا » .

« واختلاف التقاليد والعادات وآداب المائدة والثياب كثيرا ما تسبب الشعور بالتميز وكثيرون لا يطيعون مثل هذه الخلافات .

ثم عبر عن رأيه فى التمييز فقال انه « ليس هناك الا تصنيف واحد للناس فهناك الطيبون الذين يحبون ويساعدون والخبيثون الذين يكرهون ويؤذون ولو أن نظامنا الاجتماعى كان أفضل ما وجد من الخبيثين الا عدد قليل » .

(١١) وعاد الى الحديث عن فكرة توازن الرعب وسياسة الردع فقال « وقد يكون صحيحا أن الخوف من الحرب النووية منع وقوعها ولكن كم كلفنا ذلك من ثمن ؟ ان الجنس البشرى لا يمكن أن يعيش دائما تحت سيف التهديد بالابادة فى ربع ساعة » .

(١٢) وتوجه الى السياسيين بالحديث معبرا عن أمله فى أن يخففوا حدة التوتر العالمى السياسى حتى يمكن تحقيق التعاون وأن يتجنبوا المصادمات حتى يستقر السلام .

(١٣) وتنبأ انه بعد عشرين سنة سيكون التعاون الدولى قد تطور الى زمالة بين الأمم فى كل ماهو عظيم وجدير بالاهتمام والعمل الاجتماعى وسيكون الأمر فى العمل للكفاية لا لجنس القائمين به فى المقام الأول ولن يحدث ذلك حتى يتعاون الناس على العمل المجدى الناجح ..

(١٤) وختم تلك الكلمة القيمة بقوله « الا نستطيع أن نعمل على تحقيق صورة المستقبل هذه ؟ ونحن نكل الى من واجبهم منع الحرب هذا الأمر أما نحن أنصار التعاون الدولى فسنكرس جهودنا لتعهد سيكولوجية السلام » .

● ● الايمان بالله
ومعنى الشرك الحديث

سنتناول فى هذا الفصل آراء الدكتور كامل حسين التى وردت فى :

(١) قرية ظالمة فى (موعظة الجبل) .

(٢) الذكر الحكيم فى فصلى التنزيه ، الشرك

أكبر أركان الاسلام فى نظر الدكتور هو تنزيه الله وهو أعظم مايفرقه عن الأديان الأخرى حتى ما كان منها قائما على كتب منزلة ، وفى فصل طريف من كتابه الذكر الحكيم يتناول علاقة اليهود بالله ، فيذكر أن فى العهد القديم عبارات غريبة يعبرون بها عن بعض ما كان بين الله ونبيه موسى من حديث ، وفى هذه العبارات تعارض صريح مع التنزيه ، ويتناول علاقة المسيحيين حين قربوا الله منهم بالتجسد ، وقربوا أنفسهم من الله بتقديس التجسد ، وان الله افتدى خطيئة آدم وأبنائه بما تعرض له المسيح من عذاب ، وان هذا العذاب من أجلهم ، يستحق منهم العبادة ، وهم يعتقدون أن حبهم للمسيح يجعلهم يحبون من يحبهم المسيح ، وهم الناس جميعا وأن الله يألم حين يرتكب العبد ذنبا أو خطيئة .

ثم يعلق الدكتور على هذه العقائد من منطق اسلامه فيقول :

« ولكن المسلمين لا يستطيعون أن يقروا المسيحيين عليها لسبب واحد هو أنها تتعارض مع التنزيه الواجب عليهم لله ، وكل ما يمس التنزيه من قريب أو بعيد يعد عندنا شركا ، وهو ما لا يغفره الله أبدا » . ويلفت الدكتور نظرنا الى معنى اسلامى سام ، يتعلق بتنزيه الله حيث يقول : « والمسلمون يقولون ان الانسان يستطيع أن يسمو الى أعلى

الأخلاق فى ظل التنزيه وان الله وهـو فى أعلى عليين ليس بعيـدا عن الناس فهو يصل اليهم بالوحى ، وهم يصلون اليه بالصلاة والدعاء » هذا المعنى الاسلامى العظيم نجده فى قوله تعالى « **واذا سالك عبـادى عنى فانى قريب اجيب دعوة الداع اذا دعان** » وهـكذا فان « السـمو النفسى يتحقق فى ظل التنزيه بالطاعة المطلقة والتنزيه نفسـه يجعـل انطلاق النفس الانسانية الى الخير أقرب وأسهل » .

ويرى الدكتور أن التنزيه يحتم علينا أن نفسر الآيات التى ينسب فيها الى الله ما فيه ايذاء للناس على أنها أسلوب القرآن الخاص ، وأن العقاب ينزل بالمذنب نتيجة طبيعية للذنب ، وان الشر من عمل الناس لعصيانهم، والله يهدى الى الخير دائما ويثيب عليه من هم أهل للثواب . وفى فصل له عن الشرك فى كتابه (الذكر الحكيم) يفرق بين نوعين من الشرك :

(١) الشرك بمعنى أن يجعل الانسان لله أندادا يعبدونهم من دونه أو معه سواء كان ذلك أصناما أو قوى طبيعية ، أو حيوانات ، أو بعض الناس وهذا النوع من الشرك بدائى ، وعنده أنه لا يلبث أن يتخلص منه الناس حين يرقى تفـكيرهم عن البدائية ، ولو قليلا . وهذا الشرك لا نراه اليوم الا نادرا واذا قيـل أن بعض الناس لا يزال يعبدالبقر فهذا تجوز فى التعبير ، فهم لا يعتقدون ان البقرة خلقت الكون ولا يلتمسـون منهـا الهـداية ، وانمـا يكرمونها لصفات يرونها فيها كالوداعة ، والخاصة منهم يأنفون أن يؤذوا حيوانا مسالما كالبقرة كلها خير للانسان .

(٢) الشرك بأن يضـع الانسـان شيئا معنـويا كان أو ماديا فوق أوامر الله : وهو يحدثنا عن الأوثان فى موعظة الجبل ، فيقول على لسان أولئك الذين عاشـوا منـذ عشرين قرنا « فمن الأصـنام التى سيعبدها الناس » وهو يعبر عما يعبده الناس فى زمننا « ويقدمون حياتهم قربانا لها : المبادىء ، الكرامة ، القومية ، الوطنية ، الولاء ؛ الحرية ، الشجاعة ، التضحية ، الصالح العام . وستبلغ بهم عبادة هذه الأوثان أن يقتلوا أنفسهم دفاعا عن أعلام جيش ، أو حدود دولة ، أو ردا لكرامة ملك ، وقد لا يكون فى عبـادة هـذه الأوثان ضرر حتى تصطدم بالضمير أى بأمر الله وعند ذلك يكون الخضوع لها ، وعبادتها من دون الضمير كفرا أو شركا وضلالا .

وهو يقول ان من يعبد الدين نفسه عبادة تحمله على أن يتخطى حدود الضمير فيؤذى الناس فى سـبيل حماية الدين يكون قد

أشرك بالله ، وسيضل النـاس حين يعتقـدون أن الجماعة أعظم من الفرد وان خيرها أعظم من خير الفرد ، وان نفعها يسـوغ الاغضاء عن ضمير الفرد ، وانما الجماعة صنم يدعوكم الى عبادته من تنفعه هذه العبادة ، يزينون لكم أن الجماعة تسـعد وان لم يسعد أفرادها ، وهو وهم يقول به من يعنيه أن يشقى عدد كبير من الناس ليسعد عـدد قليل منهم . « ان الصـالح العـام لأخطر الأوثان وأشدها ضررا حين يعبد فيطغى على أوامر الضمير » . والشرك على الصورة الثانية منتشر جدا بل لعله يزيد انتشـارا بين المعاصرين ومن أمثلته وضع العدالة الاجتماعية فوق أمر الله بعدم القتل ، وقتل الأبرياء فى سبيل تحقيق مجد أمة أو ثرائها أو رفع مستوى معيشتها .

« والذين يقتلون غيرهم فى سبيل القضاء على الهرطقة لن يغفر الله لهم ذلك لأنهم يدعون أنهم يعرفون من الحق مالا يعرفه الا الله ، وكم من فئة ظنت نفسها على الحق ، وقتلت مخالفيها ثم تبين بعد ذلك انهم هم الضالون . والقتل حقيقة واقعة يحرمها الله ولا يجوز أن نفعل حقيقة واقعة محرمة فى سبيل نصر فكرة لا سـبيل الى الجزم بوجه الحق فيها ، ولو كانت حقا ما جاز لأحد أن يخالف امر الله فى سـبيل تحقيقها » . وهذا هو الفهم الحديث للشرك عند الدكتور .

ثم يبحث فى علة ما يقرره قوله تعالى « **ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** » فيرجع سبب ذلك الى أن الله لا يريد منا الا التقوى ، وهو يسـتنتج ذلك من قوله تعـالى « **لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم** » والشرك فيـه مساس بالتقوى والتنزيه الواجب لله علينا يمنعنا أن نعتقد أنه يكره منا الشرك من حيث أن فيه مساسا بعظمته وانما يكره منا الشرك لما فيه من أذى يلحق بنا لشركنا » ثم يقول الدكتور : « وقد يعترض على ذلك بقوله تعالى « **وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون** » ومن الواضح ان اللام هنا للغـاية لا للسببية والله حين خلق الكون فأحسن خلقه أراد أن يجعل من مخلوقاته من يدرك جمال هذا الخلق وحكمته وهو الانسان ، ومن تمام الكمال فى الخلق الكونى أن يكون فيه من يدرك جماله » . ولا شك ان التعليل الذى أورده الدكتور لعقاب الله على الشرك تعليل منطقى مقبول ولكن هنـاك أمورا كثيرة فيها مساس بالتقوى دون الشرك يغفرها الله ، وعلى هذا فليس مساس الشرك بالتقوى هو الذى يجعل الله لا يغفر أن يشرك به ، وانما السـبب فى ذلك غير هذا وقد لا يكون ذلك السـبب اذا أردنا الدقة فى

التعبير ، الا (الشرك بالله) نفسه وليس هذا من قبيل تفسير الماء بعد الجهد بالماء .

ثم يتعرض الدكتور لعقاب الله على الشرك فى الدنيا (وافكاره هنا هى صدى أفكاره فيما يتعلق بالجزاء) فيقول : « فالله لا يعاقب فى هذه الدنيا على الشرك الا بنتائجه الطبيعية من فساد الحال النفسية ، وفساد العلاقات بين الناس بعضهم وبعض لأن مخالفة التراحم بين الناس نوع من الشرك يؤدى الى التباغض والشحناء » . والتنزيه والتوحيد (وهما الأمران اللذان تعرضنا لهما حتى الآن) « عاملان قويان جدا فى اطمئنان النفس الانسانية » . والمغزى النفسى لقوله تعالى **(ان الله لا يغفر أن يشرك به)** أن يروض كل انسان نفسه على أن يظل فى حدود أوامر الله الواضحة المحكمة ولا يدع لعمل ما أن يجعله يتعدى هذه الحدود) فان اضطر الى ذلك بدافع من منفعة عاجلة فليطمئن الى أنه قد ينجو من أثر هذا الذنب ؛ اذا كان مطمئن النفس مستقرا فى ايمانه بالله ولا يتم له ذلك الا بالتوحيد والتنزيه » .

الفصل التاسع

●● الايمان بالكتب السماوية

عرف عن الدكتور كامل رده الأمور الى أصـولها الطبيعية حتى انه كان يفضل التفكير بهذه الطريقة العقلية على المنطق . ومن الطبيعى أن ننتظر ممن يفكرون بهذه الطريقة ان يقولوا عن كتب الله المنزلة انها غير طبيعية ، فيذهبون بذلك الى انكار الكتب السماوية ، مع ان الايمان لا يتم الا بها ، الا اننا سنجد الدكتور كامل فى الفقرات التالية مؤمنا حقا بالتنزيل ، وصاحب نظرية تدعو الى الايمان به لانه أمر طبيعى فهو يجعل الايمان بالتنزيل حدا فاصلا بين نوعين من التدين نوع لا يعرف التنزيل ولا يدعيه ، ونوع آخر يقـوم أصـلا على الايمان بالتنزيل . والفرق بين هذين النوعين من التدين عنده « جوهرى من حيث أثر كل من العقيدتين فى النفس الانسانية » .

وهو لا يعد الاديان التى لاتقوم على التنزيل اديانا بل « يصح ان تسمى مذاهب عقائدية ». وانفراد الأديان المنزلة وحدها بأن أملت على البشر حقيقة الغيب هو الذى جعل هذه الأديان ترتفع الى أرقى تطورات الفكر الدينى ، حيث جعلت لله التنزيه التام وجعلته هاديا لنا .

ثم يتناول الدكتور أثر الايمان بالتنزيل فى العقيدة فيذكر أنه هو السبب فى أن أهل الكتاب « أرسـخ عقيدة وأوسع أفقا من غيرهم من أصحاب المذاهب التى لا تقوم على التنزيل » . والايمان بالتنزيل أمر طبيعى عند النفوس المهيأة له وهو خير وسيلة تؤدى الى اطمئنان النفوس من حيث أن مصدر العقيدة هو صاحب الغيب » ، « وهـذا الاعتقاد يذهب بالقلق النفسى وهو لب الأديان الذى تقوم عليه » وهكذا يثبت الدكتور أن الايمان بالتنزيل أمر طبيعى لأسباب ثلاثة :

(١) انه غاية التطور فى التفكير الدينى الذى يبدأ بالخوف والرهبة من الظواهر الطبيعية ثم لا يزال الانسان يرقى فى تفكيره الدينى حتى يبلغ غاية التنزيه والتوحيد للمعبود الاعلى الذى لا يتصـــل بنا بحكم تنزيهه الا من طريق التنزيل من جهته ، والعبادة ، والدعاء من جهتنا .

(٢) انه يحقق جزءا هاما من حياة كل انسان ، فحياة الانسان طبقات لكل طبقة خصائصها :

فالطبقة الحيـوية البحتة لا يختلف فيها الانســـان عن غيره من الحيوان،الا اننا اكثر تعقيدا واصعب تحليلا وخاصة فيما يتعلق بجهازنا العصبى .

وطبقة الحيـــاة الانسانية الدنيـا وهى التى تتناول علاقة الانسان بما يحيط به وبغيره من الناس ، وما ينفعنا وما يضرنا ، وكيف نسيطر عليها ، وهذه الطبقة يتناولها الذكاء ، والعقل ، وكلاهما فيه ما يؤهله لذلك . وبرهان الصدق فى هاتين الطبقتين يقوم على المشاهدة والخبرة والمقارنة .

أما الطبقة الثـالثة وهى الانسانيات العليـا كالايمان والحب والفضائل ، فمنها ما هو منطقى ، وما هو نافع ، ولكن العقل والمنفعة لا يصلحان مصدرا لهذه الانسانيات العليا « ولا نزاع أن خير سند لها أن تكون صادرة من قوة عليا مريدة تهدينا الى الصواب فى هذه الامور ، ومن الصعب أن نتصور صدورها عن غير هذه القوة » وهذا السند يتمثل فى التنزيل .

(٣) انه هو الوسيلة الوحيدة لمعرفتنا الغيب على نحـو ما قدمنا فى فقرة سابقة .

ويرد الدكتور الصـعوبة التى يجدها النـــاس فى الايمـان بالتنزيل الى سوء فهم التنزيل على حقيقته فالناس يودون ان يعرفوا كنه ما يؤمنون به ، فبعضهم لا يرى فى نفسه حاجة الى الايمان بالتنزيل وغيرهم يمارون فى معرفة صـــــفة التنزيل الحق ، ولا يجدون معيارا يقيسون به الصدق والكذب فى أمر التنزيل . « على أن عجزنا عن فهم كنه التنزيل وطريقته يجب الا يمنعنا من الايمان به ، فنحن لا نفهم كنه

النور أو الحـرارة ، ولا يمنعنا ذلك من الاســتمتاع بهما والاطمئنـان اليهما » .

والايمـان بالتنزيل كل لا يتجزأ : « والذى يؤمن ايمـانا حقـا بالتنزيل يجب أن يؤمن به كله ، والشــك فى ما أنزل على أحـد من الأنبياء يدعو الى الشك فى التنزيل كله . فالكتب المنزلة التى تصـدر عن وحى من الله يجب أن تعد صادقة » .

« والكتب المنزلة لا يمكن أن يكون بينها تناقض ، فاذا كان بهـا خلاف فهذا يرجع اما الى الصفات العقلية عند من أنزل عليهم الكتاب ، وأما الى تحريف فيها وقع عمدا أو عن غير قصد » .

● ● الايمان بالآخرة

يجعل الدكتور الايمان بالآخـــرة نتيجة حتمية للايمان بالتنزيل « والذين يؤمنون بالتنزيل يؤمنون بالآخرة حتما لأن الكتب المنزلة كلها تؤمن بالبعث » . والمؤمن بعد ذلك عنده حر فى اثنين : فى النحو الذى يرتضيه عقله للايمان بالآخرة ،وفى تصوره للآخرة وهو يجعل المقياس فى هذين نفسيا :

— « الايمان بالآخرة يصح أن يكون على أى نحو يرتضيه عقل المؤمن »

— « ووصف الحيـــاة الآخرة تفصيلا انما هـو تقريب لها من أذهان الناس ، والحديث عنها يقوم على ما تســتطيع فهمه من أمرها وليس حتما على المؤمن أن يتصورها كما يتصورها غيره بل عليه ان يتصـورها كما تهديه اليه نفسه وعقله » .

●● النبوة

فى حديثه عن الايمان بالتنزيل ذكر الدكتور أن عجب الناس لنزول التنزيل على رجل منهم لا يختلف فى ظاهر أمره عن غيره ممن حوله ، هو ما حدا بالناس الى عدم تصـــديق الأنبياء . « والواقع أن الفرق بين الانبيـــاء وغيرهم فرق كبير وعميق يقوم على أن النبى فيه اســـتعداد نفسى خاص لتلقى أمور الغيب ، والأنبياء يتأثرون به أكثر مما يتأثر به عامة الناس » والأمر فى ذلك كالأمواج الاثيرية لا يدركها الا جهاز استقبال خاص يحولها الى مسموعات ومرئيات . والأنبياء يتلقون الأوامر العليا ثم يحيلونها الى أقوال وأعمال يدركها عامة الناس فى ســـهولة . وعندما عرض الدكتور (قصة الذبح) فى كتابه الذكر الحكيم قال ان المغزى التنزيلى لهذه القصة انها تدل على صفات النبوة فى أرقى مظاهرها ، دلالة بسيطة ، عظيمة الأثر فى النفس وفسر ذلك فاعطى بتفسيره تعريفه الكامل للنبى حيث يقول :

« فالنبى رجل فيه من سمو النفس وصدق الايمان ، ما يجعله على ثقة تامة من أن خلجات نفسه لا تكون الا عن وحى من الله ، وانهالا يمكن أن تكون الا خيرا وان خفيت علينا حكمتها، هذا الايمان بأن الشر لايجوز عليه هو سر النبوة من حيث هى صلة بين الله والناس ، وهذه الثقة بأن نفوسهم أكبر من أن يقع لها الشر وهو الذى يحمل الأنبياء على الاعتقاد ان رؤياهم واحساساتهم تصدر عن وحى من الله ، فاذا شاب هذه الثقة شـــائبة من شـــك سقطت النبوة عمن يعتريه مثل هذا الشك واصبح كغيره من الناس ، وتذهب عنه ثقة النـــاس به وهذا ما يحدث فعـــلا لأصـــحاب الدعوات الكاذبة حتى حين يكونونمن أفاضل الناس وحتى حين تكون دعوتهم صالحة » .

وتحدث عن ابراهيم عليه‌السلام من حيث هو عنوان‌النبوة فى أرقى مظاهرها فقال « ابراهيم الخليل مثل أعلى للانسانية من حيث هو عنوان النبوة فى‌أرقى مظاهرها، يعرف من‌الخير مالا يعرفه‌الناس وهوابوالأبياء كما كان أبا لأكثرهم نسبا ، وليس ما يمنع أن تكون طهارة النفس شيئا يورث ويكتسب ، واذا كان ابراهيم فى قصة الذبح هذه مثلا أعلى للنبوة من حيث هى طاعة مطلقة لأوامر الله فان اسماعيل يمثل غاية الثقة بصدق الانبياء فهو لم يخضع لأمر أبيه لعلمه انه نبى طاهر ، والناس اذا شكوا فان الكدرالعالق بالنفوس‌البشرية يدفعهم أن ينزلقوا الى الشر والذى يجب ان نتدبره هو موقف الناس الذين يمثلهم اسماعيل فى هذه القصة — من نبى لا شك فى طهارته وصـدقه يهم ان يعمل عمـلا تأباه عقولهم وطبعهم ، كما هو الحال فى ذبح الابن . هنالك تعترى النـاس حيرة شديدة حين يرون نبيا لا شك فى نبوته يعمل عملا لا شك فى بعده عن عن العقل . هل تكون النبوة الصـادقة أصلا ويكون كل ما يصـدر عنها صوابا أو خيرا ، فان لم يكن فى ظـاهره كذلك وجب تأويله ، أم تكون أعمال النبى هى برهان نبوته اذا كانت بعيدة عن الخير كان للنـاس أن يشكوا فى صدق نبوته هذه مشكلة تثيرها قصة الذبيح ، وقد خـرج القـدماء من ذلك باعتقادهم أن النبى يثبت صـدق نبـوته حين يأتى بأعمال خارقة لا يستطيعها غيره ، وانه متى ثبتت هذه النبوة بما يأتيه من معجزات وجب تأويل كل عمل يعمله على انه خير لا نزاع فيـه ، ولكن كثيرا من الناس وخاصـة المحدثين يجدون هذا التـأويل صعبا عليهم لبعده عن تفكيرهم وعقولهم .

« وكأنى باسماعيل كانت عقليته من النـوع الأول رأى أن يصدق أباه فيما أمره الله وأن يخضع لهذا الأمر . ولو كان من المحـدثين لثار وغضب وقال لأبيه « ان ذلك لا يمكن أن يكون أمرا من الله بل هو أمر كله شر ، وان تنفيذه يشوب نبوته ، والمشـكلة على هذا النحو خطيرة جدا تعرض على نحو ما لأكثر الناس ، وان لم تبلغ من الوضوح ما تراه فى هذه القصـة وقليل من النـاس من لهم طهارة نفس تقرب من طهارة ابراهيم ، وقليل من النـاس من تبلغ حسن نيتهم ما بلغه اسـماعيل ، وما يحدث للناس فى الحياة المألوفة أقل حدة من ذلك وان كان الجوهر واحدا ، هـذا الوجه من قصـة الذبح هو الوجه الانسـانى العام ، وخلاصة البحث الى أى مدى يجوز للرجل الطيب أن يطيع ما يظنه أمر الله حين تكون الطاعة مصدر الم وأذى لغيره من الناس ؟ وقد استطرد

فى الاستشــهاد بكلام الدكتور كامل حســين الى هذا التساؤل لان اجابته عليه تتصل اتصالا مباشرا بفهمه للنبوة ، أما جوابه فهو :

« انه لا يجوز للرجل الطيب ان يتخطى حدود الخير كما يوحيه اليه ضميره ، وان ظن أن هذا من أمر الله فالله لا يأمر الا بالخير ، ذلك ان أحدا من الناس لن يكون فى طهر ابراهيم ، ولا أظن احدا حتى من كبار الصــالحين من يؤمن ان دوافع عمله لا يتطرق اليها الشــك فاذا شابت نفس الانسان شائبة من الشك مهما تكن صغيرة فعليه ان يعلم انه لم يعد خليقــا بالثقة فى نفســه ، وليعلم أن ما يظنــه أمرا من الله لا يمكن أن يكون حقا اذا خالف ضميره » .

« والرد على هذا التســاؤل متى يجوز للرجل الطيب أن يتعدى حــدود الخير فى سبيل اطاعة ما يظن أنه أمر الله ؟ الرد على ذلك انه لا يجوز ذلك لاحد الا أن يكون نبيا معصوما لا يتطرق الى قلبه الشر بحال من الأحوال » وهكذا تجده بعد هذا الحوار الممتع **يثبت للنبى مالا يثبته لغيره من البشر من تعدى حدود الخير فى سبيل اطاعة ما يظن انه أمر الله** وهذا الاختصاص ليس مرجعه الى كون النبى (نبيا) وانمــا الى صفات فى النبى لا يبلغها البشر الآخرون فى نفوسهم .

الفصل الثانى عشر

●● القرآن

سنتناول تحت هـذا العنوان باذن الله عرض آراء الدكتور فى القرآن واعجازه والتى وردت فى :

(١) الفصل الأول من الجزء الأول من المتنوعات وعنوانه «القرآن»· وقد كتبه الدكتـور بالفرنسـية عام ١٩٣٣ لما رغب اليه أستاذ الفلسفة فى الجـامعة المصرية وكان فرنسـيا فى تفهم الأثر الذى للقرآن فى المسلمين اذ لم يتبينه عند قراءته مترجما فلما أدرج الدكتور هذا الفصل فى المتنوعات طلب الى القارىء ان يذكر ان الحديث الى غير مسلم وانه قصر بحثه على النـاحية الأدبية الموضوعية التى يستطيع أن يسلم بها غير المسلم ··

(٢) « اعجاز القرآن » وهو فصل فى كتاب الذكر الحكيم ·

(٣) « التفسير العلمى للقرآن بدعة حمقاء » وهو الفصل الثانى من الجزء الثانى من المتنوعات · وقد أعاد الدكتور نشر هذا الفصل فى كتاب الذكر الحكيم ·

(٤) فصل « الدعوة الى الايمان » ·

(٥) فصل « الأمثال » ·

(٦) فصل « المحكم والمتشابه » ·

(٧) فصل « قصة الذبح » ·

وأربعة الفصول هذه ضمها كتابه الذكر الحكيم ·

وللدكتور فى تفسير الاعجاز القرآنى نظرية سماها (قوة التعبير) يعنى بها « تلك القوة الخاصة التى تكون للألفاظ أو العبارات والتى لا تأتيها من ذات الألفاظ ولا من المعنى وانما تأتيها من المطابقة بين العمل الفنى وبين ما يعبر عنه » والدكتور يدلل على أن الايمان لم يكن سببا فى الاعجاب بالقرآن وانما كان الاعجاب بالقرآن سببا فى ايمان من آمن وحيرة من كفر . ويرد الدكتور على العيوب التى وسم بها (كارليل) القرآن وهى نقص الترتيب وانه لايسير على نظام منطقى معقول وانعدام التسلسل الفكرى المنظم فيـــه ، والتكرار الذى لا غاية له ، فيقول انه ليس فى العصر الجديد من المنطق أو الذكاء ما يزيد على ما فى القرآن أما هـذه النظرة عنـــد هـؤلاء المفكرين فمردها الى طبع المفكرين فى القرن التاسع عشر وطبعهم خـير أمثـلة « التركيز الذاتى » فطبيعة عـملهم محدودة ، أما عصر القرن العشرين فالتفكير فيـــه يغلب عليـــه طابع النسبية ، وبهذا فستزول هذه التهمة عن القرآن (وهو ما حدث بعد ذلك) .

والقرآن بعـــد ذلك وقبله تعبير تام كامل عن « الروح العـــربى البدوى الصحراوى » :

(١) فمن ناحية الزمن : حياة الصحراء بطيئة بطبيعتها والسرعة فيها غير طبيعية وكلنا نشعر أن القرآن اجمل ما يكون حين يقرأ مرتلا على مهل ، ولو قرىء قراءة صـــامتة سريعة ما اسـتطاع القارىء أن يستوعب كل أثره فى النفس . وكلنا نرى الخطباء يتدفقون فى خطبهم حتى اذا ما اقتبسوا آية من آيات القرآن وجدوا أنفسهم مضطرين الى الابطاء حتما حتى يتم للآيات كل رونقها .

(٢) وهناك صفة زمنية أخرى تحتاج الى ايضاح هى أن الزمن لا يمر بالانسان على حال واحد ، ولعل أطول وقت فى حياة الصحراء هو الذى يقضيه المسـافر قبل أن يصل الى المنعرج التالى على حين أن الرحلة الطويلة فى مجموعها سهلة الاحتمال .

والقرآن فيه من هـذه الروح الشىء الكثير فهـو كتاب كبير وفيـــه آيات كثـيرة يشـــبه بعضها بعضا ، وهو مع ذلك سهل الحفظ والذين

حفظوه حرفا حرفا كثيرون ، ولم يتهيأ لكتاب آخر مهما يكن فيه من التنسيق والترتيب أن يحفظ بهذه السهولة والدقة .

(٣) « ومن صفات الصحراء أن طرقها تعلو وتهبط وتلتوى وتستقيم واهلها مع ذلك لا يضلون الاتجاه الذى يسيرون فيه وتراهم احيانا يحيدون عن الدرب الواسع الى دروب ضيقة هى اهدى لهم الى غايتهم . والقرآن الكريم تتتابع آياته قصصا ووعظا وحكما وتشريعا . والعربى فى كل ذلك لا يخطىء غايته الكبرى وهى تمجيد الله وطاعته .

ولنتدبر سورة القمر من الناحية الأدبية التعبيرية وحدها فهى تعبر عن روح الصحراء خير تعبير وفيها من المطابقة بين الفاظها واسلوبها ما يشعر بالقوة والصرامة ، وأكثرها وعيد ونذر وترهيب ، وليس فيها الا آية واحدة فى آخرها خالية من التذكير بالعقاب . والراء الساكنة (عند أكثر القراء) لها وقع شديد عند من يتأثرون بالروعة الأدبية . وهناك سورة أخرى تختلف اختلافا تاما عن سورة القمر وهى سورة الرحمن التى تليها مباشرة . ولست أدرى هل يشعر كثيرون بما اشعر به حين تتلى سورة الرحمن . كأنى أرى نفسى فى واد ممتد مستطيل خصب تحيط به الأشجار من الجانبين متسقة كأنها النخيل فى انتظام تام فى واد خصب رطب به طراوة ونعيم . والسورة كلها على العكس من سورة القمر فيها الحديث عن النعيم والخيرات وفيها ذكر الفاكهة المحببة ، وحين تذكر جهنم لا يكون ذكرها مصحوبا بالرهبة والوحشية العنيفة التى نراها فى الوعيد فى سورة القمر . وكأن سورة الرحمن واحة خصبة تتلو شدة الصحراء وكثيرا ما نرى هذه الواحات الجميلة تعبيرا ومعنى فتخفف من قسوة الوعيد التى تسبقها أو تليها » .

أما ما يراه غير العرب فى القرآن من عدم قيام آياته على ترتيب تاريخى أو موضوعى أو منطقى فيرده الدكتور الى انهم قد يقيسونه بالكتب الدينية الأخرى كالتوراة والانجيل مع أن هناك فرقا جوهريا فالتوراة والانجيل سرد لوقائع بعينها يتعظ بها القارىء ، وهى اشبه بكتب السيرة عندنا ، وما يرد فيها من آيات قرآنية واحاديث نبوية ، وليس كذلك القرآن فأكثره وعظ وهداية ، حتى اذا ورد فيه قصص كان السرد التاريخى المنظم كما فى سورتى مريم ويوسف ولو أن القرآن نزل مرتبا ترتيبا تاريخيا كما يود المفكرون من غير العرب لما وافق اعماق

النفس الانســـانية ، ولما كان فيـــه هذا التعبير القوى عن روح العرب وحياتهم • والقرآن بتعاليمه الدينيـــة يهـــدف الى الوعظ والحـــديث الى النفس ، يهديها الى الحق ، وسبيل الوعظ المبـــاشر يتمثل فى الحكم والأمثال ، وهى تركيز للخبرة الانسانية ، وبلورة لها وليست تحليلا لها ولا تفسيرا للعلاقة بين السبب والمسبب ، والمدنية العربية من دون غيرها تمتاز بهذه القدرة على التركيز والبلورة او ما يسمى فى الطبيعة بالقوة الجاذبة • والمؤمنون يعلمون أنهم لا يملون التكرار لأن الملل ليس من صفات النفس ، وان كان من أوضح صفات العقل الذى يعتمد فى عمله على ما يرد اليه من حواس ، هى أشد ما يكون احساسا بالتعب والملل. والتكرار أهم عناصر الجمال ، « ولا أعلم مثلا آخر للسجع غير القرآن يصح أن يعد عملا أدبيا موفقا » •

أما ما يعاب على القرآن من بساطة التفكير ، وبساطة العواطف ، والأمثلة وهو رأى المفكرين الذين يظنون أن ذلك قد لا يقنع المعاصرين بوجود الله وقدرته ، فيرد عليه الدكتور بقوله « وكأنهم (أى المفكرين) ينسون ان الذى لا تقنعه الحجج البســيطة والأمثلة البســيطة بوجود الأمور الروحية لن يقنعه بها شيء آخر . وأنهم فى الواقع يطلبون البرهان على وجود الله قبل تحديد صفاته وقد بينا من قبل ان الايمان بالصفات هو الايمان بالوجود فى الأمور الالهية وان هذا لا يتم على الترتيب الذى يتبعه العقل فى العـــلم بالأمور المحسوسة والغـــاية الكبرى من التنزيل تمجيد الله ، والدعوة الى التوحيد ، والتنزيه ، وما يؤدى اليه ذلك من الدعوة الى الخير ، والنهى عن المنكر ، والتحريض على ذلك بالترغيب والوعيد بعد البعث وليس فى هذا شيء يحتاج الى تعقيد فى التفكير ، أو مهارة في الاستنتاج المنطقى . من هذا يتبين أن الترتيب التاريخى او المنطقى أو الموضوعى لم يكن ليحقق غايات الوعظ ، والهداية ، لأنه لا يتفق والتعبير عن النفس الانسانية وأعماقها » . والدكتور يرى أنه من التقصـــير فى حق العقيدة الاسلامية والقرآن الكريم أن نقصر بحثنا على اعجازه البـــلاغى ، وروعة بيانه ، وهو أمر خاص بالعرب لا يســـتطيع المسلم غير العربى ولا يستطيع غير المســـلم أن يقدر هذا الاعجاز وقد يحمل ذلك بعض المغرضين على أن يستهينوا بالقرآن حين يرون أهله لا يقدرون فيه الا حسن البيـــان ، وجمال العبارة ، ولا يليق بالكتب المنزلة أن نقيم قدسيتها على ما فيها من تشبيهات رائعة واســـتعارات جميلة . « ومع ذلك فلا يجوز لنا نحن العرب أن نغفل درس هـــذه

الناحية الأدبية البحتة لاعجاز القرآن فهى ظاهرة لا مثيل لها فى تاريخ الآداب العالمية ، ذلك ان العربى تأخذه نشوة روحية خاصة حين يستمع الى آيات القرآن . نشوة لا يعدلها الا أثر الموسيقى الرائعة فى من يتذوقونها فترفعهم الى درجة من السمو النفسى لا يبلغونها بدونها .

وخلاصة القول أن الاعجاز الأكبر للقرآن الكريم فى نظر الدكتور هو « هدايته للناس فى أمور دينهم ودنياهم هداية ناجحة استطاع بها البدو الوثنيون أن يرتقوا الى أعلى مراتب البشرية » ثم أن معجزة القرآن فى مجال النفس واضحة فى « قوة تعبيره عن أعماق النفس البشرية وعواطفها التى لا تكون على ترتيب منطقى أبدا » . ثم هناك الاعجاز الأدبى البحت القائم على قوة تعبير القرآن عن روح أهل الصحراء ومن هنا كان أثره البالغ على كل من له أدنى حظ من الذوق العربى » « والتوافق العجيب بين هذه النواحى الثلاث ، وقوة تعبير القرآن عن كل منها يفسر لنا تأثر العرب بالقرآن تأثرا لا نجد له مثيلا فى تاريخ الآداب العالمية . وهل يعجب أحد بعد ذلك أن يجمع العرب على أن القرآن لا يمكن أن يحقق ذلك كله لو لم يكن وحيا من الله . « والقرآن هو الغاية التى بلغها الأدب العربى فلم يشعر العرب بعده بالرغبة فى أى عمل فنى آخر » .

ولما أراد بعض المفكرين أن يفسروا القرآن تفسيرا علميا ثار الدكتور كامل وسماها بدعة حمقاء وقال أن هذه النزعة ليست الا دليلا على تأصل الفكر البدائى فى عقول بعض الناس حتى من يكونون قد نشأوا على التفكير الحديث ، وقد سبق لكثيرين فى القرون الوسطى أن قالوا ان فى التوراة والانجيل أسرارا عميقة بعيدة الأثر وتساءل الدكتور « كيف يريد هؤلاء أن يظل القرآن هاديا للناس اذا دأبوا على تأويله حسب تغيرات العلم الحديث وهو سريع التقدم والتغير ؟ أليس من الحق أن نعد هذا تحريفا للكلم عن مواضعه فيكون بذلك معصية وإثما » .. واذا أحسنا الظن « فلعل شيئا من هذا الشعور بالحاجة الى تقوية الايمان بالربط بينه وبين العلوم هو الذى حمل هؤلاء الأفاضل على القول بأن العلم الحديث مذكور فى القرآن » « والقائلون بهذا ظنوا أن أحدا لن يتعرض لهم حين يكون الأمر متعلقا باعجاز القرآن فالمسلم يرى حرجا كبيرا فى تفنيد قول يراد به اثبات هذا الاعجاز خوفا أن يمتد الشك فى البرهان الى الشك فى الاعجاز نفسه ، ولكننا نعلم أن القضية الرابحة لا يفسدها شىء مثل الدفاع الفاسد » ، فان أسأنا الظن

بهؤلاء قائلا لعلهم يبغون أن تعرف عنهم الغيرة على الاسلام والتفقه فى أسرار القرآن التى خفيت على غيرهم ممن لا يرتقون الى مثل علمهم وايمانهم وهذا سبيل يسير فى بلوغ غاية شريفة دون جهد كبير من غير طريق الحق » . وعلى هذا فالقائلون بهذه البدعة بين أمرين :

فاما أن يكونوا جاهلين بالعلم وبالقرآن واما أن يكونوا مخادعين للنـاس .

والدكتور يعتقد أن القرآن هدى للناس فى عموم ايمانهم ولا شأن له بوسائل تحقيق هذا الايمان وتفصيلها . ثم يتعرض للتفسيرات التى يسوقها هؤلاء :

(١) قول طبيب كبير أن حركة الأجسام الصغيرة جدا المعلقة فى الماء تسبيح فيتساءل : وهل الكرة بين اثنين وعشرين لاعبا فى الملعب تسبيح ؟ .

(٢) وكقول أحد أساتذة العلوم فى الجامعات فى تفسير قوله تعالى « **وما يعزب عن ربك من مثقـال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا فى كتاب مبين** » ان شيئا لا يكون أصغر من الذرة الآن يكون جزءا منها بعد تفجيرها ويعلق الدكتور كامل : وهل لو عرب العلماء العرب كلمة atom أكان يضيع علينا هذا الكشف العلمى ؟ وانما تعنى الذرة ما يرى فى شعاع الشمس الداخل من النافذة .

(٣) وكقول قاض كبير أن النسبية موجودة فى القرآن الكريم بدليل قوله تعالى « **فلا أقسم بمواقع النجوم** » . والنسبية معادلة رياضية صعبة جدا وليست مواقع النجوم الا تطبيقا لبعض وجوهها ، فهل تدبر الآية يؤدى الى كشف النسبية .

وما هذه التفسيرات الا ضرب من التفكير المقلوب ! ونستطيع أن نقول على غراره أن أبا نواس كان يعرف (المناعة) عندما قال : « وداونى بالتى كانت هى الداء » . ويسمى الدكتور هذا التفسير ، التفسير الحرباوى للقرآن الكريم « والحرباوية تكون فى التفكير كما تكون فى الخلق » ويختم مقاله (بدعة حمقاء) بقوله (هذه بدعة سخيفة ونرجو أن نكون قد أدناها الى غير رجعة) .

وفى تفسيره للآيات (٢١ — ٢٤) من سورة البقرة فى كتابه الذكر الحكيم ص ٤٦ — ٤٩ وصف الدكتور كامل حسين الحجج التى يدعو بها القرآن الى الايمان بأنها «بسيطة واضحة لا يصعب على أبسط الناس فكرا أن يتدبرها فيهتدى الى سخف عقيدته الوثنية » فالقرآن يدعو الوثنيين أن يعبدوا الله لأنه خلقهم فدل بذلك على قدرته ، ولأنه غمرهم بنعمه فله عليهم فضل عظيم وكيف يجعلون له أندادا من أصنام لم تخلق شيئا ولم تنعم عليهم بشىء ؟ وهذه دعوة يجب ألا ينكرها أحد . فاذا أصر الكافرون على ألا يعبدوا الله مع وضوح الحجة على ذلك فقد يكون اصرارهم على الكفر مرجعه الى شكهم فى صدق ما أنزل الله على رسوله فاذا كان ذلك ما يمنعهم من عبادة الله فما عليهم الا أن يجمعوا شهداءهم من دون الله ويتضافروا جميعا على أن يأتوا بسورة من مثله فان لم يفعلوا وأصروا مع ذلك على كفرهم فليؤمنوا بالله اتقاء للعذاب الشديد الذى أعده لأمثالهم من الكافرين . ويقول الدكتور « هذه الآيات جماع كل وسائل الاقناع وهى أربع العقل أو التنزيل أو الخوف من العقاب أو الأمل فى الثواب . فالعقل يجب أن يحمل الناس على الايمان شكرا له على نعمة الخلق مثل ذلك كما تقول أشكر الأمير الذى أنعم عليك وأنت تعنى بذلك أشكره من أجل نعمته عليك» .

والوسيلة الأخرى لاقناع الناس بالايمان هى أن الله أرسل اليهم رسولا أدق منهم حسا وأرقى نفسا . هذا الرسول يرى مالا يراه غيره من العلم بالعلويات « **ويكون اتباع الرسل امرا واجبا على من يحس بالرغبة فى الهدى دون أن يكون قادرا على الاهتداء بطبيعته وحدها** » « والوسيلة الثالثة لاقناع الوثنيين بالايمان اذا لم يكونوا قادرين على الاهتداء بالعقل أو التنزيل هى أن يطلب اليهم أن يعبدوا الله خوفا من عقابه **والخوف من عقاب الله اقل دوافع الايمان قدرا** » .. ولبعض المفكرين كالمعرى وباسكال رأى فى ذلك خلاصته « ان الانسان يجب أن يؤمن خوفا من العقاب فان كان هناك عقاب فى الآخرة فانهم ينجون منه بهذا الايمان وان لم يكن فى الآخرة عقاب على الكفر فلا ضرر عليهم من ذلك . وهذا عندى أضعف الايمان لأنه ايمان لا تتطهر به النفس ولا تسمو به على ضرورات الحياة والشهوة الجامحة» . « والوسيلة الرابعة لاقناع الناس بالايمان هى ما يعدهم به الله من ثواب فى الآخرة » .

ويتخذ الدكتور كامل حسين من عجز العرب عن الاتيان بسورة من

مثل القرآن دليــلا على صدق التنزيل سواء كان عدم فعلهم عجزا عن محاكاته أو صرفا من الله عنها . وهو لا يميل الى القول بالصرفة لأنها فى رأيه لا تجوز نسبتها الى الذات العلية وهو لا يوافق الراى القــائل بأن الله يرسل رسله بمعجزات من جنس ما تفوق فيه قومهم ليــكون ذلك أبلغ فى اقناعهم « لأن هذا كله لا داعى له فى اثبات قوة التحدى » ويرد على ما قيل فى الاستشهاد لذلك :

(١) فهم يقولون أن المصريين كانوا متفوقين فى السحر فجاءهم موسى بعصاه ، ولكن المصريين كانوا مبرزين فى غير السحر وتفوقهم فى السحر مشكوك فيه لأن السحر باطل والباطل لا يكون فيه تفوق .

(٢) وقالوا ان الطب كان متقدما بين اليهود فى عهد عيسى وهذا غير صحيح ولم يقل به أحد ، بل تدل الدلائل كلهــا على أن الطب كان حينذاك ضعيفا حيث وقع بعد أن اضمحل الطب اليــونانى وقبل أن يزدهر الطب فى عهد جالينوس .

ويرجع الدكتور نشأة هذه الآراء الى ما سار عليه الأولون من قصر اعجاز القرآن الكريم على الناحية البلاغية .

« والواقع أن عظمة القرآن أوسع مدى من أن تكون بلاغية فقط ، ولعله أن يكون أوقع فى النفس أن نذكر انه نزل على قوم لم يعرفوا من قبله كتابا وانه جاء العرب بدين كامل علمهم فيه من أمر الله وتنزيهه ومن أمر الثواب ما لم يكن لهم به عهد ، ولم يعرفوا شيئا عن التشريع فجاءهم بتشريع لا ينقصه شيء ، ولم يكونوا يعرفون شيئا عن انباء الأولين فجاءهم منهــا بالشيء الــكثير فيه عظة وحــكمة وعلمهم الأخــلاق الســـامية والآداب الخاصة والعامة ولم يعرفوا شيئا من ذلك قبله » . وهذا أبلغ فى الدلالة على صدقه من القول بأن التحدى انصب على الاعجاز البلاغى وحده . واعجاز القرآن عند الدكتور لا يأتى من تفصيلاته فحسب ولكنه ظاهر واضح منه كلية « والأقدمون درسوا القرآن دراسة دقيقة فاحصة عنوا فيها أشد العناية بالتفصيلات وأرى أن مثلهم فى ذلك مثل الرجل يقطع من الجبل قطعة يدرس بلوراتهــا بالمجهر فيدهشه جمالهــا وهى جميلة حقا من غير شك ولكن ذلك لا يدله على شيء من عظمة الجبــل وروعته » .

وفيما يتعلق بقصص القرآن يرى الدكتــور كامل حســين « ان ما جاء فى القرآن من قصص يجب أن يظل مجملا اذا أجمله القرآن ،

مفصلا اذا فصله . وكل ما عدا ذلك يعد تعديا على قدسية القرآن الكريم وافتراء عليه » ويبدو ان هذا الرأى لم يكن (عاما) عنده وانما كان يعنى به ما يتخرص به الكتاب عند الحديث عن القرآن الكريم أو التعرض له بالتفسير • أما تناول موضوع « القصة القرآنية » تناولا فنيا فهو لا يدخل عنده فى هذا النطاق . وسنرى انه فى قصته (ماء مدين) يفصل فى القصة أمورا تركها القرآن مجملة بل ويخالف النص القرآنى فى هذه التفاصيل .

وفى تفسيره لقوله تعالى « **ان الله لا يستحى أن يضرب مثلا مابعوضة فما فوقها** » الآية «٢٦» البقرة يعرض للامثال فيقرر أن أكثرها بسيط غاية البساطة واضح كل الوضوح وهو أسلوب معروف فى الكتب السماوية كلها . ويرد على اعتراض البعض بأن هذه البساطة لا تتفق مع جلال الموضوعات التى تضرب لها الأمثال وهذا البعض لا يقتصر على الذين غرتهم الفلسفة بقوة حجتها وعمق بحوثها ودقة منطقها بل أن من العرب — مع بساطة تفكيرهم من كان يقول مثل هذا القول — يرد على هذا الاعتراض فيقول: هذا الاعتراض خطأ أصله أن المعترضين لم يقدروا ان الغرض الأول من الكتب السماوية هو هداية الناس كافة وأن الحجج البسيطة أشد أثرا فى النفس من الحجج المعقدة لعمومها وشمولها ووضوحها للناس جميعا وسهولة فهمها . ولا يقف عند القول بذلك بل يمضى به منطقه فيقول: «والذين يطلبون البراهين المعقدة فى أمور الايمان لا يخطئون لأنها ليست ضرورية لصدق الايمان بل قد يكون الايمان أقواه أبسطه » • ودليله على ذلك آية البعوضة (البقرة) فهى تبين لنا أن الأمثال البسيطة تزيد فى ايمان المؤمنين فان ضل بها احد فذلك لأن فى طبعه الضلال .

وخلاصة رايه فى الأمثال انها تهدى من هم مهياون للهداية ولايضل بها الا من تكون نفوسهم غير قابلة للاهتداء وهؤلاء هم الفاسقون •

وفى تفسيره لقوله تعالى « **منه آيات محكمات هن أم الكتاب واخر متشابهات** » يشرح لنا الدكتور الفرق بين الآيات المحكمات والآيات المتشابهات فى مفهومه :

(١) فالفرق ليس نوعا فى القدر ولا فى وجوب طاعة المسلم المخلص لها جميعا فى معتقداته وأعماله .

(٢) والآيات المحكمة بمثابة المبادىء العامة عنـد المحدثين يجب ان تطاع طاعة عامة ولا يباح للمسـلم ان يتـأول معنـاها فهى واضحة صريحة والمسلم الذى يخالفها يكون آثما من غير شك .

(٣) الآيات المحكمات هى التى تتعلق بأصـــول العقيدة كالآيات المتعلقة بالتوحيد والتنزيه والرحمـة والتقوى واجتنـاب ما حرم الله والايمان بالغيب والآخرة وقيام الساعة .

(٤) الآيات المتشابهات هى التى يهتـدى بها المؤمنون الصالحون فى عموم هدايتها ويبـاح لكل مسلم أن يفهم مغزاها على قدر ما يكون فيها من خير للنـاس على الا يكون فى اختـلاف النـاس ازاء أوامرها خروج على المبـادىء الكبرى للاسـلام وعلى الا يكون فى تأويلهم اياها ما يدعو الى الفتنة وهو ما يبغيه من فى قلوبهم زيغ .

(٥) والآيات التى تتعلق بالوصف الواقعى للجنة والنار وخلق آدم وعصيانه وخروجه من الجنة وآيات الجن والشياطين من المتشابهات التى يباح للمسلم أن يتصورها على قدر فهمه وعلمه ، ولا يطعن فى ايمـانه أن يخالف فى ذلك غيره لأن الغرض منها عموم الهداية وليس حتما على المسلم أن يؤمن بواقعيتها تفصيلا اذا كان ذلك يصعب عليه عقلا . والأمور الغيبية لا يمكن تقريبها من أذهان الناس الا اذا كان التعبير عنها باللغة التى نعرفها فى هذه الدنيـا ومع ذلك فالموعظة فى هـذه الأمور أبدية لا يستغنى عنها انسان ولا ينقص من ايمان المؤمن أن يفهمها على نحو يبلغ به مغزاها .

والتشـابه فى هـذا النوع راجع الى قصـــور فهم الانســـان عن أن يدرك حقيقة الغيب الا تقريبا بقدر ما تسمح به وسائل التعبير .

(٦) وهنـاك نوع آخر من التشـــابه هو تلك الآيات التى تتعلق بالاوامر التى فرضت طاعتها على المسلمين فى حوادث بعينها وقعت فى عهد نزول القرآن الكريم كوقعة بدر وأحد وحنين .

وهذه الأوامر واجبة الطـاعة حرفيـا فى الحوادث التى نزلت بسببها الآيات حتى اذا انقضت هذه المناسبات أصبحت الآيات واجبة الطاعة فى عموم هدايتها لا فى تفصيل أوامرها وهذا هو التشابه . ومن هذا النوع قوله تعالى :

(أ) « **ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله** » . فأبو عبيدة فى وقعة الجسر فهمها على انهـا من المحكمـات فثبت أمام أعدائه لا يريد أن يولهم دبره خوفا أن يكون فى رجوعه عصيانا لأمر الله وحدث من جراء ذلك أن قتل من المسلمين خلق كثيرون حتى تغير لون ماء النهر من كثرة ما سال فيه من الدماء ، أما عمر فقد فهمها على انها من المتشابهات وقال فى ذلك « رحم الله أبا عبيدة لو تحيز الى لكنت فئة » .

(ب) قوله تعالى « **ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص** » فانما أمر المسلمون بذلك لأن هذا الأسلوب فى القتال كان خير اسـلوب لتحقيق النصر حينذاك فان تغيرت أساليب القتال وجب على المسلمين ان يتبعوا ما يكفل لهم النصر .

(جـ) قوله تعالى « **واقتلوهم حيث ثقفتموهم** » وهو أمر موقوت بالحـال التى تألب فيهـا المنافقون والمشركون من أهـل الجزيرة ويهـود المدينة على المسلمين فلما اطمأن المسلمون أمروا أن يجنحوا للسلم ان جنح اليها الأعداء وعند ذلك ظهر التسامح الذى هو أصل من أصـول الاسلام .

وعلى هذا الفهم يكون القرآن الكريم صالحا لهداية الناس فى كل زمان ومكان وتكون آياته كلها واجبة الطاعة عند المسلمين وتكون الآيات المحكمات واجبة الطـاعة كذلك فى تفصيل ما جـاء من أوامر ونواه . وتكون الآيات المتشابهات واجبة الطاعة فى عموم هدايتها لا فى تفصيل أوامرها ، ولا يكون المسلم آثما اذا تأولها على ألا يكون التأويل مخالفا للمحكمات .

اما ما قيل فى تفسير المتشـابهات بأنها المنسوخات فلا يتعرض الدكتور للنسخ فيما يتعلق بالأحكام ولكنه لا يرى أن الآيات المتعلقـة بالعقيدة يمكن أن يقع عليها النسخ واذا أراد الله أن يبدل آية مكان أخرى فذلك لأن الأولى كانت موقوتة بزمن أو حادث بعينه .

وهدى القرآن عند الدكتور أمر مفروغ منه « وسيجد كل انسان فى آيات القرآن الكريم ما يهتدى به والقرآن لم يترك أسلوبا من أساليب الهداية الا عرضه على الناس ليختار كل منهم ما هو أقرب الى طبيعته .

ولعلنا بعد هذا العرض لهذه المفاهيم القيمة المتعلقة بالقرآن نستطيع ان ندرك مدى عظمة الفكر الاسلامي عند هذا الرجل .

●● منهجه في دراسة القرآن في كتابه الذكر الحكيم

« والناس فى عصرنا هذا اقرب الى التشكك منهم الى الايمان . وليس أدعى الى الشك من جعل التنزيل بعيدا عن عقلية النـاس غريبا عليهم ، والاصرار على تفسيره تفسيرا لا يشفى غليلهم فان هذا يزيد فى قلق المؤمنين ويقوى الشك عند الملحدين » ٠

« والتفســير يكون أهدى للنـاس حين يبين لهم رأى التنزيل فيما يشغلهم والذى يشغلهم هو البحث فى طبيعة الايمان ، وأثر العقائد فى النفس المؤمنة وايضاح موقفهم من الله وموقف الانسان من الجماعة التى ينتمى اليها وهم يريدون أن يجدوا فى القرآن الكريم ما يدلهم على دوافع الخير ومـوانع الشر وما يعينهم على التـوفيق بين ضـميرهم وحياتهم ٠ وهذا ما حرصت على أن أبينه فى هذه الدراسات » ٠

والذكر الحكيم دراسات فى القرآن الكريم لم يتعرض فيها مفكرنا لما تعرض له المفسرون القدماء .. ولم يحاول فيها شرح غوامض الآيات . ولم يبحث فيها شـيئا من علوم القرآن . وانمـا عنى فيها ببحث الموضوعات التى تسيطر على الفكر فى عصرنا هذا دون أن يتطرق ذلك التطرق الذى كان يكرهه لاخضاع القرآن بصورة أو بأخرى للاكتشافات العلمية الحديثة وهوما ينهى عنه فى مقـاله (التفســير العلمى للقرآن بدعة حمقاء) ٠

ويمكننا أن نلخص اغراضـه من هذه الدراســات على النحو التالى : ـ

(١) تقديم دراسـة للقرآن للمسلمين ممن نشأوا على التفكير الحديث تقرب القرآن من أفهامهم .

(٢) تقــديم شرح للمسلمين من غير العرب ، ولغير المسلمين ، يفهمون

به القرآن من حيث هو كتاب منزل غرضه الهداية والوعظ ومن حيث هو اصـــل العقيدة الانسانية . وأكمل تعبير عن خصائص النفس المسلمة .

والدكتـور يصـــدر فى كتابه الذكر الحكيم عن اقتناع بأن « أول واجب على المفكرين المسلمين ان يبينوا لغير المسلمين أن معجزة القرآن الكبرى هى ما حققه من نجاح فى اخراج الامة العربية فى سنوات قليلة من وثنية بدائية الى أســمى الايمان . وكانت وثنيتهم لا تمتاز حتى بجمال أصنامها ولا برقة الشعر الذى يحيط بها . كما كانت الحال عند الاغريق . ونقلهم من هذه الوثنية الى أرقى مراتب التنزيه هو أمر يحتـاج الى ســمو فى الفكر وعلو فى النفس لم يكن للعرب ان يبلغوه من دون القرآن الكريم .

وهو يفهم القرآن الكريم ويفهمه بثلاثة أساليب : التأويل ، والتأمل والتدبر ، ويسير على هذا المنهاج فى تفسيره لكل الآيات التى فسرها فى كتابه الذكر الحكيم :

(١) **التأويل :** وهو ما جرى عليه المفسرون من شرح الآيات وبيان معانيها، وما يتعلق بذلك من أسباب النزول وأوجه الدقة فى الآيات بيانا واعجازا . وهو لا يكثر منه عند تناوله اذ انه موجود فى التفاسير القديمة على خير وجه .

(٢) **التأمل :** وهو بيان مغزى التنزيل وحكمة اختيار الأحداث التى وردت فى آياته مما يكون فيــه مواعظ ، وعبر ، واهتــداء ، وميدانه استخلاص ما تحتوى عليه الآيات والقصص من هداية للمتأملين .

(٣) **التدبر :** وهو بيان أثر التأمل فى نفس كل انسان ، وفى النفس الانسانية عامة ، وهو المغزى العالمى الشامل ، وهو أعمق من التأمل وأوســع مدى ، وهو ما تدركه القلوب المنفتحة على الخير والتى لا تكون عليها اقفالها وهكذا فان التأمل عمل عقلى ، والتدبر عمل قلبى نفسى ، وفيه ايضاح لما الهم الله النفوس من فجور أو تقوى، على التدبر « فلكل قصة معناها الأعم الأعمق ، وسنرى أن ذلك أوضح ما يكون فى قصص الأنبياء » :

(١) فقصــة آدم تمثـل عاقبة العصيان وما يجـره وتمثـل التوبة وحدودها .

(٢) وقصة قابيل وهابيل تمثل بلوغ الشر غايته ، وتبين كذلك ما يعترى النفس الانسانية حين يتحكم فيها الغيرة والحقد .

(٣) قصة نوح بيان لأمر الرجل بعيد النظر وحاله مع قومه الذين لا ينتصحون برأيه .

(٤) ولوط يمثل الرجل الطيب بين المجرمين المجاهرين بالاجرام الداعين اليه .

(٥) وقصة ابراهيم تمثل غاية الطاعة ، ولم يعرف عنه انه أتى عملا لم يكن فيه خير لغيره ، وحياته خير مثال لحياة الذين يتعرضون للأذى فى سبيل الدعوة الى الحق .

(٦) وصاحب موسى يمثل النفس الطاهرة التى تعرف ما لا يعرفه غيرها فيكون سلوكها غريبا حين يحكم عليها العقل وحده ، وهكذا .....

ويمضى الدكتور كامل فيفسر لنا سورة الفاتحة ويبين كيف أن الفاتحة هى أول القرآن ، ولم قصرت على علاقة الله بالانسان لا تتناول شيئا غيرها ، ثم يعرض العلاقة بيننا وبين الله ، ومكانة الانسان من الكون كخليقة لله فى هذه الأرض .

ثم يقول أن القرآن لم يؤكد صفة من صفات الله مثل ما اكد وحدانية الله ورحمته ويبين علاقة ذلك بحسن اسلام المرء .

ويتناول « كنه رحمة الله » فيقارن بين موقف أصحاب الديانات الثلاثة منها ، ويشرح معنى العبادة فى تفسيره لقوله تعالى « **اياك نعبد واياك نستعين** » ويمتد بتفسيره الى معناها فى الديانات الأخرى .

حتى اذا أدركه قوله تعالى « **صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين** » تحدث عن الأنواع النفسية الثلاثة التى ذكرتها الآية للعلاقة بين الله والناس .

وهو يفسر المغضوب عليهم بأنهم «هم الذين حرمهم الله نعمة الايمان فلا يكون من طبعهم أن يدركوا الفرق بين الخير والشر وبين الخبيث والطيب » أما الضالون فهم « الذين فى طبعهم الايمان ثم ضلوا طريق الهداية الى الخير » .

وهكذا يمضى الدكتور فى تفسير آيات من القرآن يتعرض فيها لموضوعات تشغل الفكر الاسلامى فيمتعنا ويشدنا معه الى فكر اسلامى مستقل ممتاز .

فيتعرض فى فصول كتابه الى : التقوى ، التنزيل ، الهدى والضلال ، الذين كفروا ، المنافقون ، الدعوة الى الايمان ، التحدى ، نعيم الجنة ، الأمثال ، الفاسقون ، خلق آدم ، عصيان آدم ، يابنى اسرائيل ، يهود المدينة ، السحر ، ابراهيم الخليل ، قصة الذبح ، المحكم والمتشابه ، الشرك ، العمل الصالح ، بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، من دون الله ، وفى نهاية الكتاب بعض الفصول التى سبق له أن نشرها فى كتب أخرى وقد أحسن صنعا حين أضافها الى هذا الكتاب ، لقرب موضوعها من موضوعه . وهذه الفصول هى : —

* معنى الظلم فى القرآن الكريم .
* قصة آدم .
* اعجاز القرآن .
* بدعة حمقاء .
* محنتان متشابهتان .

وقد نشر بعضها من قبل فى كتابه « متنوعات » وفى مجلة الكاتب المصرى أما « معنى الظلم فى القرآن الكريم » فقد القاه بحثا فى مجمع اللغة العربية ونشره فى متنوعات وكتبه بالانجليزية وأظنه نشر فيها .

ولقد قدم كامل حسين عملا عظيما الى محبى القرآن والى قراء العربية والى الفكر الاسلامى عند ما كتب « الذكر الحكيم » ولا شك انه نوع جديد من الدراسة الجادة — التى لم نعهدها حتى اليوم ممن يتناولون مثل هذه الموضوعات — نرجو أن يتهيأ للفكر الاسلامى من يقومون بمثلها .

بقى أن نشير الى أن « الذكر الحكيم » اسم من أسماء القرآن الكثيرة والتى وردت فى القرآن نفسه ((**ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم**)) آية ٥٨ سورة آل عمران .

●● ظلم النفس

يكمن سر العبقرية الاسلامية عند الدكتور كامل حسين فى معنى التقوى وهى « المطابقة بين مبادىء الخلق والحياة الدنيوية » .

« وعنـــدما ترتكب الاثم فانت لا تضر غيرك فحسب ولكنك تضر نفسك التى تأصـــل فيها الخير وكره الاثم وبهذا فانت تجور عليها اى تظلمها » وهكذا يلفت الدكتور نظرنا الى مذهب خلقى فى الاسلام يدل عليه تعبير ظلم النفس .

وعندما يلفت واحـد من المفكرين نظرنا الى معنى اســـلامى فهو لا يبتدعه ولا يجدد فى مفاهيم عقائدية وانما يخـرج امرا ما من دائرة الاحساس الداخلى الى دائرة التعبير اللفظى .

ولا شـــك أن دائرة التعبير اللفظى أقصر من أن تحيط بـدائرة الاحســاس الداخلى وانما تمســها (وهى تدور) من حين لآخـر ان من خارجها وان من داخلها ومن هــذا التماس تخرج لنا هذه الومضـــات الفكرية .

وفى الجلسة الرابعة من جلسات مؤتمر الدورة الثالثة والعشرين لمجمع اللغة العربية القى الدكتور كامل حسين بحثا بعنوان (معنى الظلم فى القرآن الكريم) وأعاد نشره فى كتابيه «متنوعات» (الجزء الثانى) ، « والذكر الحكيم » ، وقد أحال المجمع بحث الدكتور الى لجنة معجم ألفاظ القرآن الكريم ، كما ترجم الدكتور هذا البحث الى الانجليزية .

لا يقنع الدكتور تفســـير الظلم على انه وضـــع الشىء فى غير موضعه فهذا فى نظره تفسير يسير .

وانما احصى الدكتور آيات القرآن الكريم التى وردت فيها كلمة الظلم ووجد أنها أتت : متعدية الى الغير : ثلاثا وخمسين مرة · ومتعدية الى النفس : سبعا وعشرين مرة . ولازمة : مائة وسبعا وتسعين مرة · وقد جاء التعبير بظلم النفس فى الدلالة على امور كثيرة كالشرك والنفاق والعصيان وتعدى حدود الله وامساك النساء ضرارا والقتل وارتكاب الفاحشة والكفر بالنعمة واغفال حرمة الاشهر الحرم وغير ذلك من أنواع الذنوب والمحرمات · وحين تكون لازمة تدل على الشرك والعصيان ، وتبديل القول ، وكتمان الشهادة . واتباع الاهواء بعد العلم واتخاذ الانداد من دون الله والافتراء عليه سبحانه وتعالى .

« وظلم النفس تعبير اسلامى خالص فيه دليل على مذهب خلقى يسمو كثيرا على المذاهب الخلقية الأخرى . هذا المذهب يدعو الى الخلق القويم لأن من يرتكب اثما يكون ظالما لنفسه ولا يليق باحد ان يظلم نفسه الا أن يكون به سفه أو خبال » .

« وذلك ان التفكير الاسلامى لا يرى أن النفس الانسانية ضالة بطبعها فهو يقول انها ظلمت ، ومعنى ذلك أنها فى أصل طبعها طاهرة ، على خلاف المسيحيين الذين يرون الخطيئة متأصلة فى الانسان منذ آدم » .

« وهذا لا يمنع من ان النفس مائلة بالطبع الى الشهوات تهم بها وتستعمل القوى والجوارح فى أثرها كل الأوقات والمراد بالنفس فى سورة يوسف على لسان امرأة العزيز « **ان النفس لأمارة بالسوء** » هو شهوات النفس الجامحة » .

ولا يشذ عن تفسير الدكتور للظلم الا آيتان آية « **وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** » على لسان بنى اسرائيل والدكتور لا يجد غرابة فى أن يقع مثل ذلك القول من بنى اسرائيل الذين كانوا يمنون على الله بايمانهم .

وقد عقب الاستاذ الشيخ محمد على النجار فذكر تفسيرا هو عندى أقرب الى الصواب اذ يقول أنها من باب قول الأب لابنه « انما تقع تبعة عملك عليك لا على » ·

والآية الأخرى من سورة الكهف « **ولم تظلم منه شيئا** » وقد أولها الدكتور على انها معنى لغير العاقل .

وبحث الدكتور كامل حسين (معنى الظلم فى القرآن الكريم) بحث رائد فى هذا الموضوع وفى البحوث اللغوية عموما ، وقد اعتمد فيه على الاحصاء الى الحد الذى لا ينبغى ان نزيد عنه عندما نعتمد على الاحصاء . وأخذ عن المعاجم، وصنف، ورتب، وعمدالى اللغات الأخرى فبحث عن اللفظ المقابل للظلم فيها فوجده (نفى العدل) والبحث تنقصه دراسة لغوية تتعلق بجذر الفعل وأصله فى فصيلة اللغات السامية ٠٠ الخ) ، وهو نوع من الدراسات لم يكن للدكتور به عهد ٠

الفصل الخامس عشر

● ● آدم

تعرض الدكتور لقصتى خلق آدم وعصيانه فى اكثر من موضع :

(١) ففى كتابه متنوعات جـ ٢ فصل عن « خلق آدم » أعاد نشره فى كتاب « الذكر الحكيم » .

(٢) وفى تفسيره لآيات سورة البقرة فى خلق آدم وعصيانه فى كتابه الذكر الحكيم أيضا فصلان «خلق آدم» « وعصيان آدم » وخلاصة رأى الدكتور فى هاتين القصتين نجمله فيما يلى :

(١) لا شك عنده أن آدم لم يكن أول حيوان مشى على رجلين ، ولم يكن أول حيوان ناطق ، ولا أول كائن ذكى ، ولكنه كان أول انسان من حيث انه أصبح عالما بالحرام والحلال ذا ارادة ، وذا قدرة على العلم .

(٢) ان الله وهب الانسان قدرة محدودة بالطبع على أن يعلم بعقله ما لا يعلمه غيره ، وعلم آدم الأسماء كلها ، والعلم بالأسماء أول العلم بالأشياء ومن طبيعة العقل الانسانى أن علمه بشىء ما لا يتم حتى يعرف اسمه أو يضع له اسما جديدا .

(٣) ان الله وهب آدم القدرة على الاختيار بين الخبيث والطيب ، ولم يرد الله له أن يهتدى الى الخير دائما لأن ذلك يحرمه صفة الارادة ، وهى احدى الصفتين اللتين أراد الله أن يخصه بهما ولم يشأ له أن يمنعه من اختيار الشر أحيانا حتى تتم له بذلك متعة الارادة الحرة ، وكان من جراء هذه الحرية أن يصلح فى الأرض اذا أطاع الله ، وأن يفسد فيها بعصيانه اذا عصى .

(٤) ثم ندم آدم على ما فعل ودعا ربه أن يتوب عليه فعلمه الله كيف تكون التوبة وعاد اليه ايمانه واطمئنانه ، ولعل التوبة أبرز عبرة فى هذه القصة وهى تتعلق بالناس جميعا فى كل عصر وليست مقصورة على آدم وحواء وحدهما .

(٥) ويرى الدكتور فى سجود الملائكة جميعا لآدم الا ابليس « ان الصفات التى سما بها الانسان فوق الكائنات جعلت له سلطانا على كل شىء الا الشر فقد أبى أن يخضع له ولا يزال له عليه سبيل » .

(٦) وتحريم الشجرة « ليس الا رمزا لكل ما هو حرام » .

(٧) « وآدم فى علاقته بالله بعد توبته أصبح مؤمنا تائبا وان لم يستطع التخلص من الشر تخلصا تاما » .

(٨) وقصة آدم عنده « رمز لما يستطيع الانسان من خير ان اطاع ولما يصيبه من شر اذا عصى » وهى رمز لما وهبه الله لنا من علم وارادة .

* ونحب أن نورد هنا ما قاله الدكتور كامل حسين فى تفسير قوله ان قصة ما رمزية حيث يقول فى ص ٦٧ من الذكر الحكيم :

« وارجو أن يكون مفهوما أن قولى عن قصة ما فى القرآن انها رمزية لا يعنى انى أريد بالرمز ما يقول به اهل الباطن ذلك انى لا خبرة لى بهذا الشعور ولا أجد له صدى فى نفسى وانما أعنى بالرمز تصوير الأمور الغيبية بالأمور التى نعرفها والتحدث عنها بلغة اهل الدنيا .

(٩) ويسوق الدكتور كامل ما بدا لكثير من الناس منذ القرون الوسطى الى عصرنا هذا من أن آدم وحواء أمرا الا يقرب أحدهما الآخر »

ومن أدلة هؤلاء على ذلك ان الشيطان قال لهما انما منعتما من أكل هذه الثمرة حتى لا تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين والتناسل نوع من الخلود ، ثم انهما بدت لهما سوآتهما وفسر هذا على انها أجزاء من جسميهما وانهما غطيا ذلك بأوراق من شجر الجنة . ويعلق الدكتور على هذا الرأى فيقول «انه تأويل مقبول معقول». ثم يضيف «ولا أعلم أن أحدا أضاف الى ذلك دليلا آخر من التحليل النفسى هو ان الغابات والشجر فى الأحلام كثيرا ما تدل على الاتصال بين الرجل واهله » .

على ان العبارات التالية من كلام الدكتور لا يفهم منها فهما قاطعا — على الأقل فيما يتعلق بى — ما اذا كان مؤيدا أو معارضـــا لأصحاب هذا الراى حيث يقول :

« على ان هناك صـعوبات فى تحديد هذا الأمر فآدم وحواء كانا يعرفان ما يحدث بين الحيوانات فكان غريبا عليهما أن يؤمرا بالامتناع عنه ولعل الذين يؤمنون بهذا التحديد هم الذين ينظرون الى العلاقة بين الرجل والمراة على انها شر لابد منه لما فيها من لذة وسرور وميل الى الجموح والشطط » .

على ان هذا التحريم لا يعين على تدبر الآيات من حيث دلالتها على حكمة التحريم عموما . وذلك ان أمر الله واجب الطاعة وان لم يفهم له العبد سببا وكل عصيان لأمر الله يعد خطيئة وتحريم الأمور الضارة يمكن ان يكون نتيجة لعمل العقل وحده ولا تكون له بذلك الصـــفة الخاصة للايمان » . الا انه يقول بعد ذلك مباشرة ما يعبر عن فكره ورأيه فى هذا الأمر بخاصة : « أمر آدم وحواء الا يقربا شجرة بعينها والتحريم من كمـال النفس الانسـانية ومن ليست له محرمات حتى الا تكون له مقدســات ومن النفوس نفوس هامدة لا محرمات لها ولا مقدسات وهى بذلك بعيدة عن كمال الانسانية بالايمان ومعرفتها بالخير والشر تكون بذلك ناقصــة حتما . والتحريم له جذور فى الكائنات الحية كلها فهى تحجم عن أمور طبيعية وهذا الاحجام ضرورى لحفظ قوتها ومنعها من الاسراف الذى يؤدى اليه الشطط حين يمتد زمنا طويلا .

وأول عصـــيان لآدم وحواء انهما خضـــعا لطبيعتهما الدنيا تلك الطبيعة التى ترغب فى الاستمتاع المطلق دون قيد او شرط .

ثم حكمـا العقل فلم يجدا فى عملهمـا ســـببا معقولا لحرمانهما من هـذه الثمرة . وما كان لهما ان يحكما العقل فى عصـــيان أمر الله .

— واضلهما حب الاســتطلاع وحب التمتع وتحكيم العقل فى غير موضعه « ولا تزال هذه الأمور الثلاثة مصدر ضلال كل انسان بالأمس واليوم وغدا » .

ومن منطق تنزيه الله الذى هـو جوهر العقيـدة الاســلامية لايجوز للمسلم ان يفهم هذه الآيات على ظاهرها ولا أن يعتقد أنه كان بين الله والملائكة حديث فيه قول ورد كالذى يكون بين الناس . وليس

عليه ان يؤمن بان الملائكة سجدوا لآدم على النحو الذى نعرفه » . هكذا يرى الدكتور « بل علينا أن نفهم الآيات التى تنسب فيها اقوال وافعال بعينها الى الذات العلية فهما لا نتعدى به حدود ما يمكن ان نعلمه من أمور ولا نتعدى به حدود التنزيه الواجب علينا » .

ويفهم الدكتور كامل معنى الخلافة على ان الله اراد ان يهب أكبر مخلوقاته صفتين من صفاته : العلم والارادة وهما مما لا يتصف به الملائكة أو غيرهم من المخلوقات ومن الطبيعى ان تكون قدرة الانسان بعد أن حاز هاتين الصفتين وسيلة يستطيع بها أن يفسد فى الارض ويسفك الدماء وذلك محال على الملائكة الخاضعين خضوعا تاما لأمره تعالى .

وليس للقصة شأن بتركيب جسم الانسان وكيفية تكوينه وعلاقته بغيره من الكائنات مما سرد الدكتور أمثلة له من كتب المفسرين فى أول الفصل . « وعلى هذا يكون كل ماروى فى تفصيل هذه القصة تفصيلا واقعيا أمرا لا يتعلق بالعقيدة وليس عليه برهان ولم يكن لأحد أن يقول بهذا التفصيل بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » .

● ● هل انتشر الاسلام بحد السيف ؟

« الواقع ان الذين انتشروا بالسيف هم العرب ، ولما كان دينهم الاسلام كان طبيعيا ان ينتشر دينهم فى البلاد المفتوحة رغم ما أباحوه لأهلها من البقاء على دينهم اذا دفعوا الجزية ، وكان انتشار العرب وانتصارهم على الأمم المجاورة ظاهرة طبيعية تاريخية معروفة فى تاريخ كثير من الأمم : أمم غنية قوية فيها جلد وطموح اضطرتها الظروف أن تغير على جيرانها فوجدت فيهم ضعفا وانحلالا فكان لهم النصر ، ويحدث عند ذلك أن يعتنق المغلوبون دين الغالبين كما حدث للعرب أو ان يعتنق الفاتحون دين المغلوبين كما حصل للمغول والأمم التى فتحت روما » .

اما امر المؤمنين بقتل مخالفيهم فى الدين فى مثل قوله « **واقتلوهم حيث ثقفتموهم** » فقد كان أمرا مشروطا بعهد بعينه فى ظروف بعينها وكان خاصا بمشركى الجزيرة العربية وكفارها بعد ان بذلوا جهودهم فى اخفاق دعوة الاسلام .

●● المعجزات

للدكتور آراء في المعجزات تخالف آراء الجماعة حين يقول : «اذا كان ايمانك بالمعجزات يقلقك فلا تتعرض لها » ومن هذه الآراء ما ذكره بعد أن قال ان المعجزات كانت وسيلة الناس قديما في التفريق بين التنزيل الحق ، والتنزيل الباطل ، من قوله **بعدم التعويل عليها في التفريق** حيث يقـــول :

« ومهما يكن من أمر المعجزات في العصور السالفة فان أحدا في **العصر الحاضر** لا يستطيع أن يقيم عليهـا عقيدته في التفريق بين الحق والباطل » .

ثم يقول : « **والمحدثون** يجوز لهم أن يعتقدوا أن التنزيل الحق هو الذي يوافق ما في نفوسهم من حب الخير ويدفعهم الى الاحساس .. » .

فمقياس الصدق هنا مقياس نفسي والرغبة في الخير طبيعية في الناس وان تكن فيهم صفة واهنة ضعيفة **فاذا كان التنزيل يقوى في الناس هذه الرغبة فهو تنزيل حق** .

وهكذا نجـده يجعل المقياس في امر التنزيل نفسيا ، كما جعله في أمور كثيرة من قبل على نحو ما عرضنا في الفصل السادس .

وفي عرضه لقصة القـاء ابراهيم في النـار التي صارت عليه بردا وسلاما قال :

« ولكن كثيرا من **المحدثين** يجدون صعوبة في الايمان بالمعجزات من حيث هي أمر واقع بالفعل ولا يفهمون كيف تكون النـار بردا وسلاما على انسان القي فيها وبعضهم يريد أن يتخلص من هذا الحرج بالتماس

تفسيرات علمية ممكنة تجعل المعجزات أمرا طبيعيا وعندى ان هذا انكار للمعجزات على نحو ما ، ونفى لدلالتها والقائلون بهذا الرأى لا يختلفون عن المنكرين للمعجزات من حيث تأثرهم بهـا فى ايمانهم بالأنبياء ومن الواضح أن المعجزات تتعلق بصدق الأنبياء أصلا وليست اثباتا لقدرة الله فهى أوضح من أن تحتاج الى اثبات ولا داعى لهـذا كله وعندى أن الذين يجدون صعوبة فى تصديق المعجزة من حيث هى واقعة والذين لا يتصورون أن تقف القوانين الكونية الدنيـا فجـأة لا يغير ايمانهم فى شىء أن يتـدبروا مغزاها التنزيلى ومغزاها النفسى وخـير لايمـانهم الا يرغموا أنفسهم على تصديق ما لا يجدون له صدى فى نفوسهم » .

ومنطق الدكتور هذا لا يقتصر على فهمه للمعجزات وانما يعممه :

« فانى لا أرى أن نرغم الناس على طريقة بعينها فى فهم القصص القرآنية والناس يتساءلون كيف يؤمنون بما جاء فى الكتب السماوية اذا لم يؤمنوا بها حرفيا وعندى ان الأمر يتعلق بطبيعة المؤمن فان كان ممن يتزعزع ايمانهم اذا لم يؤمنوا بحرفيتها فعليه أن يؤمن بذلك وان كان ممن فى طبعهم أن يؤمنوا ايمانا خالصا قويا عن طريق فهم مغزى هذه الكتب ومراميها فهو فى حل من أن يقصر ايمانه على ذلك . وقد يقوى الايمان بالفهم الطبيعى وقد يضعف والعبرة تكون بالفهم الذى يزيد المؤمن ايمانا . والحقيقة فى الكتب المنزلة هى الحق الذى نؤمن به وليس الناس سواء فيما يؤثر فيهم فيهديهم ولا يمكن فصل الحقيقة عن الايمان بهـا فالحقيقة فى أمور العقيدة والغيب ليست من نوع قولك «الشمس طالعة» بل هى متصلة اتصالا وثيقا بالايمان بها » . وآيات خلق آدم وعصيانه حقيقة من غير شك ولكن فهمها يختلف باختلاف العقليات ويباح للمؤمن بل يجب عليه أن يفهمها على النحو الذى يؤدى به الى الايمان بها » .
« ولا يطعن فى ايمان المؤمن ولا ينقص من قدر ايمانه أن يفهم الوقائع فى مثل هذه الأمور فهما يختلف فيه عن غيره من المؤمنين ولو كانوا كثرة بالغة . ذلك أن فهم الواقع نوع من قدرة العقل ونمو علمه » .

الفصل الثامن عشر

●● الدين

يخشى مفكرنا على الدين عامل الزمن وعامل الرقى ونمو العقل ، وهو لهذا يدعو الدعاة الا يجعلوا الدين يعرض لما لايستطيعه العقل فان الرقى العقلى يغير من فهم الناس لهذه الامور ولا يجوز على الدين أن يتغير معها حتى لا يفقد قدسيته ٠

وهو يدعو الى عدم ربط اتباع الدين بصلاح أمور الناس فى الدنيا فان ذلك قد يؤدى الى انكار الناس للدين حين يرون اتباعهم لأوامره يعرضهم للخطر أو يحرمهم متعة من متع الحياة وللدكتور فى الجزاء نظرية سنعرضها فى الفصل الحادى والعشرين ٠ انما ينبغى أن يدعى الى الدين على انه تعبير عن الايمان والايمان جزء لا يتجزأ من تكوين الانسان وبدونه يظل بالطبع حيوانا .

ويرى انه لا ينبغى أن يضع الدعاة الى الدين للناس نظاما يقضى على الظلم فليس ذلك من عمل الدين فان الدين يحكم الضمير ، والجماعة لا ضمير لها وانما يؤثر الدين فى النظم والجماعات وسياستها على طريقة غير مباشرة فهو يؤثر فى الجماعة حين يؤثر فى الأفراد ، ولو ان الدين وضع للناس نظاما للحياة ثم رأى الناس أن يعدلوا عنه الى غيره لذهب ذلك باحترام الناس وطاعة الناس له فيما هو أخص أموره ٠ ويعرض علينا رأيين ، يتعلقان بارتباط المثل العليا بالدين :

(١) أولهما يرى انه لا ينبغى جعل المثل العليا جزءا لا يتجزأ من الدين يحمل الناس جميعا عليها وانما تظل منارا يهتدى به فمن استطاع ان يتبعها مختارا فهو خير له ومن لم يستطع فلا ضير عليه ولايعد مخالفا للدين ويؤيد هذا الرأى بالخوف على الدين فان من الخطر عليه أن يتهامس

الناس فيما بينهم أن أوامره عسيرة لايقدر عليها الا القليل وان نواهيه تمنع خيرا كثيرا ولا ترد الأذى الا نادرا • فاذا أصبحت أوامر الدين من السمو بحيث لا يستطيعها الا قليل من الناس بعدت الثقة بينه وبين الحياة وضعف أثره فى اصلاح الناس وتجرأ الناس على تعاليمه فلا يقتصرون على ترك الصعب منها بل يتركون السهل أيضا •

(٢) وثانيهما يرى ان الدين يجب ان يكون جماع المثل العليا التى يعرفها الناس سواء استطاع الناس أن يوفقوا بين حياتهم وتعاليمه كلها أم لم يستطيعوا — انما على الدين ان يظل حقيقة ثابتة دائمة سامية . وانه اذا قيس بما يصلح لقوم بعينهم فى عصر من العصور فان ذلك يجعله عرضة للأخطار التى تأتيه من الرقى الطبيعى ومرور الزمن وتقدم الانسانية واتساع العقل ونمو العلم وقد تتغير النظم الاجتماعية وقد يسمو شعور الناس بالعدل الاجتماعى الى ما هو أرقى مما يصلح فى عصر من العصور عند ذلك تكون أوامر الدين أقل شـأنا مما تأمر به القـوانين الوضعية وفى ذلك الخطر كل الخطر على الدين » .

●● العقل والايمان

هذه آراء طريفة أدارها مفكرنا الكبير بين مؤمن وفيلسوف غير مؤمن فى « قرية ظالمة » . فالايمان هو الاحساس الذى يستطيع به الانسان أن يتبين معنويات ما يحدث حوله ومغزى ما يقع عليه . والمؤمن هو الذى يرى بين المعنويات والماديات صلة ويؤمن بوجود أشياء لا يتعلق بفهم كنهها وحقيقتها عقلا .

وليس لأحد أن ينكر ما لا يدركه العقل (وهى فكرة كررها مفكرنا كثيرا) وينبغى للانسان أن يؤمن ان هناك قوى تعمل فى حياتنا لا نفهم كنهها ولا نستطيع أن نفهمها . والحيوان غاية فهمه الالهام ولما كان العقل فوق الالهام فان الحيوان لا يستطيع بالهامه أن يتصور العقل أو يفهم كنهه وكذلك الانسان غاية فهمه العقـل ولما كان الايمان فوق العقل فان الانسان لا يستطيع بعقله أن يتصور الايمان أو يفهم كنهه :

« والدليـل على ان الايمان فوق العقل ان الايمان لا يكون الا فى العقلاء أما العقل فيكون فى المؤمنين وغير المؤمنين وهذا يعنى فى الترتيب الطبيعى ان الايمان فوق العقل وهذا لا يعنى أن الأول يمحو الثانى بل يدل على انه قد يكون فى الايمـان ما لا يسـتطيع العقـل أن يكون حكما فيه » .

الفصل العشرون

●● التحـــريم

يرى الدكتور كامل حسين ان الشرع أراد تحريم كل **شهوة غالبة** وهذه هى حقيقة التحريم .

واذا كانت موعظة الجبل (التى أدارها فى قرية ظالمة) قد ركزت على اشتهاء المرأة فليس ذلك الا مثلا للشهوة الجامحة سواء أكان ما يشتهيه الانسان امرأة أم جاها أم مالا . ولا ينبغى تركيز الاثم كله فى الشهوة الى النساء .

● ● الجـــزاء

هذه نظرية قريبة جدا من الصواب ولا احسب ان احـدا سبق مفكرنا اليها .

تقول النظرية ان الله لا يجزى طهارة النفس بسلامة الجسم ، ولا يعاقب على خطيئة الروح بسقم الأبدان وانما يكون الجزاء من جنس العمل والعقاب لا يكون عدلا الا اذا كان نتيجة طبيعية للذنب ولا يجوز على الله الظلم ولو انه عذب الكافرين بآلام الجسم لكان هذا ظلما وانما يعذبهم بقلق الضمير . والألم ليس عذابا ولا تطهيرا وانما هو نتيجة طبيعية لخطأ فى الجســم لا يتعلق بالنفس ، والألم الذى يصيب المؤمنين ليس امتحانا ، وليس بين الايمـان والصحة من سـبب ولو كان الأمر كذلك لأصبح الناس جميعا طيبين مؤمنين ولم يرد الله أن تكون سنته فى الخلق على هذا النحو .

ويستقيم لنا فهم هذه النظرية اذا لخصنا رأى مفكرنا فيما يصيب الانسان من الشر فهو يرى أن ما يصيب الانسان من الشر نوعان :

نوع يأتيه من حيث هو حيوان كالمرض ، وما يصيبه من تعـرض لأحداث الطبيعة وهو فى هذا لا يختلف عن غيره فى شىء وليس ما يصيبنا من أذى بأكثر دلالة على الظلم من المرض يصيب الزهرة أو الداء يصيب الحيوان وليس هذا ظلما ينسب الى الله **فان الله لم يجعل سننه الطبيعية متعلقة بما ينفع الانسان وحده .**

والنوع الآخر من الشر يصيب الانسان من عمل غيره من الشر وهذا تركه الله لنا وجعلنا عنه مسئولين ولم يجعل الضمير جدارا عاليا يمنع

الانسان ان يتخطى حدوده ولم يجعله نارا تحيط بنا فتحرق من يحاول ان يخرج وراءها بل جعله هاديا ووعظنا أن نتبعه ٠

ولن يحدث أبدا أن يقع حجر رأسا على الأرض ثم ينحرف عن طريقه لئلا يقع على رأس متعبد مؤمن او طفل برىء لأن هذا الانحراف عن نظام الطبيعة يقضى على نظام العالم كله كما نعرفه ولن يحدث أبدا أن يمتنع السيف فى يد العملاق الظالم عن قطع يد المظلوم لبراءته كل ذلك لا يتعلق بقدرة الله وعدله فانه ليس بين هذه الأمور وبين عـــدل الله من سبب ولو ساد رأى الناس فى عدل الله فى هذه الأمور ما بقى على الأرض من قانون طبيعى يسير عليه نظام الأرض أو السماء ٠

أما ما يصيب الناس من شر يجلبه بعضهم على بعض فالمؤمنون يودون لو ان عقاب الشر يكون عاجلا ويكون حتما حتى يؤمن الناس بالله وبالضمير وهذا أيضا جهل بسنة الله فى الكون وذلك ان النتيجة لا تتبع مقدماتها فورا ، أو على طريق الحتم الا فى القوانين الطبيعية التى يخضع لها الجماد اما الكائنات والحياة ففيها مرونة وقدرة على التحول ، وفيها تعقيد فى قوانينها يجعل بين السبب والمسبب فرجـة من الوقت وقدرة على تجنب كثير من النتـــائج فلا تكون الحتمية واضحة ، وهـذه الفرجة قد تجعل من الصعب أن نتبين الجزاء فى عمل الفرد ، ولكن البحث فى أمور الانسانية كلها لا يدع مجالا للشك فى ان الذين يتبعون الضمير يفشو فيهم الخير وأن الذين يتعدون حدوده يفشو فيهم الشر ٠

القضاء والقدر :

أما القضاء والقدر فهو ما يصيب الانسان خيرا أو شرا من غير سبب يعلمه أو عمل يقوم به فى سبيل ذلك ٠ وكل شىء حر فى عمل ما يريده فى دائرة حدود القوانين الخاصة به ودائرة الاختيار فى الانسان أوسع منها عند غيره . أما اذا أصابت صاعقة رجلا فان ذلك يعد عند بعض الناس قضاء وقدرا وهو ليس كذلك لأنه عمل من أعمال قوانين الفيزياء ، وهى قوانين أدنى كما أوضحت نظرية (وحدة المعرفة) ٠ ولا شك ان آراء الدكتور التى أوردناها فى هذا الفصل مع اصالتها وحداثتها تلقى كثيرا من القبول بل ويهيىء لنفوس الانسانية ملاذا يحميها من غائلة الهواجس ٠

الفصل الثانى والعشرون

●● القتـــل

نذكر فى هذا الفصل اليسير على سبيل المس السريع بعض الآراء العظيمة لمفكرنا الكبير فى « قرية ظالمة » .

يكره مفكرنا القتل كرها شديدا ولا يستسيغه ولا يقره تحت أى دعوى . وعنده أن القتل لايكون جزاء أبدا، ولا يسوغه مقصد مهما يكن ساميا حتى لو كان قطعا للفتنة والفساد لأنه ليس أحد غير الأنبياء يستطيع أن يحكم على أمر انه فتنة تدعو الى القتل ، ولا يحل القتـــل بدعوى الدفاع عن الدين او الوطن لأن من حمل الســـلاح وآذى الناس دفاعا عن الدين فقـــد وضـــع الدين فوق الله الذى يأمر بالحب لا بالقتـــل والله كفيـــل بحفظ دينـــه وليس فى حاجة الى عبيد خاطئين ينقذونه « ان الذين يدافعـــون عن الدين بايذاء الناس انما يدافعون عن رأيهم وحدهم بل أكثرهم انما يدافع عن حقوقه ومزاياه » .

أما الدفاع عن الوطن بالاعتداء على الأعداء فهو عنده باطل يزينه للناس رجال أخطأهم التوفيق ، ولو كانوا أكثر حكمة لجنبوا قومهم الموت فى سبيل أخطاء ارتكبوها والذى يسوق قومه الى الحرب انما يقتل قومه قبل أن يقتل أعداءه . وكلا المتقاتلين يظن ان عدوه هو المعتدى وانه هو الذى يدافع عن نفسه وعن وطنه وهو وهم يخدعه به غيره وهؤلاء ـ أى الذين يخدعون ـ بين أمرين : اما أن يكونوا لا ضمير لهم واما أن يكونوا جهلاء مخطئين ، والقتل يدعو الى الثأر والمتقاتلان أحدهما مهزوم حتما فالشر جزء منه لا يتجزأ ، ذلك ان الظلم واقع على المهزوم لا محـــالة ، والمنتصر لا يستطيع العـــدل ، وظالم العدو تقوى شهوته الى الظلم ، فيظلم أهله بعد النصر .

●● الضمير والقوى الحيوية

قصة قرية ظالمة هى « قصة الضمير الانسانى عندما يطفىء الانسان نوره » ولكننا مع ذلك نعرض آراء عامة وأقوالا سريعة للدكتور كامل حسين فيما يتعلق بالضمير وهى الآراء التى تحفل بهـا كتبه جميعا و « الوادى المقدس » و « قرية ظالمة » بخاصة :

(١) الضمير الانسانى قبس من نور الله ٠

(٢) وهو وحده الذى يصرف الناس عن الشر ٠

(٣) الناس حين يفقدونه لا يغنيهم عنه شىء ٠

(٤) ولن يصيب الناس شر الا ومرجعه ما يعتريهم من رغبة الى تجاهل الضمير ٠

(٥) وما يميز الانسان عن الحيوان هو الضمير وبدون الضمير لا يكون ابن آدم الا حيوانا عاقلا ذكيا اما أن يكون انسانا فذلك محال ٠

(٦) اذا اهتدت الطبيعة البشرية فعلا كان لنا أن نسميها ضميرا.

(٧) ضمير الفرد الانسانى وحده هو سبيل الهدى والحق ولكنه يضطرب ويحار ويخطىء ٠

ويجرى كامل حسين فى « قرية ظالمة » على السنة الحواريين هذا الدعـــاء :

« اللهم انك أنعمت على الناس فوهبتهم الضمير وهو روح منك وجعلت امره امرك ونهيه نهيك فمن أطاعه فقد أطاعك.. وتركت أمر اتباعه أنا

فاجعل أعمالنا فى حدود هذا الضمير .. اللهم لاتجمع علينا من أمور الدنيا ما يحملنا على تعدى حدود الضمير .. اللهم الهم الناس ألا يهتدوا بغيره وأوزعهم ألا يتغاضوا عنه لأمر مهما يكن جللا ، وألا يقيموا أوثانا يعبدونها من دونه يحسبونها خيرا فانه لا خير وراء الضمير اللهم واهد الذين يتولون أمور الناس الى الا يضعوا نظما تضطرهم الى تعدى حدود الضمير » .

وهو يقسم القوى التى تعمل فى حياة الناس الى قوى ثلاث : القوة الحيوية ، وقوة العقل ، وقوة الضمير ثم يبين ان فى القوة الحيوية خيرا وشرا ، وفى القوة العقلية كذلك خير وشر ، أما الضمير فهو خير كله وان كان بعض الشر يأتى اليه من الذين يقومون بأمره .

ويرى كامل حسين ان لكل من هذه القوى فريقا من الناس يؤمنون بها ويدعون اليها ويريدون لها أن تسود وحدها ، وهذا التفكير فى رأيه خطأ وهو أصل الداء فان الضمير نفسه على ما فيه من خير لم تصلح به وحده حال الناس الا فى العصور الأولى لكل دين حين يكون الدين قويا نقيا طاهرا وحين تكون الحياة بسيطة والعقول هادئة حتى اذا امتد بالضمير الزمن وقع الخلاف بينه وبين الحياة وبين العقل ويكون من أثر ذلك ان يصيبه الضعف حتى لا يتأثر به أحد أو يشتد بطشه فيذبل العقل ويضعف النشاط .

ويفند الدكتور رأى من يرون ان نمو العقل يصحبه نمو فى قوة الضمير وما فيه من خير لأنه اذا كان الضمير لم يستطع فى أوج قوته أن يمنع الشر وهو ضعيف فهو اذن على منعه بعد ذلك أعجز .

ويرى الدكتور ان طبيعة العقل أن يكون دليلا هاديا وطبيعة الضمير أن يكون رادعا نذيرا (مع انه فى أول كتابه « قرية ظالمة » كان يتحدث عن الضمير كهاد) .

« ولو بقى كل منهما على طبيعته لعم خيرهما اما أن يكون الضمير هاديا والعقل رادعا فهو خروج على طبيعة كل منهما » .

« وسبيل الاصلاح هو تهذيب هذه القوى وتحديدها ورياضتها على الا تطغى احداها على غيرها حتى فى الخير فان الخير حين يتخطى حدوده يصبح شرا لما يؤدى اليه من اختلال التوازن » .

والاعتدال وحده هو الذى يجمع هذه القوى على الحق وتكون قوة العقل دليلا ۰ وتكون قوة الضمير مانعة لهما من الشطط على أن يكون فيها ميدان أوسع تعمل فيه يتسع لاختلاف مشـارب الناس وطباعهم ومـدى قبولهم للتأثر بما فيها من خير ۰

الفصل الرابع والعشرون

●● الفرد والجمـــاعة

يقدس مفكرنا الكبير الفرد ويرى ان وسيلة الاصلاح الأولى هى اصلاح الفرد فالضمير الانسانى هو أقوى ما يهدينا الى الخير بل هو وحده سبيل الهدى الى الحق ، والجماعات لا ضمير لها ولا يزعج ضمير أحد من افرادها ما ترتكبه جماعته مهما عظم الاثم ٠

ومثل ذلك الحرب وما يحدث فيها من فظائع لا يرضى عنها ضمير أى فرد من أفرادها ولكن الجماعة تقدم عليها راضية مستريحة وتفسير ذلك عنده ان الجريمة مهما تكن عظيمة يسهل وقوعها اذا وزعت توزيعا يجعل نصيب الفرد من ذنبها أصغر من أن يضطرب لها ضميره » ٠ وهكذا فان الجماعة تقدم على الشر فى يسر بالغ لأن أفرادها يقتسمون وزر الاثم فلا يشعر أحد منهم انه آثم حقا والجماعة تقدم على الخير فى صعوبة لأن كل فرد منها يؤثر أن ينسب اليه الفضل ، والجماعة تحجم عن الخير فلا يعفى ذلك أحدا من أفرادها من تأنيب الضمير ويظل كل فرد منها يعد نفسه آثما اذا لم يقم بواجبه وحده ولو كره غيره أن يتعرض للخطر ٠

لهـــذا كان الاقدام على الشر أســـهل على الجمـــاعة والاقدام على الخير أصعب على الجماعة . أما الاحجام عن الخير فهو مجلبـــة للنـــدم سواء أكان الانسـان وحده فى هذا الاحجام أم كان له فيه شركاء .

●● الحق والقـــوة

ومما كرر القول به استنكاره استعانة الحق بالقوة لتأييده ولم يكن هذا الا امتدادا لدعوته الى البعد عن اكراه الناس حتى على الخير ·

ومن أقواله السديدة التى كرر القول بها « ان القوة اذا انتصرت للحق فالنصر للقوة لا للحق » .

والقوة من طبعها الشطط فلا تلبث أن تنتصر للباطل فاذا اصطدم الحق والباطل وانهزم الحق فان ضمير الناس وسير التاريخ كفيلان باصلاح الخطأ أما اذا استعان الحق بالقوة فالغلبة لها ·

ويمضى به منطقه الى أن يقول :

« ومادام الحق فى المحل الثانى فسيان أن يكون خاضعا للحق أو للباطل وكل من اتخذ القوة وسيلة الى الحق سيجد بعد قليل انه انما اتخذ الحق وسيلة الى القوة » ·

●● الوطنية والانسانية

نرى من مفكرنا فى «قرية ظالمة» بخاصة انه يرى ان حق الوطن فضيلة لا ينكر أحد قدرها ولكنها ليست غاية الفضائل بل هو طور من أطوار الرقى الاجتماعى وسيأتى يوم يكون فيه النظام الاجتماعى كافيا لاقناع الناس ان حب الانسانية كلها والدفاع عنها أجدى على الوطن من حب الوطن وحده · وسيكون العالم كله عندئذ وحدة تجعل حب الانسانية تجلب لكل وطن فوائد لا تتحقق بخدمة الوطن وحده · وسيمنع حب الانسانية عن الوطن من الأذى ما لا يمنعه حب الدفاع عن الوطن وحده ·

« عند ذلك يبدأ الناس فى التفكير الانسانى فنراهم يفضلون خدمة الانسانية على خدمة الوطن ولن يكون ذلك عندئذ خيانة للوطن بل سيكون هذا اجمل الدفاع عنه وانجحه » .

وهذه من الآراء التى سبق بها مفكرنا الكبير عصره وانا لنأمل أن ياتى هذا اليوم الذى يكون فيه النظام الاجتماعى كافيا لاقناع الناس ان حب الانسانية كنها والدفاع عنها أجـــدى على الوطن من حب الوطن وحده ··

الفصل السابع والعشرون

●● الاشتراكية والشيوعية

لم يكن الدكتور كامل من أنصار الشيوعية ولا الاشتراكية ، وقد عبر عن ذلك صراحة بل انه اتخذ من العمل الفنى وسيلة الى التعبير عن هذا الرأى وليست قصة (أى الطريقتين أهدى) التى نشرها فى أبريل عام ١٩٦٢ فيما أرى الا تحذيرا منه وقتها لمصر أن تسلك مسلك الشيوعية .

وقد ذكر الدكتور كامل حسين فى كتابه التحليل البيولوجى للتاريخ ان المثل الأعلى للاشتراكية هو أن تكون الجماعة سعيدة ولا يكون فيها فرد سعيد ، غنية وليس فيها فرد غنى كحياة النحل ، وحياة النحل على كمالها بالنسبة لهذا الحيوان هى تقوم على الالهام لا تصلح مثلا أعلى لحياة الانسان التى تقوم على الضمير والعقل وهما صفتان غريزيتان » .

وفى قصته « أى الطريقين أهدى » عمد الى التعليق على الماركسية فقال «واشد انصارها لاينكرون انها حدت من التفكير الانسانى حين جعلته اقتصادا محضا ، وانها أكدت شر ما فى الحياة الانسانية من عاطفة وهو النضال بين الناس » ثم قال عن رأى ماركس فى العدل الاجتماعى انه **« رأى بدائى لا يرى العدل الا انه اقتصاص من الظالم دون أن يعنى بتحقيق سعادة المظلوم »** .

ولا ينكر الدكتور أن الماركسية تنظم للعالم نظاما « **ولكنه نظام خال تماما من كل معانى الحب والعطف بين الناس وهذا أضعف نواحيها وأخبث ما فيها ولا يمكن أن تكون مصدرا للخير اذا ظل أهلها يتجاهلون ما يكون بين الناس من حب وهو أكرم وأقوى عاطفة فى الانسان** » .

وكان الدكتـــور كامل حريصا على أن يرجع السبب فى ازدهـــار الشيوعية فى روسيا بعد الحرب العالمية الأولى الى الظروف التى عاشتها روسيا فى هذا الوقت وقد قرر هذا في كتابه التحليل البيولوجى للتاريخ تقرير العالم ثم صاغه فى صورة فنية فى قصة « أى الطريقين أهدى » .

والحقيقة ان رأى الدكتور كامل حسين من حيث هو صادر عنه يعبر تعبيرا تاما عن الروح التى سادت حياته ، والفكرة التى ملأت عقله وهو رجل من دعاة السلام والانسانية والحب والاخاء .

الفصل الثامن والعشرون

●● هل تبرر الغاية الوسيلة ؟

لا يرى كامل حسين هذا الرأى وذلك ان الوسيلة السيئة لا تؤدى الى الغاية الحسنة ابدا فالشر لايؤدى الى الخير مطلقا الا وهما والى حين يطغى الشر . وهـو ينص على ذلك فى « قرية ظالمة » وفى قصـته « أى الطريقين أهدى » يسـخر كل ما أوتى من قوة البيـان والتعبير ليثبت هذا المعنى .

●● السرقة

ليست السرقة ما اصطلح الناس عليه عادة وانما يرى مفكرنا أن من كسب شيئا لم يبذل فيه جهدا فقد سرق ، فمن أحرز شيئا بذكائه ودهائه دون جهد بل ابتزازا ممن بذل فيه غاية جهده فقد سرق . ولعل فى هذه الفقرة على تركيزها خلاصة رأى عظيم فى مفهوم السرقة يستحق أن نفرد له هذا الفصل .

●● بنو اسرائيل

سنتناول في هذا الفصل باذن الله .

(١) رأى الدكتور فى (قصة الخروج والعقلية اليهودية) . وهو الفصل الثانى من كتابه متنوعات ج ١ ــ والذى وضع له عنوان (أحسن القصص) .

(٢) الاشارة الى (قصة الخروج والعقلية اليهودية) فى فصل (اعجاز القرآن) من كتاب (الذكر الحكيم) كمثل على قوة التعبير حين يكون المعبر عنه خلق جماعة من الناس تطبعت نفوسهم من أثر حوادثها .

(٣) فصل (يا بنى اسرائيل) فى تفسيره لسورة البقرة فى كتاب (الذكر الحكيم) .

(٤) فصل (يهود المدينة) من كتابه الذكر الحكيم .

(٥) آراؤه التى جاءت عرضا فى (قرية ظالمة) .

وهــذا عرض سريع لرأى الدكتور فى قصــة الخروج والعقلية اليهودية :

(١) هذه القصة أروع مثل على قوة التعبير والتعبير بها على هذه الصورة أصدق من المعلومات الكثيرة والدرس العميق والبحث المستقصى لهذه الجماعة من الناس ولا أعرف شيئا يقاربها فى تصوير بنى اسرائيل وما جبلت عليه جماعتهم من خلق خاص بهم .

(٢) ظلم بنو اسرائيل فى عهد من حياتهم ظلما لا يطاق لو وقع بعضه على غيرهم لقضى على قوميتهم وقوة تضامنهم ، وصبروا على هذا الظلم

صبرا لم يعهد التاريخ مثله عند غيرهم فى زمن من الأزمنة ، ولكن جماعتهم لم تتفكك من أثر هذا الاضطهاد ، كما يحدث للجماعات عادة بل اتخذوا منه وسيلة لتقوية الروابط بينهم ، وجمعت بينهم اخوة المظلومين فصارت لهم بذلك قوة نفسية داخلية ومن ثم كان مزاجهم النفسى الذى جعل من تشتتهم وحدة داخلية أعمق من وعيهم .

(٣) ثم جاءهم داع يدعوهم الى الانتفاض على ظالميهم . يدعوهم الى الحرية على أن يؤمنوا بالله ، كأنما كانوا قد نسوا ما آمن به أجدادهم من قبل حتى خيل اليهم انه لم يعد فى الأرض من ينتصر للمظلومين .

(٤) جاءهم موسى آسيا قويا لا يحتمل الضيم ، وكان موسى من أكبر رجال التاريخ أوتى القوة والعزم والايمان وحب الحرية والعدل ، وكانت فيه القدرة على اخضاع الناس لأوامر يتبعونها مع ما قد يكون فيها من خطر عليهم وانتهى الأمر ببنى اسرائيل أن أطاعوا نبيهم موسى وخرجوا معه .

(٥) ولكن حدثت لهم فى أثناء خروجهم حوادث كادت تقضى على ثقتهم به وبما يدعوهم اليه وكان ان أشرفوا على الهلاك ولم يكن لهم أن يرجوا رحمة أو رأفة من قوم فرعون الذين اتبعوهم ، حتى اذا لم يكن بينهم وبين الموت الا قيد شعرة أنقذهم الله بمعجزة لم يعرفوا لها سببا طبيعيا وبذلك خرجوا فى طرفة عين من اليأس المميت الى ذروة الأمل البالغ. فلما رأوا أنفسهم قد نجوا ورأوا أعداءهم غرقى فى قاع البحر اضطربت نفوسهم اضطرابا شديدا لأن ما وقع لهم لم يكن عملا طبيعيا تؤدى فيه الأسباب الى نتائجها ، وكأن حياتهم أصبحت خليطا من اليأس المزعج والأمل فى معجزة تنجيهم من نتائج أخطائهم وذنوبهم ولم يكن عجبا أن يظنوا أنفسهم الشعب المختار ، وانهم مهما تكن خطاياهم أو خطاهم فسوف ينجيهم الله فى آخر الأمر بمعجزة لا يعرفون لماذا وقعت ولا كيف وقعت.

(٦) ولعل موسى عجب بعد ذلك من عصيانهم وجحودهم واصرارهم على العصيان وشدة مراسهم وعودتهم الى الكفر وانكارهم فضل الله عليهم حين أنزل عليهم المن والسلوى .

ولعله عجب أن رآهم يعبدون العجل بعد أن رأوا من آيات الله ما رأوا ولم يكن له أن يعجب ، ذلك ان ما حدث لبنى اسرائيل لم يكن ليتركهم آمنين مطمئنين نفسيا بل لعل ذلك كان من أكبر أسباب اضطرابهم العقلى والنفسى .

(٧) ولعل فى هذه القصة تفسيرا لما يجد بعضنا من صفات غير طبيعية فى هؤلاء القوم فانك لتجد أحدهم يبكى حتى تنشق نفسه لرؤية أخيه يعذب أمامه ، ثم لا يلهيه ذلك أن يتلمس وسيلة يفيد بها من دم أخيه المسفوك ، وهو ما حدث بعد الحرب حين أقاموا وطنهم مستدرين من أجل اقامته عطف العالم بعد ما أصابهم من قتل الآلاف منهم .

(٨) والرجل حين يمتحن عند الشدة يظهر ما فيه من خلق كريم أما اليهودى فلا تظهر منه الشدة الا أسوأ ما فيه .

(٩) لو لم يكن بنو اسرائيل قريبين من الموت الى حد أنهم رأوه رأى العين لكان خيرا لهم ولو لم ينجوا منه جميعا أو لو نجوا بغير معجزة أو لو قاتلوا عدوهم فقتل منهم من قتل ونجا منهم من نجا لكان خيرا لهم .

ولكن اجتمع عليهم فى بعض دقائق اليأس القاتل والنجاة التامة وتحقق لهم القضاء على عدوهم وهم وقوف ينظرون دون جهد منهم أو سعى ، كل ذلك خلق فيهم من الطباع مالم يتفق لغيرهم فى أى وقت من الأوقات.

ويقول كامل حسين فى ذلك : « خير للانسان ان ألح عليه الموت حتى كاد يزهقه الا ينجو منه فالنجاة فى مثل هذه الحالة شر » .

(١٠) ويقرر أن المحنة استنفدت كل قوتهم فتكونت نفوسهم من جديد على اطلال نفس هدها الرعب ، ولم يعد لهم وطن طبيعى (يقصد مكانا تنمو فيه طباعهم) .

(١١) أما سر نبوغ بنى اسرائيل فانهم عرفوا كيف يقاومون الظلم مقاومة سلبية ، والظلم يخلق كثيرا من الفضائل السلبية كالصبر وسعة الحيلة والدهاء ويميت كثيرا من الفضائل الايجابية .

(١٢) ولعل معجزات موسى لم تكن لاقناع فرعون بقدر ما كانت لاقناع اليهود أنفسهم .

(١٣) وزاد شعور بنى اسرائيل بالذل انتقالهم من ظلم معروف الى غاية مجهولة ومن أخص صفات الذل رضا المرء بما هو فيه .

(١٤) قصة الخروج أوضح مثل لفقدان العلاقة بين السبب والمسبب وفقدان هذه العلاقة شر نكبة للعقل وقد كان لها أثرها فى العقلية اليهودية حتى صاروا يعتقدون ان فى يهوديتهم سر نجاتهم .

(١٥) ومن الاسراف فى اليأس الذى بلغ حده ومن الاسراف فى الأمل الذى جاءهم على غير ما يتوقعون على الاطلاق نشأت فى خلقهم صفات لعل من أبرزها عدم التسامح ، وميلهم الى العنف بدورهم .

(١٦) قصة خروج بنى اسرائيل قصة رائعة من جميع نواحيها وهى تدل على أعمق مافى نفس هذه الجماعة من طبائع اختصوا بها دون غيرهم من الجماعات ، وقد تكون طبيعتهم وأخلاقهم هى التى أدت الى أن يصيبهم ما أصابهم ولكن الأمر الذى لا نزاع فيه هو ان هذه القصة بحوادثها وبالطريقة التى رويت بها دلت على نفسية أمة بأقصى مايكون من الوضوح والدقة .

والحديث عن بنى اسرائيل والتحدث اليهم كثير وفى القرآن الكريم وفى تاريخهم عبر وعظات كثيرة ولم يشأ القرآن ان يجعل تاريخ بنى اسرائيل قصة متصلة الحلقات كما جاء فى التوراة وانما اختار طائفة من وقائعه فيها مواعظ خاصة ، وعندما يتكرر ذكر واقعة بعينها يكون ذلك موضع اعتبار كبير .

والدكتور ينبهنا الى التفريق بين حديث القرآن عن بنى اسرائيل واكثره يتعلق بتاريخهم القديم ، وحديث القرآن عن يهود المدينة الذى يركز على عداوتهم للدعوة الاسلامية ووسائلهم فى القضاء عليها . والسر فى أن أكثر حديث القرآن عن بنى اسرائيل يتعلق بتاريخهم القديم ان فيه مواعظ تترى على سنن الله فى حياة الأمم ، وفيه شرح للنفس وما تتعرض له فى الحالات النفسية . أما تعالى اليهود على العرب فى الجاهلية فليس الا مظهرا من مظاهر اعتقاد بنى اسرائيل انهم شعب الله المختار وما فضلهم الله الا على معاصريهم من الوثنيين الذين لم يكونوا ممن عرفوا الله بعد .

والقرآن يخبر المسلمين انه ليس لهم أن يطمعوا فى ايمان اليهود بالقرآن فهم يظنون ان لهم وحدهم الحظوة عند الله ثم انهم يأبون أن يعترفوا بفضل الله على غيرهم وكانوا يعتقدون ان الأنبياء لا يكونون الا منهم حقدا أو حسدا أضف الى ذلك انهم كانوا يعلمون ان نجاح الدعوة الاسلامية كفيل بالقضاء على ما يستمتعون به من تفوق على من حولهم من العرب ولا نزاع فى ان انكارهم ما جاء فى القرآن مرجعه الى الدفاع عن امتيازاتهم هذه . ولم يترك يهود المدينة لذلك وسيلة للقضاء على الدعوة الاسلامية الا أتوها وقد دل القرآن المسلمين على كل ذلك تفصيلا » .

ويلفت الدكتور كامل نظرنا الى أن تاريخ بنى اسرائيل فى القرآن سرد وعظى بينما هو فى التوراة سرد تاريخى ·

وفى طلب بنى اسرائيل رؤية الله جهرة « دليل على ضعف ايمانهم بالغيب شأن البدائيين يصعب عليهم أن يؤمنوا بالمجردات التى لا يرونها ولا يسمعونها فضلا عن ان فى طلبهم هذا تكذيب لموسى » ·

وفى « اتخاذهم العجل معبودا تحد لله ونبيه ورغبة فى التخلص من سيطرة موسى وأعوانه عليهم وكان بعض هؤلاء الأعوان يحملون الناس قهرا على أن يطيعوا الله فى كل أمر صغيرا كان أو كبيرا··ولعل بنى اسرائيل حين عبدوا العجل كانوا يريدون التشبه بسادتهم فى مصر الذين كانوا يعبدون الأصنام والعجل وهو امر معروف فى تاريخ الأمم كلها اذ تعترى الأمم المستعبدة رغبة قوية فى التشبه بسادتهم حتى فى نقائصهم ·

وايمان اليهود بعذاب الآخرة أقل وضوحا فى نفوسهم من عذاب الآخرة عند المسلمين والمسيحيين ولعل ذلك لأنهم يعتقدون ان جــزاء الذنوب يكون فى الدنيا ويقع على المذنب أو ذريته من بعده » ·

« وفى قولهم لموسى « **فاذهب أنت وربك فقاتلا انا ها هنا قاعدون** » من الجبن والتحــدى والاســتهزاء والعصيان والبغى ما يدل على غاية الكفر عند بنى اسرائيل فى ذلك العهد من حياتهم الدينية » ·

وقصة البقرة تدل على نوع من العصيان أقل خطرا من هذا الكفر فهم لم يعصوا أمر الله ولم يشكوا فى صدق موسى ولكنهم تلكأوا واحجموا والتمسوا الأعذار ثم ذبحوها وما كادوا يفعلون ·

اختارهم الله ليكونوا أول من يعرفه ويؤمن به على نحو أوضح مما كان يفعل البدائيون وبذلك فضلهم الله على معاصريهم حيث لم يكن على وجه الأرض من يعرف الله غيرهم ، فحسبوا ان موقفهم هذا أبدى ففسدت بذلك علاقتهم بربهم وبالناس أجمعين · وكانوا يمنون على الله انهم عبــدوه وحسبوا انه ينصرهم مهما يكن ذنبهم وعصيانهم كأنهم بمعزل عن قوانين الأمم وسنن الاجتماع وحرصوا على أن يبقى دينهم لهم وحدهم حتى يظل تفوقهم على الناس أبدا ، فلم يحاولوا أن يبشروا بدينهم على انه دين عالمى بل أبقوا فضلهم لأنفسهم ضنا به على غيرهم ·

وصار حبهم لأنفسهم وحقدهم على غيرهم أوضح صفاتهم النفسية ،

والعيوب النفسية والخلقيةفي بنى اسرائيل معروفة عند غيرهم لاتختص بها أمة دون أخرى ولكن التكوين النفسي لهم يجعل فضائلهم أضعف ، وعيوبهم أوضح وعذرهم فيها أقل والنزعة الى العصيان واضحة فى تاريخ أكثر الأمم ولكنها فيهم أبعد مدى ٠

وقصة العجل الذى عبده بنو اسرائيل من القصص الفريد الذى يجب أن يتدبره علماء الاجتماع وعلماء النفس ، ودعاة الاصلاح والراغبون فى السلام بين الناس ففيها بيان لكل ما يدعو الناس الى الكفر بالحق الواضح بعد الايمان ٠

ولردة بنى اسرائيل أسباب عدة تذكرها هذه القصة :

(١) فايمانهم لم يكن فى أول الأمر ايمانا طبيعيا وانما حملهم عليه موسى ٠

(٢) ثم انهم خرجوا مرغمين فكان ايمانهم قلقا .

(٣) ثم انهم طلبوا رؤية الله وهذا دليل على أن ايمانهم بالغيب كان لا يزال قلقا .

(٤) ولم يكونوا قد خلصوا بعد من أثر الظلم الذى تعرضوا له فى مصر ، ولم يكن للعدل الذى أقامه موسى فيهم أن يمحوا أثر الظلم فى نفوسهم بعد هذه الفترة القصيرة .

(٥) وكانوا لا يزالون تحت تأثير الحرمان الذى ذاقوه أجيالا متعاقبة فكانوا يرون كل ما عند غيرهم نعمة يتمنونها ويحرصون على اقتنائها .

(٦) ولم يكونوا قد خلصوا بعد مما ضرب عليهم من الذلة والمسكنة فكانت أغلى أمانيهم وأعزها عليهم أن يكونوا أحرارا يفعلون ما يشاءون ٠

(٧) وكأنما اراد موسى ان تكون حياتهم كلها عبادة الله ولما كان من المستحيل أن تقوم حياة الشعوب على العبادة وحدها نشأت فى بنى اسرائيل طائفة يتخصصون فى العبادة ، وفى أمور الدين وبذلك قامت بينهم سلطة جديدة تريد أن تتحكم فيهم ولم يكن ذلك ليروق قوما ذاقوا الأمرين من سلطات ذوى النفوذ منهم ، ولعل منهم من ظن أن الاله الذى يقول موسى انه يأمرهم وينهاهم لم يكن الا صورة يستطيع بها موسى أن يتحكم فيهم ٠

ويرجع الدكتور كامل حسين طلب بنى اسرائيل أن يخرج الله لهم من الأرض ما كانوا يأكلون فى مصر ، ولو كان أدنى من المن والسلوى قدرا الى سبب نفسى هو الملل والناس ليسوا ســـواء فى قدرتهم على مقاومه الملل .

ونستطيع أن نقول أن فى حديث الدكتور كامل حسين عن بنى اسرائيل الخصائص الآتية :

(١) الموضـــوعية الى أبعـد حدودها ، وان كان فيـه ما يشـبه التجنى على بنى اسرائيل فهـذا ما جنـاه بنو اسرائيل على أنفسـهم ولم يجنه عليهم كامل حسين .

(٢) كل ما فى الأمر أنه حلله تحليلا نفسيا دقيقا .

(٣) ولا شك أن هـــذا التحليل وان كان فى بعض نتائجه لا يفيد بنى اسرائيل الا انه يلتمس لهم العذر . ويرجع الظواهر الى أسبابها مما يعد دفاعا يستند الى أسس علمية لا شك انهم بما ركب فيهم من قدرة على استغلال المواقف ، سيفيدون منه .

(٤) وكامل حسين مؤمن بأن بنى اسرائيـل فيهم كل الصـفات الانســانية خيرها وشرها الا ان فضائلهم تتضخم أحيانا وتصـــغر عيوبهم ، وقد يحدث العكس وهو لا يسعى الى شىء من هــذا التضخيم والتصغير للفضائل أو للعيوب ، وانما يسعى الى التحليل العميق فيصـل الى نتائج عظيمة لا تقتصر قيمتها على توضـيح الحقيقة فى أمر هـذه الجماعة وانما تشمل استنباط الموعظة والعبرة النفسية والاجتماعية من المواقف .

(٥) وقد يكون فى تحليله لقصـة الخروج ميل الى بيان أثر الخروج فى نفســيتهم اكثر من ميله الى اثره فى عقليتهم ولكننـا على كل حال نواجه بالعقلية اليهودية فى تصرفاتهم ، وان صـدرت هـذه العقلية عن نفسيتهم .

●● الآثار النفسية والاجتماعية للحرمان

ليس من الطبيعي أن يبحث الانسان عن علة حادث ما باستقصاء ما لم يحدث أى أنه اذا اراد الانسان أن يبحث عن أسباب حادث بعينه فانه يبحث فى الحوادث التى سبقته (الأسباب الايجابية) يتبين ايها ادى اليه أما ان يبحث عن أسباب سلبية فذلك تفكير غير عادى ، وعسير يرجع الفضل فى الأخذ به الى الأطباء عندما رأوا أمراضا خاصة لا يرجع سببها الى طارىء طرأ على الجسم ، وانما يرجع الى نقص بعض العناصر فى الجسم (كاليود والفيتامينات والهرمونات) فسموها « أمراض الحرمان » وسموا تلك العناصر « عوامل الحرمان » .

مفهوم الحرمان فى الطب : ـ

الحرمان لغة النقص ولكنه عند الأطباء اصطلاح علمى له قوانين خاصة هى أوضح ما تكون فى الجسم نلخصها فيما يلى : ـ

(١) لا يعد النقص العام حرمانا ، انما الحرمان نقص فى مادة من مواد الحرمان . فنقص الغذاء عامة لا يعد حرمانا مادام قد استكمل عناصره .

(٢) مواد الحرمان : نادرة ، فالمواد كثيرة الانتشار لا تعد من مواد الحرمان ، وكذلك المواد التى يستطيع الجسم أن يستبدل غيرها بها أو يقدر على تكوينها من مواد أخرى يسهل حصوله عليها .

(٣) أثر الحرمان : عام ، فلا يعد من الحرمان أن يفقد الانسان حاسة أو عضوا .. انما يكون الحرمان من مادة لها أثرها فى النشاط الجسمى كله وان كان كل عضو سليما .

(٤) تبين من الدراســـة ان امراض الحرمان كلهـــا تؤدى الى الضعف وفقد النشـــاط ولا نعلم أن الحرمان من احدى هذه المواد دفع المريض الى نشـاط خاص ، هـــذه الخاصية أوضـح مايفرق بين النقص العام والحرمان فالجوع يدفع صـاحبه الى السعى والتماس الغـذاء بقوة وعنف ، أما الحرمان فانه يقعـد بصـاحبه عن كل نشـاط يؤدى الى الخلاص من دائه .

(٥) الشهية وسيلة من أدق الوسائل التى تهدى الانســان الى ما ينقصه من الغذاء ، والجوع يحدث تقلصا فى المعدة يفهمه الجسم فيسعى الى استكمال النقص ، أما اليـــود ، « وهـو مادة حرمانية » ، فلا يمكن للالهام أن يهدى المحروم الى ما حرمه .

هـذا العجز التـام عن الاحساس بالحرمان هو أخطر ظواهره وهو ما يجعل معرفته صعبة وعلاجه عسيرا . هذه الظاهرة تجعل امراض الحرمان اخطر الأمراض كلها واقساها على الانسان .

(٦) لا تتبين قوة مواد الحرمان الا عنـد نقصها فالذى ينقصـــه افراز الغدة الدرقية يصاب بالضعف الجسمى والعقلى حتى اذا أعطى كميات قليلة منه عاد الى طبيعتــه ثم لا يفيــده شيئا أن يزيد منه ، أى ان أثر هذا الافراز لا يكون الا عندما يحرم الانسان منه فان لم يكن محروما فلا أثر له فيه .

اما ان نبحث عن اثر الحرمان فى النفس الانسانية وفى حياة الفرد وأن نعتمـد عليه فى التحليل النفسى ، فذلك شىء لم يفطن اليه علمـــاء النفس الى أن جاء الدكتور كامل حســـين فكتب فى ذلك .. كذلك الباحثون فى علوم الاجتماع وفلسفة التاريخ لم يتنبهوا الى أن الجمـاعات قد تصـــاب بأمراض الحـرمان ، وانه قد يكون فى ذلك تفســـير لبعض الأحداث التـاريخية الكبرى ، بل قد تـكون فيه الحلقـة المفقـودة فى التحليـل العقلى الـكامل لتطورات حيـــاة الجمـاعة ، ذلك أنهم أرجعوا هـذه التطورات جميعا الى عوامل ايجـابية شتى ولكننا لا نعرف احـدا قبل الدكتور كامل حسين قد عنى بدراســة أثر العـوامل السلبية فى الظواهر الاجتماعية دراسة منظمة ؟

كتب عالمنا كتابه « الوادى المقدس » وتحدث فى كثير من ثناياه عن (الحرمان) فى أكثر من موضوع ثم أفرد له فصلا خاصا به ؛ كما يعد

فصــل « الحرمان ٠٠ أثره فى الأفراد والجماعات » من أمتع الفصول فى الجزء الأول من كتابه (منوعات) الذى طبع ١٩٥١ ٠ والفصلان متفقان فى المضمون الى حد كبير جدا .

وقد عرض كل من الفصلين للحرمان فتناول مفهومه فى الطب ، ثم تناول أمراض الحرمان فى النفوس الانسانية والأفراد فى الجماعات ٠

أثر الحرمان فى حياة الانسان وسعادته :

يسعى الناس الى احراز المــــال والقوة والنجاح والتفوق على غيرهم وقد تنقص هذه فى حياة الناس نقصا شديدا دون أن يؤثر ذلك فى نفوســهم تأثيرا خاصــا ، ثم ان هــذا النقص يدفع النــاس الى النشاط والسعى أو قل ان للناس (شهية) خاصة ترغبهم فى هذه الأغراض عند نقصها ، كما أن تحقق هذه الأمور للناس يزيد فى نهمهم اليها ، وبهاتين الصفتين فان المال والقوة .. الخ) ليست من العوامل الحرمانية .

(١) أول العوامل الحرمانية هو الحب بأوسع معانيه والانســـان الذى يحرم هذه العـــاطفة رجل مريض ولا يغنيه عنها أن يؤتى ما فى الأرض جميعا ، الحرمان من الحب مرض شائع اكثر مما يظن الناس تشعر به نوعا من التشويه يلحق بشخصية المحروم من الحب ، غير أن الطبيعة البشرية جعلت فى الحياة العادية للانسان ضمانا للحصول على القدر الكافى من عاطفة الحب .. بالاضــافة الى أن قدرا منــه غير كثير يكفى الصحة النفسية الا ترى ان المسرفين فيه وكبار المحبين ليســوا أصح نفســـا من الذين لم يصــيبوا منه الا القــدر الكافى ، ثم أن قوة **الحب لا تقاس بأثرها فيمن يتمتعون به ، انما تظهر واضحة حين نتدبر** أمر الذين حرموه .

وليس للحب شهية خاصة به فى التركيب العقلى ، وبهــذا تكون كل الصــفات التى يستلزمها الحب حتى نعتبره كعامل حرمانى قد تحققت فيــه « غير أن الطبيعـــة البشرية استطاعت أن تربط بين الحب وبين العاطفة الجنســية ومن هنا جاءت أهمية تلك العـــاطفة من انها وسيلة للحصول على نصيبنا من الحب العاطفى الراقى لما لها من قوة خاصــــة ولما لنا اليها من شهية قوية »

« على أن العاطفة الجنسية لا تحمل من عاطفة الحب ما يكفى النفس البشرية الا عند القوم البدائيين بل لابد للانسان الذى تقدمت به الانسانية لاستكمال القدر الضرورى من عنصر الحب أن يلجأ الى غير العاطفة الجنسية وهو ما سماه علماء التحليل النفسى بـ (الارتفاع) وهم قد يعللونه بنقص أصاب العاطفة الجنسية وهو فى حقيقة الأمر استكمال لها حين لا تكفى وحدها » ·

(٢) والعامل الحرمانى الثانى للصحة النفسية عند الانسان هو الشعور الفنى ، والرجل الذى لا يوفق فى حياته الى عمل شيء جميل من أى نوع يكون هذا الجمال لا يمكن أن يكون سعيدا . ومن هنا يجب أن تكون التربية الحقة سمحة واسعة وأن تهيىء للرجل فرصة اختيار ما يوافق مزاجه ، وألا ترغمه على الاعجاب بما لا يعجبه فقد يكون بعض الشر أصلح للنفس ان كان فيه ارضاء للذوق الفنى .

امراض الحرمان عند الجماعات :

حرية الفكر هى العامل الحرمانى الأول فى حياة الأمة يكفى القليل منه لصحة الجماعات وليس من الضرورى أن تكون حرية الفكر عند كل فرد فيها بل يكفى الجماعات أن يكون فيها بعض المفكرين الأحرار يتمتعون بحرية كاملة ، ويرى الدكتور كامل حسين أن الظلم نوعان **ظلم بالعسف وظلم بالحرمان** ، ومثل الأول ما كان قائما فى فرنسا قبل الثورة الفرنسية وهو ظلم يبعث على ثورة الجماعات وتخلصها من عوامل الفناء التى تحيط بها ، **والايمان** عند الدكتور محمد كامل حسين من أكبر العوامل الحرمانية وأشدها خطر! (الوادى المقدس ص ١٩٢) ولكنه فى متنوعات جعل الايمان تشويها لانسانية الانسان وخروجا بها عن معنى الانسانية ·

●● التقسيم السيكولوجى للبشر

نعرض فى هذا الفصل آراء الدكتور كامل حسين فى هذا الموضوع والتى ذكرها فى :

(١) كلمته أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٦٥ .

(٢) فى الباب الخامس من كتابه (الوادى المقدس) .

وهو يرى أن الروابط التى قامت بين الجماعات منذ القدم روابط ضعيفة قلقة ، لا يمكن أن تؤدى الى التجانس بين الجماعات المختلفة ، ويرى انه لابد لأفراد الجماعة الواحدة من تشابه فى أعماق نفوسهم « هذا التشابه هو الذى يجمعهم لتستقر به جماعتهم استقرارا طبيعيا قويا يرجى منه أن يؤدى الى السلم بين جماعات مستقرة مطمئنة » .

أما اجتماع الناس على أمور عارضة أو حادث بعينه فانه لا يؤدى الى الوئام بين المجتمعين ولا الى السلم بين جماعات متباينة .

واذا بحثنا أعماق النفوس لوجدناها أربعة أنواع فهى اما أن يكون أصل طبعها الهدوء التام أو الكبح الهادىء أو الاندفاع المتزن أو الاندفاع العنيف ، والجماعات التى تقوم على تشابه أفرادها فى هذه الطباع هى الجماعات السوية التى قد يتحقق بها خير الانسانية فى تطورها الحديث .

(١) فالذين من طبعهم الهدوء التام لا يضطربون للأحداث الطارئة ولا يعنيهم ان يجدوا فى حياتهم كل يوم جديدا وليس من صفاتهم الملل الكثير ، هؤلاء هم المحافظون بطبعهم ، حياتهم مستقرة

نفســا وخلقــا ولا تعتريهم نزعة قوية الى تغيير حيــاتهم ولا تضيق نفوسهم بهذا الاستقرار وهؤلاء تغلب عليهم الحــكمة وســداد الرأى ودماثة الخلق وحسن الجوار ، وهم الأكثرون فى كل امة وكل عصر . ويغلب على أهل الشرق الأقصى هذا الطبع خاصة .

(٢) والذين من طبعهم الكبح الهادىء هم الذين يشعرون بالرغبــة فى الاندفاع ولكنهم لا يخشون شيئا خشيتهم ان يؤدى بهم الاندفاع الى الخطأ أو الخطيئة . وهم الذين يعنيهم الحلال والحرام وفيهم تقوم الأخلاق الدينية ومن ذلك ما نراه فى الوصايا العشر فان سبعا منهــا تدعــو الى الكبح الهـــادىء من حيث هى نواه عن الاندفاع . هــذا الكبح الهادىء يجمع بين الحياة النافعة والخلق القــويم ، وتراه على خير وجه فى أهل الثقافة الدينية وخاصة ديانات الشرق الأدنى .

(٣) والــذين من طبعهـــم الاندفاع المتزن هــم الذين يحبـــون أن يعملوا ، ويودون أن تكون حياتهم ملأى بما يثير الرضا فى نفوســـهم والاعجاب فى من حولهم يحبــون الجــديد فى غير اسراف أو شــطط ويشتاقون اليه فى غير ملل أو ضيق أو كره شديد للقديم ، ولا تراهم يفضلون كل جديد وان كان قبيحا على كل قديم وان كان حســـنا . وهم كثيرون فى كل زمان ويمثلهم خير تمثيل أهل الثقافات الكلاسيكية فى الأمم العريقة وخاصة فى أوج مجدها الثقافى .

(٤) والذين من طبعهم الاندفاع القوى هم الذين يريدون كل يوم جديدا وأخص صفاتهم الملل ولا يعنيهم أن يكون الجديد الذى يرغبون فيه ادنى من القديم الذى ينبذونه . هذه صفة العصر الحديث وفيها خطر كبير ان لم تحـــد من شططها قوى المحـــافظة والاتزان والكبح .

●● استقلال الجامعة

نعرض هنا راى الدكتور كامل حسين فى هذا الموضوع حسب ما نشرته جريدة الأخبار فى الثامن من أغسطس سنة سبع وستين وتسعمائة وألف فى التحقيق الذى أجراه أحمد الجندى ، وفاطمة صقر ، ورجاء عبد الملك مع اربعة من الشخصيات الجامعية هم الدكتور محمد حلمى مراد (وكان وقتها وكيلا لجامعة القاهرة) والدكتور محمد مرسى احمد (وكان وقتها مديرا لجامعة عين شمس) ، والدكتور عبد العزيز حجازى (وكان وقتها عميدا لكلية التجارة بجامعة عين شمس) والدكتور محمد كامل حسين ٠

(أ) استقلال الجامعة كلمة براقة محببة الى النفس فى كل بلد يحترم العلم ، وقد كانت أمرا هاما الى وقت قريب ، ولكنها كغيرها من المسلمات تحتاج الى بحث من آن لآخر لمعرفة مدى العمل العلمى والعقلى للجامعات ، ولم يعد رجال الدين يعارضون فى النظريات الطبيعية ، ولم يعد أحد يحول دون تدريس المبادىء الفلسفية الحديثة مثل الوجودية وهذا هو (**الاستقلال العلمى والعقلى**) وهو أهم وجهات الاستقلال وهو موجود ٠

(٢) أما الاستقلال **الادارى والمالى والوظيفى** فهى أمور ليست من الأهمية بحيث تثير ضجة ، أو تدعو الى كفاح مرير فى سبيل تحقيقها وهذا ما يتعلق (بالاستقلال المادى) ٠

(٣) والجامعة مستقلة **قانونا** واذا أساء أحد الى هذا الاستقلال فهو ليس ذنب القانون ٠

والجامعات عليها حماية الأساتذة فيما يتعلق بموضوعات بحثهم ودراساتهم أما اذا تعرض أستاذ التشريح مثلا للدفاع عن الوجودية

فليس له عندي حق أكثر من أى فرد عادي « فالاستاذ ليس حرا فى آرائه الاجتماعية والسياسية بوصـــفه أستاذا فى الجامعـة . كذلك فان هناك فرق بين دراسة مذهب اجتماعى معين وبين الدعوة اليه والجامعة لا تستطيع أن تحمى من يسىء الاستخدام العلمى أو من يستغل منصبه ليعبر عن رايه الشخصى ويدعو الى مذهب اجتماعى يؤمن به » .

(٤) فى القـديم كان تقييد الجامعة مصـدره رجال الدين والحـكم وكان الاستقلال الجامعى مصدر الثورة على القـديم فكان من مصلحة القائمين على الحكم أن يقيدوا هذا الاستقلال بسلاسل من حديد ولكننا نستطيع الآن ان نقول انه ليس هناك من يجرؤ على التدخل فى التطور العلمى أو العقلى أو الدراسة فى الجامعة ..

وهذا الراى فى استقلال الجامعة راى ســـديد ، وقـد أعطى مواقف حاسمة فى مسائل جدلية كالجامعة وحماية الأســتاذ ، وهـو بعد ذلك رأى شامل للنواحى المختلفة ومنسق على غير العادة فى مثل هذه التحقيقات فى الصحف حيث تكون الآراء المختلفه مسرودة سردا سريعا دون أن تحظى بمثل هذا التقسيم الذى تركته الصحف للكتب .. وقد ترك الدكتور كامل موضوع الاستقلال المادى وهو ما ركز عليه الدكاترة الثلاثة الاخرون وكانوا وقتها لا يزالون يعانون من فقدان هذا الاستقلال بسبب النظم واللوائح التى تحكم عملهم ولا شك أنهم كانوا يحســونه أكثر من الدكتـــور كامل حســـين الذى ترك الجامعة قبلهـــا بثـــلاث عشرة ســـنة .. ولعـــل دوامات العمل التى كانوا يعـــانونها لم تجعلهم ينظرون مثل تلك النظرة التفكيرية الهادئة الشاملة التى نظر بهـــا كامل حسين الى الموضوع فتناول قضايا لم يمسوها من قريب أو بعيـــد

الباب الثالث

محمد كامل حسين أديبًا

ينادى هذه الأيام بمذهب خلاصته ان الاثر الفنى هو الموضوع الأول للنقد ولتاريخ النقد الأدبى وان اختلاف اللغة اثر من اختلاف الأدب ولا العكس وان حياة الفنان بأحداثها ليست فى الواقع شيئا هاما لمن يريد أن يدرس آثار الفنان ، وانما ماقد تجاوب به الفنان مع هذا المؤثر هو الذى يعين حقا على فهم الأثر الفنى ، وانه لكى ندرس القصيدة مثلا فلا بد لى من القصيدة نفسها • ثم يشعر أصحاب هـــذا الكلام بأنه فى ظاهره تافه فيقولون « وهذا كلام على ظاهر تفاهتـــه هو الحقيقة الى حد بعيـــد » (الدكتورة سهير القلماوى محاضرات فى النقـــد الأدبى) • وهذا المذهب فى النقد لم يوضع لكامل حسين ، فحياة كامل حسين هى ادبه ، وادب كامل حسين هو حياته .

ومن دون استطراد الى تعريف الأدب وتخريج ما لا يخـــرج أو يخرج فاننا سنعرض فى هذا الباب « قرية ظالمة » وهى بلا شك أعظم عمل أدبى فى مصر فى القرن العشرين ، ومهما يكن من أمر الفكر فيهـا وهو الغاية فاننا سندرسها ادبا ، وليس أدعى الى العظمة من أن تكون وسيلة الغاية العظيمة فى حد ذاتها عظيمة ، وسنتناول بعض القصص القصـــيرة لكامل حســـين وهى التى نشرها فى مجلتى « القصـــة » ، « الهلال » وان كنت أود الا أفرغ من هذه المقدمة الا الى البحث عن قصص له فى « الاذاعة والتليفزيون » علمت بخبرها منذ وقت •

وسنعرض ما شـــاء الله لنـــا أن نعـــرض كل قصـــة من هاتيك القصص ، وسيجد القارىء متعة أى متعة فى أن يقرأ لكامل حسين شيئا

من هذه القصص التى نشرها فى مجلة الهلال منــذ سبع عشرة سنة وفى القصة منذ خمس عشرة سنة . ولا شك أنه واجد غصة من هذا التناول القاصر الذى تناولناه ، وانا لنرجو من عرضها أن ترى رأى القــارىء حين نعرض عليه رأينا .

أما ان كامل حسين « شــــاعر » فشىء من تطورات الحس الأدبى التى أدت به الى أن يكون فى النهاية وله هذه المكانة فى الأدب لا أقول العربى وانما اقول الانسانى (بمعنييها) .

وقد كان فى زمن طلبه العلم يكتب الى أصدقائه القصائد فيذكرهم بالمتنبى وأبى تمام ، حدثنى بذلك غير واحد منهم ، أما الدكتور ابراهيم مدكور فلم يقع نظره له الا على قصيدة واحــــدة فى أكثر من مائة بيت عنوانها « لقمان والمريض » يصف فيها حال مريض احتضر وأوشك على الاحتضار وبين يديه طبيب يطب له فى غير جــدوى فكان يرجو الموت ويســـتغيث به من آلام الحياة ، ولا أعنى بقولى (من تطورات الحس الأدبى) أن الشــــعر من الحس الأدبى دون النثر . كمــــا انى لا أرى القول بأن العقلية العلمية أقرب الى النثر منها الى الشــعر فهذا قول ظاهره صواب ، وليس فيه شىء من « العلمية » ولكنى أعنى تطور حس كامل حسين الأدبى ولا شــــك أن تطور الحس الأدبى يختلف باختــــلاف الأديب .

لم يكن فى نشأة كامل حسين ما يستلزم أن يكون معــــه أديبا أو لغــويا ، فقد ألحق منــــذ صغره بالمدارس الأميرية فلم يكن له حظ من الكتاتيب أو الأزهر ، ثم انه التحق بكليــة الطب ثم ابتعث الى الخــارج وكانت البعثة كفيلة بقطع ما تبقى من حبال الصلة ــ ان كان لها وجود أو ان تبقى منها بعد الطب شىء ــ بين من وهبه الله حسا أدبيا وبين هذا الحس ولا كان كامل حسين كذلك فانه كان يكتب وهو طالب ان لم يكن للناس فقد كان لزملائه وهم أرفع مستوى ، وكان يكتب وقد تخـــرج لتوه من مدرسة الطب (فى السياسة سنة ١٩٢٣) فلما سافر لم تحل البعثة بينه وبين الكتابة فكان يراسل السياسة الاسبوعية تحت اسم (ابن سينا) .

ومن باب توارد الخواطر نحب أن نذكر انه كان يرى أن ابن سينا فيلسوف طبيب ، وان الرازى طبيب فيلسوف ولهذا كان يعجب بالثــانى اكثر من اعجابه بالأول . ولكننا لا نحب أن نترك ما تواردت به الخواطر

دون تعليق ، وأظن القارىء يود الآن أن يسأل : كيف به يحب الرازى اكثر من حبه ابن سينا ثم يكتب متخذا لنفسه اسم « ابن سينا » ؟ وعندى ان هذه القضية تستقيم اذا قلنا انه كتب متخذا لنفسه اسم « ابن سينا » ثم لما درس الطب وتاريخه كان حبه للرازى أكبر من حبه لابن سينا ٠

قلنا انه لم يكن له من نشأته ما يستلزم أن يكون أديبا ، ولكنه مع ذلك تهيأ له ما لابد للانسان معه ان يكون اديبا فقد نشأ فى بيت مدرس للغة العربية ، والكتب فى مثل هذا البيت جزء من الاثاث ان لم يقرأها أهل البيت من الصغار فسيعبثون بها على حال من الأحوال وقرأ كامل حسين سيرة ابن هشام وهو صغير لا يفقه منها شيئا ٠ ولم يكن فقده أباه حائلا بينه وبين هذا الجو فقد كان الصادق بك أخوه الاكبر أديبا قارئا ، وكان خاله **الشيخ عبد الحكيم محمد** مدرسا بمدرسة القضاء الشرعى وهكذا احاطت به الثقافة الأدبية ينهل منها ماشاء ٠ وفى (ماشاء) هذه سر موهبته الادبية ، فهو لم يتلق هذا الأدب مجبرا عليه ، مساقا اليه ، خائفا من الامتحان فيه كما هى الحال مع أولئك الذين يدرسون الأدب درس معاهد العلم فى زمننا ، وانما راقه أن يقرأ ، وراقه أن يستزيد ٠ ثم كان له من الوظيفة والتدريس فى الصباح ، والمرضى والمستشفى فى المساء ونادى محمد على فيما بين ذلك ما يشغله عن أن يبدع فيمتع ٠

وانتهت الأربعينيات وليس له الا مجموعة من المقالات أسهم بها فى (الكاتب المصرى) التى كان طه حسين يخرجها الى الناس ٠ ثم شغلته الجامعة فترة من الزمن الى أن تحرر من رق الوظيفة ، فاستقال من الجامعة ، والوظيفة مهما كان شأنها فى عصرنا « محبس » للأدباء لم يتهيأ لأبى العلاء ٠

ونحن مدينون لاستقالته أو قل ان الأدب مدين لها بانتاج كامل حسين الأدبى كله ، وهل صدر له قبل عام أربعة وخمسين الا الجزء الأول من «متنوعات » وهو مجموعة مقالات كتبت على مدى سنوات ؟

وأحب أن أذكر ان أستاذا فى جامعة الرباط سئل عمن يرشحه لجائزة نوبل ؟ طه حسين ؟ فقال طه حسين مدرسة ، ولكنه لا يرشح لجائزة نوبل قيل فالعقاد ؟ قال العقاد مجموعة معلومات ، وليس له (مادة أصلية) قيل فمن ؟ قال : كامل حسين ٠

● « كان كامل حسين أديبا موضوعيا يعنى بالحقائق والمعانى ، يجمعها يتخير أوثقها ، ويهذبها وينسقها بحيث تبدو جلية واضحة ، مكنه اطلاعه الواسع من أن يعرض منها ألوانا شتى : فى الأدب والتاريخ وفى العلم والفلسفة » (الدكتور ابراهيم بيومى مدكور) •

● استفاد « الأديب » من « الطبيب » • فايمانى بالتفكير العلمى جعلنى اطبقه فى أعمالى الأدبية .. نعم ليس الأدب علما ولكن هذا لا يمنع من تناوله علميا » (الدكتور محمد كامل حسين) •

● « يجمع فيما يكتب بين الثقة بما يقول والاستبصار فيما يقرر ، وان له مقدرة بيانية تسمو به الى ذروة الاجادة والابداع ، وأسلوبه الجزل المشرق ليقدم لنا نموذجا لبلاغة الكتابة العصرية فى مستوى رفيع يجمع الى خصائص الفصاحة والأناقة مزايا الدقة والأحكام » (الدكتور احمد عمار) •

وفضل كامل حسين على الأدب العربى الحديث أنه جمع بين أزواج الثقافات : العربية والأجنبية ، الأدبية والعلمية ، الابداعية والنقدية جمعا حقيقيا ثم أخرج للناس مما جعل أدبا رفيعا راقيا تقصر دونه الهمم . وهو يقول « اذا كانت مادة الأدب هى النفس والسلوك وقد أصبح العلم متصلا بهما ، فلا بد ان يستفيد الأديب من كلمة العلم فيصبح عالم نفس أكبر من عالم النفس ، وتمسى كلمته أكثر ذيوعا وخلودا بالنماذج الحية الحقيقية » وسنعرض فى هذا الباب آراء نقدية لكامل حسين فى شخصيات الأدب العربى كالنابغة ، الفرزدق ، عمر بن أبى ربيعة ، المتنبى ، المعرى • وآراء له فى الشعر العربى وبخاصة فى التصوير ، والموسيقى وهما العنصران اللذان كان يراهما سر عظمته •

وسنعرض رأيه فى النسيب والموسيقى والتصوير والمعنى فى الشعر العربى ، وتقسيمه الشعر العربى الى شعر طبع وشعر احتراف وسنعرض له مترجما للشخصيات •

وقد يكون لنا الآن أن نتناول خصائص أدبه على نحو سريع أما خصائص أدبه فقد تحدثنا عنها بالتفصيل فى فصول هذا الباب :

(١) **العبارة** : واضحة فان غمضت فلعمق الفكرة الفلسفية لا للعبارة •

(٢) **الجمل** : قصيرة غالبا •

(٣) **الطابع :** علمى .

(٤) **البديع :** ليس فى أدبه محسن بديعى على الاطلاق الا اذا افتعلت له محسنا بديعيا كالازدواج مثلا .

(٥) **الأفكار :** مرتبة ترتيبا لم يسبق اليه .

(٦) **أمثلته :** تجريدية عقليــة فى الغالب وبخاصــة فى كتابه الوادى المقدس ، والصورة قليلة ولكنها معبرة موحية .

(٧) **التميز فى الأسلوب :** الذين يقرءون كامل حســين يعــرفون له أسلوبا متميزا جدا ، أما الذين لا يقرءون له الا قراءة « الخطافين » فلن يحسوا بهذا التميز .

(٨) **اللغة :** سليمة الى أقصى حدود السلامة .

(٩) **اطراد الاسلوب :** أسلوبه مطرد لا علو فيه ولا انخفاض .

(١٠) **التكرار :** ليس له حظ فى أدبه .

(١١) **خصــائص اسلوبه :** أسلوب نقى ، خالص ، واضــح ، دقيق ، سهل التراكيب ، صــاف ، مترابط ، خصب ، حيــوى ، متــدفق ، عذب ، مشرق .

(١٢) **المعانى :** سامية نبيلة ، شريفة ، مهذبة .

ولكامل حسين من الخطب خطبتان :

أما الأولى ففى حفل استقباله عضوا بمجمع اللغة (١٩٥٢) ، واما الثانية ففى الاحتفال بمنحه جائزة الدولة فى الأدب (١٩٥٧) ، والبناء الفنى للخطبتين متشابه الى حد كبير :

(١) تبدآن بالشكر : والشــكر فى الأولى على « التشريف فى ميــدان الفكر » ، وفى الثانية على « تقدير العلماء » .

(٢) تتحدثان عن موضوعين : الأول هو الموضوع التقليدى الذى تكون له الخطبة (الحديث عن سلفه) فى الأولى ، (الشكر على الجائزة) فى الثانية .

والموضوع الثانى وهو الأهم ، ويفصل فيه القول ، وهو فى الأولى

« حياتنا الفكرية » وفى الثـــانية « الصلة بين الأديب والقـــارىء والنـــاقد » ٠

(٣) تمتازان بالطول ولكنه ليس نتيجة للاطناب وانما لتعدد الأفكار وعمقها ٠

(٤) كل منهما ، ممتعة ، عباراتها ذات مستوى رفيع، وهى فى ذلك وفى غيره ليست الا من أدبه ، فيها كل خصائص أدبه الرفيع وأسلوبه القوى ، وفكره النافذ ٠

وسنتعرض للخطبـة الأولى وللخطبـة الثانية فى أكبر من فصل من فصول هذا الباب ٠

الفصـــل الأول

●● قرية ظالمة

هذه القصة ومضات برقت لأديبنا الكبير ، وهو على ظهر الباخرة فى صيف ١٩٥٢ ، وكان قد ذهب الى سويسرا لاجراء عملية جراحية فى عينيه • وكان يستمع الى آيات الله البينات فى السور الثلاث الأولى من القرآن ، وجهاز التسجيل يبدأ « البقرة » كلما انتهى من « النساء » •

وقد استوحى اسم القصة من قوله تعالى : **((من اجل ذلك كتبنا على بنى اسرائيل انه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ٠٠))** الآية .

ولم تخرج هذه الومضات الى حيز الوجود بالترتيب الذى يطالعنا فى « قرية ظالمة » • وقد يكون الفصل الأول منها هو آخر ماكتب ، ففيه هدف الرواية كلها ، بل لقد صرح بذلك صاحبها ٠٠

قدمت قرية ظالمة الى المطبعة فى ١٩٥٤ ونال عنها جائزة الدولة فى ١٩٥٧ ، فى عيد العلم • وتناولتها أقلام كبار الكتاب فى «مصر» وصغارهم على حد سواء بالتعليق والنقد والعرض ٠٠ فكتب عنها الدكتور طه حسين والدكتوره سهير القلماوى ، ويوسف الشـــارونى ، وفتحى الابيارى ، ومحمد عطا ، وتوفيق حنا ، ومحمد عبد الحليم عبد الله .

أما الذين تناولوا قرية ظالمة على المحيط العالمى فنحن أحـــوج الى جهاز بيلوجرافى حتى نتمكن من حصرهم • وتستطيع اليوم أن تقـــرأ « قرية ظالمة » فى احدى عشرة لغة عالمية ترجمت اليها قرية ظالمة وطبعت فى كثير منها غير مرة • ولا جدال ان هذا الكتاب يعد نموذجا رقيقا للفن العربى والفكر العربى أما انه فى الأدب العالمى فأمر لا يحتاج الى تقرير •

وأستاذنا الدكتور الشكعة يقول ان شخصية كامل حسين اكتملت

كأديب عند ما أخرج هذا الكتاب ، ولكنى لا أحسب ان فضل هذا الكتاب على صاحبه يبلغ عشر معشار فضل مؤلفه به على الأدب العربى والعالمى ·

والأستاذ محمد عطا يثبت لكامل حسين عمق التفكير وسعة الاطلاع على الفلسفة والدين والقدرة على التحليل والتفسير بقرية ظالمة وقد عرفنا هذا كله فى الرجل فهو أهل لهذا وغيره ، اما الأدب العربى فلم نعرف فيه هذه الصفات الا نادرا ·

واستاذنا الدكتور حسين فوزى يعلن غير مرة أن قرية ظالمة هى أعظم كتاب لجيلنا والأجيال التى تليه ·

وموضوع هذا الكتاب فى تلخيص مسرف فى الايجاز — ان صح هذا التعبير هو حال بنى اسرائيل والحواريين والرومان من أهل أورشليم ليلة الجمعة التى رفع فيها السيد المسيح الى السماء ·

(١) اما **بنو اسرائيل** فقد اجمعوا أمرهم على اعدامه بعد أن تجادلوا فيه جدلا كثيرا وقد نجح موجه الاتهام أن يقنعهم بأنه يستحق الاعدام وعلى الرغم من موافقتهم دعوى موجه الاتهام فان أثارا من الشك والريبة فى صدق هذا الاتهام كانت تحوك فى صدورهم حتى أن بعضهم وقف فى اجتماع اليوم الثانى يلقى ظلالا من الشك على صدق هذا الحكم ، ولولا تدخل رجال المال وذوى النفوذ فى الأمر ورفضهم اية محاولة لنقض ما أبرموه لكانوا — اى بنى اسرائيل — حقيقين ان يعدلوا عن رأيهم فى اعدام السيد المسيح .

(٢) **وأما الحواريون** فكانوا فى يأس مبين وصراع مرير من خذلانهم للسيد المسيح حين أخذه الرومان ، وعلى الرغم من انه هو الذى امرهم بذلك وان دينه يدعو الى الحب والسلام وعدم الاعتداء فقد رأوا انهم أخطئوا حينما أسلموه الى اعدائه وانه كان من الواجب عليهم ان يدافعوا عنه ، ثم أوشك رأيهم أن يجتمع على ان يذهبوا ليخلصوه بالقوة أو يموتوا دون ذلك لولا آراء بعض المتعلقين التى ثبطت عزائمهم ولولا عودة رسولهم من لدن السيد المسيح يحذرهم من العدوان ويدعوهم الى العبادة والتسليم .

(٣) **الرومان** : وهم قوم يقدسون النظام ويعبدون المجد ولا يعنيهم الا عظمة روما فاذا حاول أحد جنودهم بوازع من خير أن يحول دون سفكهم للدماء ، قتلوه أشنع قتلة واذا حاول حاكمهم بدافع من عقل

واع أو حكمة بصيرة أن يركن الى صوت الضمير تخبط فى الحيرة نتيجة لما يرى من موقف بنى اسرائيل من السيد المسيح فيعود الى تقديس ما يراه قومه (الرومان) من رأى فى الحياة .

والموضوع شائك الى أبعد الحدود فالمسلمون ينكرون الصلب والمسيحيون يقيمون دينهم على حقيقته ، ولكن المؤلف يجتنب القول فى حادث الصلب ويأتى هذا منه طبيعيا مقبولا جدا متسقا مع روح الكتاب الذى لا يبحث كيف وقع الشر ولا على أى نوع وقع ، وانمـا يبحث فى مقدمات الشر ودوافعه ونتائجه وتفسير الناس له وأثره فى نفوسهم .

والدكتور طه حسين فى نقد واصلاح عن « قرية ظالمة » يقول : « وأريد بعد ذلك أن أشخص هذا الكتاب لا أن الخصه فتلخيصه عسير أعظم العسر يوشك أن لا يكون اليه سبيل وكل فصل من فصوله محتاج الى مقال خاص يناقش ما جاء فيه من الخواطر والآراء » .

وعميد الأدب العربى لم يعد الحقيقة بقوله هذا فتلخيص « قرية ظالمة » ان تأتى فسيزيد على الكتاب فى حجمه الأصلى ، ولا أظننى مبالغا فى قولى هذا ، والذين قرأوا الكتاب وجدوا فيه تركيزا شديدا فى كثير من عباراته تحمل معانى تقصر دونها الألفاظ لولا ان المؤلف حمل هذه الألفاظ من القوة التعبيرية مالا تطيقه عند غيره ، والدكتور طه حسين حر بلا شك فى أن يترك تلخيص الكتاب الى تشخيصه خاصة وهو لا يريد الا أن يدل القارىء عليه أو يدعوه الى قراءته .

ولكننا فى هذا البحث لا بد لنا أن نعرض — على قدر طاقتنا هذا الكتاب قبل أن نخوض فيه .

يقع الكتاب فى مقدمة وابواب ثلاثة وخاتمة . وتقع ابوابه الثلاثة فى ثمانية عشر فصلا قدم المؤلف فى كل فصل منها رسما لشخصية من الشخصيات يساعد على جلاء الموقف الذى يريد ان يوضحه ويسهم فى تكوين البناء الذى اراده فشيده ، ويكون للافكار بمثابة الاطار .

وسنعرض الآن هذه اللوحات الثمانى عشرة لوحة لوحة فى ايجاز شديد لا نقصد منه او به مجرد عرض المواقف والشخصيات .

لوحات الباب الأول :

١ ـ قمة الجبل :

فى هذه اللوحة رسم لنا الكاتب راعية صغيرة ترعى عند الجبل فى ذلك اليوم الحزين كما أعتادت كل يوم جاهلة بما يعتزمه الناس فى هذا اليوم كجهلها بالرعى ومكانه المناسب ٠

٢ ـ رجل الاتهام :

وهو ذلك الرجل الذى خطب فى دار الندوة مقنعا بنى اسرائيــــل باستحقاق السيد المسيح للصلب ، وهو رجل يمتاز بعلمه وذكائه وعراقة أسرته وانصرافه كلية الى واجبه فلا يثنيه عنه ثان ولو كان هذا الثانى هو زوجته الحبيبة الجميلة الحسيبة النسيبة ، وقد حاولت زوجته تلك فى هذا اليوم أن توجه اهتمامه الى عيد ميلادها وفشلت وترك فشلها فى قلبها صدعا حاولت اخفاءه عنه فلم تفلح فى أخفائه ، وان أفلحت بعض الشىء فى زرع بذور الشـــك فى نفس زوجها من موقفـــه من السيد المســـيح ٠

٣ ـ دكان حداد :

وهذا حداد كان قد آمن بالسيد المسيح ، أوصاه تاجـــر من بنى اسرائيل يعامل الرومان أن يصنع حديدا ومسامير ، ولكن أحد المؤمنين يخبره انها تعد لصلب السيد المسيح فيرفض الحداد أن يعمل الحـــديد ويأتى التاجر فيقنع الحداد بأنه لا اثم عليهما لما يعملان ويتخذ الى اقناعه حججا ظاهرها الصواب وباطنها الخداع والنفاق ٠

٤ ـ المفـــتى :

وهذا عالم فقيه تقى محبوب يتولى افتــاء بنى اسرائيل وينجح فى الاحتيال لحـــل مشكلاتهم الدينية ايما نجاح ، وله ابن ذكى معجب برجل الاتهام يبدى اعجـــابه ببراعة اتهـــامه وقوة حجته ولكن اباه يفند له رأيه ٠

ويبين له أن رجل الاتهام حور أقواله (أقوال المفتى) لتتفق ورأيه ولهذا فسوف يرد عليه رايه فى الغد ٠

٥ ـ لازار :

رجل وقعت عليه معجزة المسيح فاحياه بعد موته استجابة لضراعة اخته ، ولكنه عاد الى الحياة فاقدا روح الحياة ليس فيه الا جسد يتحرك وكان الناس يتشاءمون منه ، والصبية يطاردونه فلجأ الى دكان الحداد (فصل٣) فتشاءم الحداد الفقير منه فاضطرب فأصاب الشرر عين التاجر الذى جاء يطلب منه الحديد وانغرس المسمار فى يده فنفذ منها وعاد التاجر الى داره وقد علم انها معجزة فآمن وأعلن ايمانه لصديق له من العلماء المتحمسين لصلب المسيح ، حتى اشتد غضب هذا وخرج الى دار الندوة مصمما على رأيه ، وان كان الشك قد بدأ ينفذ اليه اما لازار فقد روعه الناس وكادوا يقتلونه فهرب تاركا البلد ، ورحل الى بلاد أخرى يدعو الى دين الله ·

٦ ـ قيافا :

وهو حاكم بنى اسرائيل، كان عالما عادلا طيبا وكان فيلسوفا لايؤمن بالقوة فكان حاسدوه حين تولى الحكم يطعنون عليه انه عاجز عن حكم بنى اسرائيل لمبادئه الخيرة ، ولكن قيافا وفق فى كثير مما عمل ، واستطاع أن يقف من الرومان موقفا وسطا بين الشدة واللين ، ووقف من قومه موقف العادل المخلص فأطاعوه ، وجاءت الدعوة الجديدة فاضطرب لها قيافا اضطرابا شديدا ، وملكته الحيرة فقد أعجبته من صاحبها أشياء ، وأنكر عليه أشياء ، وحين صدر الحكم بالصلب على الرجل فى دار الندوة اضطرب لهذا الحكم ، وتحير أخطأ هو أم صواب ، وأخذ يجادل نفسه فيقنعها أحيانا بصواب الحكم ، ولا تلبث أن تعود ناعية عليه هذا الحكم ، وهكذا دواليك الى أن جاء الصباح وذهب الى دار الندوة وقد فقد ثقته بنفسه وعقله وشعوره ، وقرر أن يترك الأمور تسير على هواها لايتدخل فيها ، وسر حين وقف بعض الخطباء ينددون برجل الاتهام وظن ان الأمور ستحسم بعيدا عنه ، ولكن الأمر لم يلبث أن سار على غير مايبتغى الحكماء حين تدخل رجال المال وأصحاب النفوذ ·

٧ ـ دار الندوة :

وهذه هي اللوحة الأخيرة من موقف بنى اسرائيل (الباب الأول)

وفيها عرض لآراء بعض المنددين برجل الاتهام وموقفه السلبى وموقف قيافا الراضى ثم تدخل ذوى المال والنفوذ والعامة لتأييد الحكم .

لوحات الباب الثانى :

٨ ـ المجـــدلية :

وهى فتاة جميلة مترفة مدللة صلفة من أسرة حاكم القرية تكبرت على شبان القرية الذين طلبوا يدها حتى أدى ذلك الى معركة قتل فيهـــا أخوها الوحيد ، فاجتواها أبوها وكرهتها أمها ، فتركت قريتها نادمـــة عازمة على أن تذل كبرياءها ، وساقتها الأقدار الى أداء البغاء حين ظنت أنها بذلك تحقق غايتها ، ولكنها أدركت فيما بعد انها ازدادت كبرا بعدما ازدادت خزيا ، وعرفت جنديا رومانيا شـــابا يتسم بالوداعة والطيبة فأحبته وكان فى هذا الحب تطهرها الحقيقى فقد ذلت به نفسها الذل الكريم الذى كانت تريده ثم لحقت بموكب السيد المسيح حينما سمعت عنه ، وهناك عرفت الايمان والحب الطاهر وغمرتها رحمة السماء بما لم تغمر به فتاة خاطئة من قبل ومن يومها لم تترك المسيح ولا دعوته ولا حوارييه .

٩ ـ الجندى المسيحى :

هو ذلك الجندى الرومانى الذى أحبته المجدلية ، وقد بحث عنهـــا كثيرا ، بعد أن اختفت من دار البغاء بعد ما اتبعت السيد المسيح ، ثم اهتدى اليها ، وهناك رأى السيد المسيح وآمن به ، وكان لايمانه أثر كبير فى حياته فيما بعد .

١٠ ـ مريضة :

يعرض هذا الفصل صورة شابة مريضة تعتريهـــا نوبات المرض فتحيل حياتها جحيما ، بذل أهلوها كل ما فى مقدورهم لينقذوها وفشلوا ، وداووها بالأفيـــون فهدأت فترة ثم عادت اليهـــا الآلام ، واستنجدت السيدة مريم جارتها بابنها المسيح فأنبأهم انه لا يشفى أدواء الجسم ، وانما يشفى أدواء الروح . ولما كانت هذه الفتاة من أطهر الناس روحا فلا شأن له بها ، فلما سمعت المريضة قول السيد المسيـــح سـعدت سعادة بالغة .. ثم ماتت مستريحة هانئة .

١١ ــ اجتماع الحواريين :

اجتمع الحواريون ليلة الجمعة يتجادلون فى أمرهم وقد غلب عليهم اليأس والألم وتحاوروا وكادوا يقررون أن يستنقذوا المسيح بالقوة لولا رأى بعض حكمائهم ، ورأى السيد المسيح الذى أعلنه رسولهم اليه عند عودته من لدنه فانصرفوا محزونين ليعبدوا الله حتى يعود المسيح كما وعدهم بعد ثلاثة أيام .

١٢ ــ خروج الحواريين :

تصور هذه اللوحة خروج الحواريين ، وما اعترى نفوسهم من الحزن والألم ، ثم انهم رأوا موكب القائد الرومانى يسير وراءه صفوف الأسرى يحرسهم العبيد الأشداء ، وعجز واحد من الأسرى عن الاستمرار فى السير فعاق الموكب فأرادوا أن يبعدوه عن الموكب ، فأعجزتهم شدة قيوده فقطعوا ذراعيه وتركوه ملقى على الأرض فزاد ذلك الحواريين الى ما بهم ، وحاولوا تضميد جراحه ولكن روحه فاضت بين أيديهم .

لوحات الباب الثالث :

١٣ ــ قائد حازم :

يصف المؤلف فى هذه اللوحة القائد الرومانى ، وهو صورة لكل قائد رومانى يقدس النظام ، ويمجد القوة ويسبح بعظمة روما ، ويسعى لسيادتها ولا يقف المؤلف عند الوصف بل يضرب لنا بعض الأمثلة من سلوك القائد .

١٤ ــ الخائن :

هذه هى اللوحة الثانية التى تتعلق بالجندى ، أما اللوحة الأولى فهى الفصل التاسع ، وأما «الخيانة» فانه لما آمن بدعوة السيد المسيح الى الحب والسلام عزم على أن يعمل بهذه الدعوة مهما كلفه ذلك من أمر فلما أطلع على ثغرة فى سور مدينة يحاصرها قائده وجيشه (لسبب تافه ليس وراءه الا حب المجد والعظمة والعمل على أن ترضى عنه روما ويسلك سبيل الرقى) ــ وكانت الثغرة كفيلة بتحقيق النصر لقائده ــ لم يطلق قائده عليها لأنه كان يدرك انها ستؤدى الى سفك دماء جم غفير من البشر ،

ووعد أهل المدينة أن يكتم أمرها ، وهكذا عجز القائد عن اقتحام المدينة وصالح أهلها صلحا مشرفا لهم ، وحافظا لماء وجهه ، ولكنه عرف فيما بعد بأمر هذه الخيانة فعزم أن يجعل هذا الخائن عبرة لأمثاله .

١٥ ـ المحاكمة :

يجلو لنا الكاتب فى هذا الفصل محاكمة الجندى المسيحى فيعرض آراء رجل الاتهام وآراء الجندى الجريئة السديدة التى لا نتيجة لها (عندهم) الا الحكم بالموت .

وكان افظع ما فى الأمر طريقة تنفيذ الحكم حيث ربطت يد الجندى ورجلاه الى اربعة خيول يجره كل منها الى جهة فتمزق شر ممزق، ولما رأى القائد ما حدث لهذا الجندى اضطربت نفسه وعقله وأصابه خبل خفيف .

١٦ ـ بيلاتوس :

وبيلاتوس هذا هو حاكم اقليم أورشليم فى ذلك العصر وهو رجل فيه حكمة وسداد راى وقد ألم ببعض فلسفة اليونان فاستقام تفكيره ، واستمع الى أخبار بنى اسرائيل فطابت نفسه وكان فى ذلك اليوم مرهق النفس بعد أن حمله بنو اسرائيل على قتل السيد المسيح الذى لا يعلم عنه الا أخيرا ، وقد دار حوار بينه وبين صديق له من الفلاسفة اليونانيين كان يرى ان بيلاتوس نكب فى نفسه نكبة كبرى حين أطاع بنى اسرائيل ، وان محنته هذه حملته على اليأس ، وانه لم يعد يرى الا ما يراه الرومان من الايمان بالحياة وملذاتها ، وانه لم يعد يؤمن بقوة الدين ، ولا بقوة العقل على هداية الناس .

١٧ ـ ثم أظلمت الدنيا :

أظلمت الدنيا ظلاما شديدا ظهر يوم الجمعة ، واستمر ذلك ثلاث ساعات ، واختلفت نظرة الناس الى هذا الظلام فالمؤمنون يرون فيه غضب الله على الناس لما حل برسوله اليهم ، والراعية الصغيرة تراه من عمل الجن يدبرون اختطافها لأنها عصت أمها ، والنسوة الصالحات يرونه غضبا من الله ، والجند الرومان يرون فيه مظهرا من مظاهر الطبيعة .. ثم انقشع الظلام .

١٨ - عود الى موعظة الجبل :

وفيها يوضح الحكيم الماجي للحواريين المغزى الحقيقي لوصايا السيد المسيح في موعظة الجبل ، فتدب الحياة في الحواريين ويشملهم الفرح بالنجاة ويحسون ان أمامهم جهادا طويلا ينجيهم من ألم الحسرة ومرارة الاستسلام .

ماذا اراد الكاتب بقصته « قرية ظالمة » ؟ ، قال النقاد ان كامل حسين عرض « مشــكلة الفرد والجمــاعة » وقالوا انه عرض مشــكلة « الضمير » وقالوا ان القضية التي عناها هي « مستقبل الانســـــانية وضمير الجمــاعة » وذهب بعضهم الى انه أراد أن يفسر كيف ترتكب الآثام بواسطة مجموعة من النــاس « وان المجمــوعة لا تحس فداحة المسئولية من ارتكاب الجريمة ولذلك فهي تفعلها ببساطة » . وذهب بعض آخر الى انه انه أراد أن يفصل علاقة « القــوى الثــلاث » التي تتنازع الانسان .

وقد يكون هذا كله صحيحا وغيره مما قالوه ولم نذكره صحيح وغيره مما لم يقل به أحد منهم أو من غيرهم حتى اليوم ، ولكني لا أرى رأيا من هذه الآراء لا لخطأ فيها وانما لسبب آخر ، هــذا السبب يكمن في ان النقاد أو ذوي الآراء يختارون انسب رءوس الموضوعات في رءوســـهم لموضوع الكاتب فيــذكرونه له ، وقد يكون ذلك مقبــولا مع الكتــاب (الكبار والصغار) الذين يدورون في دائرة المعاني المألوفة التي تجد لها رءوس عناوين النقاد الذين يدورون هم أيضا في فلك هذه المعاني .

أما المعنى الذي أراده كامل حسين في قرية ظالمة فهو معنى جديد لا نقول بأنه خارج عن دائرة المعاني عند أصحاب المعاني ولكننا نقول انه دخل الى هذه الدائرة ليزيدها معنى عظيما . وقد يتناول قلم أو أقلام موضوعا فيعرض لمعانيه صادرا في عرضها عن هذا المعنى الذي أوجده كامل حسين في قرية ظالمة يومئذ لن نقول ان هذا القلم تناول الضمير عند الفرد وعند الجماعة ، ولكننا سنقول انه تناول المعنى الكاملي الى ان نجد من الفاظ ادبائنا الرشيقة ذلك اللفظ الذي يعبر عن هذا المعنى .

ما هذا المعنى الذي يريده كامل حسين والذي أبهمت في التعبير عنه

بتسميته (المعنى الكامل) وزدت فى الابهام حين نسبته الى صاحبه ثم خرجت من الابهام الى تمنى لفظ رشيق من الفاظ أدبائنا، قد يكون فى قراءة مقدمة كامل حسين ما يدلنا على بعض الجوانب فى هذا المعنى :

كان اليوم يوم جمعة . لكنه لم يكن كغيره من الأيام .

كان يوما ضل فيه الناس ضلالا بعيدا وأوغلوا فى الضـــلال حتى بلغوا غاية الاثم وطغى عليهم الشر حتى عموا عن الحق وهو أوضح من فلق الصبح ، وكانوا مع ذلك أهل دين وعلم وخلق ، وكانوا أحرص الناس على اتباع الهدى ، وأحبهم للخير وأعمقهم تفكيرا وأقدرهم على تعقب دقائق الأمور ، وكانوا أكثر الناس حبا لقومهم ، وحدبا على وطنهم ، واخلاصا لدينهم ، وكانت بهم حمية ، وشجاعة ، واخلاص .

ولا أظن ان المؤلف أراد من كتابه شيئا قبل هذا فهو يحصى فى قوم أوغلوا فى الضـــلال اثنتى عشرة فضيلة : الدين ، والعلم ، والخلق ، والقدرة على اتبـــاع الهـــدى ، وتعقب دقائق الأمور ، وحب الخير ، وعمق التفكير ، والقـــومية ، والوطنية ، والولاء الدينى وهو يذهب فى بعض هذه الفضائل أو بعبارة حسابية فى نصفها الى ان يجعل نصيب هؤلاء من الفضائل بين الناس أوفى نصيب .

قلنا ان المؤلف أحصى الفضائل فى قوم ضلوا فهل أراد بذلك أن ينفى العلاقة السببية السلبية بين الفضائل والضلال ؟

هذا سؤال حرج وحرجه ان جوابه بالايجاب يقودنا نحن والمؤلف الى أحرج المواقف ، ولكننا لا نجد بأسا من أن نمر بأحرج المواقف . نعم ينفى كامل حسين العلاقة السببية السلبية بين الفضائل والضلال ولكنه يجعل الطرف الاول لهذه العلاقة هو الضمير « فالضمير الانسانى قبس من نور الله لا يكون للناس هدى بغيره وكل فضيلة تنقلب نقصا ، وكـل خير يصبح شرا، وكل عقل يصير خبالا مالم يكن للناس من ضميرهم هاد» « مثلهم فى ذلك مثل المدينة المظلمة اذا طلع القمر كانت معالمها هـــداية ومبانيها هداية لأهلها تريهم أى طريق يسلكون ، أما اذا اظلمت عليهم حقا فان هذه المعانى الجميلة والمبانى الرائعة تصبح كلها عقبات وعثرات يصطدمون بها فتؤذيهم وتضلهم ، وكذلك الناس فى حيـــاتهم ان يشرق عليهم الضمير تكن فضائلهم رشدا ، وأن يظلم عليهم يكن كل ما فيهم من عقل وخير عليهم وبالا » .

وقرية ظالمة هدفهـــا الأول الوعظ واقرأ معي الفقرة الأولى من

الخاتمة : «لو كان الناس متعظين بشيء لكانت لهم فى أحداث ذلك اليوم عبر وعظات (ولكنهم لايتعظون ابدا)» وقد علموا كيف ضل أهل أورشليم ضلالا مبينا حين عصفت بهم قوى متباينة فيها الخير والشر فتغلب الشر على الخير وغلب الضلال الهدى وهم لا يدرون ما يفعلون ولا يزال الناس فى مهب هذه القوى تعتورهم فيضلون بها كما ضلت أمم كثيرة من قبل وهم لا يقدرون على توجيهها وجهة تكفل لهم الصحة من الخطأ » .

وقد يحتج على رأيي القائل بأن هدف قرية ظالمة هو الوعظ بالجملة الاستدراكية فى قوله (ولكنهم لا يتعظون أبدا) وواضح ما فى هذا الاحتجاج من تعنت فالجملة ليست الا من باب قولك لتلميذك عند ما يخفق « أرشدتك الى هذا الأمر .. ولكنك لا تفهم أبدا » . وقد أخذت القصة اتجاها انسانيا لا ريب وأنظر الى اقتراح أحد أبطالها ان يكون معلن الحرب هو أول رجل يموت فى الحرب !.

كتب كامل حسين قرية ظالمة (فى سفينة) كيلا تقرأ فى القطار وكان حريصا على أن يبدع عملا فكريا يقرأ فى تمهل . وكان نجاحه فى ذلك مطلقا فتحقق هدفه عند الناس جميعا ابتداء بى وانتهاء الى عميد الأدب العربى حيث يقول: «واخيرا أتيح لنا كتاب نقرؤه بعقولنا فى أناة ومهل، وفى تدبير وتفكر ، وفى كثير من المراجعة ، وكثير من الوقوف عند هذا الفصل أو ذاك من فصوله ، لا نمر به مر السحاب ولا تلتهمه الأبصار والآذان فى أقصر وقت ممكن ، ولا تكره الألسنة كرا » « أتيح لنا كتاب لا نقرؤه لقطع الوقت ولا نقرؤه لندعو بقراءته النوم حين يمتنع علينا ، انما نقرؤه لنفهم من كاتبه ما اراد ان يعرض علينا من حديث ولنرى بعد ذلك انقبل حديثه أم نزور عنه ؟ أنقبل على معانيه اقبال المشوق أم ننفر نفورا شديدا ؟ كتاب لم يرح كاتبه ولن يريح قارئه وأكبر الظن أن كاتبه أهدى الينا فيه خلاصة حياته وصفوة تجاربه ونتيجة جهوده المتصلة التى انفقها دارسا ، ومعالجا مبتليا أنباء الناس واسرارهم ممتحنا ما يكون من سيرتهم أفرادا وجماعات ، وما يكون من تضارب بين هؤلاء الأفراد والجماعات حين يعرف بعضهم بعضا ، وحين يمكر بعضهم ببعض « وحين يسعى بعضهم الى بعض بالخير والمودة والمعروف » .

وطبيعة هذا الكتاب محل خلاف فالنقاد لا يعدونه قصة لأنه لم يستوف شروطهم فى القصة « فقد خلا من الحكاية النامية المتطورة التى تتشابك خيوطها حتى تنتهى آخر الأمر الى خيط واحد يجمعها »

« والشخصيات لا ترتبط ببعضها ارتباطا وثيقا حتى ان المؤلف ليتناول فى فصل من الفصول شخصية ولا يعود اليها بعد ذلك والامثله واضحة فى عرضنا للكتاب .

ثم ان الشخصية لا تقصد لذاتها وانما من أجل ابراز الفكرة التى يعنى بها المؤلف ومن ثم فهو لايهتم بتسمية هذه الاشخاص الا فيما ندر لأنه لا يقصدها لذاتها كما قدمنا . والذين يرون هذا الرأى لا يقللون به من شأن (قرية ظالمة) فهى عمل عظيم ايما كان هذا العمل فى نظرتنا وموازيننا .

والنقاد يعودون فيقولون ان هذا الكتاب وان لم يكن قصة فقد سار فيه المؤلف على الاسلوب القصصى . وفى هذا القول فصل الخطاب فالنقاد قد اهتدوا بحاستهم الفنية وهى صادقة بلاشك الى القصة فى (قرية ظالمة) ولكن حاستهم النقدية وهى بلا شك أقل صدقا ومقدرة على الوصول الى الحقيقة لم تسعفهم بهذا الحكم . أما القصة الفنية فى قرية ظالمة ، فمثال لنوع من القصص الجديدة على أدبنا العربى لا اقصد الى القول بأن هذا الكتاب يمثل القصة الفلسفية المفردة فى أدبنا المعاصر ، ولا الى شىء من ذلك القبيل وانما تتمثل القصة فى قرية ظالمة فى هذه القصص الكثيرة التى تدور حول موضوع بعينه فى فلك واحد أشبه ما تكون بالمجموعة الشمسية لا اختلاف فيها ولا اضطراب ، **قرية ظالمة مجموعة من القصص التى تتوافر فيها أدق شروط النقاد** ، والدكتور طه حسين وجد فى الكتاب قصة متقنة رائعة حقا يمكن ان تستقل بنفسها وتقف على قدميها ان صح ان تقف القصص على اقدامها ، « وما ارى الا أن الكاتب قد دفع اليها عن غير تكلف منه لها فوفق الى الاتقان حقا ، وهى قصة المجدلية وصاحبها الفتى الرومانى ، فهذه الفتاة التى عرفت من شأنها ماعرفت انفا والتى آمنت بالمسيح بعد ان تورطت فى الاثم العظيم وانتهى امرها الى أعمق الايمان وأقواه قد عرفت فيمن عرفت أثناء مقارفتها للاثم جنديا رومانيا أحبها وأحبته ، فلما اقبلت على دينها الجديد تبعها نفس الفتى فمازال يبحث عنها حتى اهتدى اليها فى بيئتها الجديدة المؤمنة ثم سعى اليها فأحسنت لقاءه ، وما أسرع ما هدته الى الدين الذى اهتدت اليه ، وماأسرع مااستحال حبهما ذاك الذى كان يشوبه الاثم الى أخاء صادق .

وهذا الفتى تعرض له بعد ذلك خطوب يصورها تصويرا رائعا حقا ، فايمانه بالدين الجديد يبغض اليه الحرب ، ويلقى من نفسه

فكرة العداء للناس، ويعطف قلبه على اعداء روما فيحسن اليهم ويبرهم فى أثناء الحرب وينشأ عن هذا الاحساس والبر انهزام روما ، ويرفع أمره الى القائد فيحاكمه فى نفس اليوم الذى حوكم فيه المسيح ويدافع الجندى عن نفسه دفاعا رائعا فيه شجاعة لا عهد للناس بها وفيه ارتفاع الى منزلة من الصفاء والنقاء والطهر لم يألفها الرومان ويقضى بالموت على هذا الفتى ، ولكنه موت منكر بشع يضطرب له عقل القاضى القائد بعد أن يراه كما اضطربت نفس الحاكم الرومانى للقضاء على المسيح .

وليس ببعيد أن يكون آخرون غير الدكتور طه قد وجدوا فيها مثل ما وجد أو أن يكون الدكتور طه نفسه قد وجد فيها قصة اخرى .

أما نحن فقد وجدنا فى قرية ظالمة مجموعة من القصص تدور فى فلك قصصى واحد ، كالمجموعة الذرية تسلك فى مسالكها الكيميائية مسلك العنصر أو قل كالمجموعة الشمسية تدور فى فلك واحد .

وزمان القصة هو يوم الجمعة الذى امتحن فيه المسيح حين تألب عليه بنو اسرائيل يريدون به الكيد وهو زمن قصير جدا لا يكاد يتجاوز يوما وليلة واظنك توافقنى ان كاتبا يكتب أربعة وثلاثين ومائتين من الصفحات (وبهذا التركيز الذى لم نعهده فى ادبنا المعاصر) وعنصر الزمن عنده لا يزيد على اربع وعشرين ساعة له من عظمة القلم حظ كبير . الا أن زمان هذه القصة الحقيقى ممتد ما كانت الحياة ، فليست أحداث ذلك اليوم من أنباء القرون الأولى بل هى نكبات تتجدد كل يوم فى حياة كل فرد ، والناس أبدا معاصرون لذلك اليوم المشهود ، وهم أبدا معرضون لما وقع فيه أهل أورشليم حينذاك من اثم وضلال وسيظلون كذلك حتى يجمعوا أمرهم ، والا يتخطوا حدود الضمير .

وتوفيق حنا يجد فى اختيار المؤلف يوم الجمعة بالذات وعيا انسانيا دقيقا عميقا ويرى أن المؤلف لو اختار يوم الأحد الذى أشار اليه عندما ذكر « عودة المسيح الى حوارييه بعد ثلاثة أيام » لضاعت اللحظة الفنية والروحانيات ولما تمكن المؤلف الواعى أن يمس هذا الاحساس العميق الذى انتهى اليه يوم الأحد .

ومكان الحادث هو القرية الظالمة أورشليم وربما تجاوز هذه المدينة الى بعض أطرافها والجبال المحيطة بها ولكننا يمكننا أن نتسع به فنشمل الأرض جميعا على نحو ما فعلنا بزمان القصة .

وطريقة الكاتب فى التعبير هى طريقة السرد المباشر ولعله استخدم هـذه الطريقة بالذات كمـا يقول الأستاذ فتحى الابيـــارى ليتمكن من تصوير الاحداث والخلجات الانسانية وليكون قادرا على تحليل الشخصيات تحليلا فى منتهى العمق وتحليل الفكرة تحليلا منطقيا جذريا . ولكنه فى بعض الأحيان خرج من سياق السرد المباشر الى التعليق المكشوف خاصة عندما علق على حادث الصلب بقوله « وهـذا حكم على المســيح بالصلب من أجل كفره بالله فهل يبقى بعد ذلك ثقة فى حكم الانسان ؟ » .

وقد بلغ السرد من « قرية ظالمة » مبلغا بدت معه وكأنها قصـة احداث ، وتكاد الأحداث تكون العنصر القصصى بقـدر ما تخـدم أفكار الكاتب وفى هذا براعة ولا شك . والشخصيات تمضى فى عرض شـيق جذاب الا اننـا لا نحس بتلك الشخصيات وتأثيرها على نفوسنا بقـدر ما نتأثر بما أورده المؤلف من تحليل وحوار فلسفيين .

والمؤلف يرسم الجو حول الشخصية أكثر مما يرسم الشـخصية ذاتها ، وأشخاصه كما تقول الدكتورة ســهير القلماوى مرايا يعـكس عليهم تفكير الأفراد واحـدا واحـدا ليصل الى دعم رأيه فلازار لا يمثل الا فكرة المعجزة ، ولمعجزته عند الناس تأويلات شتى أما عند المؤلف فهو ضمير اقترف الشر ثم تاب وظن انه قد عاد لمجد التوبة .

وفى عرضه للشخصيات تكشف لنا الدكتورة سهير عن مزية أخرى فتقول أنه يجعلنا نحس ببيئتنا الفردية احساسا سريعا قويا أولا ثـم ينقلنا الى شخصياتها نقلا عابرا . أما شـخص المسيح فلا يطالعك فى القصة وان كنت تسمع عنه ويروى لك قوله وان كان هو محور القضية والمفعول به فى جملتها ، ولا أحسب الا أن الـكاتب أراد بهـذا الا يزج بقلمه فى موضوع المسيح فالاختلاف فيه بين المسلمين والمسيحيين لا يقل عن اختلافهم فى موضوع الصلب . أضف الى هـذا ان كبار المفـكرين الاسلاميين تعودوا أن لا يمسوا شخصيات الأنبياء وكبار الصحابة مسا مباشرا فى أعمالهم الأدبية الابداعية ، ويحتالون لذلك فينقلون أقوالهـم على السنة اتباعهم يرددونها عنهم ، وقد اتبع كامل حسين هذا النهج فى قرية ظالمة لكننا سنجده فى فصل قريب يتناول شــخصية موسى عليه السلام تناولا مباشرا فى « الطريد » و « ماء مدين » ، وليس بين الموقعين ثمة تعارض — فى ظنى — ولكن أمر الاختلاف فى المنهج عند الرجل هو اختلاف بين الرسولين عليهما الصلاة والسلام فالكتب المقدسة تجمع على رأى واحد فيما يتعلق بالنبى موسى عليه الســلام بل ان كثيرا من

التفاصيل فى العهد القديم تتطابق والقرآن ، أما أمر المسيح فمختلف جد الاختلاف .

وحوار الشخصيات فى قرية ظالمة « يذكر كثيرين بالشخصيات فى كتب افلاطون يحاور بعضهم بعضا أو يحاورهم سقراط ، أفلاطون بحوارهم الى فن من الفنون ولكن هذا لا يدفعنا الى القول (لمجرد تشابه فى تصوير الشخصيات) بأن قرية ظالمة تمثل محاورة افلاطونية .

وقد يكون كامل حسين هو أول أديب اسلامى يتخذ قصة مسيحية ليستعملها رمزا يفرد كتابا عن يوم الجمعة . وفى هذا معنى من معانى الريادة فى العمل الأدبى . أما عمق المؤلف فذو أبعاد (لو كان للعمق وهو بعد أن يوصف بكثرة أبعاده) :

(١) فهو عميق فى تقصى كل صغيرة وكبيرة فى محيط الحادث مما ورد فى الكتب المقدسة .

(٢) وهو عميق فى أفكاره التى بنى عليها الكتاب .

(٣) ولألفاظه عمق دلالة يعرفه الذين تلاحقهم ألفاظ الدواوين بسطحيتها .

(٤) وهو يغوص فى أعماق النفوس البشرية ويخرج لنا بلآلىء من المعانى المتعلقة بها .

وقد يؤخذ على المؤلف جفاف قلمه فى رواية مشاهد الغرام فى الفصل الثانى بين رجل الاتهام وزوجته ولكن من قال ان المؤلف أراد أن يصور من حب الزوجين شيئا ؟ انما أراد أن يبين أن بنى اسرائيل مشغولة فى ذلك اليوم بخطب جلل ، الى الحد الذى شغلهم أن يفرغ الزوج لزوجه فى يوم عيدها ، والى الحد الذى جعل زوجة رجل الاتهام تنصرف عن زوجها ، وعن حبها ، وعن عيدها لأنها شغلت عن هذا كله بالمسيح وبالظلم الواقع عليه . اذا ما أدركنا هذا المعنى الذى أراده المؤلف استطعنا أن ننفى عنه تهمة الأستاذ فتحى رضوان بأنه اتخذ من موقف الحب فى مخدع الزوجة مجرد مقدمة ظن أن مقتضيات القصة المثيرة تأمر بها .

والأستاذ عصام الهنامى يلفت نظرنا الى أن الكاتب برأ اليهود من محاولة قتل المسيح ظلما فقد جعلهم يفعلون ذلك نتيجة حرص شديد على الدين وسوء فهم منهم لآرائه وقد صرح بذلك فى قوله « اذا كان الحواريون

– وهم أفضل الناس – لم ينجوا من الخطأ بعد التشاور والبحث وبعد أن تجمعت لديهم كل عناصر الهـــدى فان بنى اسرائيـــل لهم العذر اذا ضلوا » ٠

ويتساءل الأستاذ فتحى رضوان عن تبرئة المؤلف لزعماء أورشليم ولشعبها من تهمة تعذيب المسيح والائتمار به والخوف من عقيدته هل كان عملا له أساس من التاريخ ؟ أم – وفى هذا التساؤل الأخير تقرير الحقيقة – ان الحقيقة التى ملأت نفسه كانت ثمرة تفائله هو ، ولايمانه ان فى النفس الانسانية مهما ضلت جانبا يكمن فيه الحب والعطف ولو اختفى وتعذر الاهتداء اليه وسط صراع الناس مع الدنيا ٠

والأستاذ يوسف الشارونى يرى أن المؤلف مخطىء فى فهمه لفكرة الخطيئة فى المسيحية فهو لا يوافقه فى قوله بأن « **احجام الحواريين عن نصرة المسيح يوم الصلب** هى التى حددت مبادىء المسيحية وفلسفتها – فليست فكرة التكفير والفداء ، وهذا الحزن الغالب على طبع كبار المتمسكين بالمسيحية وخوفهم من الخطايا ، وحبهم لتعذيب النفس ، وارهاقها واكبارهم خطيئة آدم وايمانهم انها أصل العذاب الذى تعرض له المسيح ٠٠ كل ذلك ليس الا صدى لهذا الاحجام الذى وقع من الحواريين عن نصرة السيد المسيح »٠ ثم يقول الأستاذ الشارونى ان المؤلف مع ذلك يقرر ان الحواريين لم يحجموا عن نصرة الســيد المسيح يوم الصلب ٠ بل نشأ بينهم جـدل طويل ٠ ثم يتساءل الأستاذ الشارونى أين كان احجامهم الذى بلغ أثره من الضخامة بحيث يصبح أصلا لفكرة الخطيئة فى المسيحية ؟ ٠

ونحن بدورنا وان لم نخالف الأستاذ الشارونى فى قوله جميعا لجهل منا بفكرة الخطيئة فى المسيحية الا اننا نسأله سؤالا فى جانب آخـــر من كلامه :

هل أحجم الحواريون أم لم يحجموا ؟ ثم هل يكون نقاشهم دليلا على انهم لم يحجموا ؟ مع انه انتهى بأحجامهم ؟

وسوف يكون فى رد الأستاذ الشارونى على اسئلتنا هذه أعظم رد على اراء الأستاذ الشارونى نفسه ٠

أما فهم المؤلف لفكرة الخطيئة فى المسيحية فليس فيه خطأ اذا كانت فكرة الخطيئة فى المسيحية هى خطيئة آدم كما قال الأستاذ الشارونى٠ ودليلنـــا على أن فهم كامل حسين لفــكرة الخطيئة فى المسيحية ليس فيه خطأ هو ما ذكره الأستاذ الشارونى نفسه من أن المؤلف يدرك ذلك حين يقول « لعل التوراة حين قالت عن آدم انه أول انسان لم تقصد الى

انه أول من مشى على رجلين بل تعنى انه أول من أدرك الخطيئة وأول من احس بأثر الضمير فأصبح بذلك انسانا» . بقى أن نقول انه مادام فهم المؤلف لفكرة الخطيئة فى المسيحية صحيحا فلا عليه أن يبرز هذا الفهم ذات مرة فى صورة مختلفة وهو حق من حقوق الأدباء .

ويبدو أن موقف المؤلف من الحواريين كان غريبا على كثير من نقادنا الذين كانوا ينتظرون من المؤلف أن يضعهم فى طبقة أعلى من طبقات التفكير (وقد قدمنا رأى الأستاذ الشارونى) ومحمد عطا يأخذ على المؤلف انه جعل الحواريين يقفون موقفا سلبيا من المتآمرين ، وان طبيعة تفكيرهم فى الكتاب لم تهدهم الى أن الرسالة المسيحية لم تمت ولن تموت بذهاب الداعية الأول بل ستبقى ، وان شيئا من ذلك لم يرد على خاطرهم — وقد بحثوا امرهم بحثا طويلا عميقا — الا بعد أن هداهم اليه الحكيم الماجى .

ولأن الكتاب عامر بتاملات فلسفية فان كثيرا من نقادنا ودوا لو وجدوا فيه فلسفة لكل الأمور التى تتصل به .. فالشارونى يأخذ على المؤلف انه لم يبين لنا لماذا كان المسيح يمثل الضمير ولماذا كان اليهود يمثلون العنصر الذى من شأنه أن يطفىء نور هذا الضمير ؟ والقول بمثل هذا ان كان من باب الجد مطالبة للأديب بأن يكون باحثا ، وهما امران لايلزم اجتماعهما دائما . وأود أن أذكر للأستاذ الشارونى فضلا فى نقد « قرية ظالمة » فقد حرج لنا منها بمقارنة علمية طريفة بين الديانتين المسيحية واليهودية وهو يستشهد لكل وجه من وجوه المقارنة بنص من الكتاب حتى شعرنا وكأن قرية ظالمة من المراجع التى يرجع اليها فى المقارنة بين الأديان .

لم يقصد كاتبنا حين أراد أن يصور قصة ذلك اليوم غاية من الغايات الدينية التى يقصد اليها الكاتبون حين يعرضون لهذه القصة أو ما يشبهها من القصص وهذا هو السبب الذى لأجله لم يجد الأستاذ فتحى رضوان القصة الحارة التى تمنى أن يتخذها المؤلف من أحداث ذلك اليوم ، وانما قصد الى غاية اخرى كان يمكنه أن يصل اليها كما يقول الدكتور طه حسين « بتصوير أى شخص آخر مخلص صادق يريد الخير للناس فصب عليه الشر ، ودبر له الكيد من الذين أراد اصلاحهم » .

والذين تناولوا هذا اليوم من أعلامنا فى الأدب المعاصر اثنان صاحبنا وتوفيق الحكيم فى (أهل الكهف) وهى مسرحية تعرض فيها الأديب الكبير لنهاية المسيح يسوع وكيف ظلمه أهل أورشليم ظلما شديدا ولكنها

بدت غارقة فى ضباب أســـطورى ولم يكن حظها من الجودة مثل حظ قرية ظالمة .

والحوار فى قرية ظالمة سلس،قصير العبارات،مشبع بالفلسفة العميقة مرتب الأفكار ، والكتاب غنى بالحـــوار الذى يدل على شيئين : الثراء الفكرى والقدرة الفنية وهما أمران لم نعد بحاجة الى توضـــيحهما فى قرية ظالمة . **ويدور الحوار بين رجل الاتهام وصديقه احدى عشرة مرة وبين التاجر وصديقه العالم عشر مرات ، وبين بيلاتوس ورجل الدين سبع مرات ، وبين الحكيم الماجى والفيلسوف اليونانى عشر مرات ، أما الحواريون فقد انتقل الحوار بينهم تسعا وثلاثين مرة » .**

وتسلسل الأحداث فى قرية ظالمة تسلسل بديع ، ونجاح المؤلف فيه ووصوله الى درجة الابداع ليس شيئا يسيرا ، خاصة اذا ادركت مدى تشابك هذه الأحداث واختلاطها ، ولكن تحديد الكاتب لفكرته وهدفه وعقليته العلمية كانا عونا له على هذا النجاح الى حد كبير .

وأسلوب الكاتب فى قرية ظالمة فخم جزل رصين ترتفع به فخامته ورصانته الى أن يكون بين أساليب الكتابة العربية فى أوج ازدهارها ، وقد بدت موهبته الكتابية بصورة واضحة فى اســـتخدامه الألفاظ والتراكيب العربية ببراعة مع سهولة تبلغ أقصى حدود السهولة ان كان للسهولة حدود .

وليس فى الكتاب ما يلجأ معه القارىء العادى فى الربع الأخير من القرن العشرين الى المعجم الا لفظين الأول : فى وصف المجدلية انها كانت امرأة « املودا » . وثانيهما : فى معرض الحديث عن المريضة « وأخذ بفودى رأسها » .

وضرب الكاتب مثلا حيا رائدا (أرى فيه عظة لأولئك الذين يسفون حين يتطرقون الى الحديث عن الجنس) في حديثه عن المجدلة وحبها حتى لم يجد حرجا فى تصوير علاقتها بالمسيح على انها « حب الانسان » .

ظهرت قرية ظالمة وكان المفكرون يتوجسون أن تثير القصة بعض رجال الدين وأن تثير جدلا طويلا حولها وحول أفكارها وكانوا لايستبعدون أن يرمى صاحبها بتهمة من تلك التهم التى تنطلق من المدافع سريعة الطلقات ولكن شيئا من ذلك لم يكن وان تهامس الناس ببعض ما توقع ، والحقيقة ان كامل حسين كان من اللباقة بحيث لم يســـتعد أحدا من العقلاء ومع انه لم يرض القساوسة والشيوخ الا انه أرضى ذوى الســـماحة من أهل الدينين .

وفى القصة شخصيات هامشية الى ابعد اطراف الهامشية كذلك الرجل الذى تحدثنا الأنباء بأنه « جاء من أقصى الأرض مع آخرين يهديهم النجم ليحيوا المسيح بعد مولده » ، وكأخت لازار لا أقصـــد تلك التى ذهبت الى المسيح تطلب اليه أن يعيده الى الحياة وانما الأخت الأخرى التى لم يأت ذكرها حـين قال « فلما رأته أختـــاه عـلى هذه الحال من الرعب .. الخ) ص ٤١ .

ومن الشخصيات التى اخترعها المؤلف اختراعا ، لم يرد لها ذكر فى الأناجيل : راعية الأغنام ، والجندى الرومانى ، والقائد الرومانى .

وقد أخذ على المؤلف أنه جعل الجندى الرومانى يعدم بطريقة لم يكن الرومانيون وهم السادة الفاتحون يعاملون بها . وقد يكون المأخذ صحيحا من الوجهة التاريخية . ولكن هذا التصوير كان ضروريا للناحية الفنية فى القصة ، وقد أدرك النقاد ذلك فتلمسوا العـــذر للمؤلف ، وبودى أن أتساءل الا تكمن فى هذه المخالفة التاريخية ناحية فنية هامة ؟ ، ولو اتبع المؤلف قواعد التاريخ يومها هل كان يؤدى مـــا أدى من معنى ؟ ولا ريب ان الأمر لم يتم له الا بهذه المخالفة التى تستأهلها عند الرومان جريمة الجندى التى جعلت منه أبعد ما يكـــون عن السادة الفاتحين .. والفقهاء بعد ذلك يقولون « ما لا يتم الواجب الا به فهو واجب » .

وأنت تشم رائحة الطب عندما يتكلم المؤلف عن المريضة تناولت الأفيون فيقول : «والذين يتناولون الأفيون تفاديا من الألم المبرح ينامون نوما غريبا يظل فى الوجه أقرب ما يكون الى حاله عند اليقظة كان الجسم وحده هو الذى يعتريه النوم ، أما النفس فكأنها تظل على ما هى عليه من الانتباه وكأن النائم يسمع وان لم يجب أو هكذا يخيل الى من ينظر اليه » . وعندما يقول « الألم المبرح يصيب الجسم أول الأمر وتبقى النفس هادئة ، ويظل الحال كذلك فترة تختلف طولا وقصرا ثم يشتد الألم حتى يشمل الجسم والنفس جميعا » .

والصور فى قرية ظالمة قليلة وهى لا تأتى الا عند أشد الحاجة ومن هذه الصورة : تصوير نظرة لازار على انها أشبه الأشياء بنظرة السبع حين يحاط به فلا يجد سبيلا للنجاة .

● ● كامل حسين والقصة القصيرة

لو لم تكن « قرية ظالمة » قصة لبقى كامل حسين قصاصا فله من القصص مجموعة ممتعة نشرها فى الستينيات فى مجلتى القصة والهلال وهى :

(١) « فراق » وقد نشرت فى عدد فبراير ١٩٦٢ من مجلة الهلال.

(٢) « جريمة شنعاء » ، وقد نشرت فى عدد مارس ١٩٦٢ من مجلة الهلال .

(٣) « أى الطريقين أهدى » ، وقد نشرت فى عدد أبريل ١٩٦٢ من مجلة الهلال .

(٤) « قوم لا يتطهرون » ، وقد نشرت فى عدد مايو ١٩٦٢ من مجلة الهلال .

(٥) « الطـريد » ، وقد نشرت فى عدد يونيو ١٩٦٤ من مجلة القصة .

(٦) « ماء مدين » ، وقد نشرت فى عدد أغسطس ١٩٦٤ من مجلة القصة .

(٧) وبالاضافة الى ذلك نستعرض قصة (أقدم رسالة علمية)، والتى نشرها فى متنوعات جـ ١ .

تحكي « فراق » قصة رجل كان يعمل عمـــلا صغيرا فى دواوين الحكومة .. يقوم بواجبه فى غير عقوق ولا كفاية ، تعاقب عليه رؤســـاء كثيرون رأى منهم جميعا شقاء كثيرا فهم لايفهمونه وهو لايفهمهم ، ولم تكن له كفاية الا حسن خطه ، وكان بهذا فخورا يرى لضيق أفقه أن هـــذا غاية الكفايات .

ثم تزوج فتاة مرحة طروبا فحاول جاهدا أن ينسى من أجلها ما يلقاه من اهانة ، وما يتندر به الناس عليه ، ولم يشأ أن يحدثها بشيء مما يلقاه حفظـا لكرامته وهيبته عندها ، ولكنه لم يســتطع أن يخفى ألمه كثيرا ، وعلمت منه ذلك فما زالت به حتى أفضى اليها بسريرة نفسه ، وبما يحزنه فأخذت تسرى عنه همهـا ، وطفقت ــ رغم اختلاف نفســيتهما ــ تدخل على نفســه من السرور الوانا حتى نسى ما يلقاه فى عمله من عناء ، وأقلع أقرانه عن التعرض له .

ثم ولد لهما ولد وعزما على ألا يحرما هذا الطفل شيئا ، وكانا لايفكران أن يذهبا الى الطبيب حين يمرضان ولكنهما كانا يسرعان به الى الطبيب اذا شكا أقل شكوى ، وتعهده الوالدان بكل عناية حتى دخل المدرسة ، فبهر أقرانه ومدرسيه بذكائه وحسن خلقه ، وأدبه الجم .

وولد لهما بعد ذلك ولد وبنت ، وكانا طفلين على جانب كبير من الذكاء ، ولكنهما لم يبلغا مبلغ أخيهما البكر .

« وجلس الرجل ذات صباح على مقعد يقرأ الجريدة ، ثم مال عــلى جانب المقعد وسقطت الجريدة من يده ، ودخلت زوجته عليه ، فوجدته على هذه الحال ، وحسبته نائما فلما أرادت أن توقظه ليتناول افطاره تبينت انه فارق الحياة » وهكذا كانت وفاة الرجل ، وهى البداية الحقيقية لقصة « فراق » .

وفقدت الأسرة عائلها فلم يكن بد من أن تعمل الأم فكانت تخيط

الشباب بالأجر، أما الشاب فانه أخذ يعطى دروسا خاصة لمن هم أقل منه تفوقا فى الفرق التى اتم دراسة مناهجها ، فأحسن هذا العمل وزاده هذا العمل خبرة وعلما ونضوجا فى التفكير . والتحق صاحبنا بالكلية الحربية فهى أقل مئونة ، وأقصر امدا من الجامعة ، وما لبث ان تخرج فيها .

ويقبل صاحبنا ذات يوم على أمه يخبرها انه ذاهب الى فلسطين فى أول كتيبة ، فتسأله أمه وهل يذهب معك صديقك « فلان » ؟ فيجيبها بالنفى فسيبقى صديقه هذا ليحرس كوبرى امبابة .

ثم نجد أنفسنا نشعر بشعور الضابط الذى ذهب الميدان ، يتوقع تطبيقا لعلوم الاستراتيجية والتكتيك فى الحرب فاذا به يجد غير ذلك : « وفت فى عضده أنه سيموت فى غير فائدة لأمته ، وانه سيموت من جراء عدم كفاية من بيدهم الأمر ، فرئيسه الأعلى لا يعرف ولا يفهم ، والثانى لا يعنيه أن يعرف أو يفهم ، وانما يعنيه أن يرضى الأول ، والثالث يأبى أن يعرف ، والرابع لا يريد أن يعرف ، والخامس لا يستطيع أن يعرف ، والسادس يكره أن يعرف وهؤلاء كلهم يأمرونه وعليه أن يطيع » .

« وأخذ هذا الضابط الشاب يشعر لأول مرة أنه يتقدم للقتال لا سعيا لنصر أمته ولا حماسة منه لرفع شأن جيشه كما كان يرى ، وهو يسير الى خط القتال ، بل أصبح تقدمه خوفا أن يتهم بالخيانة .. وشتان بين الموقفين » .

وأبرز الضابط الشاب مهارة فى تنظيم جنوده ، ورأى العدو أن الضباط الشبان هم عيون هذه الجنود وروحها ، وانهم فى غير حاجة الى القضاء على الجنود المقاتلين ، وانما يكفيهم أن يصيبوا أولئك الضباط فتشل بذلك حركة الجيش كله .

وجاء العدو بقناصته ليقضوا على هؤلاء الضباط ، وما هى الا دقائق حتى وقع هذا الضابط قتيلا ، وأقبل النعى الى أمه فلم تعد تستطيع الوقوف .

ورتبت الدولة لها معاشا كريما ومنحتها بضعة آلاف من الجنيهات تغنيها عن العمل ، وتسمح لها ولأبنائها أن يعيشوا عيشة راضية ، حتى يستطيع الولدان أن يتوليا أمرهما ، ولن يكون ذلك بعيدا .

وشيعت الجنازة فى احتفال رسمى عظيم شهده الوزراء والقواد ،

وحاولت الأم أن تقوم لترى جثمان ابنها وهو يفارقها ، ولكنها سقطت دون النافذة وحرمت حتى أن ترى جثة ابنها .

ومرت الشهور وهيأ لها ابنها الثانى مسكنا جديدا ، وأثاثا حسنا، واختار لها حجرة دافئة تغمرها الشمس حتى يذهب عنها ذلك الروماتيزم الذى أقعدها .

وذهب بها ابنها وابنتها الى طبيب ليعالجها مما أقعدها ، فأخذت تقص عليه شيئا من حياتها وابنتها تنكر عليها ذلك قائلة « ما للدكتور وهذا الذى تحدثينه به؟» وهى تقول لابنتها «ولم لا يابنيتى؟ ان سماحة وجهه تذكرنى بسماحة أخيك » . وكان حديثها الى الطبيب طفرات من الحزن يبدو فى صوتها وحديثها ثم يشرق وجهها ، وتذكر ما هى فيه مما لم تعرفه فى شبابها ، وكان يخيل الى من يستمع اليها انهـا اما أن تكون على مرحها القديم وسرورها بالحياة ثم تعاودها الذكرى فتحزن ، واما أن تكون حزينة يتخلل حزنها ذكرى ما هى فيه الآن فتسر بذلك ، وذلك فى الواقع كان أقرب الاحتمالين .

« ولم يـكن بد للطبيب أن يذكر ما قال يعقوب لبنيه وما قالوا له ((تالله تفتؤا تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين)) .

«فراق» ليست قصة أحداث بالقدر الذى هى فيه قصة افكار،وحبكتها لا ترتفع الى مستوى « الحبكة » الذى عهدناه في قصص الدكتور التى سنعرضها بعد قليل ، والجانب الفكرى فى القصة يأتى بعد أن انتهت أحداثها ، فلا يعطى التأثير المعهود للجوانب الفكرية عندما يستغلها أديبنا الكبير ، وهذه الأمور تنقص من قدر « القصة » الذى يؤهلها لتكون من قصص الدكتور كامل ، ولكنها لا تنقص من قدر « فراق » قصة ــ مصرية ــ معاصرة .

ومن الابداع الفكرى البيانى لكامل حسين « روعة الاسناد » التى تجلت فى قوله :

« فرئيسه الأعلى لا يعرف ولا يفهم ، والثانى لا يعنيه أن يعرف أو يفهم وانما يعنيه أن يرضى الأول ، والثالث يأبى أن يعرف ، والرابع لايريد أن يعرف ، والخامس لا يستطيع أن يعرف ، والسادس يكره أن يعرف وهؤلاء كلهم يأمرونه وعليه أن يطيع » وقوله « والأصل فى الحرب .. الخ » . وهذا الترتيب الدقيق للأفعال (المساعدة) فى العبارتين لا يستطيعه فى العربية الا قدير .

وقد يدفعنا حينا للرجل الى الاشادة بثقافته العسكرية حين يقول : « والأصل فى الحرب ان يعلم الرئيس الأعلى خطتها وغاياتها ، وأن يعنى الثانى بنجاحها عند ذلك لا يأبى الثالث أن يعرف ، ويسعى الرابع أن يعرف والخامس يبذل غاية جهده ، والسادس يتفانى فى أن يعرف وهو يطيع عند ذلك راضيا » . الا انه قول عسكرى تغلب عليه سمات العسكرية فى القرون السالفة عليه .

ومن اللوحات الرائعة تلك اللوحة التى يصور لنا فيها أديبنا الفرق بين نفسية الرجل وزوجه فيقول : « واختلفا يوما خلافا شديدا ، كانا يسيران فى الطريق، وهما أن يعبراه فأقبلت عليهما سيارة تنهب الأرض نهبا وكادت تقضى عليهما، فلما بلغت جانب الطريق ضحكت ضحكات صريحا، وفرحت غاية الفرح أنها نجت من موت محقق ، أما هو فصرخ وغضب وصاح ولعن السائق لأنه كاد يقتلهما ، وكان هذا مظهرا واضحا لما بينهما من خلاف فى نظرتهما الى احداث الحياة ، لم تدر ماحزنه على شر لم يحدث؟ ولم يدر هو كيف اغضاؤها عن شر كاد يفقده اياها أو يقتلهما معا ؟ ، وبلغ به الحنق ان قال لها : ان كان يعنيك أن أموت فانه يعنينى جدا الا أفقدك وأنت كل شىء فى حياتى » .

والموطن الحقيقى للفكر فى هذه القصة ليس فى المقارنة بين حال الجيش وما ينبغى أن يكون عليه ، ولا فى المقارنة بين الرجل وزوجه وان كان فى كليهما من مستوى رفيع ، وانما يكمن الفكر فى تلك العبارات التى ارتفع بنا فيها الدكتور كامل حسين الى مستوى أفكاره الرفيعة فى الطبقات العليا من الفكر حين يقول : « وظن الطبيب انها قد تكون قد آلمها أن تكون فى نعيم مصدره موت ابنها كأنها تنعم من جراء نكبتها فيه ، ولكن هذا الشعور فى الواقع شعور عقلى دقيق ، والحزن الذى يكون من هذا النوع حزن عقلى لا يتصل بالحزن القلبى العميق الذى تشعر به هذه المسكينة » بل ان مثل هذا الشعور ، الشعور بالقياس الى حزنها انما هو « حزن تفكيرى مصطنع قبيح لعله لم يخطر لها ببال » . « أم يكون حزنها على حياة قضتها فى كفاح مرير وتعب مضن ثم قضى فى لحظة على كل ما عملته . وحرمت نتائج هذا الجهد فكأنه كان عبثا كله ، ارادت من عملها أن يكون ابنها البكر قرة عينها تتمتع به حتى يأتيها الموت وهو سعيد موفق ناجح يتحدث الناس بنجاحه وعظمته .. ثم انتهى ذلك كله ، ومات قبل أن تموت ، بناء شامخ اقامته فانهار فى طرفة عين وهى تنظر اليه » .

ويقرر الطبيب ان مثل هذا الحزن حزن الاخفاق لم يخطر لها ببال فهى لم تكن فى الواقع تأمل الا أن تراه أمامهـا متمتعا سـعيدا ، ولم يتمثل لها يوما ان تجعل سرورها بسعادته غاية تسعى اليها .

ولكنه يخلص بعد هذا الى القول بأن حزنها انما كان بسيطا صريحا قلبيا لا يتمثل لها الا فى ألم الفراق .

ولعلنا فى النهاية نستطيع أن نسم عنوان القصة « بالصدق » نقصد الصدق التعبيرى .

هذه قصة دائرية كما يقولون يبدأها صاحبها بقوله « تساءل المحلفون فيما بينهم أيجوز لهم أن يشيروا على القاضى أن يحكم عليه بالحرق حيا ان كان الى ذلك سبيل؟» ، وقال القاضى انه لم يحكم فى حياته بالاعدام على رجل مهما يكن جرمه دون أن يعتريه من ذلك ألم ممض ، وانقباض فى النفس عنيف ، ولكنه اليوم مستريح بل لعله يكون سعيدا أن يحكم بالقتل على هذا المجرم ليمحو عن الانسانية عار هذه الجريمة الشنعاء .

وبعد هذه المقدمة التى لا تمثل فى الحقيقة الا الجزء الذى يسبق نهاية القصة مباشرة لا يبدأ أديبنا قصته الا بعد أن يقول : ـ « واليكم قصة هذه الجريمة الشنعاء » وكأنه انما أراد بهذه المقدمة شـــيئا غير ما يريده القصاصون حين يفعلون بقصصهم مثل هذا .

كانت أم البطل فى هذه القصة سيئة الخلق ، ساقها البؤس الى عشرة بحار غريب فى ميناء نائية ، ثم تركها هى وابنها الذى لقى على يديها الهوان ، والذل ، والبؤس فى نشأته ، حتى اذا ما بلغ السن التى تؤهله لأن يعمل ساقته الى العمل ، تبتغى بعمله الرزق له ولها ، ولم تكن ترحمه حين لا يجد عملا يعمله .

وكان يعمل فى مناجم الفحم ، حين كان العمل فى تلك المناجم ذلا دونه ذل الرق ، وكان أقرانه لا يطمئنون اليه ، لما عرفوا عنه من سوء الخلق ، ولم يكن هو نفسه حسن العشرة .

واشتدت به الفاقة ، حتى لم يعد ثوبه المرقع يستر من أسفل ظهره ما يحسن اخفاؤه ، وأصبحت نعله شيئا لا يحمى قدميه برد الشـتاء ، ولا قذارة الوحل ، «وطال عهده بالماء فلم يغتسل منذ أشهر» ، وكان الناس يرونه فلا يرثون له حتى حسبوا انه أصبح يستمرىء الوحدة والقذارة ، وكان مأواه بالليل والنهار الى حجر أمام الكنيسة يجلس اليه وينام عليه، وعرف الناس ذلك منه فتركوه وحاله .

وتجرأ ذات يوم فدخل الكنيسة وانزوى في ركن مظلم من أركانها، ثم صار يتجرأ فيدخلها وعرف احد القساوسة منه ذلك ، فاكتفى من البر المسيحى بتركه فى ركنه ، وتوفر له ذات يوم بنس ، فتقدم الى قسيس الكنيسة مع الناس ، وكادت دمعة تذرف من عين القسيس الذى لم يفته أن هذا البنس من هذا ادل على التقوى من الجنيهات يدفعها الأغنياء .

ولما وجد صاحبنا ان الناس لا يطردونه من الكنيسة شعر لها ببهجة فى نفسه ، ثم كان يوم رأى فيه القساوسة والنساء والرجال فى ملابس جميلة ، وسمع فيه الموسيقى تصدح فوجد فى ذلك سلوى له تحميه شر الحياة التى لم يخف عبؤها عليه فى يوم من الأيام .

وكانت ليلة عيد ، ولم يكن يعرف موقعها من الأيام التى تشابهت عنده فكلها مظلمة حالكة الظلام ، ولما دخل أكثر الناس مكان الاحتفال ذكرت احدى الفتيات انها نسيت ابهر حليها فتسللت وحدها الى منزلها لتتم زينتها ، وعادت مسرعة الى الحفل ، ولما أقبلت عليه غلبته رائحة العطر الجميل ورأى نفسه يتقدم اليها، ويقول لها فى جرأة غريبة : تعالى اجلسى معى قليلا ، فبهتت وأزعجها هذا الحيوان القذر ، وصاحت : اذهب عنى يا قذر فلم يعبأ بقولها ، وجذبها من ذراعها ولم يكن له بد من أن يمنعها أن تصرخ فوضع ذراعه اليسرى حول عنقها ويده فوق فمها فزادت مقاومته لها شدة ، فلم يسعه الا أن يسكتها بضربة حسبها خفيفة تخيفها من دون أن تؤذيها كثيرا .

وعند ذلك ارتخت عضلاتها ، ووجد نفسه يحملها على يده اليسرى التى طوقت عنقها ، وأحس بثقل جسمها ، فحملها بعيدا عن الطريق الى ركن مظلم ووضعها على الأرض ، وجر يده من تحت رأسها فتخللت أصابعه شعرها الذهبى الحريرى ، ولم يكن له عهد بمثل هذا الاحساس الرقيق الجميل ، فأخذ يمشط شعرها بأصابعه فى رفق وسرور بالغ ، وأعاد ذلك مرارا ، وهو نشوان بهذا الاحساس الجميل ، ولم يكن يدرى قبل ذلك أن فى الدنيا شيئا يشبه جمال هذا الشعر . وغلبته رائحة طيبها يشمه عن قرب ، وبهرته ، وعكف عليها يستنشق عبيرها ، وهو طرب به ، ورقت نفسه لذلك .

وتمضى القصة تحدثنا عما انتابه وهو يقلب يديه وحواسه بين شعرها ووجهها ، وحمرة شفتيها ، ورقة بشرتها ، وبريق عينيها الذى لم يكن قد زال عنها ، ثم انه ليرى صورته فى انسان عينها ، ثم يلمس بشرتها ، ويزيح

الثوب الحريرى عن جسدها ، وتروعه نعومة الحرير ينزلق على نعومة حية فى جلدها ، حتى غلبته طبيعة الرجل لأول مرة فسمع ضربات قلبه وفك أزرار ثوبه بيد غير متزنة ، ولا تلهى سرعة الأحداث أديبا عن وصف حالة البطل وهو يفك أزرار ثوبه ، التى علتها طبقات القذر فيجد فى ذلك صعوبة ، فيمزق الثوب .

ولم تكن جثتها قد بردت بعد ، فوجد فيها حرارة ونعومة ، وكأنما تفتحت أمامه الدنيا بلذاتها كلها ، « ثم كانت اللحظة الكبرى فدق لها قلبه وارتخت لها أعصابه ، حتى كاد يبكى من شدة نعيمه ، بهذا الذى لم يحلم يوما انه سيعرف قليلا منه » .

وانتابته فى هذه اللحظة عاطفتان : الأولى انه بلغ مرتبة الانسان ، وكان من قبل لايعلم الا أنه أقلهم شأنا ، والثانية عاطفة الانتقام من هذه الانسانية التى حرمته من قبل كل شىء ، فاغتصب منها فى دقائق كل ما كان عليه حراما .

وقام يصلح ثوبه ، وهو لا يدرى ما يفعل ، ولم يعنه كثيرا ما يحدث له بعد ذلك ، وفيما هو واقف شعر أن يدا قوية تأخذ بقفاه أخذا عنيفا ثم ضربه صاحب هذه اليد ضربة قوية ، وصاح به أهكذا فى عرض الشارع يا مجرم ؟ والتفت الى المرأة وهم أن يرفسها قائلا : وأنت يا .. ، وانحنى فرأى جثة ، ورأى ثوبها الممزق بجوارها ففهم ما حدث ، وأعياه الرعب عن الحركة وأقبل رجل الشرطة ، وسيق الشاب فأودعوه السجن فلم تزعجه من السجن قذارة حجرته ، ولا ضيقها فلم تقل عن حجرته التى قضى فيها أيام حياته ، وكان ايلام السجن أقل من تألمه لضرب أمه له .

ومرت بخاطره لحظتان ، لم يكن لغيرهما من اللحظات فى حياته مثل شأنهما : عندما قال له القسيس شكرا ، وتلك اللحظة التى كانت خاتمة ما تمتعت به حواسه كلها من لذة وجمال . ولم يكن يدرى من قبل لم جاءت به أمه الى هذه الدنيا ، أما اليوم فقد عرف سر ذلك ووجد لها عذرا .

وبلغ الخبر المحتفلين فراعهم ، ولم ينفع حرص الحريصين فى اخفاء حقيقته البشعة التى تلوث سمعة ابنتهم عند الناس ، وذاع بين الناس فى الصباح أن وحشا قتلها ليبلغ منها غاية قذرة ، وهم الناس أن يقتحموا السجن ، ليقتلوا هذا الوحش القذر فحيل بينهم وبين ذلك .

وجاءه من يحقق معه ، فلم يجبه فقال له « ان سكوتك اعتراف »

ونحن لا نريد أن نعرف الا شيئا واحدا : كيف قتلتها ؟ هنا اخذ صاحبنا يقهقه بصوت عال ليس فيه نبرة انسانية ، ويقول ، واذن فهي كانت ميتة وعلى ذلك لا أكون قد بلغت شيئا من لذات الحياة التى حرمتها من قبل ! واذا كانت هذه اللذات تشع من جمال ميت، فكيف ينعم الذين ينعمون بالجمال الحى ؟

ووقف المدعى يوم المحاكمة يترافع ويقول: «والطبيب الشرعى يجزم انها وهي بكر اغتصبت بعد موتها واثبات ذلك سهل عليه كما يثبت ان الجرح الذى يكون بعد الموت لا ينزف » • أما قوله : أهى كانت ميتة ؟ فلا أرى الا انه اخترعه اختراعا ، وأسرف فى دعواه فمن ذا الذى يبلغ به الجهل انه لا يعرف الميت من الحى ؟ ، والمدعى حريص على أن يثبت التهمتين على صاحبنا فيقول : ولو كان الأمر ضربا أفضى الى موت غير مقصود لألهاه الموت عن الامعان فى تحقيق غرضه الدنىء •

ويقف بنا أديبنا الكبير أثناء المحاكمة وقفات ست :

(١) الأولى أمام سيدة أصابها غثيان فظن الناس انه أصابها لهول ما تصورته عندما فعل هذا القذر فعلته ، وانما أثار حفيظتها ، انها ذكرت ليلة عرسها وكانت صغيرة السن رقيقة ، فأقبل عليها زوجها فى شـــدة وغلظة، حتى حسبته غولا ، وخيل اليها أن زوجها ليس الا (أورانجوتان) خرج من الغابة ليقتحم عليها أعز عواطفها ، وأرق طباعها ، وبأى حق يفعل ذلك بها ؟ أبحق الزواج ، وهو حق لم تكن قد تبينت بعد مداه وقسوته ؟ • وعلى هذا لم يكن حنقها على ذلك المجرم ،**وانما كان حنقها على مجرم محترم هو زوجها الذى يقعد بجانبها يعطف عليها •**

(٢) والثانية تتعلق بالقاضى نفسه حينما سمع المدعى يقول « ان هذا **المجرم نزل عن درجات الكلاب ارضاءلشهوة بهيمية** نزلت به الى الحضيض» فضرب مكتبه بقلمه عدة مرات وقال : السكوت من فضلكم ! بينما كانت القاعة هادئة تماما ليس فيها صوت ، وظن الناس ان القاضى أصـــــابه اضطراب لشدة ماسمعه وأكبروا ذلك منه، « وحقيقة الأمر أن القاضى لما عاد أمس الى منزله وجد امرأته وقد تجملت له وبلغت حدا كبيرا من الفتنة وخلت معه الى فراش وثير دافىء ورغبت اليه فتثاقل، فلما انتهى ما بينهما انصرف عنها فى برود لم يعجبها فدفعته برجلها وقذفته بوردة كانت قريبة منها ، وهي تحاول أن تجمع بين حنقها عليه ولومها له ، ومداعبتها اياه ، وقالت له انه يحب كما تحب الـكلاب ، وضحكت وضحك » ،

وتذكر القاضي موقفه بالأمس وهو **الراجـل المحترم يحب كمـا تحب الكلاب** • فضرب مكتبه بقلمه عدة مرات وطلب من الناس السكوت .

(٣) والثالثة أمام فتـاة اغمى عليها ، وظن الناس انها انما أغمى عليها لهول ما تصورت ، ولكن حقيقة هـذه الفتاة أنها تزوجت منذ عام **وكان في طبعها حدة** ، أما زوجها الشاب الذى كان **يجلس الى جوارها** ، فقد كان فى طبعه برود ، فكانت من حين الى آخر فى جلستها تأوى الى جانب **زوجها لتلتصق به** ، وتدير وجهها نحوه ، خوفا من أن **تدفعها الرغبة الى** الافصاح عن شوقها الى هذا المجرم ، ونسيت قصة القتل والموت ، ولم تذكر الا **رجلا تدفعه الرغبة الى المرأة ، أن يعرض نفسه للاعدام ، وغيره لا تحمله هذه الرغبة على ترك جريدة يقرؤها أو حديث تافه ينصت اليه** •

(٤) والوقفة الرابعة أمام واحد من المحلفين وكان رجـلا نشأ فى الجيش ، وكان قليل الارب من النساء ، حتى ان جنوده كانوا **يجتمعون** حوله يحكون مغامراتهم مع النســاء يبغون اغاظته ، وكان لا يفتأ ينظر الى **المجرم** وكانت نظرته فى الحقيقة **لا تخلو من احساس بالغيظ والدهشة أن يكون فى الانسان قوة تدفعه الى مثل هذا الفعل** •

(٥) والوقفة الأخيرة أمام سـيدة من المحلفين كانت **تلازمها حركة** مستمرة ، تضع بها علاقة ثوبها الداخلى على كتفها اليسرى ، وكانت **تحدق** النظر الى المتهم من آن لآخر ، فى غيظ يظن معه تأثرها الشديد لفعله ، وانما كانت تنظر تلك اللحظـة التى تشـفى فيها غليلها من ذلك المجرم وأمثاله ، وكأنها تقول لصاحبنا وهى تحدق النظر فيه :**أليس من أمثالك ذلك المجرم الذى أغوى ابنتى فجعلها تنسانى وتنسى أهلها وتهرب ؟** •

(٦) والمدعى بعد ذلك مازال فى مرافعته ، وقد وصل الى القول بأن هذا المجرم **وكان انســانا ثم نقمته نقمة الله فمسخته خنزيرا** ، **أو أقل** من ذلك ، والمتهم يرى الأمر على عكس ذلك فهو قد كان خنزيرا قذرا ينبذه الناس لا يعرف من عواطف الانســانية شـيئا **ثم عرف أجمل ما يعرف الناس** •

ويتساءل المدعى : أيكون مجنونا الى حد الغفلة عما يعمل ؟ **واذا كان** الجنون يدعو صاحبه الى أن يدنس فتاة بعد أن يقتلها فليكن جزاء هـذا الجنون القتل ، عندئذ يقول صاحبنا : لم أدرك أنها ماتت •

وبعد أن انتهى المدعى من دعواه لخص القاضى القضية للمحلفين فقال: « ويجب الا تحملكم شناعة الصورة التى قدمها الاتهام وسهولة تصديقها

واحتمال وقوعها على أن تقرروا أنهـا وقعت فعلا ، فقد تكون هناك صورة أخرى للحادثة أقل احتمالا وتكون مع ذلك هى الحقيقة ، والتهمة الأولى هى القتل فعليكم ان تفحصوا الوقائع فحصـا دقيقا ، فسبب الموت غير معروف الى الآن والخبير يقول انه لم يجد بها مرضا يحتمـل معه الموت المفاجىء وان القتل قد يحدث دون أن توجد له آثار فى الجسم كأن يكون اثر صدمة عصبية ، او ضربة قاسية ، وعندى انه يجب عليكم ان تقرروا هل ماتت هذه الفتاة بسبب فعل فعله هذا المتهم ، وان لم نعلم تفصيله ، أم انها ماتت موتا طبيعيا ، لا دخل له فيه ، ويعينكم على الحكم أن تبحثوا فى الدافع الى القتل ولم يعرف أحدهما الآخر من قبل ، ولا يمكن أن يكون بينهما ما يدعو الى القتل الا ما اعتزمه من اغتصابها :

(١) فان رأيتم انه أراد اغتصابها ، فلم يجد الى ذلك سبيلا الا القتل فهذا يعد قتلا **عمدا** ٠

(٢) وان رأيتم انه تربص لفتاة كائنة من تكون ليبلغ منها مأربا ، فهذا **سبق اصرار** وان لم ينصب الاصرار على هذه المقتولة بالذات ٠

(٣) وان رايتم انه ضربها فماتت على غير ما أراد ، ثم جن جنونه ، فارتكب ما ارتكب فهذا **ضرب أفضى الى الموت** ٠

ولعل واجبكم يتضح أمامكم ، اذا بحثتم هل قتلها ليغتصبها أو قتلها واغتصبها ، فالأول قتل عمد مع سبق الاصرار ، والثانى ضرب أفضى الى الموت ٠

وحكم على صاحبنا بالاعدام ، فأخذ الى المشنقة وجاءه قسيس المدينة (وهو الذى دفع اليه البنس) فركع بجانبه وقال « اذا كان القاضى يابنى وقد نسى أو تناسى أن يستنزل على روحك رحمة الله كما يفعل القضاة منذ الأزل وذلك استفظاعا لجرمك ، فانى أدعو الله أن يرحمك فرحمته أوسع من عدل الناس ، لم تكن شريرا بل كانت فيك جذور الخير فمنعوها أن تنبت فى نفسك ، وانما تركوك عطلا من الخير فكنت نهبا للشر العارض ، ان جناية المجتمع عليك أكبر من جنايتك عليه ، وانما أردت أن تشعر ببعض ما حرمناك من شعور انسانى » ٠ عندئذ يقول قسيس السجن لقسيس المدينة : « أتلتمس الرحمـة لمثل هذا ؟ » فيرد عليه قسيس المدينة : « انى أشعر شعورا عميقا ان الله سيغفر لهذا الذى قتلتموه بأيديكم لا تعلمون أيرضى الله عن ذلك أم لا يرضى » ٠

ويختم القصة ذلك القول الرائع « من الناس من هم قريبون جدا من النار ووجوههم شطر الجنة يبغون بلوغها ويسعون اليها ، ومن الناس من هم قريبون جدا من الجنة وهم زاهدون فيها ووجوهم شطر النار » .
ثم يجيب أديبنا على سؤال السائل فى أى الفريقين تضعه : « انما قتله الحرمان وأنت وأنا والناس جميعا مسئولون عن حرمانه » .

قصة جريمه شنعاء التى عرضناها فى الفقرات السابقة عمل أدبى رائع توافرت له من مقومات الجودة : عناصر الحبكة ، والأسلوب ، والفكر ، والعرض الشيق ، والمأساة الانسانية .

وأديبنا الكبير وهو موكل بالجماعات على نحو ماذكرنا لايبرىء الجماعة من جريمة هذا المجرم الشنعاء بل انه يحاول أن يلقى بتبعتها (على لسان قسيس المدينة) على المجتمع .

وكان يستطيع أن يجعل القاء التبعة على المجتمع من عمـله ولكنه عندما أضاف هذا العمل جعله من رأى الدين ، أو قل انه ألصقه بالدين على نحو ما .

أما المرض الذى يعانيه (البطل) وهو السبب فى الجريمة فيجربه أديبنا على لسان طبيب (ولعله أراد بذلك أن يكون أفصح تعبيراعن نفسه) حين يقول لمحامى الدفاع : « انما مرضه افلات الزمام (اللاكيمية) عند ذلك تبلغ الطبيعـة غاياتها ، والذى يمنـع النـاس أن يبلغوا بطبيعتهم البيولوجية غايتها انما هو الصفات الانسانية وما تحمل المدنية من قوة الكبح ، وكل مدنية تمتاز بأنواع الكبح الذى تضعه أمام الغرائز ، فهل وضعنا من الصفات الانسانية والمدنية فى نفس هذا الرجل ما نرجو معه كبح غرائزه ؟ » ، فيسأل المحامى : أهذا هو ما تسمونه الكبت ، ويجيب الطبيب: «ولا هذا هو مانسميه الحرمان أما الكبت فهو صراع بين مايجب وما لا يجب ، وفهم الجمهور للكبت الجنسى على انه شىء يزول بمجرد ارضاء هذه العاطفة رأى خاطىء ، أدى الى فساد واباحية ، يدعون أن لها أصلا فى علم التحليل النفسى ، والحقيقة ان الكبت صراع ، وقد حرمناه مقومات الكبت فاندفع » .

ويستمر الطبيب فى حديثه فيقول :

« الموت في هذه الحادثة عارض لا يتعلق به جوهر الجريمة وهو شـدة الحرمان وانعدام القوى الرادعة التي لا تكون الا بتمام الانسانية والمدنية »

ويحدثنا عن أصل الجرائم الانسانية العاطفية في الذكر والانثى فيقول : ان أصلها في الانسـان الحرمان ولكن النـاس يعرفون كيف يقاومونه وهم يرون هذه العاطفة تستحق تضحيات كثيرة ، ولكن أكثرهم لا يرى أن تبلغ به التضحية ان يتعرض للسجن وهي على شدتها لا يعجزهم الانصراف عنها الى حين » . « أما النساء فأصل جريمتهم العاطفية خيبة أملهن في تحقيق أحلام اليقظة التي هي من طبعهن في سن بعينها حتى اذا تبين لهم انها ليست الا اماني وان الواقع أبعد مايكون عن هذا الحلم اضطربت نفوسهن ، واكثرهن ذاق الأمرين من جهل الرجال » . وقد تكون هذه الآراء مثار نقاش وجدل ، وهي بلا شك لا تمثل الحقيقة تمثيلا دقيقا . الا انها على كل حال تعبير عن تصور معين يساعد على تفهم الحقيقة .

أما ان هذه القصة فريدة ، فالأمر راجع الى أن الذي كتبها طبيب وقد استعان ما شاء الله له أن يستعين بعلمه في تصوير الحوادث فجاء تصويره للحوادث دقيقا ، علميا صادقا ، مروعا على نحو لم يتهيأ لقصة في هذا المضمار من قبلها ولا من بعدها في أدبنا المعاصر . ألم يضربها « ضربة حسبها خفيفـة تخيفهـا من دون أن تؤذيهـا كثيرا » عنـد ذلك ارتخت عضلاتها .... وأحس ثقل جسمها » . وهكذا يكني أديبنا بما أوتي من الطب عن الموت بأعراضه ، ويأتي هـذا في صلب القصة عرضا دون تكلف ودون ايغال في التفصيلات الطبية التي لا يدركها الغالبية فتجد نفسك مثلا لحظة موت الفتاة قد فهمت انها ماتت ، ولم يفهم القاتل ذلك بعد . وهو يجري الحكمة على لسان القاضي يقول للمحلفين ان القتل قد يحدث دون أن توجد له آثار في الجسم كأن يكون أثر صدمة عصبية او ضربة قاسية .. الخ) .

والقصة بعد ذلك تكشف لنا عن جانب في كامل حسين لم نعرفه الا منها هو علمه بالقانون ، والفقرة التي تتضمن حديث القـاضي الى المحلفين بالاضافة الى النصوص المتتالية من كلام المدعي تحفـلان بفهم قانوني أصيل .

على أن أديبنـا على عادته في « قرية ظالمة » لا يأتي بالشخصـيات الا للتعبير بها عن أفـكاره وآرائه فأم المجرم التي حدثنا عنهـا في بداية القصـة سرعان ما تختفي ، ولا أظن قصاصا كان يضـحي بمثل هـذه الشخصية بمثل هذه السهولة دون أن يتخذ لها موقفا دراميا في النهـاية على أقل الفروض .

● قوم لا يتطهرون ●

(١)

كانت المقاومة المستترة التى ناوأ بها الفرنسيون الاحتلال الالمانى عملا رائعا تجلت فيه الوطنيةالصادقة والشجاعة والتضحية، وكان على رأس هذه المقاومة شاب عرفه الفرنسيون كافة باسم روبير على عادتهم ، فى تسمية أبطالهم بأسمائهم الصغرى اظهارا لحبهم واعجابهم •

عجز الفرنسيون عن التغلب على القوة الحربية للألمان ، ثم وجدوا فى المقاومة ما يخفف عنهم عبء الهزيمة واستطاع المقاومون أن يهزءوا بالألمان، ويسخروا منهم، وتبين للناس أن الألمان لايزالون أجفى طبعا، وأبطأ تفكيرا من أن يفطنوا الى ما يدبر لهم الذكاء الفرنسى من ألوان المقاومة • وكان الألمان فى نشوة النصر وعزة النجاح يظنون أنهم تفوقوا على فرنسا المنحلة تفوقا تاما •

وكانت الأمة الفرنسية فى ذلك الوقت وقد أفسد الاحتلال من تفكير رجالها وأخلاقهم ، واختلط عليهم أمر الوطنية والخيانة ، واضطرب تفكيرهم اضطرابا عنيفا ، أضف الى ذلك الانحلال والعهر الذى أصاب أخلاقهم كلها حتى لم يبق للفضيلة عندهم معنى محدد •

والمحن القومية تزيد من ضعف الضعيف ، وتشحذ همة القوى ، وقد أظهرت المقاومة ما خفى من فضائل الفرنسيين فكان المتطهرون والمتدينون والمتمسكون بمجد فرنسا وعظمة الكثلكة أسبق الناس الى الخضوع والاستسلام ، وكان الشباب المستهترون العابثون الذين لا يعبأون بخلق أو دين أو فضيلة والذين يلذون العهر والتهتك هم عماد المقاومة وسر نجاحها ، وحار المفكرون الفرنسيون فى تقدير الفضيلة والرذيلة وكيف لا يحارون وهم يرون أفاضل الناس يتهافتون على الخنوع ، ؟ والغارقين فى الرذيلة يتهافتون على التضحية وقويت بذلك حجج الذين يؤمنون أن الفضائل الفردية لا تمت الى الفضائل العامة الدينية •

وتحدثنا القصة بعد ذلك عن المبالغة فى شهرة الفضائل والرذائل عند الفرنسيين ، وعن مثلهم الأعلى وهو الذكاء وهو الذى دفعهم الى الاعجاب بروبير أليس هو الذى جعل المطبعة السرية فى أسفل مبنى ضخم فيه مكاتب الجيش الألمانى ؟ وأليس هو الذى جعل للمقاومة نظام الخلايا المستقلة ؟ وهكذا صار روبير اسما تحاك حوله الأساطير وينسب اليه كل عمل جليل ، وأصبح روبير عنوانا على الذكاء والشجاعة وسعة الحيلة .

(٢)

نشأ روبير فى بلد جبلى جميل يأوى اليه عشاق ألعاب الشتاء حيث يحدون فيه ما يمتعهم مما تقصه علينا القصة . ولم يكن له حظ من هذه الحياة المتألقة الباهرة ، وكان أبواه يملكان حانوتا للعاديات ثم مرضا وكسدت الحالة ، وهكذا نشأ فقيرا ، ولكنه كان يراهما مسئولين عن حرمانه وشغف روبير بالحياة الصاخبة الجميلة من حوله فكان يدور حول الفنادق يلصق جبهته بنوافذ صالتها من الخارج ليرى ما يدور فيها من رقص وشراب وطعام وما يتبع ذلك مما لايتحدث عنه الناس الا همسا ويظل على هذه الحالة ساعات ، وبقى على ذلك دهرا .

ولم يكن روبير حاقدا على الذين يحيون هذه الحياة وانما كان يريد أن يتمتع مثلهم بهذه الصنوف ، فقد كان يرى نفسه أحق منهم بها ، ولم يكن روبير يؤمن فى قرارة نفسه بالعواطف الاشتراكية ولم يكن أساسه فى يوم من الأيام قائما على العاطفة وكان يعرف ما يعرفه أكثر الناس من أن الفقير أقسى على من هم دونه بقليل من الغنى الذى يعلوهم كثيرا فسائق السيارة الفخمة أقسى على المشاة وأكثر ارهاقا لهم وتهديدا من صاحب السيارة . ولم يكن يرى أن للقوى على الضعيف فضلا ولا أن للغنى على الفقير حقا أن يستأثر بلذات الحياة ونعيمها ، ولا أن للذكى على الغنى ميزة التفوق والتمتع بكل ما يؤهله له ذكاؤه ولو حرم الغنى فى سبيل ذلك كل حق انسانى .

وفيما هو ذاهب الى باريس أول ذهابه للجامعة دخلت الفلاحات على جهلهن عربات الدرجة الأولى من القطار فأتى صاحب الدرجة الأولى وساءه منظرهن ، وجاء الكمسارى فطردهن منها وأغلق صاحب الدرجة الأولى الباب فأحدث صوتا وجد فيه روبير معنى عميقا رأى فيه أن هذا بدء التفكك فى الروابط القومية اذ أصبح ما بين الغنى والفقير فى الأمة

الواحدة أبعد كثيرا مما بين أغنياء أمة ، وأغنياء أمة أخرى ، ورأى روبير أن تماسك الطبقات المتشابهة فى الأمم المختلفة يؤدى حتما الى تفكك عرى الوحدة بين طبقات الأمة الواحدة فكان ذلك الدرس أول درس عملى يتلقاه عن حقيقة الشعور الطبقى .

(٣)

ودخل روبير الجامعة أو قل دخل الحياة الباريسية ، وباريس عاصمة كل من لا يستهويه الا الذكاء والقوة والجمال ، ومن لا يعنون الا باللذات والمتعة ومن لا يقيمون للطهر وزنا ، وكل من يزعجهم العهر ، وهى على هذا كعبة كل من لا يفهمون التحريم . أما روبير فى باريس فلم يؤلمه شىء مثل حرمانه صحبة الفتيات المرحات العابثات الساعيات وراء الغنى والترف وكان يسكن حجرة صغيرة فى مبنى قديم وكانت تسكن أمامه فى مثل حجرته فتاة تعمل كاتبه عند مدير شركة كبيرة وكانت تكبره ، ولم يكن لها حظ كبير من الجمال أو الرشاقة أو التأنف .

وراق لهذه الفتاة أن تتعرف اليه ، وكانت قد ادخرت قدرا من المال لا بأس به تتقى به الغوائل وبؤس الشيخوخة ، وأخذ روبير يصحبها الى المقاهى القريبة ، ودور الغناء والتمثيل ، ودعاها الى أن تغنى بهندامها وزيها حتى تبين لها أنها لم تخطىء حين وضعت بعض مالها فى يد هذا الفتى

سر روبير غاية السرور ان وجد السبيل الى ما كان يحلم به ، وأخذ بعد شهور يعرف غيرها ويعرض عنها ، ولم تغضب ولم تحنق ورضيت منه بالصحبة والعشرة . ومرضت هذه الفتاة وكان المصابون بمرضها — على مايعلم الأطباء — أشد الناس رغبة على مايكون فيهم من ضعف ، وان المرض ليزيدهم احتراقا على احتراق ، ودخلت بعد أشهر مصحة فى ضاحية من ضواحى باريس وظل روبير يزورها على فترات متباعدة وكانت تلقاه فى كل مرة باشة مرحة .

ولما دنا أجلها زارها القسيس فاعترفت له بكل ما حدث لها منذ عرفت صديقها روبير فالير وما فعله بها وقالت للقسيس أنها ليست غاضبة على هذا الصديق ، ثم كتبت الى صديقها فذهب اليها فوجدها قد ماتت ولم تكن قد دفنت بعد ، ورفس روبير بقدمه السلم القذر الذى صعد عليه الى أول درجات النجاح ولم يعد يفكر فيه أو يذكره ، وهى شنشنة معروفة فى جميع من يصابون بما يسميه المؤلف داء الأذكياء .

(٤)

وجد روبير عملا فى صحيفة يسارية عرفت بمناصرتها للعمال وكان صاحبها من نوابغ الصحفيين · وساعد روبير على النجاح فى عمله قدرته على التهكم اللاذع ، وقوة أسلوبه فى الدفاع عن قضايا العمال ·

وحدث أن أضرب عمال مصنع كبير وكان من الطبيعى أن تقف الجريدة الى جانب العمال فى موقفهم ، ولكن صاحب الصحيفة يطلب الى روبير أن يحمل على العمال حملة عنيفة ، وذهل روبير وسأل صاحب الصحيفة وكيف نستطيع أن نسوغ تنكرنا لمبادئنا ؟ فأجابه بقوله : ليس فى فرنسا صحفى أو سياسى يبلغ به الغباء ألا يجد مبدأ ساميا يبرر به عمله ويقدمه للناس على أنه الدافع الأسمى لموقفه مهما يكن موقفه منحطا ، والمبادىء السامية كثيرة جدا ولن نعدم منها واحدا نستتر به كل موقف نتخذه، وليكن مبدؤنا هذه المرة هو الدفاع عن الاشتراكية، فالقضاء على الاشتراكية والعمال لن يكون الا عن طريق الخطأ ، يقع فيه العمال حين يريدون أن يتحكموا فى الجمهور فيفقدون عطف الرأى العام تجاه قضاياهم وحقوقهم ·

كانت فلسفة صاحب الصحيفة كما قال لروبير ولزملاء روبير :ان علينا الا نجعل أعداءنا ييأسون من نصرتنا لهم حين وآخر اذا أحسنوا التقرب الينا » · وخرجت الصحيفة تهاجم العمال ولما علم العمال ذلك ارسلوا مشاغبين يرمون مبنى الصحيفة بالحجارة وظن روبير أن صحيفته ستضار من جراء ذلك .

ولكن صاحب الصحيفة يرسله الى مدير الشركة الذى يبعث شاكرا للصحيفة نصرها قضية العدل الوطنية ويأتى بمال يمكن من اصلاح ما أفسده المخربون ، أما نقيب العمال وبعض صحبه فيأتون يعتذرون لصاحب الصحيفة عما فرط فى حقه من بعض العمال المشاغبين ويعدونه أن يساعدوه على الاستقلال المالى ، ولم ير النقيب بأسا من أن يشارك رئيس التحرير فى بعض ما قررت له النقابة من مال أخذ من العمال المساكين لغير هذه الأغراض ، وأما وزير الداخلية وكان صديقا لصاحب الصحيفة فقد اعتبر الصحيفة حارسة للقضايا العادلة واستطاع أن يحصل لها على تعويض من الدولة ، وكانت مناورة ماهرة ولم يكن يهم صاحبها انها مكشوفة ما دام المجتمع يقبلها فالمهم أن تنجح المناورة فاذا نجحت صفق لها الناس ، وكان الرجل يقول للمحررين من أمثال روبير ان الاشتراكية لن تضار بمناورة كهذه ، فاذا حدثوه عن الاخلاق العامة قال :

« وهل تستطيع أن تدلني على رجل فى فرنسا اليوم نجح لمتانة أخلاقه ، انما النجاح للذكاء والمهارة وأكثر الذين يطفون على سطح هذا المجتمع يطفون لما يكون فيهم من بعض العفن » . وكان يقول ان الوطنية فى الجمهورية الثالثة تشبه حبنا لنسائنا ، وحديثنا عن التضحية والاخلاص لقضية ما لا يمنعنا أن نخون هذه الحبيبة مرة أو مرات دون أن يؤثر ذلك فى اخلاصنا لها » وهكذا رأى روبير نفسه أمام رجل عرف المجتمع الفرنسى ، والمجتمع الفرنسى لا يرى فضيلة فى غير الناجحين .

(٥)

عرف صاحبنا ألوانا من النساء ، فكان يرى فى علاقته بالكثيرات منهن انتقاما لحرمانه الذى كان أقسى من أى حرمان آخر لأنه يصحبه احتقار المرأة له فهو مصحوب بألم المهانة والفشل ، أما المقربات اليه فكن ثلاثة :

(١) **روزالين** : وهى شابة عصبية لها من حدة الطبع نصيب كبير ومن قوة الغريزة حظ وافر، وكانت لها طبيعة الاناث فى كل الحيوانات كان فى خلقها حدة ولم يكن فيه عهر ، ومثلها مهما خالف العرف يظل طاهرا الى حد ما ، وهن (أى نوعها) أكثر النساء تعرضا للسفلة من الرجال ، فان وفقت الواحدة الى رجل طيب أصبحت زوجة مخلصة وأما طيبة .

(٢) **جاكلين** : وكانت من المحنكات المغامرات ، ورثت من زوجها ثروة كافية وكان فى طبعها برود يكسبها قوة وعزما عند صراعها مع رغبات الرجال ، وكثير من نساء التاريخ الشهيرات كن على جانب كبير من البرود ، وهذا النوع خطر جدا على الرجال وكانت جاكلين تعلم أن روبير ليس من طبقتها ، فقد كان فى نشأته جفاف وفى تقربه الى النساء جهل . وانما أعجبها منه هذا الاختلاف ، ومن النساء من يجذبهن قبح الرجل أو جهله أو مجرد اختلاف طبقته ، وأعجبها منه أنه كان ذكيا ، وقد كان زوجها الأول دون المتوسطين ذكاء وعلما فكان يخجلها فى المجتمعات .

أما روبير فكان يجد فيها كل ما حرمه من قبل ، وكل ما يتمناه مستقبلا فقد كانت جاكلين مثال الأناقة ، والرقة ، والرشاقة ، والذوق .

(٢)دينز : وكانت أجملهن ، وكانت من ذلك النوع ذى النجاح الجنونى الذى مرجعه الى سهولة التمتع بهن وقد كانت رهن اشارة روبير دائمـا فى غير ارهاق له • ولم يكن روبير فى شـبابه يظن أن هناك من النساء من هى كذلك •

(٦)

وقامت الحرب وانهزمت فرنسا وتبين للناس جميعا ما فى الجمهورية الثالثة من خور ، وادراك المفكرون كيف يمـكن ان يكون الانحـلال فى الأخلاق الفردية سببا فى الانهيار التام ، وأصبح لروبير شأن فى المقاومة فجمع الشباب حوله من أجل مقاومة المحتلين • وأصبح روبير هدفـا للمخابرات الألمانية •

وكان القائد الألمانى فى المنطقة التى كان فيها روبير هو الكولونيل فرتز وكان ذا قدرة فائقة على التودد الى النساء ، وجنت به جاكلين وكانت لا تفتـأ تذكره لروبير وكانت تصـفه له فتقـول « انه يحب كما تحب الآلهة » ، وزادها اعجابا به انه كان يحسن الفرنسـية ، والفرنسيـون مغرمون بلغتهم حتى يبدو لك وكأن جمال فرنسا مقصور على جمـال لغتها ودقتها •

وجمال اللغة يكون مصدر قوة كما يكون مصدر ضعف حين يلهى اهلها عن الواقع فيلتفتون الى العناية بلغتهم ويوجهون حدبهم عليها • وكان روبير يبدى غيظه لعلاقة جاكلين بالقائد الألمانى وكانت تقول له : ان الحب علاقة أقل من أن تتعلق بها وطنيتها •

وجاءها يوما الى بيتهـا فوجدها قد ظهرت له على خير (أو قل على شر) ما يكون الاغراء وأخذت تحادثه حديثا عن الخمر وطبائع المحبين لها، وجعلت تنتقل بالحديث تنصحه حتى انتهت الى بيت القصيد فنصحته أن يكون لنفسه ثروة ، وأخبرته أن عندها الطريقة الى ذلك، ولم يكن السبيل الا أن فرتز يريد أن يحصل على الشفرة ، عندئذ ثار روبير وقال : تريدون منى أن أخون فرنسا ! فتهدىء جاكلين من ثورته قائلة : ألا يكفى فرنسا ما تعرضت له فى سبيلها حتى الآن ؟

وما زالت جاكلين به وما زال بها يتجادلان جدالا عنيفا يرى فى انشائه سر الشفرة نهاية وطنية وحبه لفرنسا ، وتريه هى انه لا يساوى شيئا بغير ذكائه وتقنعه بذلك فتقول له أن الوطنية فضـيلة اجتمـاعية

والرجل لا يكون وطنيا فى جزيرة ليس فيها غيره» ويكفى لتحقيق الوطنية أن يعلم الناس عنك أنك وطنى ، ومن الذى ينكر عليك ذلك فى فرنسا كلها؟ ولن يضير مجدك الوطنى فى شيء أن تطمئن على حياة ناعمة لاتحققها البطولة الفقيرة » . ثم تصور له الواقع الأليم الذى ينتظره اذا لم يأخذ بنصيحتها فتتذكره أن ما تعده فرنسا لأبطالها الفقراء لا يزيد عن مقعد محجوز فى المترو لمشوهى الحرب ، وشعلة باسم الجندى المجهول، وحفلات مشهودة لا يقربها أبطال الحرب وانما يقربها الأغنياء الذين لم يذوقوا ويلات الحرب .

فاذا حاول أن يستنكر عليها أن تتخذه قربان حبها لفرتز قالت له « انك مأخوذ لا محالة .. وسيكون هناك وطنى آخر معزز مكرم أعطى ما أبيت اعطاءه بينما تكون انت فى غيابة السجن » ، ثم تقول له وماذا تجنى من عنادك ؟ فيرد عليها بقولة الفرنسيين المأثورة « هناك فرنسا لابد أن نحيطها جميعا بالعناية » ولكن نبرات صوته لم تكن تدل الا على عدم اقتناعه بهذه العبارة شأنه فى ذلك شأن كل فرنسى فى ذلك الوقت .

وتعود جاكلين لتنبهه الى أن خيانته لفرنسا هذه المرة لا تنقص من حبه لها ثم تفيقه بطريقة أخرى حيث تقول «ثم ماهذا الغرور ؟ أتظن أن مجد فرنسا معلق على ورقة فى حيازتك ؟ » وتستمر على هذا المنوال الى أن تقول له انه طفل فى كل شيء : فى حبه للنساء وفى ..؟ فلا تكن طفلا الآن » .

ثم تلمس وترا حساسا فى نفسه عندما تقول له « أتحدثنى عن الضمير والأخلاق أتظن أنى لا أعلم ما فعلته بالمسكينة التى أخذت أموالها ولعبت بها يوم دفنها » وحار روبير كيف عرفت هذا الأمر ، ثم أنها خرجت من ملابسها ثائرة فحاول لغبائه ان يقربها فثارت عليه وأمرته أن يخرج من عندها فخرج مدحورا .

ورأى روبير نفسه بين طريقين. طريق التضحية والبطولة ولن تفيده التضحية ولا البطولة شيئا ، ثم أن غيره سيفشى السر ويفوز بالنتيجة . وطريق الغنى وهى طريق لا تحرم من المجد وفيها الجزاء الحق على ما قام به فى حركة المقاومة .

ولم يكن عند روبير احساس بالفضيلة تلتمس لذاتها فكان طبيعيا أن يفضل الطريق الثانى .

وذهب اليها فى اليوم التالى فوجدها على هيئة مختلفة عن هيئتها بالأمس ولكنها لا تقل عنها اغراء فلما كانت بين يديه نظرت الى أظافره وقالت له أن أظافرك غير نظيفة ، وآلمته هذه الكلمة كثيرا وافترقا راضيين وقد تبين لهما أن جسديهما توافقا لأول مرة ، وأن تفكيرهما أصبح قريبا جدا بل أن روحيهما لم يعودا بعيدين كما كان من قبــل • وغادر روبير حجرتها وقد ترك لها ورقة على ما ئدة بجوارها ففهمت جاكلين أن فى الورقة ما عنته ، فدستها فى حقيبة وخرجت مسرعة •

ثم ان القائد الألمانى أخبرها أنه قد أودع لها وله مبلغــا ضــخما من المــال فى بنك ســويسرى ، وقضى روبير أياما كالمريض ، وغاب عن الاجتماعات، ولقيته جاكلين ذات مرة فأكدت له انها رأت الشيك يرسل وحذرته أنه سيقبض عليه ويودع السجن ، ولكنه لن يمس بأذى ولن يطول عهده بالسجن •

(٧)

كان كبار زعماء المقاومة يجتمعون فى الكنيسة وكان القسيس — وهو واحد منهم — أشدهم اخلاصا ، وكان يعلم عن روبير الشيء الكثير فهو الذى أعطى القداس الأخير لسوزى وهى الفتاة التى كانت لروبير بمثابة السلم الى النجــاح ، وكان القسيس حائرا فى أمر هؤلاء الشــبان وكان لا يفتأ يسأل نفســه : أيكون العهر ضروريا للتمتع بشيء طبيعى ؟ أتكون القذارة شرطا فى اللذة ؟ ثم كيف يجتمع كل هذا العهر مع التضحيــة الواجبة للمقاومة ؟ •

وكان يعجب أن يجتمع فى هؤلاء الشبان غاية القذارة وغاية السمو الخلقى وكان يســأل نفســه ، أتضحيتهم تفكير عما يقترفونه ؟ واضطر صاحبنا القسيس فى النهاية الى الايمان باجتماع مثل هذه المتناقضات هذا الاجتماع الغريب •

أما من هم أقل شأنا من أفراد المقاومة فكانوا يجتمعون فى حجرة تقع أسفل مقهى • وكان جرسون هذا المقهى ضجرا يعتقد أنه خلق لعمل أرقى من عمله ، ولم يكن فى اعتقاده هذا غرابة بل انه اعتقاد كل فرنسى ويكادون يكونون جميعا على هذا الرأى ، ففرنسا أمة لا تكف عن الحديث عن الجمال والذوق والرقة ، ولكن (والوقفة هنا لأديبنا) هل يمتد هذا التبــاعد بين جمــال القول وقبح الواقع الى الحياة العامة فيكون ايمانهم بالوطنية شيئا وتضحياتهم من أجلها شيئا آخر يختلف تمام الاختلاف ؟

والحقيقة أن فرنسا لم تكن بدعا بين الأمم فى ذلك وانما كان ذلك فيها أوضح فى ذلك العهد .

وجلست روزالين فى عصبية شديدة ، ولفت مدرس من المنتمين لحركة المقاومة نظر زميله الى جمال روزالين فى ذلك اليوم ، ثم أظهر له رغبتــه فى أن تــكون روزالين له وحده فقــال له المدرس فلتحكم هى ، وسأعرض عليها الزواج وحذره صاحبه أن يكون زواجه لهــا عن حب عارض لا يســتديم فقــال له المدرس ان المغفلين هم الــذين يريدون من زوجاتهم أن يكن دائما فاتنات كما كن يوم أحبوهن ؟ ويكفينى منها أيام معدودات فاذا خبت نارها التمست ما أبتغيه عند غيرها .

ولم يكتم صاحب المدرس عنه استنكاره لما قال فقال له أليس هذا غاية العهر ؟ ولكن المدرس أخذ يقنعه أن كلامه هذا مكانه الكنيسة وأولى به أن يصدر عن قسيسها .

ورأيا دينز مسرعة على غير عادتها ثم جاءت اليهما فأخبرتهما أن روبير يقبض عليــه ، ثم ذهبت الى روزالين فأخبرتها الخبر وأكدت لهــا ـوليس ذلك غريبا عليها وهى لا تتمتع من اللياقة بحظ كبير ـ أنها كانت على موعد مع روبير فى تلك الســاعة وان علامة كانت بينهمــا أن يترك شباك نافذته مفتوحا بعض الشىء .. فثارت ثائرة روزالين على روبير الذى كان واعدها أن يلتقى بها فى المقهى فى تلك الساعة .

وقاموا لتوهم حتى قاربوا بيت روبير فوجدوه وقد ركب السيارة الى جانب الكولونيل وضابط المباحث ولم يكن هناك شك أنه مقبوض عليه ، وعندما مرت السيارة أمام روزالين صاحت قائلة : خائن ! ولم تكن تقصــد الا خيانة الحب حين واعدها فى المقهى وواعد دينز فى منزله فى نفس الموعد ، وخيل الى روبير أنها تعنى خيانته لوطنه فمادت به الأرض وأسقط فى يد الكولونيل .

(٨)

سارت الحوادث فى منزل روبير فى عصر ذلك اليوم على النحــو التالى : فاجأت المخابرات الألمانية روبير فى منزله ، وقال له رئيس المباحث أنك مقبوض عليك ياسيدى لأنك متهم بالتآمر على الرايخ ورد عليه روبير قائلا : « انى لا أنكر كرهى وعدائى الشــديد لألمانيا ، ولكنى لم أتآمر

ولم أقتل » ، وعندئذ تدخل الكولونيل فرتز فأمر ضـابط المباحث أن يذهب فيفتش فى الشقة عما قد يفيد التحقيق ثم دار بين فرتز وروبير حوار حول حرق الأوراق وتمنى روبير عندئذ لو كان موقفـه غير موقفه اليوم اذا لكال للقائد الألماني من الاحتقار ما يشاء ٠

كان فرتز من طبقة معروفة فى الجيش الألمانى اسمها (اليونكر) وكانت سلالة اشراف قدماء ، وكان روبير يغبطه على اطمئنانه الى حياته ٠ وقد تبين لروبير أن طبقة الاشراف على حمقهم ، وجهلهم ، وظلمهم لم تكن خالية من بعض نواحي المروءة والكرم والشهامة وأن فرنسا خسرت كثيرا حين قضت على هذه الطبقة واستبدلت بها العصاميين النوابغ الخاضـعين لماض مزعج من الحرمان ، ولمستقبل لا تؤهلهم له قدراتهم ٠

وسـأل فرتز عن الأوراق التى أحرقها فقص عليـه روبير أنه كان يكتب قصة ضابط فى جمرك جاءه من يرشيه ليهرب بضـائع فى تلك الليلة ، ولم يكن الضابط يعتزم النزول للتفتيش هذا اليوم ٠٠٠ الخ) وأنه كان حائرا فى أمر نهاية القصة أيجعل نهايتها الشرف والأمانة أم الخيانة ؟ ومازال امر هذه النهاية يشغله يوما بعد يوم كلما كتب لهـا خاتمة لم ترقه فمزقها وحرقها ، وهنا سأله فرتز وماذا أحرقت اليوم ؟ فأجابه روبير : أحرقت خاتمة الشرف والأمانة ٠

وقال له روبير ضمن ما قال لعلك ياسيدى تعلم أنى من كتاب القصة القصيرة فقال له فرتز أنى من المغرمين بالأدب الفرنسى يا سيدى وقـد قرأت لك قصـة كانت بطلتهـا تدعى جاكلين فأعجبت بالقصـة ايما اعجاب ، حينئذ اطمأن روبير عندما سمع اسم صاحبته ، وكانت قد جعلت من ذكر اسمها امارة له على نجاح خطتها ٠

(٩)

وبدأت عقب القبض على روبير حملة اعتقالات واسعة « وكان واضحا أن أحدا قد خان » وأخذ روبير الى سجن غير سجن زملائه فظنوا أن الأمر لايعدوا أن يكون معاملة حسنة له كقائد على عادة الجيوش التى تعامل قادة الأعداء معاملة خاصة الا القسيس فانه شك فى أمر روبير ، وحوكم روبير أمام محكمة ألمانية وحرص الألمان على أن يعرف الفرنسيون ما يدور فى المحاكمـة وتبين للمحكمـة أنه لا توجد ورقة واحدة تدينه ، وأثير أمام المحكمة أمر الورق الذى أحرقه عند وصول رجال المباحث ، ولكن المحكمة تبينت أنه لم يكن لروبير أن يعلم موعد قدومهم من قبل وأن الهجوم عليه

كان خطفا حتى أنهم وجدوه جالسا يكتب الى مكتبه ، ثم أنه قد تبين من فحص بقايا هـذه الاوراق أنها تتعلق بالقصـة كما قال روبير وحـكمت المحكمة الالمانية ببراءته .

وذهب ضابط المباحث يخبر الجنرال بشكه فى سلوك الكولونيل وكان الجنرال يعلم كل ما فعله فرتز فطمأن ضابط المباحث ونصحـه ألا يشك أبدا فى كبار الضباط الألمان فهم من طراز لا يمكن أن يخون ألمانيا ولو اجتمعت عليهم من أجل ذلك فاتنات فرنسا جميعا .

وصمم القسيس على أن يحاكم روبير أمام المحكمة السرية لحركة المقاومة الفرنسية ونظرت المحكمة فى أمره فلم تأبه لعلاقته بجاكلين ولم تاخذ بالقول عن حسن معاملة الألمان له . ثم ان روبير قال للمحكمة انه أحرق أوراقه السرية كلها قبل مجىء الألمان وعجب الناس له كيف عرف موعد مجيئهم ، فقـال روبير : كنت أطل من نافذة صـغيرة فتحتها فتحة صغيرة جدا فرأيت أول جندى من الألمان فأحرقت الأوراق احتياطـا . وشهد كل من دينز وروزالين والقسيس على أن حكاية النافذة صحيحة . وبرأته المحكمة الفرنسية .

ثم أن الدائرة دارت على ألمانيا وتحررت فرنسا وأصبح روبير من أبطال المقاومة ورأى أن ينعم بالراحة واختار « سان مورتز » وكانت ملتقى كبار الأغنياء وعظماء المترفين وفاتنات السينما ورجالها فى ذلك الوقت واقتنى روبير سيارة كبيرة وسائقا خاصا .

وفيما هو فى طريقه الى « سان مورتز » وقف السائق يصلح من امر السيارة ونزل روبير يتجول وحانت منه التفاتة فوجد المدرس الذى كان رفيقه فى المقاومة واقفا بدراجته ويقف أمام مقهى على الطريق ومعه «روزالين» بالترحيب (وكانت قد تزوجته) ولم يطق روبير أن يراهما فأمر السائق أن يستأنف السير للحظته ، ولم يعبأ بتحذير السائق منأن أقرب مكان يمكنهما الوقوف فيه يبعد عشرين كيلو مترا .

ونزل روبير فى فندق البالاس فعرفه الناس هناك وتحدثوا عنه وعن بطولاته ولكنه لم يقبل على أحـد منهم وكان يخرج فيتنـزه بين البحيرات الجبلية ولها جمال خاص تحدثنا عنه القصة . ثم أخذ يغشى صالات الفندق وأعجبه بار الفندق فأخذ يقضى فيه وقته .

ولم يذكر روبير صديقته العاملة ولا ما فعله مع جاكلين ولا ما فعلت به ولكنه لم يستطع أن يتخلص من أشياء ثلاثة آلمته غاية الألم وهى :

قول جاكلين عن اظافره انهـا غير نظيفة ، وصيحة روزالين أمامه انه خائن ونظرة الكولونيل فرتز اليه حين التقيا يوم القبض عليه .

وعاد روبير ذات مرة الى الفندق فأقبل عليه النزلاء جميعا يقولون له أن قصر الاليزيه طلبه مرارا وأن رئيس الجمهورية يريد أن يتصـل به فقال لهم روبير : أتظنون أني أفضل حديث سياسي عجوز على هـذه السيدة ؟ ثم نزل اليه وكيل الفندق (وكان ضابطا ألمانيا غادر ألمانيـا بعد الهزيمة وساعدته اجادته للغات على أن يجد هذا العمل في هـذا الفندق) فحياه التحية العسكرية وانحنى له ونظر اليه روبير فوجـده « فرتز » فلم يعره اهتماما وكأنهما لم يلتقيا من قبل ثم ان وكيل الفندق أخبره ما أخبره به النزلاء من قبل واعتذر اليه لأنه لم يجد السبيل اليه ليبلغه الرسـالة فما كان من روبير الا أن قال له : أعفيك من تقصـير ، وجاء بعد ذلك مدير الفندق يهنئه بالوزارة ويقول له لقد سمعت لتوى رئيس الوزراء في الراديو وهو يقدم زملاءه الوزراء الى الجمهور الفرنسى فلم يمدح أحدا من الوزراء بمثل ما مدحك به .

ولم يظهر روبير في هذه الليلة اهتماما بالوزارة بقدر ما أظهر من اهتمام بسيدة من الحاضرات أخذت تتلقى التهانى معه ، ثم قاما يرقصان فكانت تلتصق به على نحو لم يكن يقع في مثل هذه الأوسـاط الا من المسرفات في التبذل ، وقالت له وهو يرافقها أنها لا تعرف ان حجرته في الطريق الى حجرتها ، أم أن حجرتها في الطريق الى حجرته ، وفهم عنها ما تريد فعـزم أن يجيب دعوتها آخر الليـل . وعاد روبير الى فرنسـا فذهب مع زملائه الوزراء الى كنيسة نوتردام يستمعون الى موعظة القسيس وكانت عن الطهر ، ومضى القسيس يعظ فيقول : « فقـد يحيـل الطهر الخبيث فيجعله طيبا ، وقد يحيل الطهر الطيب فيجعله خبيثا » .

ونظروا ولم يكن فيهم رجل يستطيع أن يقول ان الطهر كان عاملا من عوامل النجـاح في حياته ولم يكن منهم من ليس في حيـاته بقـع سوداء .

قصـــة « قوم لا يتطهرون » هى أطول قصة قصيرة — في المجموعة التى نعرضها — لكامل حسين ، وعنصر « الحكاية » فيهـا يخرج بها عن القصص القصير وان ظل عدد حروفها يقربها من القصص القصير الا أن وجهها مول نحو الروايات .

و« قوم لا يتطهرون » قصة تاريخية لا تعنى بذلك الا ان مادتها من

التاريخ ، وهى تتناول التاريخ فلا تخطىء واقعة من وقائعه وان أعطت تفسيرات ذاتية لهذه الوقائع وما هذه التفسيرات الا فكر كاتبنا الكبير ٠

والتوازن بين (احداث الأفكار) ، و (أفكار الأحداث) فى « قوم لا يتطهرون » نموذج للتوازن فى مثل هذه القصص الفكرية ٠

والقصة الى ذلك تمتاز بتقصيها أحوال المجتمع الفرنسى وظروف المقاومة والاحتلال الالمانى ثم هى بعد ذلك تحدثنا عن أنواع شتى من العلاقات بين الرجل والمرأة وتلفتنا الى انواع من النساء وخصائص كل نوع ، وهى من خلال ذلك كله تعرض لنا مفاهيم كاتبها فيما يتعلق بالحقد ، والحرمان ، والطهر ، وداء الأذكياء .

أما الحقد فهو يقول لنا عنه « انه ليس عاما بين الفقراء حين يتحدثون عن الأغنياء ويرجع بعضه من غير شك الى طبيعة فى بعض النفوس تجعلهم يحقدون على الناس بحق وبغير حق ، أما النفوس التى برئت من هذا الداء فيبدأ الحقد عندهم عند الحرمان المخيف »

« وصاحب السيارة الفخمة لا يثير الحقد فى نفس صاحب السيارة الصغيرة ولا فى نفس الراجل حين لا يرهقه السير على قدميه انما يحقد عليه من يعييه السير الطويل وهو مضطر اليه ، والمعدمون هم الذين يحقدون على غيرهم الا أن يمنعهم من ذلك تقوى أو خوف » ٠ « أما الطبقة الوسطى فليس من طبعها الحقد عادة ، وهم أشد حرصا على التشبه بالأغنياء والتمتع بما يتمتع به من هؤلاء من أن يجعلوا الى الحقد عليهم سبيلا فى نفوسهم » وهى نظرية فى الحقد سامية القصد من غير شك وهى بعد ذلك قريبة الى الواقع العلمى لولا أن هناك فى كثير من المجتمعات من يزجى هذا الحقد فى الصدور ، بل ان بعض المذاهب الكبرى تستند الى الحقد فى قيامها وانتشارها استنادا قويا وتعمل على نشره بكل الصور حتى يتهيأ لها سبيل الانتشار .

وأحب أن ألفت النظر الى هذا الابداع الفنى حين يقول كاتبنا فى تصوير دخيلة نفس روبير بعد أن باح بالسر للأعداء : « لم يكن احساسه بالطهر قويا ، الى حد يجعله يرى فى فعلته هذه المنكرة قذارة لا تغسلها مياه البحار ، ولم يكن راغبا فى الرذيلة رغبة خاصة ، ولكنه رجل غايته النجاح فهو يسلك اليه كل سبيل » ، وقد لا تكون القصة كلها الا وسيلة للتعبير عن حقيقة داء الذكاء ذلك الداء الذى يرى صاحبه

الا يتمتع من هم أقل منه ذكاء بما لا يتمتع به هو والا يعوقه عن النجاح والتمتع عائق من طهر أو فضيلة اذا وقفا في سبيل النجاح ٠

وما كان روبير ورئيس التحرير وجاكلين الا ثلاثة من المصابين بهذا الداء ، وكامل حسين يقرر في نهاية القصة أن داء الذكاء عالمى ولكن خطره يزداد حين يكون المجتمع مجتمعا يقبل العهر ولا يشمئز منه ، وحين يكون المجتمع خلوا من معنى الطهر ٠

والقصة تعبر عن رأى الكاتب في الرذائل حين تنتشر في مجتمع من المجتمعات ، وهو لا يفتأ يدير الحوار حول اثر الرذائل في المجتمعات وهل يصيب الامة الانهيار لاجلها ؟ ثم يقرر صراحة في خاتمة القصة ان الرذائل الخاصة والعامة وحدها ليست قاضية على أمة من الأمم الا أن يكون أهلها قوما لا يتطهرون ٠

ويثير الدكتور كامل حسين في قصته هذه مسألة خطيرة هي اجتماع غاية القذارة والعهر الى غاية السمو الخلقي وهي التضحية وهي قضية تحمل الى جانبها علامة استفهام كبيرة حسب تعبير أصحاب الأقلام والأفلام في هذه الأيام ، والدكتور يعرضها في نفس القسيس ثم يتركها معلقة حين يقول : ولم يكن للقسيس بد من ان يؤمن باجتماع مثل هذه التناقضات والموقف الحقيقى لكاتبنا من هذه القضية ، يجب ألا يؤخذ هكذا مما أداره في نفس القسيس وانما على الذين يريدون أن يدركوه أن يأخذوا دليلهم عليه القصة كلها ، وعندئذ سيجدون أن اجتماع هذه المتناقضات ليس الا نتيجة مباشرة أو غير مباشرة لاجتماع عاملين هامين يتعلقان بالأخلاق الاجتماعية والقومية ان لم يكن بد من ان تجتمع هذه المتناقضات على هذا النحو ، ثم أنهم سيجدون أن نتيجة اجتماع التضحية الى العهر في نفوس أمثال روبير من المصابين بداء الأذكياء لم تكن خيرا على فرنسا كما يظنون ، ولا أظن الدكتور كامل ساق هذا الجانب في حياة روبير عبثا ٠

ونستطيع أن نجد في حديث القسيس في كنيسة نوتردام عن الطهر جذورا لحديث التطهر في كتاب « الوادى المقدس » الذى ظهر بعد هذه القصة بست سنوات ٠

والقصة تحمل حملة شديدة على رجال الجمهورية الثالثة من العصاميين النوابغ ، وهى لا تترك هذه الحملة تجرى على لسان صاحب الصحيفة فحسب ولكننا نجدها حملة ظاهرة بعد ذلك ٠ وقد لا تكون

الحملة الا اشفاقا على فرنسا من هؤلاء الذين أصيب ماضيهم بالحرمان ، وسيصاب مستقبل الأمة بهم بشر ما يصاب ٠

والذين يغرمون بأن يلاحظوا شيئا يسيطر على صور الكاتب فى قصته سيجدون دون جهد كبير فى هذه القصة شخصيات سائق السيارة ، وصاحبها ، والراجل تتكرر فى التمثيل لضروب الحقد ٠

أما حديث النساء فى قصة « قوم لا يتطهرون » فحديث خبير بهذا الجنس، وبحياة العهر ، وجو الانحلال ، ولكنى أحس من النص احساسا قويا أن هذه الخبرة خبرة (اطلاع) لا خبرة (ممارسة) ولكنها على أية حال قد بدت طبيعية وكأنها تصدر عن رجل كثير المعاشرة للنساء ٠

ولا أحب أن أدعك تترك هذه القصة الا بعد أن أعرض عليك هذه المفارقة العجيبة فى حكم المحتكمين على روبير ٠

« وبرأته المحكمة الفرنسية لأنها تحققت أنه علم موعد القبض عليه، وبرأته المحكمة الألمانية لأنه لا يمكن أن يكون قد علم بذلك الموعد قبل حدوثه بوقت يسمح له باعداد أوراقه واحراقها » ٠

وليس هذا الا مثلا لرجال الجمهورية الثالثة الذين يعد كل ذى نفوذ منهم ملفين لحياته أحدهما فيه مستندات وبراهين وأعمال تدل على أنه فى جانب فريق بعينه ، والآخر فيه ما يثبت عملا وقولا أنه فى جانب فريق آخر على أن يقدم أحد الملفين للدفاع عن نفسه حسب ما تمليه عليه مصلحته حينذاك ، ويعتذر عن الآخر أنه لم يكن الا ذرا للرماد وايهاما للفريق الآخر اعتمادا على ما فيهم من غفلة وبلاهة ٠

● أى الطريقين أهدى ●

● حب المظلومين أم كره الظالمين هل يستويان ؟) ●

زمن هذه القصة مطلع هذا القرن أما مكانها فهو الامبراطورية الروسية وتحكى القصة أن فرسان القوازق دخلت قرية صغيرة ، لم يكن لأهلها عهد بمثل هذا المنظر المروع لرجال الجيش ، الذين لم تأخذهم بأهل القرية رحمة ، وأخذوا يتجولون فى القرية بفرسانهم فداست سنابك الخيل طفلا صغيرا فلم تطق أمه أن تراه يداس ، فسارعت اليه تنتزعه من تحت أرجل الخيل فسقطت هى الأخرى قتيلة .

وذهب قائد الحملة الى العمدة فأمره أن يجمع له فى الغد شيوخ البلد وأعيانها ، فلما كان الغد قام فيهم الضابط خطيبا فأنكر عليهم أن يكون فيهم من لا يطمئن الى حكم القيصر وعدله ، وهو قد عزم على أن يجيش الجيوش ولهذا كانت الضرائب التى أبوا أن يدفعوها ، وقال لهم أن امتناعهم هذا عمل شائن لكل وطنى مخلص ، وأن فى قدرة القيصر ان يمحوهم ، ولكنه رأى برحمته أن يكتفى بارسال الحملة تجبى منهم الضرائب .

وبدأ الضابط بشيخ وقور ، فأمره أن يدفع الضريبة مضاعفة ، فأظهر الشيخ اعتراضا فما كان من الضابط الا أن ضربه بالسوط على وجهه ، وأمر عساكره أن يضربوه ضربا شديدا ، فتأثر الناس لما حدث للشيخ الكبير الوقور وتململوا ، وخشى الشيخ أن يصيب أهل بلده شر عظيم فى سبيل دفاعهم عنه ، فأسرع الى القول بأنه سيدفع ، فقال الضابط بل تدفع ثلاثة أضعاف الضريبة ، وأشار عليه العمدة أن يقترض من المرابى اليهودى فسارع الشيخ الوقور يمضى الصك لليهودى ، وهو لا يدرى شروطه .

وهكذا أخذ الضابط يجيل الضرب والتعذيب فى الحاضرين ، حتى انتهى منهم ، فعمد الى العمدة ، فقال له : وأنت يا سيدى ألم يكن

أولى بك أن تجبر هؤلاء على دفع الضريبة ؟ ان لك عندى جزاء خاصا ، وأمر جنوده فمدوه وضربوه وحاول العمدة ان يحفظ على نفسه وقاره ، ولكنه لم يطق الضرب فصرخ .

وعاث الجنود فى القرية فسادا ، وكانوا على ثقة ان أهل القرية عصاة مجرمين يستحقون كل عقاب ، وكان أهل القرية لما رأوا من الجنود على ثقة أن هؤلاء وحوش ضارية لا دين لهم ولا قلب .

وكان طبيعيا أن يتفرق أهل هذه القرية شيعا ، ولم يكونوا يعرفون شيئا عن المبادىء السياسية ، ولكنهم انقسموا كما تنقسم كل جماعة تعتريها نكبة غالبة ، الى فرق يمينية ويسارية وكان فى أقصى اليمين رجال الدين ، وكان فى أقصى اليسار الشبان المتمردون .

وكان رجال الدين يقنعون أهل القرية ، بأن الله يتولى عن عباده القضاء على الظلم والظالمين ان عاجلا وان آجلا ، وان لم ينتقم من الظالمين فى الدنيا ، فان لهم فى الآخرة عذابا مقيما .

ورأى أحدهم أن يرسل الى القيصر برقية يخبره فيها بما حدث وكانوا واثقين أن القيصر لا يقبل مثل هذا العمل وسيعاقب عليه ، وكانت جرأة من هذا أن يرسل البرقية الى القيصر مباشرة .

اما الشبان فكانوا على اقتناع ان الاساليب الهادئة التى لا تزيد على الشكوى والاحتجاج لا تؤدى الى شىء ، فالنظام كله ظالم يظلم فيه كل انسان من تحته ، وهو نظام لا يرجى منه خير .

واختلف الشبان فى نوع العمل الذى ينبغى عليهم أن يعملوه ، فمن قائل بجمع المظلومين صفا واحدا عزلا من السلاح أمام الظالمين ، وحجة هؤلاء أن الضربة القاصمة اذا وقعت على غير مقاومة عاد عنفها على ضاربيها كما يعرف ذلك كل ملاكم ، والظالمون أحق أن يرثى لهم من المظلومين لأنهم فى أغلب أمرهم مرغمون على ما يفعلون بعوامل لا يستطيعون لها ردا ، وكان على رأس هؤلاء ليو وهو شاب نشأ فى أسرة تعنى بالدين وقد عرف عن أهلها أنهم نزع ما فى قلوبهم من غل ، وكانت فيه خصلة حب الناس فكان يحب الأشرار والأوفياء ، لا يفرق فى حبه بين صديق وعدو ، وكان يؤمن أن الظلم حالة عامة ، وأن القضاء عليه يخلق ظالما جديدا ، وأن الشر حلقة مفرغة لا يقطع دائرتها الا امتناع أحد طرفيها عن العنف ، وكان يرى أن السبيل الى ذلك أن يسود الحب والسلام .

وكان هنــاك فريق ثان على رأســه « جوزيف » وكان يكره الظلم والظالمين ، وتحولت هذه العاطفة عنده الى الفتك بالطغاة الاقوياء ، ولم يكن يعنيه أن يكون فتكه بهم شرا على المظلومين أو خيرا ، وكان من القائلين بأن الكرامة والغضب والمحبة بين الناس ترف لا يعرفه من همه مقصور على أدنى العيش ، فليس للجائع وطنية ، وليس للحافى كرامة ، وليس للخائف عزة .

ويدور « الفلاش » فنرى حالة الجنود يرثى لها ، وما كانوا ينهبون الطعام والحلى والثياب الحسنة الا لحاجتهم الى ذلك لا لمجرد النهب ، ويمر ليو بالمعسكر فيجلس الى جندى من هؤلاء يحادثه فيطمئن كل منهما الى صاحبه ويقول ليو : أليس ما يدعوكم الى غزو الناس فى بيوتهم أن تحصلوا على ما تبتغون مما لا تهيؤه لكم الحكومة ؟ فهل لك فى أن أهيىء لك ذلك دون سطو او نهب ؟ ويقبل الجندى العرض ويخبر به زملاءه .

ويكتب الضابط الى رئيسه بما أحرز من نجاح أراد أن يكفر به عن ذنبه حين لان من قبل فعاقبه رئيسه هذا على لينه ، ويقول فى رسالته مفتخرا : ضربت وعذبت وأهنت وجمعت من المال شيئا كثيرا أرسله اليكم فى أقرب وقت (وكان قد احتجز هو والمرابى جزءا منــه) ثم يرجو رئيسه أن يكافئه ويرفع درجته حتى يبدأ حياة سعيدة يعده أن تكون كلها خدمة له وللقيصر وللوطن بل اذا اقتضى الأمر فقد تكون أيضا فى خدمة الله .

وكتب رئيسه الى الوزير يخبره خبر الحملة ويعده أن يرسل لــه الأموال التى جمعهـــا الضـــابط من أهل القــرية وكان قد عزم على أن يستبقى منها جزءا كبيرا .

وكتب الوزير للقيصر يخبره أن الحملة اكتفت بالقرية وقبلت ما دفعوه عن طيب خاطر لضيق ذات يدهم ، فان كان قليلا فهو يرجو رحمة القيصر (وذلك أنه استبقى هو الآخر من المال جزءا كبيرا) .

وهكذا ظنوا جميعا أن شوائب عملهم جزء من طبيعة النظام القائم الذى لا شأن لهم به فى اقامته ولا قدرة لهم على تغييره ، وأنه خير لهم أن يكونوا من المنتفعين بشره من أن يكونوا ضحايا هذا الشر .

جمع جوزيف زملاءه وقال لهم أن الظالم مثل الأسد الجائع لا يرده عن ظلمه الا أن تضع رصاصة بين عينيه ، وانه يجب عليهم الا يحرصوا على الفقراء الضعفاء حين ينتقمون من الأقويـــاء الظالمين ، ذلك أن حب

المظلومين لن يؤدى الى قطع دابر الظلم ، ولكن القضاء على الظالمين يوقع الرعب فى قلوبهم .

وذهب جوزيف وأصحابه الى الطريق فأغاروا على الحملة ، ولكن الوئام زاد بين ليو وأصحابه والجنود فغضب جوزيف لذلك ، وبينما كان ليو جالسا ذات مرة يضاحك الجندى ، حانت منه التفاتة فرأى جوزيف يصوب بندقيته من نافذة الى الجندى الذى يحدث ليو فيجذب ليو الجندى جذبة لم تكن الرصاصة لتصيبه معها ولم تنطلق الرصاصة وعاد جوزيف يفكر كيف يقيم أزمة جديدة .

وجاء رجل من قبل الحكومة يحقق فى البرقية التى أرسلت الى القيصر، وقد أوصته الحكومة أن يجعل من هذا الرجل الذى أرسل البرقية عبرة لمن يعتبر ، فهو كما قالوا له من أعداء الحكومة الساعين الى اسقاطها ، وأمر المحقق بالرجل فربط فى ذيل حصان ، ودار به الحصان فى شوارع القرية على مهل حتى يتعظ الناس ، وكتب المحقق بعد ذلك أن الشكوى لا أساس لها وأن أهل القرية عجبوا لهذه الشكوى وأنهم راضون سعداء حتى ان الحملة لم تعد ترى مسوغا لبقائها .

وذهب جوزيف وأصحابه فاعترضوا الحملة فى رحيلها ، وهجموا ، وسلبوا ، وأخذوا ما استطاعوا وأمسكوا بالمرابى اليهودى يبتغون قتله ، فتضرع اليهم أن يأخذوا ماله وصكوكه ويتركوه لأولاده ، فهو لا ذنب له ، وانما تؤخذ منه معظم أمواله قبل أن يمضى مع هؤلاء فتركوه بعد أن أخذوا أمواله وصكوكه .

وعلمت الحكومة بما حدث فأرسلت فرقة عسكرية كبيرة ، يقودها جنرال فلما جاء هذا ووجد القرية على هذا الصغر غاظه من قواده أن يرسلوه وهو القائد الكبير لمثل هذا الأمر التافه ، فدك القرية دكا فى ربع ساعة ، وترك أصغر ضباطه على رأس من ترك من جنوده وعاد .

ونشرت جرائد المعارضة فى صفحة واحدة تقرير الضابط ، ومذكرة الوزير ، وشكوى أهل البلدة ، وتقرير المحقق ، ووصفاً لحادث الكمين الذى قام به جوزيف ، وأصحابه ، ووصفا للحملة الأخيرة كل جنبا الى جنب مع وصف رائع لمأدبة عشاء أقامها القيصر لعدوه الأول امبراطور المانيا.

وترك أهل القرية قريتهم ، التى أصبحت أثرا بعد عين ، وذهب بهم ليو الى حاكم المقاطعة فوعده بالعناية بهم ، وأقيمت قرية جديدة على

الحب ، والتضامن والتعاون وحسن حال أهلها ، بفضل جهود ليو وأصحابه ٠

أما جوزيف فانه رحل هربا من الحكومة التى بعثت فى الاتيان به ، وفرارا من غضب أهل القرية عليه ، فقد كان حمقه سببا فيما حدث لهم، ورغبة فى المحاق بجمعيات ثورية سمع عنها وود أن يلتحق بها ٠ ولم يمنعه رحيله من أن يفكر فى حرق خيام الحملة الأخيرة ، قبل أن يمضى وشأنه ، ولكنه حيل بينه وبين ذلك ٠

ويستطرد أديبنا الكبير الى الحديث عن (الشيوعية) ويفند آراء ماركس فى العدل الاجتماعى (على نحو بيناه فى فصل آخر) .

ثم يقول ان أكبر ما اعجب جوزيف فيها انها وضعت اساسا علميا للكره بين الناس أفرادا وجماعات .

ثم كانت الحرب العالمية الأولى فكانت فرصة العمر لأنصار الشيوعية ، ومنهم جوزيف وجماعته ، ولما فرغ جوزيف وأعوانه ممن فوقهم بدءوا يعدون من الظالمين كل من اعترض طريقهم وقلبوا ظهر المجن لمن هم دونهم ، وأصبح جوزيف أشد الطغاة عنفا لأنه أصبح أكثرهم خوفا وهو ما حاول صديقه ليو أن يقنعه به فى أول حياتهما ، وأصبح لجوزيف سلطان عظيم ، حتى صار من حوله يصفونه بأنه الحكمة الانسانية مجسمة فى شخص ، وقتل جوزيف ونفى أعدادا هائلة من البشر ولم يكن ذلك عليه عسيرا فقد اختار أعوانه ممن امتلأ قلبهم بالكره ، كما يملأ قلبه وارهبهم حتى لا يخرج أحد عليه ، ولم يطلب منهم الا أن يختاروا أعوانهم على نحو ما اختارهم هو ، وأن يرهبوهم كما أرهبهم ، ثم دلته عبقرية الكره والخوف أن يجعل بين كل طبقة وأخرى ثأرا حتى أصبح كل انسان يخشى من فوقه رعبا ، ومن تحته خوفا أن ينتقم منه من كان سببا فى تعذيبهم ٠

ويخرج أديبنا مرة ثانية الى التعليق الظاهر فيقول : ولأول مرة فى التاريخ قام نظام أمة كبيرة على أساس واحد هو الكره وعلى قوة واحدة هى الخوف ٠

وخطر لجوزيف أن يزور قريته القديمة فراعه أن يصير أهلها مطمئنين هادئين محبين ووجد ليو فسره أن يقول له : لقد بدأنا حياتنا

معا ويعلم الناس انى بلغت ما بلغت بكره الظالمين ، فغيرت من حياة أمة باسرها ، قضيت على كل ظالم فيها ، وأذللت كل عزيز وغنى ، وأطحت برأس كل انسان معارض أما أنت فلم تبلغ بحبك الظالمين الا غاية ضئيلة فى تجربة صغيرة لا تؤدى الى شىء لو جربت فى أمة كبيرة ، ان القوة لا تخضع الا للقوة ، وان كرهى للظالم لأشد من كرهى للظلم ولو زال الظلم من الدنيا دون العنف ما رضيت بذلك ، فيقول ليو لجوزيف أتدرى ما هو الثمن الذى دفعته من أجل كل ذلك ؟ انه العذاب الذى تعرض له ضميرك ، والخوف الذى ملأ قلبك حتى تحققت احلامك هذه .

ان طريق الدم مرعب وقد سرت على أكوام الجماجم وسط بحر من الدماء ، وخيل اليك أنك راض ولكنك تخدع نفسك ، فخوفك من نفسك لا يقل عن خوفك من الناس .

وطريقتك (أى كره الظالمين) هى الطريقة الناجحة لاستبدال ظالمين بآخرين وهى سيكولوجية من حرمهم الله الحب .

« ولكنى جمعت الظلم كله فى يدى وبوسعى أن أمنعه » هكذا كان يظن جوزيف ، ولكن ليو يقول له أن قيصر كان يرى رأيه هذا من قبل .

« اى الطريقين اهدى » عمل فنى ممتاز ، وهى قصة تعنى بالمجتمع ، وان كانت هذه العناية لا تبدو قريبة ، وهى قصة تاريخية لا تقف عند تاريخ اقوام من الناس انما تعمد الى تاريخ المذاهب ، وفيها فكر دسم احتال له أديبنا الكبير حتى جاء حوارا بين شخصين وهو فى الواقع حوار القرن الحالى كله ، وعنوان القصة سؤال ولعل القصة تحاول أن تجيب على هذا السؤال اجابة مقنعة وقد نجحت فى اقناعنا بصحة ومنطقية الاجابة التى اختارتها وهذا هو المطلوب فى مثل هذا النوع من العمل الفنى .

والقصة تقرر صراحة أن كره الظالمين ضلال فى ضلال هـذا فى النص ، أما فى الأحداث فهى تبين كيف نجح حب المظلومين فى بناء قرية سعيدة (ولو كانت صغيرة قليلة العدد) ، وكيف نجح كره الظالمين فى أن يكون أساسا لأمة كبيرة تقوم حياتها على أساس من الخوف والكره .

وهى بهذا « واقعية » الأحداث والنهاية ، وكان أديبنا يستطيع لو اراد أن يجعل كره الظالمين لا يؤدى الى نتيجة ، فيقف بمجرى الأحداث فى قصته عند حملة الجنرال التى جاءت فدكت القرية دكا فى ربع ساعة ، ولكنه لم يرد الى ذلك ، وانما أراد أن يبين أن النجاح الحقيقى لا يكمن فى بناء دولة مهما تكن عظيمة ، وانما دليله الحقيقى فى نفسك ، فقد دفع

جوزيف ثمنا غاليا ، هو العذاب الذى تعرض له ضميره ، والخوف الذى ملأ قلبه حتى تحققت أحلامه ٠

والقصة مع ذلك كله دقيقة الى حد بعيد فى تصوير الأحوال التى تحيط بالناس وقد سادهم نظام ما ، فهو يجول بنا فى نظام القيصرية بين القيصر ، والوزير ، والضابط ، ورئيسه ، والمحقق ، والحكومة ؛ وجريدة المعارضة ، وحفلة امبراطور ألمانيا ، ويعطينا وصفا دقيقـــا لنفسية كل صاحب أمر يحسب أنه انما يطيع أمرا أعلى ليرضى عنه رجل فى أقصى بطرسبرج ، ويعطينا وصفا صادقا دقيقا لنظام الشـــيوعية فى الحكم ، والعلاقات بين الطبقات ، وكيف يكون الكره بينها بعضها وبعض ، وفى داخل كل طبقة ، وكيف يرهب الرجل من هم تحته ومن هم فوقه ٠

ولا احسب واحدا ممن قرءوا هذهالقصة لم يثراعجابه قول صاحبها يحتمل الناس كثيرا من الظلم اذا جاءهم على مهل هادئا بسيطا وان طال أمده ، وكأنهم يكســبون مناعة تقيهم كثيرا من شره ، ولكن الظلم الذى يأتيهم فجأة عنيفا قويا يفعل بهم فعل الجرعة القوية من السموم يصيبهم فى مواطن الضعف منهم ، ويعد لهم صدمة عنيفة تذهب بصواب عقولهم » ولا ريب عندى أنها فى تصوير أثر الظلم خير من عبارات اشتهرت لكثيرين من اعلام عصر النهضة فى أوربا ٠ وليس الاعجاب الذى تثيره العبـــارة التالية بأقل من الاعجاب بالسابقة : « ويظن الناس أن المظلومين يجب أن يكونوا أبعد الناس عن الظلم ، والواقع أن أثره فى نفوسهم أن يحملهم على ظلم غيرهم ، وانما يشمئز من الظلم ويغضب من أهله من يشاهدونه يقع على غيرهم على مرأى ومسمع منهم وهم بعيدون ، **ولعل أكثر الطغاة يدفعهم الى الظلم خوفهم من ظلم يتوقعونه ، أو خوفهم من ظلم عام فهم يبغون أن يضعوا أنفسهم فى صفوف الظالمين حتى لا يجدوها فى صفوف المظلومين من غير شك** » ٠

والقصة تمثل موقفا يدلنا على شجاعة كامل حسين فقد نشرها فى ابريل سنة اثنين وستين وتسعمائة وألف وكانت مصر وقتها تتجه بكل ما أتيت من قدرة علىالاتجاه الى النظامالاشتراكى تظن فيه الخير، ودون أن نخوض فى بحور من القول ، فاننا نكتفى أن نسجل أن كامل حسين وهو المفكر الكبير الخبير بالمذاهب والأفكار ، وتطورات التاريخ ، نشر هذه القصـــة ، وفند فيهـــا بطريقة فنية عيوب الشيوعية ، محذرا منهـــا ومن تطبيقها ، وأخيرا فهى قصة طريقين «قريبان جدا فى البداية ، مختلفان فى النهاية اختلاف الجنة والنار » ٠

تحدثنا القصة فى بدايتها عن واد فى أعلى جبال سيناء ، فيه العيون، والهواء الطيب ، والطبيعة الحسنة « يسقط من سمائه شتاء لا يعرفه أهل السهول يشبه القطن يغطى الأرض جميعا بثوب أبيض ناصع ، حتى اذا أقبل الربيع ذاب هذا الثلج ، وسالت الأودية بما عذب يجرى عيونا ، أو صار آبارا قريبة المنال »

كان البدو الرحل الذين يجوبون الصحارى ، والصيادون الذين أقاموا على ساحل البحر الأحمر، يحدثون موسى الذى أقام بينهم منذ فر من مصر عن هذا الوادى الذى يبعد عنهم مسيرة ثلاثة أيام ، ويصفون له أهله فيقولون انهم مؤمنون طيبون، فلما كثر حديثهم اخذ يطمئن الى صدقه، ورغب فى الهجرة اليه ، وحسبه فيه أنه سيكون بعيدا فلا يتعقبه أحد من المؤتمرين به ليقتلوه حين قتل رجلا من أهل مصر ·

واستعد موسى للهجرة الى هذا الوادى ، وكان سعيدا أن يفارق هؤلاء الصيادين ولم يكونوا آسفين لفراقه ·

وسار بين البحر والجبال ساعات خمسا حتى اذا بلغ أول الجبال وجد منعرجا هو أول الطريق الى الوادى ، حسب ما وصف له البدو والصيادون ولقى موسى فلاحا يزرع رقعة صغيرة من الأرض ، فعجب موسى من ذلك ، ولم يكن له عهد بمثل هذه الرقعة الصغيرة تزرع ، وسأل موسى الرجل هل يكفيك هذا الذى تزرعه ، فرد عليه الرجل فى جفاء : لو لم يكفنى لرحلت · فقال له موسى : ولماذا لاتذهب الى أعلى هذا الجبل فهناك واد ·· فرد عليه الرجل قائلا : اذهب أنت اليه ، وتشاغل عنه ·

وتعود بنا القصة (مع موسى ونفسيته فى تلك اللحظات) الى نشأة موسى ، الذى لم يكن يجهل أن حياته غير طبيعية ، فهى مضطربة منذ يوم مولده ، ثم انه عاش فى قصر فرعون حياة تختلف عن حياة أهل ذلك

القصر ، ثم ها هو قد ترك فرعون مختارا بعد أن فعل فعلته يحسب انه ينصر مظلوما ، ولكنه أفسد بفعلته هـذه حياته فها هو قد صـار طريدا لا يرجو من الدنيا الا أن يجد عملا يقتات من جرائه ، مهما يكن صغيرا ، ومأوى يسكن اليه وهو أقل ما يرجو انسان لنفسه ، مهما يكن فى ذلك من ضعة رذل ، وكان يعرف من نفسه الشجاعة اقداما وصبرا ، ولم يعهد فى نفسه ذات يوم رهبة تمنعه أن يحق حقا أما اليوم فقد اصبح جبانا رعديدا ٠

واشتد بموسى الخوف فألهاه عن التفكير فى أمه التى كانت تعيش مؤملة فيه الخير كله ، راجية أن يعوضها المكروه الذى لاقته بسببه ، وألهاه الخوف عن التفكير فى أخته التى حملته رضيعا وألقته فى اليم ، وألهاه الخوف عن التفكير فى قومه الذين كانوا يرجونه ليوم يستطيع فيه أن يخفف عنهم بعض هذا العذاب ، ولكنه ما ان جاءهم حتى كان قدومه شرا عليهم ونذيرا ، حينذاك فكر موسى فى الفرار من هذا المكان والعودة الى فرعون فقد كان فرعون أقرب الى الطيبة منه الى الانتقـام ، وقد غفر له من قبل، ولكن الأمر بعد قتله ذلك المصرى أصبح جد خطير وسيقال لفرعون : ان العبيد اذا علموا أن قتل السادة أمر يسير فذلك بدء الانتفاضةوأول الثورة وسـيقولون له ان العدل بين سـيد مظلوم وعبـد ظالم لابد أن يكون قصاصا رادعا .

ووجد موسى نفسه طريدا خائفا ، والطريد لا شجاعة له ، والخائف لا عزة له ، وصلة الطريد بالحيـاة تنقطع حتى تستقر على نحو جديد ، «وكان يحسب ان أرض الله واسعة وفيها منأى للكريم» ولكنه ادرك أن الأرض لها بحياة أهلها صلة خفية غامضة تجعل الحياة مستطاعة مهما يكن فيها من خير ، والسبيل الى الحياة الكريمة لايكون بالفرار٠ثم يسأل نفسه من أين يكون للفلاح الجاهل والصياد الغبى عليه فضل ؟ ويقنع نفسه أن لهما فضلا عليه هو أنهما لم يرتكبا اثما ٠

كان فراره من نفسـه أكثر من هربه من العقاب، والفرار من النفس أصعب على الـكريم من الفرار من العقاب ٠ وتابع سـيره ، وقد أثقلتـه الهموم ، وأخذته الرهبة التى تأخذ أهل هذه السهول حين يسيرون لأول مرة بين الجبال ، فللجبال فى نفس الذين لا يعرفونها أثر يختلف عن أثر البحر فيمن لا يعرفونه ، البحر فيه قوة وعنف لا يخيفان النـاس ، أما الجبـل فيفاجئهم بما لا يعرفونه عند كل خطوة من هوة ، أو حافة ، أو مرتقى ، أو منزلق ٠

ثم هذا السكون الشامل ، وتلك القمم العالية ، والوديان الضيقة ، والصخور الضخمة ۰ وما لبث موسى أن أطمـأن الى الطبيعة ولعله أخذ يعجب بعظمة الجبال ، وتنوع صخورها ، واختلاف ألوانها وأشـكالها ، وأعجبه أن تحميه هـذه التلال من حر الشمس ، وأهـل السهول يتعبهم الصعود أكثر مما يتعب أهل الجبال ۰

وسمع على مقربة منه خرير عين فروى عطشـه ، وغسـل يديه وقدميه بهذا الماء ، وهو خطأ لا يقع فيـه من خبر السـير الطويل فى الأرض القفرة . وبات موسى ليلته بجوار العين ۰

وأصبح فى يومه الثانى فبدأ سيره نشيطا سعيدا ، طوال النهـار فلما اشتد الجدب من حوله ، وأدركه الظلام لجأ الى فجوة فى الجبل يقضى ليلته فيها ، وأوقد بعض الأعشاب يدفىء بها قدميه ، وأقبلت على النار هوام كثيرة فعجب لذلك فقد كان يحسب هذا المكان لا يصلح لحياة الكائنات مهما تكن صغيرة ، ثم اطمأن اليها وترفق بها وكأنما رأى فيها رفقاء غربة، وحزن حين رأى فراشة تقبـل على النار فتحرق النار أجنحتهـا قبل أن يستطيع انقاذها ۰

فلما سطع القمر فى السماء ، زاد اطمئنانه ، أليس هذا القمر هو الذى يسطع على مصر ؟ وعلى أمه ، وأخته ، وقومه فيها ۰

وتمضى القصة فتصور لنا ما كان من أمر أحلامه فى هذه الليلة ، فهذه فتاة كانت تهواه فى قصر فرعون ، وكان يعرض عنها أقبلت عليه ثم قبلته ۰ وقام موسى من غده ، وساعده الأمل (فهذا آخر الأيام الثلاثة) على احتمال المشقة والألم ، وأرهقت عينيـه ألوان الصخور القاحلة ، ووهج الشمس ، واجتمع عليه التعب ، والجوع ، والعطش ، واليأس، وخارت قواه ، ولليأس قدرة على الارهاق لا يبلغها التعب ولا الألم ، مهما يكن مبلغهما » .

وعاد يفكر فى أمر حياته واضطرابها ، طفولة غير طبيعية ، يلقى فيها عطفاوحنانا منامرأة فرعون يشبهان عطفالامومة وحنانها، وحب تقدمت به اليه نساء كثيرات ولكنه حب محدود الغاية معروف أصله وأغراضه ، وكان يراه حبا قذرا ، وصداقات قامت بينه وبين شباب ذلك القصر ، فكان موضع ثقتهم دائما دون أن يكون موضع سرهم أبدا ، وعلم علم الكهنة فحقر فى عينيه ، وألب عليه الكهنة لما ثار عليهم ، وكانت ثورته ثرضية من نفسـه ، أما اليوم فقد تجلى له أثر هـذه الثورة حيث جعلته طريدا

وأحالته جبانا ، وتركته يائسا ، وليس أمامه بعد الا الخيبة • وها هو قد أخفق في تحقيق هذا الأمل الذى استدبر حياة القصور التى كرهها من أجله ، ولكنه لم يستقبل بعد الحياة التى يرجوها • أيكون لمسكه بنوع خاص من الخلق الكريم سببا لما أصابه من شر ؟ أيكون ترفع الانسان ترفعا عظيما عمن حوله مؤديا الى عكس ما يراد منه فى الواقع • ومن الناس من يخطئون كثيرا وقد يكون خطؤهم فاحشا ثم لا يصيبهم ما أصابه؟ اما هو فلم يكتسب الا جرما واحدا حين قتل مصريا ظالما، ولم يكن يريد قتله انما كان يريد أن يمنع شره ، فكيف اختص هو بجزاء فظيع كهذا الذى يتعرض له ؟ وندم على جبنه وهربه ، وبرح به أن قومه علقوا عليه آمالا كبارا فخانها ، وكان أقسى شيء عليه فى هذه الساعة المظلمة ضياع آمال المؤملين فيه الى غير رجعة، وانه لن يستطيع أن يكفر عن تلك السيئة•

ومرت ساعة حسبها عمرا ، ومرت ساعة ثانية حسبها دهرا، وراود عقله أن يعود الى الفلاح ، أو الى الصيادين ، أو الى فرعون وحاول النزول فوجد نفسه يخطيء التقدير فى خطاه • واذا به يجد نفسه منكبا على وجهه ولم يكن اغماء ولا زلة قدم ، وانما كان نتيجة فقدان العزيمة • واضطراب النفس•

وعرف أن من العبث محاولة النجاة بالنزول « وأيقن انه هالك لا محالة فى مكانه هذا ، وكأنما أخذ يؤبن نفسه وخيل اليه أنه من العار أن تبقى جثته فى العراء ، وهو ممن نشأوا على العناية بجثث الموتى الى حد بناء الأهرام لتقيها البلى ، وتجهيز توابيت ضخمة لتحميها من الفناء ، وود لو استطاع أن ينقش على حجر بجانبه رجاء للذئاب — ان كان فى هذه البقعة ذئاب — ألا تنهشه ، أو توسلا الى الطيور الجارحة — ان كان منها من ضل طريقه فى الهواء فبلغ هذا المكان كما ضل هو طريقه فى الأرض — أن تتعفف عن هذا الجسم الذى كان كريما جميلا وكان موضع آمال الناس وحبهم فلا يتخطفونه ، ولكن انى له أن يأمر الأمطار والرياح، أو يرجوها ألا تذيبه وتكتسح ما يبقى منه الى أسفل الوادى فينتهى أمره الى الأبد الا جمجمة ، وعظاما هشة ، وهو ما كان يخشاه المصريون أشد خشية » •

ثم استطاع أن يجلس ، وبينما هو فى وسط هذا الكون المظلم وهو فى رابعة النهار ، سمع صوت رنين جرس صغير خافت ، ولم يتبين حقيقته وحسبه من تصورات الذهول التى تعترى المشرفين على الموت، ومضت مدة حسبها طويلة جدا وهو ينصت الى الفضاء يلتمس أضعف الأصوات ، ثم سمع الصوت نفسه أقرب اليه وأقوى ثم تساءل ماذا يكون هذا الصوت؟

انه من غير شك ليس صوت الرياح حين تمر بين الفجوات الضيقة وبين الجبال بل هو صوت جرس لا نزاع ، ثم سمعه قريبا قويا ، والتفت وراءه فاذا بالصوت يصدر عن ماعز صغيرة تنظر الى غير وجهته ، ثم أخذت تتلفت يمنـــة ويسرة وهى فوق الصـــخرة ، ثم وقع نظرها عليه فهربت ، وانحدرت الى الجانب الآخر من القمة التى وقفت عليها .

صعد موسى وراء الماعز ، واتبع طريقها فى منفرج ضيق بين الصخور ، وتتبعها بنظره وهى تجرى الى أسفل الوادى ، فاذا أمامه أشجار كثيرة مورقة ، وفاكهة ناضجة ، وخضرة يانعة ، تقع فى منحدر جميل بين الجبال وعرف ان هذا هو الأمل الذى كان يرجوه ، وان هذا هو وادى سيناء الذى كاد يموت دون بلوغه ، وصاح بأعلى صوته لقد نجوت . وسار بخطى ثابتة وشتان بين تقدير السائر الى الحياة والهابط الى الموت ، ولقيه رجـــلان فوجداه على هذه الحالة من الاعياء ، فحملاه الى الهيكل على حمار ، وطلب ماء فقدما اليه شرابا ، وقطعة من الحلوى ، فجرع جرعتين من هـــذا الشراب الذى يعرفون أثره فى المرهقين تعبا . وهـــكذا نجـــا من موت محقق ، أنقذه صوت جرس صغير فى عنق ماعز جميلة وضعه أصحابها حتى لا تغيب عنهم حين تحجبها منعطفات الجبال .

● مـــاء مدين ●

قضى موسى ليلته فى الوادى ، وأصبح فشرب من هذا الشراب الذى يختلف عن شراب مصر فالقليل من شراب هؤلاء ، يشفى من الخمول والتعب وسمع صوتا موسيقيا ، وكان صوت جرس المعبد ، وهو صوت موسيقى هادىء يختلف عن الأصوات الصاخبة فى مصر .. وتمضى القصة فى وصف الوادى ففيه الزيتون وليس فى مصر زيتون ، وفيه الزرع الأخضر البهيج ، وعهده بالخضرة فى مصر يشوب جمالها ما يعلوها من تراب يذهب ببعض نضرتها ، ووجد موسى فى هذا الوادى كل ما فى مصر الا النيل ، فقد افتقد مياهه الجارية المنسابة . ثم تصف لنا القصة المعبد والهيكل والأطفال يلاعبون موسى ويلاعبهم ثم يعودون الى أمهاتهم وقد لاحظـوا عليه انه « لا يتكلم كما نتكلم ، وانما يتكلم بطيئا جدا » وألم موسى لعدم استطاعته اخفاء هذا العجز حتى عن الأطفال .

كان المكان بكل ما فيه ، والليلة التى قضاها يبشرانه ببدء حياة جديدة ، وما أكثر الذين يحلمون بمثل هذا الأمل حين تشتد بهم الخطوب ، وحين تضطرب حياتهم ، وتضل خطاهم ، وهو أمل بعيد فأكثر الناس يجدون

أنفسهم وقد أخذ ماضيهم بأقفيتهم يرغمهم على أن يسيروا سيرتهم الأولى تتعلق بهم أخطاؤهم ٠

وصحب موسى الرجلين فى اليوم التالى الى حيث يزرعون ، وحاول أن يمسك بالفأس يضرب به الأرض فلم يفلح ، ولم يكن يريد الا أن يحترم كل ما لم يكن يحترمه فى شبابه، وعلموا منه عدم قدرته، وعلم منهم جهلهم بالرى والزراعة ، فلم تكن خبرتهم بتوزيع المياه ، ولا باستخراجها من باطن الأرض تبلغ شيئا بالمقارنة الى خبرة المصريين ٠

ثم تحدثت القصة عن البئر التى لم تنضب أبدا وقد اجتمع فيها الناس يسقون ، ووقفت فتاتان بعيدا عنها ، فلم يغضا الطرف دونه . فساعدهما موسى فسقى لهما ثم حمل لهما الماء ، وسار معهما يوصلهما ، وتاهت زيفورا وأختها الصغرى على نساء القرية ، أن كانتا موضع عنايته، وقالت زيفورا لأختها انى سأحمل أبى على أن يخطبنى له ، فاستنكرت أختها منها ذلك القول ، وخجلت زيفورا منه فسقط ثوبها فرفعته وطوته حولها فى حركة رشيقة فيها حياء واغراء، ورأى موسى في هذه الحركة جمالا أعجبه وعرف ما يستطيع أن يصوره الثوب من جمال واغراء حين تحاول المرأة الجميلة أن تستتر به جسمها فلا يزيده الا فتنـــة ٠٠ ومرت بذهنه حينئذ صورة الجميلات الفاتنات فى ثياب مزركشة فى قصر فرعون ، ثم صورة الفتاة الحبشية التى كانت تهواه ٠

وأقام موسى لأهل مدين ســدا يحجز المـاء، وعلمهم سر العجلات، والشادوف ، وصارت له بينهم مكانة الاحترام ، ثم زفت اليه زيفورا فى فرح عم أهل مدين جميعا .

ثم تحدثت القصة عن الأخت الصغرى وقد ذهبت ذات مرة تحدث موسى ، وتذكر لها أختهـا : ونظر اليها فجـأة وكأنه على جهله بعواطف النساء فهم أن كلامها له خبىء ، وانها تكتم حبا عنيفا ، غلبتها عليه أختها الكبرى ، دون أن تكون أهلا لهذا الحب » ٠٠ « ونظر كل منهما فى عينى الآخر ، فكان فى عينيه دهشة واستنكار واباء ، وفى عينيها بريق ساطع يشف عن وشل يكاد يزرف دمعا وكأنها تلتهمه التهاما ، وهاله ما رأى من شــدة رغبتهـا اليه رغبة تختلف عن الرغبــة التى رآها من قبـل عنـد المتبذلات فى قصر فرعون» ، ولعله لو كان مرهف الحس، ملتهب العاطفة ما استطاع أن يقاوم جمال هذا الحب العارم ، ولكنه كان عاقلا حازما شديد الحرص على كل مايعتقده واجبا خلقيا ، فكان أن كاد يعرض عنها ، ثم دارت

بها الأرض ، فارتمت عليه مغشيا عليها ورأت ان الاغماء فرصتها التى تستطيع أن تتمتع فيها بما لا تقدر عليه وهى واعية وأن العرف والأخلاق تغفر لها ما هى فيه من نشوة آثمة لو صارحت بها الناس لاحتقروها .

واضطربت نفس موسى لهذا الحادث اضطرابا شديدا ، حين علم أن فى كل بيئة طاهرة أو عابثة أعماقا للنفس لا قبل لأحد مهما طهر أن يتغلب عليها الا ظاهرا ، ولم يكن موسى يعرف النساء على كثرة من لقى منهن ، ولم يكن بين طبيعته وطبيعتهن تجاوب عاطفى داخلى .

وساد الحب والسعادة حياته مع زيفورا ، فكان موسى عندها أعقل من عرفت ، وأحكمهم ، وأخلصهم نفسا ، وكانت هى عنده أطيب الناس ، وأرقهم قلبا ، وأكثرهم ولاء ، ولكن خلافا دب بينهما لم يفهم له سببا ، فقد أخذت تسأله أن يحدثها عن حياته الصاخبة فى قصر فرعون ، وعن مغامراته فيه ، ألم تكن عندكم ألوان شتى من النساء الفاتنات اللاتى أتقن الاغراء حتى ليقع فى حبائلهن أعظم الرجال ؟ » .

وتلتمس القصة لسؤال زيفورا تعليلات شتى ، فلعلها كانت تريد أن تشعر أنه فضلها على الكثيرات ، أو لعلها كانت تريد أن تتأكد أنه لم يحبها عن جهل ، أو لعلها كانت تريد أن تعرف ما يعجبه وما لا يعجبه .

وكان مصدر الخلاف بينهما انه كان يعجبه منها ما لا يعجبها من نفسها، ولعلها كانت تود أن يعجب بفتنتها واغرائها أكثر من اعجابه بطيبة قلبها واخلاصها له ، وكان يود أن تحبه لغير قوته وأمانته ، واذا كان هذا حقا هو الخلاف بينهما فهو دليل على قوة شخصية كل منهما، قوة تأبى أن تلين الآخر مهما قوى الحب .

واضح كل الوضوح ان القصـة الثانية « **ماء مدين** » امتداد للقصة الأولى « **الطريد** » وذلك ما حدا بنا أن نتكلم عنهما معا . ويبدو أنهما فى الحقيقة فصلان من فصول كتبها الدكتور عن قصة موسى ، وقد بحثنا فلم يصل الى أيدينا غير هاتين القصتين .

و« **ماء مدين** » تخالف ماورد فى القرآن فيما يتعلق بموسى بعد أن سقى للاختين فالقرآن يقول ((**فسقى لهما ثم تولى الى الظل فقال رب انى لما انزلت الى من خير فقير ، فجاءته احداهما تمشى على استحياء قالت ان أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا**)) الآيتان ٢٤ ، ٢٥ من سورة القصص ، والقصة تقص علينا ان موسى سار معهما ابتدا يحمل لهما الماء .

وفى القصتين ما يمس قداسة النبى موسى عليه السلام وبخاصة فيما يتعلق بالاحلام التى صورتها القصة وما فيها من خروج على السمو، وقد يلتمس للكاتب بعض العذر فى ذلك من حيث ان موسى فى هذه الأحداث لم يصر نبيا بعد ٠

وتعرض لنا القصة الأولى فكرة فلسفية فى قول الكاتب عن الماء فى الجبل انه قليل حلو أما ماء الأنهار فى السهول فكثير كدر ويستطرد من هذه النقطة فيعرض أحوال الناس وينتهى الى تقرير « وكأنما الانسان من الحياة لا يكون الا على احدى حالتين ٠٠ أما الحياة الكثيرة الصافية فلعله لا سبيل اليها »

وعندما يجرى وصف الشتاء فى الوادى على ألسنة البدو يصفونه بأنه شيء يشبه (القطن) بينما عهد مصر بالقطن قريب يرجع الى عهد محمد على ٠

وليس أدعى الى تصوير اليأس والخوف فى نفس موسى حين كان قاب قوسين أو أدنى من الوادى ، من قول الكاتب فى وصف الطيور الجارحة : « ان كان فيها من ضل طريقه فى الهواء فبلغ هذا المكان كما ضل هو طريقه فى الأرض » ٠

والعبرة الحقيقية التى أرادها الكاتب فى « الطريد » هى تلك التى عبر عنها حين قال : « ولم يكن بين آخر يأسه وأول رجائه الا خطوة واحدة ، وكان حريا الا يعرف ذلك ولو أوتى أكبر العلم ، وكثير من الناس فى أحلك أوقات حياتهم عموا عن هذه الخطوة فعادوا أدراجهم ، وهم من النجاح قيد خطوة ، وبذلك يظلون يترددون فى اليأس والبؤس بعد عودتهم » ثم يصف لنا هذه اللحظات ومواطن الدقة والخطر فيها فيقول :

« وتلك لحظات أدق ما فيها ان الانسان لا يعرف حين يشتد به الخطب اين تقع خطواته التالية ؟ أيقدم أم يحجم ؟ فقد تكون سبيل النجاح ، والسعادة وقد تفضى الى كرب لا رجعة منه » ٠ (انها لحظات أمرها الى الله سبحانه وتعالى) . « ولا احسب احدا ولو أوتى حكمة موسى يدرك أى الطريقين أهدى الا أن يهديه الى ذلك شيء غريب عنه ولو كان ذلك الشيء جرسا صغيرا فى عنق ماعز جبلية » ٠

قلنا فى فقرة سابقة ان الكاتب مس قدسية موسى كنبى ، ولكننا اتماما للحقيقة ان الكاتب حرص على أن يبرز موسى طاهرا بعيدا عن كل

دنس وقد لا يكون الى ذلك من سبيل الا أن يبين الدنس من حوله ، والاغراء بأخذه من كل جانب وفى كل حين ، فذلك أدعى الى بيان عظمة الطهر · وليس هذا الذى نقوله رجما بالغيب أو تأويلا يراد به انصاف رجل تحبه وانما هذا الذى نقوله هو تعبير عما حدثنا عنه كامل حسين فى « ماء مدين » من أن علماء الطبيعيات وجدوا انه فى ظروف تجريبية بعينها ، اذا ابتلت يد انسان بالماء فانه يستطيع أن يقبض على الجمرة المحمرة فلا تحرق يده بنارها ، اذ يكون بين يده الجمرة طبقة رفيعة من البخار تمنع يده أن يصيبها حر النار ، ومن ان موسى كان من هذا الصنف بين الناس .

وتحدثنا القصة عن الفرق بين نفسيتى موسى وزيفورا وهو الفرق الذى أتاح للخلاف أن يأتيهما فتقول : « كان موسى رجلا كاملا ليس فيه ذلك القدر الصغير من الانوثة الذى يجعله يفهم النساء بقلبه ، لا بعقله وحده ، وكانت زيفورا امرأة كاملة ليس فيها ذلك القدر الصغير من الرجولة الذى يجعلها تفهم الرجال بعقلها لا بعواطفها وحدها » ، وفهم الرجال للنساء بالعقل وحده ، وفهم النساء للرجال بالعواطف وحدها محال . « ولم يفهم موسى شيئا مما تصبو اليه نفس زيفورا وهى أعز الناس عليه ولم تفهم هى ما يؤلمه من حديثها وهى أعز الناس عليه » ، ولا شك انه حديث نفسانى خبير .

اما لماذا كان موسى من ذلك الصنف الذى هو من الناس بمثابة الطبقة الرفيعة من التجار بين اليد والجمرة ، فالدكتور لا يرى أن ذلك كان من آثار حياته المضطربة كما كان يحسب موسى وانما كان ذلك طبعا فى موسى لا تستطيع حوادث الحياة أن تغير منه شيئا » .

ولا شك أن فى هذه القصة تأثرا برحلة الدكتور كامل حسين التى قام بها فى شبابه فى صحراء سيناء عندما ذهب يزور دير سانت كاترين ، ولعلنا حين نذكر ذلك نكون قد أعطينا ما يفسر تلك القدرة غير الواعية للقصة الأولى (الطريد) على تصوير رحلة الصحراء .

وأنا أزعم ان قصة ماء مدين ليست تعبيرا عن موسى بقدر ما هى تعبير عن كامل حسين نفسه الذى لم « تكن له طفولة ولا شباب وقد أسرف على نفسه بهذا الاباء والترفع لغير ما غاية يراها » وهو يقرر « ان الارتفاع عن العواطف الانسانية قد يكون محمودا فى عهد الحكمة والوقار ، ولكنه حين يكون فى الشباب قد يحرمهم كثيرا من مقومات الحياة الطيبة » أما موسى فقد أعده الله ليكون نبيا ورسولا وأما كامل حسين فقد أعده الله ليكون كامل حسين .

● أقدم رسالة علمية ●

فى الجزء الأول من « متنوعات » نشر الدكتور كامل حسين أقدم رسالة علمية فى التاريخ ، وهى بردية ادوين سميث بعد أن ترجمها الى العربية ، وقدم لها بقصة قصيرة وصف فيها فلاحا مصريا لم يتجاوز العشرين من عمره عاش منذ نيف وخمسة آلاف عام حينما كان فرعون يبنى أهرام الجيزة ويعمل فى بنائها آلاف من العمال . وكان كثيرا من هؤلاء العمال يخرون كل يوم بين صريع وجريح ، وعهد الى هذا الفلاح أن يعنى بأمرهم فكان يدرس كل حالة يراها دراسة علمية ، بينما كان رجال الدين يعالجونهم بالتعاويذ ، والرقى وما الى ذلك مما عهده الناس منهم . أما العوام فكانوا يرون أن الجن لبستهم .

وتصور لنا القصة كيف أتى هذا الفـــلاح مع جماعته وكيف كانوا يقضون أيامهم فى العمل فى بناء الأهرام ، وكان هذا الفلاح يضـــع يده على المخ يختبره أيتحرك أم لا يتحرك ؟ أفيه أمل أم ليس فيه أمل ؟ ، وكان يعالج كل حالة بما يناسبها . وتهيأ له من طول الممارسة فراسة لا تخيب، وأصبح ماهرا فى علاج الحالات مدركا خطورتها ، ونتائجها ، فلم يكن يصعب عليه أن يقرر أن هذا قابل للشفاء وان هذا سائر الى الفناء .

ثم ان هذا الفلاح أملى خبرته فى هذه الرسالة ، ولعب التاريخ بهذه الرسالة زمنا طويلا يخفيها ، ويبديها ، حتى عثرت جمعية أمريكية للآثار على نسخة ناقصة من هذه الرسالة ، وضعت فى قبر قديم ولعل الذين وضعوها حسبوها تعويذة أو « كتاب الموت » وترجمها ادوين سميث الى الانجليزية ، ورأى فيها الدكتور كامل حسين مثالا للطريقة العلمية السليمة فى العلاج فترجمها الى العربية ونشرها فى كتابه وقدم لها بهذه القصة .

قصة « الرسالة » أو قصته « الفلاح الطبيب » حكاية شائقة أو قل انها حكاية علمية تحكى طورا من أطوار تاريخ الطب نستطيع أن نضيفها الى تراث الدكتور فى المجال القصصى .

●● « قوة التعبير » : نظرية فى النقد الأدبى

فى الفصل الذى كتبه الدكتور عن « القرآن » لأستاذ الفلسفة بالجامعة الفرنسية والذى نشره فى الجزء الأول من « متنوعات » ، وفى الفصل الذى عنوانه « اعجاز القرآن » فى كتاب « الذكر الحكيم » قال الدكتور « وسأقدم الى القارىء نظرية لى فى النقد الأدبى » وها هو ملخص هذه النظرية :

(١) فى الأدب العالمى أعمال خالدة لا تخلق جدتها وان قل الملمون بها ، وأعمال ذائعة يتحدث بها الناس جميعا ثم ينسونها بعد وقت قد لا يكون طويلا ٠

والصفة الغالبة على الأعمال الخالدة هى قوة التعبير ، أما ما يكفل الذيوع فهو فى أغلب الحالات جمال الأسلوب ٠

(٢) ولم يكتب البقاء والذيوع معا الا لعدد قليل جدا من الكتب ويكاد يكون ذلك مقصورا على الكتب الدينية وحدها ٠

(٣) قوة التعبير هذه التى تغلب على الأعمال الخالدة صفة عميقة غامضة، وهى لا تتعلق لا بالموضوع، ولا بسموه ، ولا ببساطته، ولا بالفكرة وعمقها ولا بقوة المنطق وقد لا يكون لها حظ كبير من البلاغة كما يعرفها الناس وهى قوة كامنة فى العمل الأدبى أو الفنى تحتاج الى ايضاح خاص يجب علينا أن نتدبره لنفهم سر الخلود فى الأعمال الأدبية ، ولعل الكاتب نفسه لا يعلم عنها شيئا حين يكتب بل لعلها من الأمور التى تخرج عن حد الوعى ٠

(٤) ولكن جمال الأسلوب مرجعه الى الذوق العام، وهو يختلف طوعا للعصر ، وتاريخ الأدب أكثره تاريخ هذه الأساليب وما يعتريها من تقلبات الأذواق ٠

(٥) وقوة التعبير مرجعها الى الصدق : صدق الايمان أو العاطفة أو الرأى صــدقا عميقا خالصــا ، ثم يكون الالحاح الداخلى الذى يحمس فيهم عواطف مماثلة لما كان فى صــدر المؤلف بادىء ذى بدء كما تحرك المؤلف على التعبير الصادق القوى بحيث ينتقل أثره الى المتذوقين فيثير النغمة الصادرة من وترهما كل وتر يساويه طولا وقوة ، ولعل فى هذه الصفة شبها بما يقال عن المعانى الباطنة للعبارات الصوفية وأثرها فى بعض الناس ، بيد أن معانى الصوفيين لا يدركها الا صوفى مثلهم .

(٦) وليس أدل على قوة التعبير من قول المسلمين « الله أكبر » ، فهذه عبارة تركيبها بسيط الى أقصى حد ، ومعناها لا يزيد فى الواقع على قولنا الله عظيم ، ومع ذلك فلا نزاع فى أن العبــارة الأخيرة لم تكن ليكتب لها الخلود الذى حظيت به العبارة الأولى ولو ترجمت هذه العبارة الى لغة أخرى لضاع أكثر روائها، فهى بذلك عربية صحيحة ، وقوتها ترجع الى أنها تعبر تعبيرا صادقا عن شىء فى أعماق النفس العربية . وهى تستمد هذه القوة لا من ألفاظها أو تركيبها أو معناها وانما تستمدها من صفة كامنة فيها هى قوة التعبير فهى تثير فينا الشعور بالنظرة الشــاملة ، والأفق الواسع ، والبصر الممتد الى غايته ، ونحن لا نشعر بالحاجة الى تحديد المفضول فى هذه العبارة ، ومن السهل تحديده فنقول أكبر من كل شىء ، ولكن هذا التحديد يفقد العبارة أكثر قوتها ، فهو ينقص من شمولها ، ويضيق من أفقها وان لم يغير من معناها شــيئا ، وأهل الصــحراء يتميزون بالنظرة الشاملة أكثر مما يتميزون بالنظرة الفاحصــة المدققة ، وهم يشــعرون ان ما وراء الأفق لا يختلف كثيرا عما دونه ، والمفــاجآت فى بيئتهم قليلة فاذا كان هناك شىء أكبر من كل ما يبصرونه فأغلب الظن انه كذلك أكبر من كل ما لا يرون .

وقد نشأت الأمة العربية فى الصحراء الشاسعة المترامية الأطراف فتأثرت فى عهودها الأولى بهذه البيئة الخاصة ، وهى بيئة قوية الأثر فى أهلها ، والمدنية العربية تطبعت فى أكثر نواحيها بهــذه البيئة ، وأثر الصحراء فى صفات العرب النفسية والخلقية والعقلية والفنية واضح جدا (على الأقل فى العصور التى سبقت الاسلام) وسنقصر قولنا هنا على ان العبارات الشاملة والنظرة العامة واغفال التفصيل الدقيق من خواص أهل الصحراء ، وعبارة « الله أكبر » تدل على هذا كله على خير وجه . ويؤكد ذلك ان كل زيادة فى هذه العبارة تفقدها قوتها ، وان ظن غير الغربى

ان الزيادة تجعلها اوضح وأدق . وهي كذلك تعبير صادق جدا عن الروح الاسلامية فى اعمق نواحيها ، ذلك أن جوهر العقيدة عندنا هو تنزيه الله عن كل ما يشبه المخلوقات تنزيها كاملا . وغيرنا قرب الله من الانسان على نحو يختلف باختلاف العقائد ، اما الاسلام فانه يرى الارتفاع بالتنزيه عن كل تحديد ، وهو ما تعبر عنه عبارة « الله اكبر » أصدق تعبير .

ولا أحسب أن البلاد التى تكثر فيها الجبال يستطيع أهلها ان يخلقوا مثل هذا التعبير ، فهم لا يستمتعون بالنظرة الشاملة التى هى من طبع أهل الصحراء ، وهم يعلمون أن وراء كل قمة قمة أخرى لا يرونها قد تكون أعلى أو أكثر وعورة أو أمنع على عابريها ، أو أصعب ارتقاء أو أخطر منزلا . لم يكن لغير العربى المسلم ان يخلق تعبيرا لهذا ، وقد لايستسيغه كثيرون من غير العرب لبعد ما بينه وبين طبعهم ، ولكن العربى المسلم يرى فيه أصدق تعبير وأقواه عن أعماق نفسه ، وليس غريبا أن يكتب له الخلود ، وأن يردده كل مسلم أبد الأبدين .

(٧) بساطة الفكرة ، ووضوح المعنى ، وسهولة العبارة : صفات ملازمة لقوة التعبير وهى أقوى أثرا من العبارات المنمقة ، أو الاسلوب البارع ، او الفكرة العميقة ، وهذا يدلنا على ان قوة التعبير تختلف اختلافا تاما عن جمال الاسلوب ، ويكفينا هنا أن نقول أن قوة التعبير شيء أعمق من الوعى ، وان الكاتب او الشاعر او المصور او المثال او الموسيقى لا يستطيع أن يتوخى ما يدل على هذه القوة ، بل هى تجيء حين تجيء عفوا ، ولعلها أن تكون أقوى ما تكون فى الذين لم تفسدهم الصنعة ، والمرانة ، والتهذيب ، والدقة ثم هى تتعلق بذاتهـا أكثر مما تتعلق بالمؤلف . على حين ان الاسلوب يتعلق أولا بشخصية المؤلف وبما فيه من علم وثقافة وذكاء وذوق ، وكلها تؤثر فى الأسلوب ولكنها أقرب منالا من قوة التعبير .

(٨) وقوة التعبير تبلغ غايتهـا فى أول العهـد بتاريخ كل فن . أما الأسلوب فيكون فى ذلك العهد بسيطا متعثرا تنقصه المرونة والخبرة والأسلوب يتحسن كلما ازدادت مرانة المؤلف ، وخير الأمثلة على ذلك فن التصوير وخاصة التصوير الايطالى فى عهد النهضة ، فقد كان هذا فى أول أمره بدائيا فيه أخطاء واضحة ، ولكنه مع ذلك كان بالغ القوة فى تعبيره عن روح المصورين وايمانهم واخلاصهم . حتى اذا تقدم الزمن بالمصورين أصبح التصوير الايطالى أجمل وأكمل وأكثر تهذيبا ، على ان ذلك

لم يزد فى قوته التعبيرية ، ولعلها ضعفت فى العصور المتأخرة حين بلغ هذا الفن أوجه ، وقد تعجب بما فيه من اتقان بالغ وجمال رائع وهو مع ذلك أقل أثرا فينا من الصور البدائية ٠

(٩) وقد يكون المعبر عنه أعماق نفس المؤلف وهو لا يدرى انه يدلنا عليها ، وخير مثل على ذلك لزوم ما لا يلزم عند المعرى ٠

(١٠) وليس من الضرورى أن يكون التعبير أدبا أو شعرا ٠ من ذلك ما عبر به المصريون القدماء عن أعمق معتقداتهم ببناء الأهرام والهياكل الضخمة ، يدلون بذلك على ايمانهم بالأبدية وخوفهم من الفناء . كما عبروا عن ذلك بقصة « أوزوريس وايزيس » وهى صور أخرى من الأبدية المتجددة الحية .

(١١) وقد يكون المعبر عنه خلق جماعة من الناس تطبعت نفوسهم من أثر حوادث تجمع بين الحقيقة التاريخية ، والخيال الشعرى فيكون هذا التعبير أصدق من المعلومات الكثيرة ، والدرس العميق ، والبحث المستقصى لهذه الجماعة ٠ كما نراه فى قصة خروج بنى اسرائيل من مصر ٠

(١٢) والأدب العالى فى أمة ما يوحى بقوة التعبير فى ناحية من نواحى حياتها ، وقد لا تكون قوة التعبير ممثلة فى أدب أو شعر ٠ فقد عبر المصريون عن ايمانهم بالأبدية وتقديسهم لها على هيئتين : هيئة ثابته تمثلها الأهرامات التى لا يجوز عليها البلى ، وهيئة متجددة تمثلها قصة أوزوريس وايزيس ، وعبر الاغريق عن أعمق صفاتهم البارعة بالرياضيات ، وهى مفتاح عبقريتهم فى العلم والفلسفة والفنون ، بل لعل التراجيديا اليونانية أن تكون فى عموم نظامها معادلة اذا عرفت أجزاؤها الثلاثة كانت النتيجة حتمية لا مفر منها ، أما الرومان فكانت قوة تعبيرهم عن نفسهم تتمثل فى القانون والادارة ، وأما العرب فقد كانت لغتهم أقوى تعبيرا عن أعماق نفوسهم وفى هذا شرح لما نراه عند العرب من شغف بلغتهم وبحثهم فى أسرارها ، فهى تكاد تكون الفن الوحيد الذى مارسوه بمهارة واتقان ٠ وهذا تفسير قول الأولين أن العرب أفصح الناس وأبلغهم ولا يمكن تفسير ذلك الا على النحو الذى بيناه ٠

(١٣) ويطول بنا القول اذا أردنا أن نستقصى ما فى اللغة العربية من دلالة على أعماق النفس العربية ، ولنأخذ لذلك مثلا شعرهم : فالقصيدة العربية تمثل حياة الصحراء فى صرامة أوزانها ، ووحدة قافيتها ، وتمسك

الشعراء بنظام واحد ، كل ذلك من أثر الحياة البدوية القاسية المتشابهة ، والتى يتحكم فيها العرف أكثر مما يتحكم القانون فى أهل الحضر .

(١٤) ولست فى حاجة الى أن أذكر من يرتادون الصحارى ويحبونها ان أهلها لا يشعرون بالسأم من تشابه مناظرها ، وهم يختلفون فى ذلك اختلافا بينا عن أهل الحضر ، والصحراء أقرب الى قلوب أهلها وأحب اليهم من الحضر الى قلـوب أهله . لأن هـؤلاء ملولون يطـلبون التغيير دائمـا يشتاقون الى الجديد من اللذات يلتمسونها على أى وجه ، أما أهل البداوة الذين تأثروا بحياة الصحراء فلا يملون تكرار معالمها وتشابهها لأن ذلك من طبيعة الصحراء ، وعنصر من عناصر جمالها » .

(١٥) « والعربى يستعذب السجع اى ان يكون النثر مقطعا قطعا تطول أو تقصر وتنتهى كل قطعتين أو أكثر بقافية واحدة ، وهذا كثير جدا فى الأدب العربى . وجمال السجع عند العرب شىء يسهل فهمه اذا تذكرنا طبيعة الصحراء . والذى يحاول السفر الطويل فى الصحراء يجد نفسه مضطرا الى تقطيع الطريق أمامه قطعا تختلف طولا وقصرا تنتهى بمعالم بينة . ولا أقول ان هذه العملية تتم وهو عالم بها، وانما هى عملية غير واعية . وعندى أن هذا أصل تقطيع الكلام قطعا تنتهى بمعالم متشابهة وهو السجع . **على هذا التفسير يكون السجع تعبيرا عجيبا عن طبيعة أهل الصحراء وأثرها فى أدبهم .**

(١٦) ومن العجيب أن يستمر الاعجاب بالسـجع الى ما بعد تحضر العرب وارتيادهم الأمصار . وقد ظن أهل المدن والحضريون أن السجع جميل لذاته . فأخذوا يكثرون منه فوقعوا فى أقبح الأساليب لأن السجع صار عندهم آليا لا يعبر عن شىء ، والمحدثون حين يسجعون يحاولون الجمع بين نقيضين : بين روح الصحراء وهو أصل السجع ، وبين التنظيم الدقيق الذى يمثل روح الحضر . ومن الطبيعى أن نرى الكتاب المحدثين عدلوا عنه تماما .

ونظرية قوة التعبير نظرية رشيقة ولكنها ليست من تلك النظريات التى تقاس بها جودة العمل الأدبى ، وانما هى نظرية تعطى تفسيرا للخلود والذيوع فى الأعمال الأدبية .

وفى ثنايا هذه النظرية نجد آراء نقدية لأديبنا الكبير فهو يحدثنا عن السجع كتعبير عجيب عن طبيعة أهل الصحراء واستمراره الى ما بعد

تحضر العرب وارتيادهم الأمصار . وعن وقوع العرب فى أقبح أساليب السجع والعلة فى ذلك ، وهو يجعل أصل السجع روح الصحراء ، ويعلل العدول التام للمحدثين عنه • وهو يحدثنا عن عهود ازدهار قوة التعبير والأسلوب وضعفهما حديثا تجد فيه صـــدى لحديثه فى كتابه التحليل البيولوجي للتاريخ .

والنظرية تحـدد العلاقة والارتبـاط بين قوة التعبير والأسلوب ، وتحدثنـــا عن المعبر والمعبر عنـــه ، وتضرب المثـل وتسهب فى توضيح مرادها منه و .. و .. مما يسوغ قولنا بأنها نظرية متكاملة .

وهى الى ذلك كله مرتبة ترتيبا منطقيا يكفل الاقتناع بها ، وانى لواثق أن الاقتناع بها يبدأ مع مقدمتها ! •

وعندى أن أعظم ما فى النظرية هو ذلك الوضـــوح الذى لم يكلفك ان تقرأ للمؤلف كثيرا من التعقيب عليها ، وهو ذلك الاتساق والتواتر الذى أبان عن نفسه فى فقرات هذا الفصل •

●● السبيل الى العظمة الأدبية

هذه بعض الآراء القيمة تصدر عن خبرة وحنكة رأى الدكتور كامل حسين أن يسديها الى شباب الكتاب ، وقد ضمنها كلمته التى ألقاها فى الاحتفال بمنحه جائزة الدولة للأدب فى الثانى عشر من ديسمبر سنة سبع وخمسين وتسعمائة وألف ، والكلمة مثبتة فى الجزء الثانى من «متنوعات »:

(١) على شباب الكتاب الا يحاولوا عملا ضخما تتحدث به الأوائل والأواخر ، فانهم لا يدرون أين يكتب لهم «النجاح أو الخلود » ولهم في ماحدث لارازموس عبرة ، كان من أكبر مفكرى النهضة ، ودرس كثيرا وألف وحقق وبذل جهدا بالغا حتى لم يعد له ضريب فى عصره • ثم عرض له أن يسافر من روما الى انجلترا وكان ذلك يستغرق من الأسابيع ما يستغرقه اليوم من الساعات ، ورأى أن يسرى عن نفسه همــوم حياته ، وكانت كثيرة وكان منها الفقر فكتب فى رحلته هذه كتابا فى مدح الجنون ، وكان يعد كتابه هذا عملا هينا صغيرا وكان يراه أقل أعماله قدرا ، وهو لا يعرف اليوم الا به ولا يقرأ من مؤلفاته شيء غيره » • ثم يعلل لهم سر هذه النصيحة فيقول : « **والذى يرمى الى شيء عظيم عمدا يكبل نفسه بقيود من التقرب الى الذوق العام تحد من تحليقه** » •

(٢) ويحذرهم أن يرغموا أنفسهم على ما ليس من طبعهم •

(أ) فلا يحتذوا لونا من ألوان الأدب غرهم نجاحه .

(ب) ولا يقلدوا كاتبا أعجبهم •

(ج) ولا تغرهم حداثة مذاهب فيسيروا مع الزمن يتعلقون بما هو جديد لجدته •

(٣) **والسبل الى التفوق** كثيرة وخير **دليل على ذلك** ان « الكتابين **اللذين** » **يكرمان اليوم يختلفـان اختـلاف القطبين** ، وكلاهما مع ذلك **يستحق التقدير على** حد قول الخبراء (الكتابان هما قرية ظالمة ، وقصر الشوق لنجيب محفوظ) .

(٤) ومع **أن** الكاتب العربي في عصرنا **هـذا** حائر **بين عوامل** كثيرة متضاربة فهو كحيرته بين القديم **والحديث** ، وبين **الفصحى والعامية** ، وبين الأدب **الواقعي** والرمزى والوجودى والمكشوف . مع كل **ذلك فهو لا يرى في ذلك قيدا فصاحب** الأدب الانشائى يستطيع أن يغفل ذلك **كله أو أن يغفل منه لا يصادف هوى في** نفسه ، ومذاهب الكتابة آخر ما **يستطاع** نقله من بلد الى بلد نقلا مباشرا .

(٥) وليس على الكاتب الا أن يعنى بأمرين اثنين هما الموضـوع والأسلوب ، فأما **الموضوع** فيجب أن يستمده من حياته وخبرته ، وعليه الا يصف شخصيات من نسيج خياله وحده لا أصل لها فيما يعلم ، وعليه الا يصف وقائع لم يشهد لها شبيها في تجاربه في الحياة » .

(٦) **والعواطف** لا تتفاضل في الأدب تفاضلها الخلقى أو بضخامتها وعظم أثرها ، وانما **تتفاضل بصدق مقدماتها ونتائجها** .

(٧) **والشخصيات** لا تتفاضل في الأدب بما تمثله من فضائل سامية أو خلق رفيع ، وانما **تتفاضل بتماسك اجزائها ، وصدق وصفها** .

(٨) والأسلوب عنده « عقدة العقد » وهو شقان :

– شق يرجع الى طبيعة الكاتب وشخصيته .

– وشق يرجع الى مواءمة الموضوع .

« ثم هو صورة من صور النفس ، فالكاتب العنيف يخفق ان أراد أن يكون اسلوبه هادئا ، **والتفكير العميق لا يحسن أن يكون اسلوب أدائه** رشيقا رقيقا » .

« وخير وسيلة يكون بها الاسلوب مهذبا أن يرد من الكاتب نفسه على **أن يكون مهذبا ومن العبث اذا كان الكاتب جبانا أن يحاول أسـلوب** الشجاعة **والقوة** » .

(٩) **وفيما يتعلق** بمواءمة الأسلوب للموضـوع فقـد يـكون أوفق للنكرة الرائعة **أن يكون أسلوبها** متواضعا حتى لا يطغى على جمال الفكرة

فيذهب بروائها ، ويحسن بالكتاب أن يعرفوا رأى المصورين فى مثل هذه المعضلات ·

(١٠) وليحذر الكتــاب **التهاون** فيما يكتبون « فالمواهب وحدها لا تكفى » وعند الانتاج يتبين للكاتب كثير مما ينقصه ، وقد يكون ما ينقصه على قلته مما يحول دون بلوغه الغايات التى يريدها ·

(١١) ثم ينصــحهم **باتقان اللغة** التى يكتبون بها فصحى كانت أو عامية ، والعامية فى حاجة الى الاتقان حاجة الفصحى ان أريد لها أن تعبر تعبيرا وافيا عن أمر يتعلق بمن يتحدثون بها » ·

(١٢) «وعلى الكاتب الا يكتب حتى **تسيطر عليه فكرة غالبة** ، وحتى يحسن أنه لن يهدأ له بال حتى يخرجها للناس، وجماع القول فى هذا الباب أن يكون الكاتب صادق الشعور ، صادق التفكير ، صادق التعبير » ·

وقد حرص الدكتور كامل حسين على ان يضمن كلمته التى ألقاها فى حفل استقباله عضوا فى مجمع اللغة العربية بعض النصائح الى الشباب حين يتحدث عن الحياة الفكرية فى مصر الحديثة فكان مما قاله : « وانى ادعو شبابنا ان يروضوا انفسهم على شىء واحد فى حياتهم الفكرية وهو الصدق ، وليكن همهم أن تكون حياتهم صادقة ، وتعبيرهم عنها صادقا · والصدق كل شىء فى الحياة الفكرية وانى لأدعوهم فى سبيل ذلك الى قتل الفصاحة فهى شكل محض، الى تجاهل البلاغة فقد أصابنا منها شر كثير وقد أصبح جمالها أجوف لا يحمل أى معنى من معانى الصدق ، وعليهم أن يتركوا وراءهم ظهريا كل ما تعودوا أن يعدوه مثلا عليا للادب ، والا يسعوا الى بلوغ العظمة أو الخلود بل ان الجمال نفسه يجب الا يكون غايتهم فان له معايير كثيرة تختلف بعدا وقربا ، وزمانا ومكانا ويضل به من يعتمد عليه وحده أما الصدق فلا يضل به أحد وكل ما يفسده يقضى على حياة الفكر المختص ·

● رايه فى المدارس الأدبية ●

كان الدكتور كامل حسين يضيق بما يسميه النقاد والأدباء بالمدارس الأدبية ومما رواه الأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف عنه فى هذا الشأن قوله : —

« ان المدرسية جمود وفجاجة ، وكأنى بأساتذة الجامعات يريدون أن يضمنوا وجودهم بهذه المدرسية التى يفرضونها على الأدب والفن ، وانى لأعجب لأولئك النقـاد الذين يعيبون أديبا أو فنـانا لأنه التزم بقواعد المدرسة الفلانية وصار فى أسلوبه وتفكيره على أسلوب المدرسة الفلانية٠٠ فلماذا لا ننظر الى الأديب أو الفنان على أنه مدرسة جديدة قائمة بنفسها؟ وهذا هو منطق الابتكار والتجديد ٠

● ● الشعر العربى بين الطبع والاحتراف
وكيف نعرض شعر الاحتراف على المثقفين والمحدثين ؟

كان الدكتور كامل يرى أن الجهل بالشعر القومى ينقص من قدرة ثقافة المتعلمين ويذهب بكثير من واقعها وهذا عيب كبير قد لا يدركه جمهور المتعلمين ، ولكن الجهل بالشعر القومى يؤثر تأثيرا سيئا فى التكوين الكامل لشخصية الذين يحرصون على أن تكون لهم ثقافة عالية . « ومن الخطر على الأمة أن يجهل المثقفون فيها شعر أمتهم ، وشر من ذلك ألا يعبأوا به وأن يسخروا منه ، وهذا ما نعلمه عن كثير منهم وليس لنا أن نسكت على هذه الحال لأن ثقافتنا حينذاك تكون مبنية على الرمل ، أو مستعارة لا جذور لها فى نفوسنا » .

ولعل كتاب « الشعر العربى والذوق المعاصر » الذى ألفه الدكتور لم يكن الا وسيلة ارتآها هو لأداء هذه المهمة : وسنعرض أولا تفريق الدكتور بين شعرى الطبع والاحتراف ، ثم نذكر المنهج الذى يراه لعرض شعر الاحتراف على المثقفين المحدثين .

ويقرر الدكتور كامل حسين فى مقدمة كتابه « الشعر العربى والذوق المعاصر » أنه لم يستقم له فهم الشعر الا حين قدر أنه على ضربين : شعر الطبع وشعر الاحتراف . وهما يختلفان اختلافا شديدا فى الروح والموضوع والأسلوب والأغراض ، ولا يجمعها الا أن كليهما منظوم على نحو واحد .

وليس ضروريا فى شعر الاحتراف أن يكون للكسب، وان كان أكثره كذلك ، انما هو فى تعريفه « **الشعر الذى يعبر فيه الشاعر عن أشياء لا تمس أعماق نفسه ، ولا تصدر عن عواطفه** » ويعنى فيه بالدقة والمهارة التى أعجبت النقاد ، وهو محلى موقوت ، ومنه الجيد ومادون ذلك ، وأعذبه

أكذبه ، وجماله يرجع الى الصياغة ، والعبرة فيه بذوق الممدوح ، وصاحبه يعنى بالمحسنات اللفظية أو المعنوية التى يرجى لها الذيوع ٠

وشعر الطبع هو ذلك الشعر الذى يتحدث فيه الشاعر عن احساسه وعاطفته ، وشعوره وأثر الحياة فيه « ودافعه صدق العاطفة وحسن الأداء ومن ثم يتأثر القارىء بالعواطف كما تأثر بها الشاعر ، وأعذبه أصدقه ، وأجوده خال من المحسنات اللفظية أو المعنوية وأسلوبه مستقيم واضح فيه جد وصرامة وعواطف انسانية صادقة . ويذكر الدكتور أنه لايعنى بشعر الطبع قولهم « الشعر المطبوع الذى يغرف فيه الشاعر من بحر على ان غيره ينحت من صخر » فهذا كلام عام لا يعنى فى اقبال الناس على الشعر القديم والاعجاب به .

والعصر الحاضر يأبى شعر الاحتراف ، ويفضل شعر الطبع ، وعلينا أن نقدم الى المتعلمين المعاصرين ما فى الأدب العربى من شعر له قيمته الانسانية العامة ، وأن ندع للمتخصصين شعر الاحتراف لهم ، ولمن يستهويهم هذا النوع من الجمال ٠

ويستعرض الدكتور معلقة امرىء القيس فيشرح أجزاء كثيرة منها شرحا لا يعنى فيه باللغة عناية أولئك الذين يدرسون الأدب على أنه وسيلة لتعلم اللغة ، وانما شرح الذين يرون أن اللغة يجب أن تكون وسيلة لدراسة الأدب فيبين عن مواطن الجمال الشعرى وعن علاقة البيت ببيئته ، ويمضى على هذا النحو مبرهنا على أن شعر امرىء القيس فى المعلقة وفى هـذه القصيدة بالذات لم يكن شعر احتراف « على الأقل فى الأجزاء التى ذكرناها أما ما بقى بعـد ذلك منها فهو فى الغـالب من عمـل اللغويين المغرمين بالغريب ، وهو ما يتفق مع عقلية شعراء الاحتراف » ٠

ويقول عن **العصر الأموى** انه عصر **ازدهر فيــه شعر الاحتراف** ، ويحدثنا عن عمر بن أبى ربيعة وهو عنده شاعر طبع ، وقد أفردنا لرأيه فيه الفصل الحادى عشر من هذا الباب ، ثم يعرض نماذج من شعر الطبع فى ديوان الحماسة ٠

ويرى أديبنا أن أكثر شعر امرىء القيس وعمر بن أبى ربيعة يدلنا على شخصية متكاملة متميزة لكليهما « على أن تخلص أشعارهما من أكوام القش التى أحاطت بها من أثر البيئة التى عاشا فيها » ٠

« وكل ما يعنى متذوقى الأدب المحدثين هو هذه الشخصية التى تكون للشاعر سواء كانت هذه الصورة من نسج الخيال أو وقعت فعلا ، فالذى يعنينا هو أن تكون الصورة جميلة صادقة بالحياة » ٠

وهكذا أراح الدكتور كامل حسين نفسه ، وأراحنا معه من هذا الجدل الذى ساد سوق النقد فى عصرنا هذا من الشك فى نسبة القول الى قائله . ولاشك أن هذه المباحث التى تتعلق بنسبة القول الى صاحبه مباحث طريفة، وهى على كل حال نوع من البحث أن لم يكن منه غاية فكفانا أن نمارسه لذاته ، ولكن أن تطغى مثل هذه البحوث على موضوع النقد فتصبح سداه ولحمته فهذا هو ما ينتقد ، وهو ما أراحنا منه الدكتور كامل، ولا أظنه أراح نفسه منه الا بالبحث .

وشعر الطبع فى الأدب العربى له صفات خاصة :

(١) « فهو فى الأغلب مقطوعات صغيرة ، لأن القصائد الطوال تجر الشاعر الى شكل القصيدة وهذا أبعد ما يكون عن الطبع » .

(٢) ومن خصائصه انه خال تماما من ألوان البلاغة المفتعلة التى حرص عليها شعراء الاحتراف ، فمن خير شعر الطبع فى شعر شوقى قوله:

نظرة فابتسامة فسلام ... فكلام فموعد فلقاء
خدعوها بقولهم حسناء ... والغوانى يغرهن الثناء

أما قوله :

ريم على القاع بين البان والعلم ... احل سفك دمى فى الاشهر الحرم

فان شوقى وضع فيه « القاع » و « الريم » و « البان » جنبا الى جنب وهى كلمات يكثر ورودها فى الشعر ، دون أن يقدر أن هذا الشطر لا يعطينا صورة واضحة عن الريم أو القاع ، وهذه من أظهر صفات شعر الاحتراف .

وفى شعر الاحتراف طغت اللغة على الشعر والأدب « حتى أصبح العلم بها غاية ترجى لذاتها ، لا يروق هذا للمتادبين المحدثين ، ولا يروى عطشهم الى السمو باحساسهم ، ولا يشبع رغباتهم فى الخيال الجميل ، ولا يحل المشاكل النفسية والخلقية التى تعترض حياتهم ، وهكذا فان شعر الاحتراف لا يصلح للمحدثين ولابد لهم حتى يفهموه أن يدركوا الحقائق الآتية :

(١) ان وظيفة الشعر العربى لم تكن تختلف عن الزجل يكون فى عصرنا هذا فى ندوات لبنان من حيث كونه وسيلة فى تلك الندوات التى يراد بها السمر والشراب والفخر والمديح .

(٢) ان موضوعات هذا الشعر انحصرت فى الكرم والشجاعة .

(٣) ان جودة الشعر لم تكن لتغنى الممدوحين الا من حيث هى وسيلة لذيوع فضائلهم ، ومن هنا كان الاعجاب بالشعر المشهور ٠

(٤) ولأن الموضـوعات كانت محـدودة فان صـور التعبير عنهـا مهما اختلفت لم تكن تؤدى الا الى شعر مبتذل مسئوم ٠

(٥) وقد كان من نتيجة ذلك أن حافظت القصيدة العربية على شكلها قرونا طويلة تبدأ بالمألوف من القول كالبكاء عـلى الأطـلال والتشبيب بالنساء ٠٠ الخ) وسموا ذلك عمود شعر ، وكانوا يرون ان ما عدا ذلك لم يكن خليقا أن يعد شعرا ، ولم يكن لذكر الأطـلال معنى بعد أن ذاع الشعر بين أهل الحضر ، الا أن التمسك بشكل القصيدة العربية كان اثرا من آثار العرف عند اهل البادية ، وللعرف عندهم سلطان يفوق سلطان القانون عند اهل الحضر ٠

(٦) ثم أصابت هذا الشعر نكبـة علوم البلاغة وتعقيد أسـاليب الجمل ٠٠ الخ) لأنهم كانوا يرون فى الحسن صفة خاصة يضعون لها مصطلحا بلاغيا ، ثم يريدون من المتأدبين أن يكون فى أدبهم ما يدل عليه هذا المصطلح ٠

ويرى الدكتور ألا نعرض على المحدثين شعر الهجاء وأكثره أشبه بكلام العامة وان نظم على هيئة الشعر ، وأن نترك قبل كل شيء للناس استحسان ما يستحسنونه ، واستهجان ما يستهجنون ، ولو كان ما يستهجنونه من شعر الفحول !

●● الموسيقى فى الشعر العربى

آراء الدكتور كامل حسين التى نوردها فى هذا الفصل مصدرها :

(١) بحث « الموسيقى والتصوير فى الشعر العربى » الذى ألقاه فى الجلســة الخامسة من جلســات مؤتمر المجمع فى الدورة الســادســة والثلاثين .

(٢) كتاب « الشعر العربى والذوق المعاصر » .

يحاول الدكتوز أن يحلل لنا أسباب العذوبة التى أدركها النقاد قديما حينما قالوا ان بعض الشعر عذب مستساغ ، فيرد ذلك الى ما يســميه الموسيقى . والموسيقى هى الصــفة المميزة للشعر فى رأى الدكتــور « **والنظم ليس الا وسيلة لبلوغ هذه الغاية** » . « ولكن الموسيقى شيء غير النظم فهى حركة يشعر بها السامع فيدركها فى بعض الشعر ، **ولا يدركها الا أهل اللغة التى قيل بها الشعر** » . وهو يرى فى بيت العرجي :

شهيدى جوان على حبهــا   أليس بعدل عليها جــوان

ثلاثة أمور تجعل له موسيقى خاصة :

(أ) الحركة الموســيقية البطيئة فى الشــطر الأول والتى سببها المقاطع الطويلة التى تدل على **الثقة والاطمئنان** .

(ب) والحركة السريعة فى الشطر الثانى تدل على القلق والرغبة فى سرعة الاطمئنان على **أنه ظنه** صحيح .

(جـ) والانتقال **الطبيعى الجميل من الحركة** الاولى الى الحركة الثانية .

وهـــذا البيت عند الدكتور من أجمل أبيات اللغة على ما فيه من بساطة وبعد عن المحسنات من أى نوع تكون ، والدكتور يربط الموسيقى بالحركة من حيث دلالتها النفســية والتعبيرية ، والحركة عنده تتمثل فى طول المقاطع ثم هو معنى بالانتقال من حركة الى أخرى ٠

وهو لا يرجع الموسيقى الى وزن البيت فهو يرى فى بيت عمر بن أبى ربيعة :

تشــكى الكميت الجرى لما جهدته   وبين لو يســـتطيع أن يتكلمـا

يرى فى هذا البيت تصويرا موسيقيا لحركة الخيل مع أنه من البحر الطويل المألوف الذى منه :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   . . . . . .

ويثبت بالشواهد ان هذه الحركة الموســيقية لا علاقة لها بالنظم ولا يفوته أن يكون من بين شــواهده شىء للمتنبى وشــوقى ٠ وهــو يعجب احيانا بالبيت الذى يعجب به النقاد بيد ان أعجابهم يكون راجعا الى شىء آخر غير تلك الناحية الموسيقية التى تشده فالجمال فى بيت المجنون :

الا أيها النوام ويحكمو هبوا   اسائلكمو هل يقتل الرجل الحب

فى المقابلة بين الحركة الموسيقية فى الشطرين ، ففى الشطر الأول حركة سريعة أما حركة الشطر الثانى فواضحة البطء ٠ أما عند النقاد فهى فى المقابلة بين الصورة البدوية فى الشطر الأول ، والرقة الحضرية فى الشطر الثانى ٠

ومن جمال الموسيقى الشعرية عنده ان تكون حركة الجملة المعترضة مختلفة تماما عن حركة البيت كما فى قول أبى العلاء :

وقبيح بنا ـ وان قدم العهد ـ   هوان الآبـاء والأجــــداد

اما ذلك النوع من الشعر المقطع تقطيعا أقرب ما يكون الى تفاعيل العروض فليس من الموســيقى فى شىء بل هو أشـــبه بضرب الدف منه بالموسيقى كقول أبى العتاهية :

اتتــه الخـلافة منقـــادة   اليـه تجــرر اذيالهـــا
فلم تك تصـــلح الا لـــه   ولم يك يصـــلح الا لهـــا

ولابد فى راى الدكتور من ان توافق الموسيقى المعنى وهو لهـذا لا يعجب بقول الشاعر :

يا ليل الصب متى غـــده أقيام الساعة موعـــده !

ووجه الضعف فى هذا البيت فى رأيه هو أن موسـيقاه لا توافق معناه وكان جديرا بالشاعر الذى يستمتع بهذا المرح والطرب الا يزعجه طول الليل فكان يصح أن يقول مثلا : ليت قيام الساعة موعده .

وهو يذكر لنا قصيدة لتأبط شرا أو لابن اخته هى عنده أكمـل قصيدة عربية من الناحية الفنية ، وهى التى يقول فيها صاحبها :

ان بالشعب الذى دون سلغ لقتيـــلا دمه ما يطـــل
خلـــف العبء عـــلى وولى انا بالعبء له مستقـــل
ووراء الثــــأر منى ابن أخت مصـــع عقدته ما تحـــل
شـــامس فى القر حتى اذا ما ذكت الشعرى فبرد وظل

ففى موسيقاها ما يشبه قرقعة السلاح أو صوت الوقود حين تلعب به نار متأججة وهى موسيقى تطابق تماما الروح التى تسود الشـاعر وما يريد أن يعبر عنه ، ويذكر مثلا للموسـيقى المرحة الخفيفة قصـيدة للمنخل اليشكرى تبدو فيها روح الشاعر الماجن المستهتر .

●● التصوير فى الشعر العربى

آراء الدكتور كامل حسين فى هذا الفصل هى ما أبداه فى :

(١) بحثه « الموسيقى والتصوير فى الشعر العربى » الذى ألقاه فى الجلسة الخامسة من جلسات مؤتمر المجمع فى الدورة الســـــادسة والثلاثين لمجمع اللغة العربية .

(٢) كتاب « الشعر العربى والذوق المعاصر » .

(٣) تعقيبه على بحث الدكتور « ابراهيم أنيس » « هل اللغــــة العربية لغة بدوية ؟ » والذى ألقاه فى الجلسة الرابعة من مؤتمر الدورة الرابعة والثلاثين لمجمع اللغة العربية .

يذكر الدكتور ما يقال من ان ادبنا العربى يتفوق على الاداب الاخرى بكثرة التشبيهات والاستعارات والمجاز فيه ثم يقول « ولا نزاع فى أن هذا كله يزيد فى جمال الصور الحسية والمعنوية حين يحسن الكاتب استعمالها » ، وخلاصة رأيه أن « التشبيهات لا تكون شيئا ذا قيمة الا أن تنقل الى المسامع صورا من المشبهات أجمل أو أوضح أو أوقع فى النفس من الكلام المجرد ، ولا عبرة بما يكون فيهـــا من غرابة » . ومن التشبيهات التى لا معنى لها (عند الدكتور) قول امرىء القيس :

فقلت له لما تمطى بصـــلبه وأردف اعجــازا وناء بكـــلكل

لأنه لا يزيد فى وصف الليل شيئا ، وكذلك قول بشار :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

لأنه لا يزيد شيئا فى الصـــورة التى يكون عليها النقع المثـــار والسيوف الضـــاربة ، وهو لا يقصر الصـــور الجميلة فى الشـــعر على التشبيه أو الاستعارة ففى قول امرىء القيس :

فظل العذارى يرتمين بلحمها . . . .

دلالة على ما كانت العذارى فيه من مرح وصخب وسرور يدعوهن الى التقاذف بلحم الدابة المذبوحة حتى يكاد السامع لهذا البيت يحس هذا الموقف .

(وأبو نواس) هو أقدر الشعراء العرب على التصوير فى رأيه والصورة التى فى قوله :

فاذا قصرت لهـــا الزمام سمـــا فوق المقـــادم ملطم حــــر
فكانهـــا مصـــغ لتســـمعه بعض الحـديث بأذنـه وقر

صـــورة صـــادقة بارعة فأبو نواس يصور لنا الناقة وهى ترفع راسها الى ناحية كأن باذنهـــا وقرا فهى تتجه الى راكبهـــا ، تريد أن تنصت الى ما يقول :

ومن الذين اجادوا الوصف الصـــادق الجميـــل دون أسراف فى التشبيه — فى رأيه — البحترى وقصيدته المشهودة التى يقول فيها :

فاذا ما رأيت صورة انطـــا كية ارتعت بين روم وفرس

خير دليـــل على هذا الرأى ، ولم يكن الدكتور يعنى فى تقديره للتشبيه بالصورة التقليدية النمطية وكان يرى ان بيت امرىء القيس :

ترى بعر الارام فى عرصاتها وقيعانها كانه حب فلفـــل

ان اعتبر تشبيها فهو تشبيه سخيف، وانما أراد امرؤالقيس وهو شاعر مجيد ان يقول ان بعر الارام جف من طول المدة حتى أصبح مثل حب الفلفل وعلى هذا يفهم ان البيت له قيمة « أما انه مجرد تشبيه فلا » . ومن الطريف ذكر قول الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد يومهـــا تعليقا على راى الدكتور كامل حين عارضه فقال : ان فى البيت تشبيها وأداة الشبه (كأنه) ووجه التشبيه هو ماتفضل الدكتور كامل فذكره .

●● النسيب فى القصيدة العربية

عبر الدكتور كامل عن رأيه فى النسيب فى القصيدة العربية فى :

(١) بحثه « أسلوب المعرى ودلالته » وقد ألقاه فى الجلسة الثانية من جلسات مؤتمر الدورة السابعة والعشرين لمجمع اللغة العربية ٠

(٢) كتاب « الشعر العربى والذوق المعاصر » ٠

(٣) التعقيب على بحث الدكتور «محمد عوض محمد» عن «الشعر الذى انشأه المتنبى لنفسه » والذى القاه أمام مؤتمر الدورة الثـانية والثلاثين للمجمع فى الجلسة الثانية ٠ وقد استؤنفت المناقشة التى انتقلت من موضوع البحث الى اراء الدكتور كامل فى الجلسة الثالثة .

وهو لا يرى الأمر فى النسيب الا كما يحدث للمغنى الذى يتغنى بموسيقى غير مدونة يحتاج الى التغنى بما هو مألوف وبما كثر ترديده على مر الاجيال حتى يستقيم له النغم ثم يندفع فى غنائه . وكمثل المغنى الشعبى يردد فى أول غنائه : ياليل ياعين !، وقد قل ذلك بعد أن عرف تدوين الغناء ٠ فكذلك الشاعر العربى وشعره فهو كثيرا ما يرتجل أو يؤلف أو يحفظ فى الذاكرة ثم يروى ويسمع فهو فى حاجة الى النسيب (ومعانيه مطروقة واسلوبه معروف) حتى يطوع له النظم ، والروى ، والنغمة ، والموسيقى ، والوزن فيندفع بعد ذلك فيما يريد أن يقول ٠

ولا غرابة اذا كانت هـذه الحاجة الى النسيب قد قلت بعد أن أصبح الشعر يؤلف كتابة ويدون ويقرأ ٠

وهو لا يرى ابدا أن النسيب كان يقصد به الغزل ، بل يرى انه من العيب ان نحمل النسيب معنى الغزل ، وقول عنترة :

فوددت تقبيل السيوف لانهـا   لمعت كبـارق ثغرك المتبسم

كلام بارد قبيح ولا يمكن أن يكون عنترة قاله قاصدا به الغزل ٠ وليس النسيب عيبا يعاب على العرب وقد كان من شعراء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فى اوربا مثل ذلك ٠ والحقيقة ان تفسير الدكتور كامل حسين للنسيب فى القصيدة العربية تفسير قيم وعلمى ومقبول عقلا ومنطقا عند المعاصرين (وهو نفسه قد أراد أن يقرب النسيب بهذا الى اذهانهم) ، ولكن الذين درسوا النسيب على أنه تشبيب و٠٠واستقام لهم فهمه حسب رأى الأقدمين فيه يصعب عليهم الأخذ برأى الدكتور كامل هكذا جملة واحدة ، ولهم العذر فى ذلك ، بل ان للدكتور كامل أيضا العذر فى أن رايه لا يلقى عندهم القبول .

●● أدب الهجاء

للدكتور كامل حسين رأى طريف فى النقائض وأدب الهجاء ضمنه بحثه الذى ألقاه فى الجلسة الخامسة من مؤتمر الدورة العشرين لمجمع اللغة العربية والذى نشره فى الجزء الثانى من كتابه « متنوعات » . كما ضمنه كتاب « الشعر العربى والذوق المعاصر » .

وهو يذهب الى أن غرض أصحاب النقائض من الاقذاع فى قصائدهم الجيدة التى كان موضوعها التهاجى بين فحول الشعراء لم يكن ان يحطوا من قدر زملائهم ، وانما كان غرضهم التسلية ، والتسابق ، والابداع فى القول .

ويقسم الدكتور أساليب الهجاء ثلاثة أقسام :

(١) مالا يكون قائما على ذكر عيب بعينه او واقعة خاصة بل يكون مرجع الهجو فيه الى تعبير البيت نفسه كقول جرير :

فغض الطرف انك من نمير   فلا كعبــا بلغت ولا كلابا

اذ ليس فى البيت ما يخجل منـــه نميرى ، ولـكن التعبير بغض الطرف له وقع اليم .

(٢) ما يكون مرجعه الى صورة مخزية مضحكة كقول القائل :

قوم اذا استنبح الاضياف كلبهمو   قالوا لامهمو : بولى على النار

(٣) وأشهر أساليب الهجاء ما ينسب فيه الشاعر الى غيره صـفة سيئة أو عملا قبيحا ، وغالبا ما لا تكون هذه الصفة فى المهجو .

ويذهب الدكتور الى أن يقول : «**بل لعل هذا الاقذاع نفسه كان حماية للمهجو من أن يظن الناس ان هذا الذى قيل فيه يمكن أن يكون صحيحا** » . وبهذا التفسير الذكى الذى قدمه كامل حسين يستقيم لنا فهم أصول

أدب الهجاء عامة والنقائض خاصة ، ونطمئن حين ندرك أن الاسراف في الاقذاع لم يكن من شأنه أن يحط من قدر الشاعر أو المهجو .

ومن الطريف ما قاله الأستاذ يحيى حقى فى تعليقه على قول الدكتور « بل لعل هذا الاقذاع كان حماية .. » من أن فى هذا القول مبالغة وتعسفا وحسن ثقة وظن «والله الغنى عن هذه الحماية فلتسقط وليحى الاستقلال من الشعراء » . ثم يقول الأستاذ يحيى حقى — وهو محق من قوله قدر احقاق كامل حسين فى نظرته — ان أحكام الدكتور لا تخلو من اختلاط الفكرة بأحكام التمنى « ولماذا لا نعترف بالحق والواقع ونقول ان مقاييس الحياء قد تبدلت بين عصر وعصر ؟ » .

●● النابغة الذبياني

يعرض هذا الفصـــل آراء الدكتور فى النابغة الذبيانى فى الفصـــل الذى كتبه عنه فى كتابه « الشعر العربى والذوق المعاصر » .

لا ينازع أحد فى جمال أدب النابغة كشاعر ، ففيه رواء يندر أن نجد مثله ، ولكن الناس اختلفوا فى تقديره شخصيا ، ولكن حياة الشاعر لاتعنينا الا من حيث اثرها فى شعره ، وقد يكون موضوع شعره الخوف والرهبة والتهافت على ما يكون عنـــد الملوك من لذات الحيـــاة ، ولكن موضوع القصيدة شيء ، وفنها شيء آخر · وشعر النابغة قوى متين فيه رصانة ، وفيه ثقة بالنفس لا تكون فى ضعفاء النفوس .

وأجمل ما فى شعره القوة فهو فى نظمه غير مرهق ، ولا تحس أن به بهرا من جهد النظم ، بل انك لتراه يبلغ الذروة فى الاجادة وتشعر مع ذلك انه لم يبلغ غاية جهده ، وأن وراء هذا الجهد قوة كامنة لا يرهقها النظم مهما يكن ، فمن ذلك قوله :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قــراع الكتائب
تخيرن من ازمـــان يوم حليمة الى اليوم قد جربن كل التجارب

والشاعر المرهق يرهق سامعيه ، أما المطمئن فيوحى بالاطمئنان ، ولا يجارى النابغة فى هذا الا بشار .

ومن اجمل ما فى شعر النـــابغة : صدق تعبيره عن عاطفة حقيقية (مهما تكن عاطفته) ، وبخاصة فى وصف الليل فوصفه يشعر برهبة حقيقة ، ورعدة واضحة ، وقلق ليس فيه زيف ، ولا أعرف فى العربية شعرا يدل على عاطفة صادقة كشعره ·

أما الغامض فى حياته فهو أمره مع النعمان ، ويستعرض الدكتور كامل حسين ما رواه صاحب الأغانى فى شأن (المتجردة والمنخل) ويخلص

الى القول بأنه « ان يكن غضب النعمان بسبب غيرته فان غيرته لم تكن على المتجردة وقد تكون غيرته من النابغة ان علم عنه حذقا ليس للنعمان حظ كبير » ولا احسب ان احدا انصف النابغة بمثل هـذا القول . ثم يقول الدكتور كامل : « لا نريد ان نسرف فى سوء الظن . فقـد تكون القصة كلها موضوعة لا صل لها ، وهى على كل حال غير مقبولة عقلا على النحـو الذى ترويه كتب الأدب . « وان كانت وقعت حقـا فان الأدب العربى مدين للمتجردة بشـعر جميل ، وقول صـادق بديع ، وشعر هو فى الطبقة الأولى من الشعر ، ويكون بكاء النابغة دليلا لا على الضعة والذلة ، ولكنه يكون ندما صـادقا على ألوان شـتى من لذات الحياة حلالها وحرامها يوم خرج من قصر النعمان » .

●● عمر بن أبى ربيعة والقصص الشعرى العربى

نعرض فى هذا الفصل آراء أديبنا الكبير فى الفصل الذى كتبه عن عمر بن أبى ربيعة فى كتاب « الشعر العربى والذوق المعاصر » .

قال سليمان بْن عبدالملك لعمر بن أبى ربيعة « ما يمنعك من مدحنا » فقال عمر « انى لأمدح الرجال وانما أمدح النساء » هكذا يحدثنا الدكتور عن عمر كشاعر طبع فى العصر الأموى الذى ازدهر فيه شعر الاحتراف ، « ولو أن كبار الشعراء العرب عدلوا عن شعر الاحتراف واهتدوا بشعر الطبع الذى يمثله شعر عمر لاتخذ الشعر العربى طريقة غير التى نعرفها » .

ويعقد الدكتور كامل مقارنة بين المغامرات التى يحدثنا عنها كل من امرىء القيس وعمر بن أبى ربيعة فى شعرهما ، وأثر تلك المغامرات فى نفسيتهما فيذكر أن أمرىء القيس بدأ بالمخدرات فكن يبرمن بتودده اليهن ، فاضطر الى الساقطات فلم يجد عندهن ما يحببهن فيه فكان له من أثر ذلك اليأس وخيبة الأمل والجهد الضائع أما عمر فكان محببا الى النساء ، والشريفات منهن وكن يعجبن بهيئته ، فكان له سمو العواطف وحب الحياة والفرح بها ، والتمتع بلذاتها .

ويحدثنا الدكتور عن أسلوب عمر فى القصص الشعرى فيؤكد على عناية آداب الأمم كلها بالقصص لضرورته للحياة الفكرية الكاملة ، ثم يقول » ولم يكن للعرب أن يشذوا عن هذه القاعدة ، والذى افسد علينا القصص العربى ان علماء اللغة ونقاد شعر الاحتراف أخذوا هذه القصص مأخذ الجد وحسبوها حقائق تاريخية وماهى الا ارضاء لنزعة الخيال عند العرب .

والقصص الشعرى عند العرب نوعان :

(١) أيام العرب : وهي القصص تفخر بالبطولة والشجاعة القبلية ، وهو شعر حماسى يزيد القصة رونقا ويضفى عليها من العظمة ما لم تكن تستحقه فى الواقع حتى لو كانت وقعت فعلا ٠

(٢) شعر العذريين : وقد أسرف الناس فى الأعجاب به ، مع انه كاد يصبح بعد فترة شعر احتراف من نوع خاص موضوعه الغزل ٠

والغرض الاول من القصص الشعرى عند العرب هو ذكر الحوادث أما ورود الشعر فهو عارض ، وعمر بن أبى ربيعة هو الذى روى قصصه شعرا وهو عمل شق على الكثيرين من قبله ومن بعده ، وشعر الطبع الجميل الذى منه شعر عمر لا يروق للبلاغيين (وهم غير البلغاء) فمعايير جمال شعر الاحتراف لا تصـلح بالطبع لقياس شاعرية شـعر الطبع ٠ وعند الدكتور كامل أن عمر وصف نفسه ابلغ وصف حين قال :

انى امرؤ مـولع بالحسن اتبعه   لا حظ لى فيه الا لذة النظر

وهو ما لا يدعيه محترف ، وقصـص عمر فتح جديد فى الشـعر العربى ويصح أن يبدأ بها وبمثلها المتذوقون للأدب فى عصرنا الحاضر ، فهى أقرب الى أذواقنا وأفهامنا ، وأجدر أن نقدرها من الشعر الفخم الذى يراد منا أن نعجب به وهو شعر الاحتراف فلا نجد فيه ما يروقنا بل لعلنا نجد فيه ما ينفرنا ٠

●● الفرزدق

يمكننا أن نقول أن الفرزدق من الشعراء الذين حظوا بتطبيق كامل حسين منهج التحليل النفسى عليهم ، أو بعبارة أقرب الى الصواب فى لغة البحث حظينا نحن بتطبيقه هذا المنهج عليهم. وقد القى الدكتور بحثا عنوانه «حقيقة أمر الفرزدق» مع بحثه عن «أدب النقائض» فى الجلسة الخامسة من جلسات مؤتمر الدورة العشرين لمجمع اللغة العربية ، وقد نشرها فى الجزء الثانى من كتابه « متنوعات » ، ولما كانت غاية التحليل النفسى للآثار الأدبية هى تتبع الأسباب النفسية الخفية التى تصدر عنها ما فى هذه الآثار الأدبية من مميزات ، فان الدكتور كامل حسين يرجع كثرة حديث الفرزدق عن الجنس وكثرة ما فى قوله من فحش « يدل دلالة واضحة على خيال مريض » واعلان اتهامه ، لنفسه بالفسوق على رءوس الاشهاد ، ووصفه الوانا من الفجور تأبى الطبيعة الانسانية السليمة تصورها بله مقارفتها (فى عصر لم يكن العرب ببداوتهم الفتية يعرفون فيه الابداع فى المجون) ، يرجع الدكتور كامل كل ذلك من الفرزدق الى انه كان حصورا وكان عيبه هذا معروفا تحدث به الناس ، وفى حياته وشعره ما يدل على أنه تأثر كثيرا بهذا العيب وقضى شطرا كبيرا من حياته يحاول انكاره فلم يزده ذلك الا ثبوتا ، « ومن المعروف عمن بهم مرض الفرزدق أنهم يجاهرون بالفسوق ، ويعنيهم أن يذاع ذلك عنهم ، وتراهم يفاخرون به فى غير احتشام » .

ويمضى الدكتور فيتناول من هذا المنطلق تحليل حديث الفرزدق مع ابنة عمه النوار ، وما رواه عن نفسه فى قصيدته الغائية . وهو تحليل جميل مشوق يصح — بل يجب — أن يعد نموذجا مثالا للتحليل النفسى للآثار الأدبية .

●● أبو العلاء المعرى

آراء الدكتور كامل حسين فى ابى العلاء المعرى التى سنعرضها فى هذا الفصل هى ما ابداه فى :

(١) بحثه « أسلوب المعرى ودلالته » ، هو البحث الذى ألقاه فى الجلسة الثانية من جلسات مؤتمر الدورة السابعة والعشرين لمجمع اللغة العربية ، وقد نشر هذا البحث فى الجزء الثانى من « متنوعات » .

(٢) تعقيبه على بحث الدكتور اسحق الحسينى الذى ألقاه فى الجلسة الثالثة من جلسات مؤتمر الدورة الثانية والثلاثين للمجمع، وعنوانه « أثر المعرى فى الادباء المعاصرين » .

(٣) تعقيبه على بحث الدكتور عبد الله الطيب عن « الدرعيات » ، وقد القاه فى الجلسة الثالثة من جلسان مؤتمر الدورة الثامنة والعشرين للمجمع .

(٤) حديثه مع « محمود عوض » والذى نشر بجريدة « أخبار اليوم » ثم فى كتاب « شخصيات »

(٥) كتاب « الشعر العربى والذوق المعاصر » .

كان كامل حسين معجبا غاية الاعجاب بالمعرى وكان لا يفتأ يقول ان ابا العلاء أقوى رجال الأدب العربى شخصية ، وأعمقهم تفكيرا ، وأصدقهم عاطفة ، وأحدهم ذكاء وكان يعجبه منه أنه فكر ثم كتب فى عصر بلا تفكير » . وكان يقول ان فى حياته صرامة ، وفى عقيدته جد ،وفى احساسه دقة ، وفى آرائه جراءة ، « وفى أسلوب أبى العلاء كل ما نعيبه على غيره ، ولأمر ما نقبل منه مالا نقبل من غيره » ، وهو على غرابة

اسلوبه محبب الى كثير من المعاصرين ، والسبب فى هذا الحب عند الدكتور كامل ان ابا العلاء عاش أدبه وفى هذا « غاية الصدق » وقد كان أدبه صورة واضحة لحياته ، والتزامه مالا يلزم « وهى نظرية اخلاقية ممتازة جدا » .

وكامل حسين معجب كذلك بابى العلاء لأنه **دخل الدنيا عن طريق اللغة** ، التى كانت كل فنه مادة وروحا ومجالا والتى قصر حياته عليها فكانت معشوقته ورفيقته ولذته ، وعمله ، وعلمه · ورغم أن كثيرين من شعراء العربية قضوا عمرهم لا يعرفون شيئا غيرها الا أن الفرق بين أبى العلاء وهؤلاء ان علمهم كان سدا بينهم وبين الحياة ، فحجبهم جمال اللفظ عن ان يروا الجمال فى النفس البشرية ، والحياة الانسانية ، أما أبو العلاء فكانت اللغة عنده نافذة أطل منها على الحياة ، واللغة نافذة ضيقة لكن حدة الذكاء جعلته يستطيع مالم يستطعه أحد قبله ولا بعده ·

ويحدثنا الدكتور عن ظاهرة « **الميثولوجيا اللغوية** » فى شعر المعرى يقصد بها استخدامه للحقائق اللغوية فى شعره كما كان الشعراء الأوروبيون حتى القرن الثامن عشر يستخدمون الميثولوجيا الاغريقية ·

ومن النقاد من يقسمون من حرموا نعمة البصر الى قسمين : قسم يتحدى كبشار حين يقول تهاوى كواكبه ، والثانى يخضع خضوع غير المتخاذل ومن هؤلاء أبو العلاء ، وكان المعرى حريصا على ألا يظهر حرصه على أن يظهر نفسه للناس « فاذا أردنا ان نعجب به فيجب ان نرجع الى ما وراء ظاهر قوله فلا ننظر الى الصورة من حيث جمالها فى شعره ، ولكن من حيث أنها أتت للدلالة على نفسه فهو يريد ان يكون غامضا يخفى فلسفته القديمة ، ولم يكن المعرى يريد الغزل أو النسيب بل كان يريد أن يظهر عالما متفرقا يخفى ما فى نفسه » ·

والمعرى أكبر مثل فى التاريخ للقنافذ وهم الأدباء يحسنون شيئا واحدا يعكفون عليه ، « ولم يكن فقده لنظره أكبر عامل فى ذلك ، وانما هى طبيعة فى النفس » ·

واللزوميات هى أروع ما فى أدب أبى العلاء دلالة على أعماق نفسه دلالة قوية دقيقة خفية غير واعية ، وفيها مفتاح تلك النفس التى أرادها صاحبها مغلقة ، ومنها نستطيع تحليل عقدته التى لم يرد لها هو ولم يشأ أن يطلع الناس عليها ، وليس أدل على أنه عاش أدبه من اللزوميات، والدكتور كامل حسين يرى أن اللزوميات ألفت على الترتيب الذى نراها عليه اليوم وهى لذلك تصلح لاظهار نمو نظمه وآرائه الى حد ما ·

ويمضى الدكتور كامل حسين قائلا « لعل أبا العلاء نفسه لم يدرك كنه نفسه أدراكا تاما كما ندركها نحن حين نتعمق فى أسلوب اللزوميات » وفى موضع آخر يقول الدكتور « ولعله كان يحسبها مرانة على الصعب من النظم ، وبرهانا على تمكنه من اللغة التى احبها فاذا هى دليل قاطع على قرارة نفسه التى حرص حياته كلها على ألا يعرضها على النـاس فاذا هى واضحة كل الوضوح من جراء هذا الاسلوب » ، واعجاب المحدثين بابى العلاء يرجع عند كامل حسين الى صفة خاصة هى قوة التعبير فادب المعرى يدل على نفسه دلالة قوية غير واعية » وهذا سر حبنا له واعجابنا به » ، ومن الصعب ان نجعل من المعرى أديبا عالميا « لشذوذ سبيله الى العظمة الأدبية » كما بينا « ولا ينقص من قدر هذه العظمة الا يشاركنا فيها غيرنا بل ان هذا يدعونا الى الحرص على أدبه » فهو مما انفردت به لغتنا .

وأسلوب المعرى « ليس جميلا باستثناء أسلوبه فى التهكم فهـو رقيق ظريف » . ويقارن كامل حسـين بين المعرى وبشـار فيقرر أن التشبيه عند غير المبصرين نوعان :

(١) يكون تارة مما يفوقون فيه المبصرين كالليل تهاوى كواكبه ، وهذا هو التحدى ، وبشار يتحدى الزمن والناس .

(٢) التشبيه بالمعنويات التى يستوى فيها المبصر وغير المبصر وأثر هذا التشـبيه يرجع الى صدقه عندهم وعمق دلالته ، ومن الاسـتسلام مايكون أكثر شجاعة من التحدى ولو كان المتحدى هو الزمن نفسه ، ومن الخضوع ما يكون غاية القوة كالخضوع للدين والأخلاق والقانون . ومن التواضع ما يكون أقصى درجات الكبرياء .

ثم يقول كامل حسين : « واذا كان تحدى بشار للزمن مما يعجب الكثيرين فان استسلام المعرى هو عندى اسمى واروع » ثم يحدثنا عن عقيدة أبى العلاء فيقول أن أكثر الناس على انه كان متشككا شأنه شأن كثير من المفكرين الذين يأبى عليهم عقلهم أن يؤمنوا ايمان العجائز ويأبى عليهم طبعهم أن ينكروا الدين انكارا تاما ، « ولعل أكبر ما أحفظ أعداء المعرى عليه حملته على رجال الدين فى عصره ، وطعنه فى أولئك الذين يعرضون تدينهم على الناس جهرا يبتغون الزلفى » .

●● المتنبى

كثر حديث المحدثين عن المتنبى حتى كاد يدخل فى تعريف الاديب أو الناقد الأدبى فى عصرنا هذا أن يكون له رأى فى المتنبى • وعندى أن المتنبى ليس الا المرآة التى تنعكس عليها نفسيات الكتاب والنقاد وما يريدونه من الأدب وما يريدونه بالأدب • وقد كان الشيخ البشرى يقول للأستاذ زكى المهندس : « ثلاثة لا ينتهى الكلام فيها : العفاريت ، والثعابين والمتنبى»، ولم يعد المحدثون يهتمون بالعفاريت ولا بالثعابين، غير ان اهتمامهم بالمتنبى قد زاد •

وللدكتور كامل حسين آراء فى المتنبى سنتناول منها :

(١) فصل « **المتنبى ملأ الدنيا وشغل الناس** » وهو الفصل الثالث من كتابه متنوعات « متنوعات » وكان قد نشره فى نوفمبر سنة خمس وأربعين فى مجلة الكاتب المصرى مع اختلاف يسير تحت عنوان : « التعقيد فى شعر المتنبى » •

(٢) تعقيبه على بحث الدكتور عبد الله الطيب « **حول أبى الطيب** » والذى ألقاه فى الجلسة التاسعة من جلسات مؤتمر الدورة الثالثة والثلاثين لمجمع اللغة العربية •

(٣) بحث « **الموسيقى والتصوير فى الشعر العربى** » فى الجلسة الخامسة من مؤتمر الدورة السادسة والثلاثين للمجمع .

(٤) تعقيبه على بحث الدكتور محمد عوض محمد عن « **الشعر الذى انشاه المتنبى لنفسه** » والذى القاه فى الجلسة الثانية من جلسات مؤتمر الدورة الثانية والثلاثين للمجمع •

(٥) بحث « **الحكم فى شعر المتنبى** » الذى القاه فى الجلسة الثالثة من جلسات الدورة السابعة والثلاثين •

(٦) كتاب « الشعر العربي والذوق المعاصر » .

ولأن الشعر يدل على كثير من خصائص نفس قائله بصرف النظر عن المعنى الذى يدل عليه اللفظ أو الفكرة فان كامل حسين يرى فى التعقيد فى شعر المتنبى دلالة على حالة نفسية معقدة عند المتنبى فان أمله قد خاب ، وأخفق فى محاولات شتى فنشأت عنده عقدة نفسية جعلته يضع أمام نفسه صعوبات يخادع بها نفسه كى تقتنع أنه يستطيع أن يفعل ما يريد ، وهذا هو النوع الأول الذى يدل على ما نفسه فى قصور عن بلوغ الآمال التى لم تتحقق له ، فنجاح المتنبى قليل اذا ما قيس بآماله الكبيرة ، والنوع الثانى هو ما يأتى عرضا نتيجة حرص المتنبى على نظام البيت وعلى ألا يضيع فكرة وجدها ، وكان الدكتور كامل يكره ذلك من المتنبى فقد كانت طبيعته تأباه .

وخلاصة رأى الدكتور فى المتنبى أنه أكبر الشعراء العرب (للأسف) ، وشعره فيه مزايا كل الشاعر العربى الممتاز ، وهجائياته من أحسن الشعر ، وفيه موسيقى بصرف النظر عن المعانى ، وشعره الأول على النسق الكلاسيكى القديم ممتاز ، ولم يخرج عن هذا النسق الا فى قصائده الأخيرة والتى يسميها الدكتور محمد عوض وجدانية حيث صدرت عن احساس حقيقى بعد أن أهينت كرامته .

وفيما يتعلق بمدح المتنبى لكافور فان الدكتور كامل يرى أن المتنبى كان يتهكم من أول يوم كتب فيه عن كافور ، ويعرض الدكتور أربع مراحل مرت بها علاقة المتنبى بكافور :

(١) عندما بدأ مدحه أثقل فى الجهد على نفسه لكى يجد شيئا يقوله فى كافور الى أن وصل الى قوله :

فجاءت بنا انسان عين زمانه وخلت بياضا خلفها ومآقيها

(٢) ثم بحث فى مدحه لكى يصل الى هذا المركز فلم يجد ما يقوله غير قوله :

اذا منعت منك السياسة نفسها فقف وقفة قدامه تتعلم

(٣) ثم غلب عليه طبعه فى التهكم على كافور فقال :

تفضح الشمس كلما ذرت الشمس بشمس منيرة سوداء

وهذا هو منتهى التهكم .

(٤) ثم أنه بعد ذلك أخذ يسبه صراحة ٠

وأروع ما قاله المتنبى فى نظر الدكتور هو قوله :

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفى البداوة حسن غير مجلوب

ففيه فلسفة وحكمة وفهم حقيقى للبداوة والحضارة ٠

أما شعر المتنبى الذى قاله فى مصر فان الدكتور يراه أجمل شعره ، بل انه يرى أن المتنبى أصبح شاعرا حقيقيا فى مصر ، ويرجع الدكتور ذلك الى ثلاثة عوامل :

(١) فهو قد رأى النساء الجميلات فى مصر وهام بهن ، وكان يراهن يخرجن من الحمام فاتنات فقال :

ولا برزن من الحمام مائلة أوراكهن صقيلات العراقيب

وقد كانت هذه العادة عندنا فالسيدة تمسك بحجر وتحك كعبها حتى يصير أحمر كالدم ٠

(٢) ثم أنه غضب غضبا شديدا على المصريين ولم يكن غضبه هذا عليهم الا امتدادا لغضبه على كافور ، وقد قال فيهم أروع أشعاره كقصيدته التى مطلعها :

الا كل ماشية الخيزلى فدى كل ماشية الهيذبى

(٣) ثم أنه احتقر كافور احتقارا شديدا فكان لنا من غضبه هذا شعر سخرية ممتع ٠

ويرى الدكتور فى المتنبى موهبة موسيقية لعلها سر نجاح شعره وتأثيره فى النفس ٠ « وليست الموسيقى فى شعره مقصورة على البحور الصغيرة » ومن أروع أمثلة الموسيقى فى شعره قصيدته المشهورة :

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا وعناهم من أمره ما عنانا

وتولوا بغصة كلهم منه وان سر بعضهم أحيانا

وفى قوله (تولوا بغصة) حركة سريعة نوعا توافق قوله تولوا ، أما الشطر الثانى فحركته بطيئة حيث يقول : « وان سر بعضهم أحيانا » ذلك أن السرور الذى يأتى به الزمان يجىء بطيئا حينا بعد حين أما الغصص فتأتى سراعا ٠

●● الأديب والناقد والقارىء والدولة

أفكر هذا الفصل كان لها النصيب الأوفى من كلمة الدكتور في الاحتفال بمنحه جائزة الدولة للأدب في الثانى عشر من ديسمبر سنة سبع وخمسين .

« الكتاب لايخشون أحدا خشيتهم اياكم أيها القراء المثقفون ، فلكم قوة قاهرة غامضة يزيد غموضها في قوتها ، وليس أحد من الناس يضطره أن يعرض نفسه للناس جهرا على النحو الذى يقع للكتاب ، و « الموضوعية » تحمى العالم من أن تكون شخصيته موضع التحليل ، ولعلكم تفرحون حين ترون أن الكتاب عزل ازاءكم ، والواقع اننا نثأر منكم بعد حين يتحدث الناس عن ذوقكم الأدبى فيعرفونكم بسيمانا «وسيقف بعد عدة أعوام موقفى هذا من يقول عنكم انكم كنتم من البساطة بحيث تعجبون بكتاب مثل قصر الشوق ، أو قرية ظالمة ويبتسمون لذلك كما نبتسم نحن حين نذكر أن آباءنا كانوا يعجبون بحديث عيسى بن هشام وصهاريج اللؤلؤ » .

ولا أتمثل هذا الحفل الا على أنه صورة من عادة انسانية عريقة مردها الى التفكير الذى يدعو الى ذبح المعبودات بعد تكريمها « وهو ليس تقليدا عربيا ، ولو أخذ به العرب لكان أدبنا اليوم غير الذى نعرف وقد كرم العرب « قفانبك » بما لم تكرم به قصيدة ، وظلت حية أربعة قرون أو يزيد . عادة حسنة هذه التى تدعو الى ذبح المعبودات بعد تكريمها ، والحياة الفكرية لا يقويها شيء مثل الخوض في دم السابقين مهما يكن اعجابنا بهم ، وأود أن تأخذ امتنا بهذه العادة فتصبح تقليدا ثابتا » .

أما ما بين الكتاب والنقاد فأمره مشهور : «والكاتب لايود أن ينكر على النقاد ما يرونه في كتابه من حسنات ، ولكنه يجب لاغفالهم حسنات أخرى

يراها هو واضحة كل الوضوح ، وحين يذكر النقاد عيوبا فى كتابه نراه ينكر عليهم قولهم انكارا باتا ، ويشير من طرف خفى الى أن هناك هنات يعرفها هو لم يفطن اليها النقاد ، بهذا يتم الاضطراب بين الكاتب والناقد. أما القراء فتراهم ان رضوا عن الكاتب جمعوا عليه المسببات التى يراها الناقد والمؤلف ، وان غضبوا أضافوا العيــوب التى يذكرها النقــاد الى ما لم يذكره المؤلف .

والنقــاد يكرهون من الكتــاب انهم يجهلون أو يتجاهلون مذاهب الكتابة وخصائصها ، وأنهم لايخضعون للتبويب الذى يضعه النقاد للادب. ويكرهون منهم خروجهم عن النظام التاريخى الذى يضعه مؤرخو الأدب .

والكتاب يكرهون من النقاد انهم يقيدون حريتهم فى القول . وانهم يضعون قواعد للجمال يريدون ارغام الكتــاب على اتباعها ارضــاء لهم . والكتــاب يرون ان النقــاد يحســنون الى الادب حينا ، وحينا يفسدونه بما يضعون من نظريات : « أليس النقاد القدماء هم الذين أحدثوا نظريه المعنى الجيــد الذى لا يعنى شيئا ، ثم أليسوا هم الذين قالوا ان أعــذب الشعر أكذبه ، وهم الذين مدحوا الشاعر والكاتب بتفوقه فى كل فنــون القول ولا يفعل ذلك الا من لم يقل فى حيــاته شيئا يستحق أن يقال . وهم الذين نظروا الى الكتابة على انهــا حرفة تتقن ، ولم يأبهوا لما يكون وراء القول من عاطفة ملتهبة أو عقيدة غالبة . ولم يقدروا الكتابة على أنها فيض نفس انسانية وضعت فيما تكتب كل ما فيها من خصائص » .

والفقرة الأخيرة تعبر تعبيرا قويا عن رأى كامل حســين فى قدامى النقاد ، وما كان يخشاه من محدثيهم .

ولا أحسب الدولة تعنى بتكريم كاتب بعينه أو كتاب بذاته . وانما يعنيها أن تهيىء للأمة ما تتم به حيــــاتها العقلية من علم وأدب واذا كان الأدب والفنون لا يدفعان أذى ولا يردان عادية فهما مع ذلك من الأشياء التى لا تعيش الأمم اذا حرمتهــا وجوائز الدولة تؤكد هـــذا المعنى فى الأذهان ، فالجوائز لا تؤدى الى تكوين العقـــلية اللازمة للكشف العلمى ولا تؤدى الى خلق الحس المرهف الذى لا يكون الكاتب كاتبــا بدونه . وانمــا هى كالأعــلام التى ترتفع فى الحروب – قديما – فهى لا تخلق فى الجبان شجاعة ، ولا فى المتردد اقداما ، ولا فى الجاهل بالقتال علما بأصوله ولكنها توجه الجهود ، وتمنع الخذلان ، أو هى كقصب السبق يتبارى الناس لبلوغه لا لقيمته ، بل لأنه يبين للناس أى المتسابقين بذل غاية جهده فى السـبـاق .

على أن هذه الجوائز من الأهداف التى اذا وضعها الناس نصب أعينهم انقطع بهم الطريق ، وانى لهذا ادعو شباب العلماء والكتاب الا يسعوا اليها على انها غاية ترجى .

وتكوين الأدباء مثل انبات زهرة ذات لون خاص ، أو شذى خاص لا ينفع فيه الاعداد الصريح ، أو التنظيم المباشر ، بل قد يكون ارغامهم على سلوك طريق بعينها عائقا لهم عن بلوغ الغاية التى هيأتها لهم طبيعتهم ، وعلينا أن نمسهم مسا رفيقا ، وأن نتعهدهم من بعيد بايجاد جو عام لا تختنق فيه المواهب ، وحافز على الانتاج ، وهـذا الحافز لا يكون الا نفسيا كما أن الحافز فى العلم لا يكون الا عقليا .

« ذلك ان الكاتب يجب أن يشعر أنه يستطيع أن يحيـل تجاربه العاطفية والعقلية والنفسية وما يصادفه فى حياته الى عمل جميل فيه بهجة له ولغيره ، وانه يستطيع أن يرى فى الحادث الفردى الصغير رمزا لعاطفة انسانية ينقلها الى غيره من الناس فيعرفونها فى أنفسهم، هذان الاحساسان أكبر ما يحفز الكاتب على الكتابة والشاعر على الانشاء ، وهما أيضا مصدر سرور ورضى نفسى واطمئنان نفسى ، والانتاج الأدبى أكبر حافز للأديب على ما يبذل من جهد وهو أكبر ما يجزى به » .

●● تراجم الشخصيات عند كامل حسين

كتب الدكتور كامل حسين عن طب الرازى وعن القانون والعلم فى كتاب القانون لابن سـينا ، وشيئا من هـذا القبيل عن ابن رشـد ، ولا نقصد بكامل حسين مترجم الشخصيات هـذه الكتابات ، ولا تلك الكتابات التى كتبها عن « التعقيد فى شعر المتنبى » ، « أسلوب أبى العلاء ودلالته ، والنابغة ، والفرزدق وما الى ذلك تناولناه فى فصـول سابقة ، وانما نقصد :

(١) مقاله فى مجلة الكاتب المصرى فى مارس ١٩٤٧ عن « الدكتور على باشا ابراهيم » وقد جعله فصلا من الجزء الأول من كتاب « متنوعات » .

(٢) مقاله فى مجلة الكاتب المصرى فى نوفمبر ١٩٤٧ عن « أحمد لطفى السيد والدعوة الى أرسطو » وقد جعله فصلا من الجزء الأول من كتابه « متنوعات » .

(٣) حديثه عن سلفه فى المجمع الأستاذ أحمد حافظ عوض ضمن كلمته فى حفل استقباله عضوا بمجمع اللغة العربية .

(٤) كلمته فى تأبين أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد فى الحفل الذى أقامه مجمع اللغة العربية فى الحادى والعشرين من أبريل سنة ثلاث وستين وتسعمائة وألف ، وهى منشورة فى الجزء الثامن عشر من مجلة مجمع اللغة العربية .

(٥) كلمته فى تأبين الدكتور طه حسين فى الحفل الذى أقامه مجمع اللغة العربية فى السادس والعشرين من ديسمبر سنة ثلاث وسـبعين وتسعمائة وألف .

ونستطيع أن نجد الخصائص الآتية فى ترجمة الشخصيات عند الدكتور كامل حسين :

(١) كان لا يتناول بالترجمة حياة المرء تفصيلا ، وانما كان يقف عند صفة من الصفات فيستقصيها. وقد تكون هذه الصفة هى أبرزالصفات فى رأيه (كالبناء) فى على باشا ابراهيم و (المعلم) فى لطفى السيد فى مقاله « أحمد لطفى السيد والدعوة الى أرسطو » ، وقد تكون صفة فريدة تمثلت فى هذه الشخصية بالذات كتوافق قوى العلم ، والعقل ، والخلق فى نفسه فى كلمته التى أبن بها لطفى السيد · وقد تكون صفة من صفات الشخصية يرى فيها ما لا يراه الناس كصفة (المفكر) فى طه حسين و (الآثار الفكرية) لأحمد حافظ عوض خاصة أسلوبه العلمى فى تأريخ الحملة الفرنسية ·

(٢) لم يترجم كامل حسين الا لمن أثروا فى حياته تأثيرا بالغا، واتصلت حياته بحياتهم اتصالا متينا ، ونستطيع أن نقول ان ثلاثتهم (لطفى السيد وطه حسين ، وعلى ابراهيم) بالاضافة الى عبد الحميد بدوى كانوا أعظم من أثر فى حياة كامل حسين ، أما حديثه عن أحمد حافظ عوض فهو تقليد مجمعى ، وان كان لم يقصر كلمته على الحديث على سلفه .

(٣) وهو لا يغفل فى توجمته أن يبين علاقته بالشخصية على النحو الذى لا يوجز فيبهم ، ولا يطيل فيخرج عن الموضوع الأصلى ·

(٤) كان يحرص على أن يبين الحقيقة فيما يعاب على هذه الشخصيات كتعليله اسراف طه حسين فى مدح الملك بأنها شنشنة يعرفها أهل الصعيد ، وتعليله ما فى آثار أحمد حافظ عوض الفكرية من عيب ونقص بقوله « فحسب المرء أن تكون آثاره فى ميدان الفكر صورة صادقة واضحة للعصر الذى يعيش فيه » ذلك أن عصر أحمد حافظ عوض لم يكن قد عرف بعد تلك الدقة والكمال ·

● أحمد لطفي السيد ●

كانت للطفي السيد شخصية نادرة معتدلة المزاج اعتدالها سر الطمأنينة التى استمتع بها أستاذ الجيل حياته كلها التى حرص على أن تكون مظهرا للسمو المتصل .

توافقت في نفسه القوى الثلاثة : العلم والعقل والخلق ، وحرص على أن يرضى عن نفسه فكان بينه وبينها سلام دائم هو غايةالسعادة ، وكان يرى نفسه من القادرين على التمام فتم له بذلك شموخ نفسى داخلى طبيعى يثير الاعجاب والحب معا .

وكان من طبعه أن يتتبع محاسن الناس ، وأن يغضى عن مثالبهم فلم يكن يأخذ الناس بما أخذ به نفسه من الصرامة . وكان من آثار هذين ان استطاع أن يجمع بين الثقافتين العربية والأجنبية فى سهولة عجيبة ، واذا كان من التوفيق أن يحب الانسان عمله ، فانه غاية التوفيق أن يحب الانسان مايتعلمه ، وأن لايضطر الى درس ما لا يعجبه ، وأحب الحقيقة وأحب من تعلمها عنهم ، فكان سهولة عجيبة .

وكان حبه لعظماء المفكرين الذين تلقى عنهم علمه أمرا معروفا فكان لا يعدل بالشافعى أحدا ، وكان من المعجبين بتفكير المعرى ، وان لم يشاركه رأيه ، اما حبه لأرسطو فكان معروفا للناس جميعا .

وكان فى عقله هذا الترف الذى رأيناه فى علمه فلم يعجله عن الرؤية خوف أو طمع فكانت نفسه كالمرفأ الهادىء يأوى اليه حين تعصف العواصف حتى يتبين وجه الصواب أقداما أو احجاما ، بل كان شيوخ السياسيين يأوون اليه فى سن مبكرة جدا يستنصحونه فى الأمر الجلل .

وكان اذا هم بأمر عرضه على المبادىء الخلقية ليرى أيليق به ذلك

أم لا يليق ؟ ثم يعرضه على **المنطق** ليرى أخطأ هو أم صواب ؟ ثم يعرضه على **مبادىء عامة وكليات ثابتة** عنده يؤمن بها كالتطور واحترام القانون والحرية الشخصية ، وأكثر الناس يعتقدون انهم يفعلون ذلك حين يقدمون على أمر يهمهم ، والواقع ان أكثر الناس يعملون ما يعملون بدافع من ماضيهم وطبيعتهم ، ثم يعرضون الأخلاق على ما ارتكبوا يلتمسون تأويلا يبرر لهم ما عملوا وهم يعلمون انه خطأ ٠

وقليل من هم مثله فى ذلك ، ذلك أن بلوغ الصواب فى أمور الحياة عن طريق الكليات العامة والمنطق أمر محفوف بالمخاطر يحتاج الى ذوق سليم ، وحكمة بالغة ، واتزان نادر وقد كان نصيبه من تلك الصفات عظيما ، وكان اهتداؤه بالمبادىء العامة مؤديا الى الصواب ٠

وكان يؤمن بالتطور ايمانا عميقا جدا ، ويرى الاصلاح بدونه عبثا وكان يعتقد أن الجيل الحاضر خير من الجيل السابق على غير ما يقول به الناس ، **ولم يكن لطفى السيد سياسيا عنيفا يخلق القوى السياسية ثم يوجهها الجهة التى يريدها ، ولكنه كان سياسيا مفكرا يريد من السياسة أن تحق الحق ، وان تقيم العدل ، وأن تحقق الاصلاح ٠**

وقد نجحت دعوته الى أرسطو نجاحا عظيما ذلك أن الدعوة انما تعد ناجحة حينما يكون القائم بها أقرب ما يكون طبيعة وتفكيرا الى من يدعو اليه ، وقد كان هذا هو الحال فى أرسطو ولطفى السيد فكلاهما معلم ، وكلاهما شديد العناية بالكليات ، مرهف الحس من ناحية المنطق البحت ، يدرك الخطأ فى التفكير بطبيعته الصافية ، وكلاهما تنقصه العناية بالتفاصيل والطريقة التحليلية وادراك ما للمنطق من حدود ٠

كان لطفى السيد معلما لا مدرسا والمعلم هو من يهديك بالاشارة الخفية والكلمة السامية الى آفاق جديدة من التفكير ٠

وله علينا فضل حين اختار أن يترجم ، كتب أرسطو كتبه فى الأخلاق والسياسة والاجتماع ، وهى أبقاها على الزمن ، وأقربها الى تفكيرنا الحديث ٠

تأثر لطفى السيد بالشيخ محمد عبده حين رافقه فى جنيف ، وكان فى سلوكهما فى الحياة تشابه ، فقد عكف الشيخ محمد عبده بعد عودته من أوربا لما ترم السياسة على الاصلاح الدينى والاجتماعى وهى الميادين التى كان يجيد الاصلاح فيها ، وعكف أستاذ الجيل على الاصلاح فى ميادين الثقافة والاجتماع بعد أن أخفقت السياسة المصرية فى أوائل الحرب العالمية الأولى .

(١) كانت فى أعماله مثل المفكرين ، وفى تفكيره صلابة العلميين فاستطاع أن ينجز أعمالا كنا نحسبها أمانى عزيزة التحقيق .

(٢) وأظهر صفاته العقلية : **صفاء الفكر** ، وصفاء الفكر أكبر الصفات وأعظمها وادعاها الى النجاح · ولا حسب أن أحدا قرأ للدكتور طه ثم سأل نفسه ماذا يريد أن يقول والمسألة عنده **ليست بضاعة الاسلوب ولكنها بضاعة الفكرة** ·

(٣) وكان **حاسما** فى تفكيره فكان قوله الفصل فى المسائل الخلافية يصعب دحضه ، وكان **تفكيره نفاذا** تحيط به الصعاب من كل جهة ، وتعترضه أمور كثيرة متناقضة ، وآراء متضاربة ، ولكنه رغم كل ذلك كان ينفذ الى النتائج .

(٤) خلا تفكيره من عب التفكير الهش أو المنفوش كالعهن الذى تراه من بعيد فتحسبه عظيما، فاذا ضغطت عليه وجدته هزيلا لا صلابة فيه ولا عزم ، **واخترق حاجز الصوت فى المجال الفكرى فبلغ آفاقا** واسعة ، ولم يكن الفرق بينه وبين المفكر الوسط فرقا تتبينه بسهولة مع انه واضح وهو أن أحدهما خصب والثانى مجدب ·

(٥) كان اباؤه أن يذعن للنظم المستقرة هو المحور الذى دار عليه تفكيره وأعماله وكان يرى فى الثبات Establishment مخالفة لطبائع الأشياء وطبيعته ، فكان مجددا دائما لا كاولئك الذين يحسبون أنفسهم مجددين وهم فى الواقع محافظون على الجديد .

(٦) أخذ العربية أخذا متينا فاتقنها واغرم بها ــ وخرج من هذا النطاق لا اقول خرج عن الثقافة العربية ولا منها ولا عليها ــ ولكن اقول خرج بها الى آفاق أخرى كما كان يجب أن نخرج لولا السبات الذى أصابنا وهو السبات الشتوى الذى امتد عدة قرون .

(٧) وقد كان على الدكتور طه حسين أن يهدم بعض هذه الأسوار التى تكونت حولنا ففعل فعلته الكبرى أقصد كتاب الشعر الجاهلى وهو عندى نقطة تحول لا لما فيه من اراء صحيحة أو خاطئة ولكن لكونه **مقدمة للنهضة الفكرية . وكل نهضة فكرية يسبقها هذا الهجوم لا على الثقافة القديمة ولكن على الاسوار التى أقيمت حولها فمنعت نموها .**

(٨) كان المفكرون الغربيون يحجون اليه فيبهرهم من حيث هو مفكر عربى أصيل استطاع أن يمتد بتفكيره الى أن وازى التفكير الغربى من غير أن يفنى فيه .

(٩) أما موقفه من السراى فان الملك فؤاد وكانت له حنكة سياسية ادرك ان هذه الحرية التى يدعو اليها طه حسين تؤذى النظام المستتب الذى هو رأسه وعماده وعنوانه ، وقد ذكر لى الدكتور **مايرهوف أنه قال للملك فؤاد أنه لا يتصور مجمعا للعربية ليس فيه الدكتور طه حسين** ومع ذلك رفض الملك أن يجعل طه حسين من مؤسسى هذا المجمع ، وجاء فاروق ولم يرث عن والده الحنكة السياسية وانما ورث عنه كره الدكتور طه حسين فأصبح عنده نوع من الحساسية تجاهه وكنت أعلم من خبرة شخصية أن حظ فاروق من الآداب الملكية غير موفور ، واصبح طه حسين وزيرا للمعارف فقابله الملك مقابلة جافة جدا ، وفرح الدكتور طه بهذه المقابلة واقتنع ان الملك هزم وأحس بالهزيمة . ورفض الملك أن يعطيه الباشوية ، ولم يكن حريصا على هذا اللقب الا أن رئيس الوزارة أخذ الأمر على أنه يتعلق بثقة الملك بالوزارة كلها ، وليس ما عيب عليه من اسراف فى مدح فاروق بعد ذلك كله الا شنشنة يعرفها أهل الصعيد لا يريدون بها الا نوعا من التشفى .

(١٠) وأعماله جيدة من غير شك ، ولكن مجموعة أعماله أضخم واعظم من أجزائها ، حتى اذا نظرت الى حياته كلها وجدتها حقا ملحمة رائعة أسطورية لا نظير لها .

(١١) وفضل طه حسين يتركز فى أنه هو الذى **بدأ الدراسة الحديثة فى الأدب العربى** ، كما أنه أدخل **أسلوبا جديدا فى النقد الأدبى** . وعظمته فى الأدب العربى ترجع الى أنه كان مفكرا قبل أن يكون أديبا .

● **أحمد حافظ عوض** ●

كان رحمه الله ممن تقسمت حيـــاته السياســـة والأدب ، ولم تنصفه السياسة ، وقليلا ما تنصف أحدا من أهل الفكر ، ومن بعض حقه علينا أن لا نخطئه النصفة من الأدب .

واذا كان الأستاذ حافظ عوض قد شب فى عصر لا يعد خير عصور الحياة الفكرية فى مصر ، واذا كانت آثاره الأدبية لا تخلو مما يدل على كثير من صفات ذلك العهد فان ذلك لا يعد عيبا فيه ولا نقصا ، **فحسب المرء أن تكون آثاره فى ميدان الفكر صـورة صـادقة واضحة للعصر الذى يعيش** فيه . وأن آثاره كذلك فهى صـورة للعصر الذى شب فيه ، لا الذى انتهى اليه ، فيها تخبط الذين يلتمسون أسلوبا جديدا وتعثر الذين يتحسسون منهجا غير مألوف .

ويستطرد الدكتور كامل حسين فيقول أنه يحب كثيرا من هـــذا التخبط وذلك التعثر فالصور القديمة أشــهى الى نفسه من روائــع « رافائيـــل » « كأن الكمـال الفنى يشعرنى قرب النهـاية ، وضعف الشيخوخة ، ولعل ذلك هو الذى حبب الى «اليتيم» التى كتبها سلفى فى صباه ، وهى قصة غاية البساطة انشاء وأسلوبا وموضوعا » ويمضى فى وصف القصة ونقدها ، ثم يعود الى الحديث عن حافظ عوض فيقول :

« ثم عصفت به السياسة فحرمته الحرية ، ومنعته كل نشـاط سياسى ، كان ذلك أثناء الحرب العالمية الأولى فظهر ما فى طبعه من حب للدرس والبحث وعكف على كتابه تاريخ الحملة الفرنسية فى مصر وهو كتاب جيد عنى فيه باستقصاء المصـادر ، وتمحيصها ، والمقارنة بين الوثائق ، وحقق ما استطاع التحقيق وحلل ما أمكنه التحليل » ووصف الحياة المصرية اذ ذاك وصفا يدل على تخيـل صـادق ، وفهم كثير ، ونقب عن رجال تلك الحقبة ، وحدد أغراضهم ، ووصف أخلاقهم وما كان فيهـا

من قوة وضعف . وفيه ناقش المؤلف روايات الجبرتى وقارن بينها وبين ما جاء فى الوثائق الأجنبية المعاصرة وخرج له من ذلك كله كتاب لو كتب اليوم ــ بعد أن بلغ منه التاريخ عندنا ما بلغ ــ لكان فخرا لكاتبه » .

ثم يبين فضله فى ذلك فيقول : فلنذكر ان احدا منا فى ذلك العهد لم يكن قد درج على البحث العلمى ، وان حافظ عوض انما اهتدى بطبعه وبحثه أكثر مما اهتدى بالتلقى ، ويرى ان عمله فى الصحافة منذ اول عهده بالعمل فيه دلالة على شجاعته واقدامه وحبه للحرية . « ولعله تبين فى ذلك العهد التباعد بين نصيبه من الحياة وآلامه فيها ، واصابه من جراء ذلك بعض القنوط والقلق ، ولعل فى ذلك بعض الباعث على كتابته رسائل الى ولده ، يبذل له فيها النصح ويحذره مما وقع هو فيه من أخطاء ، وفى هذه الرسائل كثير من الجد والصراحة والاخلاص وأحسبه لم يخفق فى حياته أكثر مما أخفق غيره ، غير أنه من أولئك الذين يضعون نصب أعينهم شيئا يسمونه السعادة يسعون اليها ويحزنهم ألا يبلغوا ما لا وجود له الا فى أخيلتهم ، وهى حال عقلية قديمة وما ضر الناس لو عنوا بحياتهم فجعلوها مليئة صادقة ثم تركوا للزمن تحديد غاياتها ، اذن لذهب اليأس والقنوط ، وتنوعت صور السعادة كل ينال منها ما ييسره له طبعه ، وتهيئه له الأحوال التى يعمل فيها ، وانى لألمح فى كل ما ترك الأستاذ شيئا من عدم الرضا عما استطاع أن يحققه من آمال ، على اننا اذا أردنا أن نقدر أعمال المفكرين فى ذلك العصر فليس من الانصاف أن نقيسها بما نحن فيه اليوم فانهم كانوا يعشون الى ضوء التفكير الحر الذى نتمتع اليوم بنوره كاملا » .

الباب الرابع

محمد كامل حسين
لغويا

كامل حسين من اعلام اللغويين ما فى ذلك من شك، دعوى أدعيها، واقيم هذا الباب بينة عليها ، والدكتور مدكور حين اراد أن يمدح كامل حسين اديبا قال (وحسه الأدبى لا يقل عن حسه اللغوى) وقد تبين للناس جميعا فى انحاء المعمورة أن كامل حسين اديب عملاق فأنظر الى قول الدكتور مدكور الذى استقبل كامل حسين يوم دخل المجمع وودعه فيه عندما خرج من الدنيا حين يصف حس كامل حسين الأدبى بأنه لايقل عن حسه اللغوى !

والقرن العشرون حافل بالمعارك اللغوية ، وقد أبانت لنا هذه المعارك عن أفذاذ فى اللغة وآرائهم فى جوانبها المختلفة ولكن تاريخ اللغة الحديث لم يحدثنا أن واحدا كان ذا منهج فى اللغة غير ابراهيم مصطفى وكامل حسين ، وعندى أن فضل كامل حسين على ابراهيم مصطفى كفضل العالم على العابد فى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم ٠

لم يحدث أن حظى رأى لغوى لكامل حسين بالقبول عند علماء اللغة جميعا ، ولم يحدث أن اجتمعوا على مخالفته فى رأى من آرائه ولم يكن منهم من خالفه فى كل الأمور ، ولا من وافقه فيها كلها ، وفى هذه الأربعة الدلالة على حيوية الجانب اللغوى عند كامل حسين ٠

قضى كامل حسين ربع القرن الأخير من حياته أو قل ثلثها الأخير فى المجمع اللغوى مثالا للالتزام والمواظبة ، منارة بحث طريف ذكى هادف. ورأى علمى مستنير هادىء وكان كامل حسين يمثل بحق «حكيم المجتمع» على حد تعبير زميله فى المجمع أستاذنا الدكتور الدمرداش ، وكان كامل حسين صاحب درس وبحث فى اللغة أكثر من علماء فى اللغة وكان له فيها منهج وفى اصلاحها خطة وكان لتاريخها عنده فهم مستفيض ، ولعيوبها عنده تعليل علمى ٠

وكان ذلك كله مصدر اعزاز واكبار واعجاب عند زملائه فى المجمع

اولا ، وعند العارفين لذلك الفضل ثانيا ٠٠ بل كان بعض هذا كافيا لاثارة الاعزاز والاكبار والاعجاب .

لم يكن كامل حسين عالما لغويا ولكنه كان عالما ثم كان عالما لغويا وهذا سر من أسرار عظمته اللغـوية ، ولم يكن علمه باللغـة من ذلك النـوع الذى نجده عنـد علماء اللغة فى أيامنا هذه يتخصصون فى جزء صغير فيبحثون ويدرسون ويعرفون كثيرا كثيرا عن قليل قليل كمـا يقول المثل الانجليزى ثم تدفعهم الظروف دفعا فيـكونون (علمـاء لغة) ، ولم يكن علمه باللغة من ذلك النوع الذى اختص الله به عباده «المجاورين» يفنون فيه زهرة عمرهم والله يعلم أن نفوسهم تعافه ولا تصبر عليه الا الى حين ، حين تترك الدرس الى التدريس ولم يكن علمه باللغة علم أولئك الذين يخطفون القراءة خطفا فى بطون هذه الكتب الصفراء يبتغون تعبيرا او شيئا من هذا القبيل يذكرونه فى كتاباتهم ويحتالون له حتى يأتى عرضا يستجدون به الاعجاب .

أجل لم يكن كامل حسين هذا ولا ذاك ولكن الله وهبه نوعا رفيعا من دقة الحس اللغوى ، وهيأ له ما أهله حتى صار بحق من أعلام اللغويين . فاذا باعد الزمان بيننا وبين كامل حسين فسنقدر الرجل قدره وقد لا يحيينا الله حتى نشهد آراء الرجل وقد تبوأت مكانها الحقيقى ، ولكن أجيالا لاحقة ستشهد بفضل هذا اللغوى الكبير . واقل ما يجازى به كامل حسين هو أجر لأنه اجتهد ولكن جزاء كامل حسين الحقيقى لن يكون أجرا فحسب ولكنه سيكون أجرين مضاعفين لأنه اجتهـد وأصـاب حين لم يكن هناك اجتهاد ولا تقدير للصواب .

وسنعرض الآن الجزء الأول من مقدمة كتـاب « اللغـة العربيـة المعاصرة » وهو آخر كتب كامل حسين وسنعرف كيف كان كامل حسين أمة فى الاطلاع اللغوى ومع ذلك لم يدخله اطلاعه هذا فى زمرة من الثلاث عشرة التى يتحدث عنها حيث يقول :

(١) الذين يريدون العودة بالفصحى العالية الى ما كانت عليه فى صدر الاسلام مثلهم كمثل أهل الكهف حين حسبوا أن ورقهم وهى غير زائفة يمكن أن تكون عملة رائجة يقضون بها حوائجهم .

(٢) والذين يبحثون فى أصول اللغة كما وضعها القدماء مثلهم كمثل علماء الحفائر عملهم له قيمته التاريخية الكبرى دون أن يكون ذلك مدعاة للاحتذاء بما يجدونه فيها .

(٣) والذين يؤمنون بقواعد اللغة كما وضعها الأقدمون مثلهم كمثل

الذين لا يزالون يؤمنون أن السماء تدور حول الأرض ، وأن الكواكب لها مدارات تسير فيها يمكن حسابها كما كان يحسبها صاحب المجسطى.

(٤) والذين يقصرون عملهم على ما عرفه القدماء مثلهم كمثل الذى يسير فى طريق وعرة محمولا على عربة من خشب تجرها دابة منهوكة وعلى بعد خطوات منه طريق واسعة معبدة تقطعها السيارات فى دقائق ·

(٥) والذين يستخدمون هذه القواعد مثلهم كمثل الذى يستخدم مغزل اليد فى غزل الصوف وهو يسمع من حوله ضجيج الآلات التى تغزل آلاف الأمتار فى الساعة الواحدة ·

(٦) والذين يخلقون مشاكل نحوية معقدة ليظهروا للناس براعتهم فى حلها مثلهم كمثل الذى يسير فى ظلمات الأطلال البالية تنسجها رياح جنوبية وشمالية يفضل ذلك على أن يعيش فى بيوت نظيفة مشرقة ·

(٧) والذين تعجبهم (بهلوانيات) الصرف من ابدال واعلال وقلب وفروض عجيبة ، وبحثهم عن تصغير كلمة (سفرجل) مثلهم كمثل الذين لا يقدرون أن (البهلوانيات) لا تعجب الناس الا للتسلية والسمر وليس عليهم أن يأخذوها مأخذ الجد ، وليس على المتعلمين أن يعملوا بها ·

(٨) والذين يحرصون على اتباع كل قواعد النحو ، كبيرها وصغيرها ، مثلهم كمثل الذى يسير على حبل مشدود بين جبلين وتحته ماء غزير وهو يرى على مقربة منه جسرا ثابتا يستطيع أن يعبر عليه مجرى الماء فى سهولة آمنة ·

(٩) والذين يعتقدون أن كل ما فى المعاجم صحيح مهما كان فيها من المتناقضات مثلهم كمثل الذى يفضل الغموض على الابانة مع أن الابانة أصل اللغات وسر وجودها .

(١٠) والذين يعتقدون أن كل ما لم يرد فى المعاجم خطأ مثلهم كمثل الذى يدخل السجن طواعية واختيارا ويضع نفسه تحت امرة السجان وكان فى غنى عن ذلك لو قدر قيمة الحرية وجمال الانطلاق الفكرى الحر ، أو كالذى يرفض أن يستضىء بالكهرباء يفضل عليها سراج الزيت ·

(١١) والذين يعتقدون أن الغوص فى المعاجم قد يخرج لنا دررا لا نعرفها مثلهم كمثل الذى يبحث عن لؤلؤة صغيرة فى أكوام من القش وقد يعثر بعد لأى فاذا هى لا تستحق ما بذل فى البحث عنها من جهد ووقت·

(١٢) والذين يريدون المحافظة على اللغة فيرفضون كل جديد

مثلهم كمثل الذى يريد أن يحافظ على جمال الأزهار وطيب رائحتهـا بوضعها فى خزائن حديدية فتؤدى تلك المحافظة الى ذبولها .

والمحافظة الصحيحة على الكائنات الحية لا تكون الا بتطويرها وجعلها مطابقة للبيئة التى تعيش فيها .

(١٣) والذين يعتقدون أن الفصحى العالية تصلح لـكل مقام مثلهم كمثـل الذى يصنع للجـراح مبضعا من ذهب ومنشــارا من فضــة ومباعدا مرصــعا بالجواهر والعيب فى هــذه الأشــياء ليس التبذير فحسب . بل ان المعادن الثمينة لا تصلح لصنع هذه الأشياء. والمبضع الصلب الرخيص أصلح لما يراد منه من المبضع الذهبى الغالى !

يقدر كامل حسين العربية قدرها لا يزيدها ولا ينقصها ، ويعتز بها اعتزاز العارفين المخلصين ، ويريد لها أن تستعيد مجدها فلا يقف عند التمنى وانما يشمر للعمل ، ويريد لها أن تصبح لغة العلم والفن فيقترح ما يهيىء لها ذلك . وينقد بعض جوانب العربية نقدا بناء يرمى الى الاصلاح والتجديد . وكامل حسين يرى فى الدعوة الى العامية داء جديدا ويقول فى معرض مهاجمتها (فى تعقيبه على بحث الأستاذ عزيز أباظه : الفصحى والعامية من زاوية جديدة) « كان الناس قديما يستحيون حين يجهلون أما اليوم فيتبجحون حين يجهلون ، فالمسألة كلها مسألة جهل » وهو اذ يلمس الصراع بين العامية والعربيــة يدعو الى مواجهته بتيسير العربية على الناس كتابة وقراءة وتعلما وبهذا تحيا وتنتشر ويقبل عليها النشء فان لم نفعل فسيعز أمرها على الناس فيستبدلون بها وسائل أخرى للتعبير . أما الفصحى العالية فكامل حسين يقـــول فيها « نريد أن ننقذ الفصحى العالية من عنت الذين يعلمون وعبث الذين لا يعلمون . والذين يعلمون يريدون أن يخنقوها بما يحتمونه على المتعلمين من علم بقواعد لا تعرض للأديب أو الكاتب ولا يعنى بها الا المحترفون من رجال النحو وهم الذين ألقوا فى قلوب المثقفين الرعب من لغتهم القومية واليأس من اتقانها » .

وهو يرى من المستحيل أن نتجاهل تطور الفكر العلمى كله أو أن نغفل الواقع الذى يدلنا عليه ما يلقاه المتعلمون فى العصر الحاضر من صعوبة ازاء الفصحى العالية . وكامل حسين محب للغة حفى بهـــا يخشى عليها عوامل الزمن ((**أخشى أن يمتــد التهــاون باللغة فيصبح امتهانا لها واستهزاء بها**)) .

أما اللغة التى يريدها كامل حسين فقد عبر عنها فى كلمته فى مقدمة بحثه أصول علوم اللغة ، حيث يقول :

« انما يعنينا أن تكون لغتنا دقيقة فى غير تعقيد ، واضحة فى غير ابتـــذال متفقة وأســـاليب التفكير الحـديث التى نشـــأنا عليهـــا ».

ونحن لا نخشى الصعوبة اذا كان من آثارها دقة الأداء وحسن التعبير واتساع التصورات التى تدل عليها الأساليب، ذلك ان اللغة أول مايتعلمه الانسان وأول مرانه على التفكير المنظم ، وأسلوب البحث فيها يؤثر فى عقلية الناشئين تأثيرا لا يزول ، وعنـــدى أن اللغة العربية ليست من الصعوبة بحيث يتصورها المحدثون فهى لغة ككل اللغات سلسة طيعة لمن راض نفسه على درسها » و « لا نستطيع ان نترك الحبل على الغارب للكتاب يفعلون باللغة ما يشاءون فالبساطة ليست غاية تراد لذاتها وليست اللغة السهلة المهملة أداة صالحة للفكر المنظم الدقيق » .

وفى حفل استقباله عضوا فى المجمع اللغوى يقول « أول ما يجب أن نعنى به هو العلم بالعربية فان أحدا لا يستطيع أن يأتى بعمل ذى خطر الا أن يكون ذلك بلغته ، والذين لا يملكـون ناصـــيتها يظلون حيارى لا يقدرون على شىء من الأدب الرفيع ، ولا يستطيع رجال الأدب والعلم أن يقوموا وحـدهم بتهذيب اللغـة تهذيبا يجعلها وسيلة صالحة الأداء ، فالأدباء يريدونها طيعة ، والعلماء يريدونها دقيقة ، وأهل اللغة يريدونها نقية ، ومن أخص عمل المجامع أن تهيىء لها ذلك كله » .. وهكذا كان فهمه لوظيفة المجمع على أنها « المحافظة على سلامة العربية » (فى تعقيبه على بحث الأمير الشهابى « سوانح فى اللغة والمصطلحات ») . والمحافظة على اللغة عنـده « أن نحميهـا من أثر انصراف المتعلمين عن اتقانهـا واعراضهم عن علومها » (من بحثه « حاجتنا الى معجم مصفى ») .

ونقاوة اللغة عند كامل حسين ليست كصفاء الثوب الأبيض يعيبه كل ما يلحق به وانما هى «كصفاء الماء فى الغدير الهادىء يؤذيه أن يظل راكدا فيأسن ولا يضيره ما يرد اليه من الماء ان كان صـافيا « والمـاء الهادىء اذا اضطرب ذهب صفاؤه ، واللغة اذا اضطربت ذهب رواؤها » . (من كلمته فى حفل استقباله) .

●● رأيه فى جنس العدد

فى الجلسة الثامنة من جلسات مؤتمر الدورة الرابعة والعشرين (١٩٥٨/٥٧) قدم كامل حسين مقترحه فى جنس العدد الذى نلخصه فى الفقرات التالية :

(١) قواعد جنس العدد فى العربية تعوق تفكير المتكلم أو القارىء وبخاصة فى المقالات العلمية ، ونحن نستطيع أن **نجعل بعض القواعد أكثر مطاوعة لحاجتنا متجنبين ما فيها من تعقيد دون أن نصوب خطأ فى اللغة** • وهذا هو المبدأ الذى قدم كامل حسين مقترحه على أساسه •

(٢) ويتلخص مقترح الدكتور فى أن **تكون للعدد حالات واحدة تتعلق به وحده دون نظر الى تمييزه** ونبقى على هذه الحالة وعليها تكون صورة الاعداد :

واحد – اثنان – ثلاثة – عشرة – أحد عشر – اثنا عشر – ثلاثة عشر – . . . – واحد وعشرون – اثنان وعشرون – ثلاثة وعشرون . . . . . مائة وواحد – مائة واثنان – مائة وثلاثة . . . ألخ) •

(٣) أما التمييز فيلى العدد مجرورا بمن وعلى هذا نقول خمسة من الرجال وخمسة من النساء وأحد عشر من الرجال وأحد عشر من النساء •

(٤) وقد التمس الدكتور لمقترحه بعض الآراء التى تقويه من آراء اللغويين القدامى فذكرها :

وبعد ان انتهى الدكتور من قراءة مقترحه رحب أعضاء المؤتمر بمبدأ التيسير دون مساس بقواعد العربية وقرروا شكر سيادته واحالة

المقترح الى لجنة الاصول لدراسته وتقديم رأيها فيه الى مجلس المجمع . وفى لجنة الأصول تقدم المرحوم الاستاذ الشيخ محمد على النجار ببحث عنوانه « العدد فى العربية » ذهب فيه — مدللا — الى « ان القول باستقلال العدد عن معدوده لا يوافق ما جرى عليه العرب، واذا التزم جر التمييز بمن فليس يقطع هذا ما بين العدد والمعدود من الاتصال والاقتران سواء ، وكذلك القول باضمار تمييز فالتسوية فى العدد بين المذكر والمؤنث لا توافق العربية وهو رجوع بها الى القهقرى » وعلى هذا فان لجنة الاصول (والكلام للأستاذ النجار فى بحثه) لا تسعها الموافقة على هذا الاقتراح وهى تعرف لصاحب الاقتراح المعيته وغيرته على العربية وتشكره على ما يبذل فيها من جهد . ويبدو أن الأمر فى لجنة الأصول احتاج مذكرة أخرى فتقدم الاستاذ النجار مرة ثانية بمذكرة ركز فيها على معارضة الاحتجاج لمقترح الدكتور بحديث النبى (صلى الله عليه وسلم) « من صام رمضان واتبعه ستا من شوال .. » مستشهدا بنصوص الأشمونى والصبان والاسقاطى والصفوى والسبكى ٠٠ ثم قال (وجمهرة العلماء على عدم الاحتجاج فى العربية بالحديث لما يدخله من الرواية بالمعنى وكثرة الرواة من العجم غير السليقيين) .

ثم تقدم الأستاذ ابراهيم مصطفى (صاحب احياء النحو) بمذكرة ثالثة ذكر فيها أولا أنه اذا جاء المعدود مقترنا بمن لم تجر عليه أحكام تمييز العدد واستشهد لذلك من القرآن بقوله تعالى « **ولقد آتيناك سبعا من المثانى** » وبقوله « **بثلاثة آلاف من الملائكة** » ، وقال الأستاذ ابراهيم مصطفى « ان الوجه الذى خرج عليه النحاة الآية الكريمة « **وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطا أمما** » ليكفى فى تخريج ما نقول فانه اذا كان تقدير مميز محذوف مستساغا فى كلام الله تعالى فان تقدير مميز فى كلامنا أيسر وأقرب وليس فى مقترح الدكتور كامل الا تسويغ هذا التقرير ليصح ما اقترح ويساير قواعد النحاة ٠٠ وتحدث الأستاذ ابراهيم مصطفى عن أن قواعد التذكير والتأنيث سارت فى العربية على نمط مطرد الفه المتكلم وجرى عليه ثم يساق الى معارضته فى باب العدد كأنما كلف لغة أخرى .

ورد الأستاذ النجار على الأستاذ ابراهيم بمذكرة رابعة قال فيها انه لم يقف على سند لما ذكره الأستاذ ابراهيم مصطفى أولا ، والتمس عللا بلاغية للآيات التى استشهد بها الأستاذ ابراهيم وانتهى فيها الى

تكرار قوله (فى مذكرته الثانية) « أما التجوز فى تذكير العدد اذا كان المعدود مؤنثا فلم يرد فى النصوص » .

وبعد دراسة تقدمت اللجنة الى مؤتمر المجمع بقرارها :

(١) ترى اللجنة أن مقترح الدكتور كامل حسين فى جنس العدد مخالف للقواعد وليس به تيسير .

(٢) ترى اللجنة أن مذكرة الأستاذ ابراهيم مصطفى تحتوى رأيا فى جنس العدد غير مقترح الدكتور كامل .

وأعاد مؤتمر المجمع فى دورته السابعة والعشرين الى لجنة الأصول المقترح والمذكرات ورأى اللجنة .. وتقدم الاستاذ أمين الخولى بمذكرة الى لجنة الأصول دلل فيها من كلام الاساتذة الثلاثة على اتفاقهم أن فى الأمر صعوبة ثم نظر فى بعض المناقشات ، ثم تناول موضوع مخالفة العدد للمعدود وذكر نصوصا من الأشمونى والصبان والنووى والصفوى وجاوز المقترح الخاص الى النظر فيما يدفع صعوبة هذه المخالفة بأى وسيلة فاقترح تقديم المعدود على العدد ، وعارض الدكتور كامل فيما يتعلق بواحد واثنين وذهب الى انهما مفردين لا يكونان من الاعداد الثابتة كما يرى الدكتور كامل ، ولا يذكران ، لأنهما لا يكونان الا صفة فقط بعد موصوفها تذكيرا وتأنيثا . اما فى تركيبهما وعطفهما فيكونان من الاعداد الثابتة صيغة التأنيث .

وفى الجلسة التاسعة من جلسات المؤتمر الدورة الثامنة والعشرين تقدمت لجنة الأصول بما انتهت اليه بعد اعادة بحث الموضوع ومناقشة مذكرة الأستاذ الخولى وهو « من أراد فى الكتابة العلمية مثلا أن يتلافى الصعوبة فى مراعاة قواعد العدد من ناحية مخالفة العدد المعدود تذكيرا وتأنيثا جاز له استعمال كلتا الصورتين . اذا قدم المعدود على العدد وكان اسم العدد صفة ». وكان للاعضاء بالمؤتمر تعقيبات على الموضوع فى جلستهم هذه اشترك فيها كل من الأستاذ أمين الخولى ، والشيخ محمد على النجار والدكتور كامل حسين ، والدكتور عمر فروخ ، والأستاذ زكى المهندس ، والأستاذ ابراهيم اللبان ، والأستاذ عباس العقاد ، والأستاذ أنيس المقدسى ، والدكتور عبد الحليم منتصر ، والأستاذ عبد الفتاح الصعيدى ، والدكتور محمد مهدى علام ، والدكتور اسحق الحسينى ، وامتدت هذه التعقيبات فشملت قضايا الحفاظ على العربية وكيف يكون ذلك الحفاظ ؟ والى ضرورة تعليم مثل هذه القواعد حتى تصير الى السهولة

عند المتعلمين وذهب الأستاذ العقاد يفسر كيف نشأت المخالفة بين العدد والمعدود بمبررات عقلية قال عنها الأستاذ أمين الخولى أنه لا حاجة لالتماسها للظواهر اللغوية ٠

وحاول الدكتور كامل غير مرة في اثناء النقاش أن يستحث الأعضاء على مبدأ التيسير والتسهيل ٠ وهاجم كتاب الاشمونى وقال ان الصورة التى فى ذهنه له هى انه (جحر ضب خرب) ووصف الالفية بأنها تمثل الستار الحديدى القائم بين اللغة وبين أهلها ٠

فاستدعى ذلك من المحافظين الرد على الدكتور كامل ، وقال الاستاذ اللبان « ان الباعث الذى حمل الدكتور كامل يجب الا يخطئه المؤتمر فهو الغيرة على اللغة » ، وفى النهاية قال الدكتور ابراهيم مدكور « اعتقد ان المؤتمر استمع الى تقرير اللجنة واكتفى به ومعنى ذلك أننا لم نتخذ قرارا ولكنى أعتبر قرار اللجنة توضيحا لأمر واقع » ٠

ولم يقتنع الدكتور كامل بقرار اللجنة ولا بقرار المجمع وظل على رأيه ذلك أن هذا الرأى لم يكن نزعة عابرة دفعت اليها ظروف وانما كان جزءا من نظرة كامل حسين الشاملة الى اللغة . وفى الجلسة الثانية من جلسات مؤتمر الدورة الثلاثين عقب الدكتور كامل حسين على محاضرة للأمير الشهابى فقال فيها « انه من الصعب بل من المستحيل احياء قواعد العدد عند الرياضيين ، وقد سبق ان اعترف العرب بذلك وقال سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) اننا امة امية لا نقرأ ولا نحسب وكانت فدية الملك الف بعير وهى أقصى ما يتصوره الرجل العربى ، ويكفى تفكير الرجل أن يميز العدد ٢٥ ثم يقول ٣٠ من المائة وليس من الممكن ان نقول ٣٩٧٩ من العشرة الآف » . ثم حذر من انه اذا اريد احياء العربية فى العدد فسوف يميت رجال اللغة الحساب » ولو ان اوربا ابقت على الاعداد الرومانية لكانت الآن تركب الحمير كما كانت تركبها من قديم لأنه لا يمكن علم بدون الرياضة ، ولا يمكن تقدم للرياضة مع الابقاء على قواعد اللغة فى كتابة الأعداد » .

● ● اللغة العلمية

نوجز هنا اهم أفكار الدكتور فيما يتعلق باللغة العلمية ، وقد وردت هذه الأفكار فى بحثه « اللغة والعلوم » الذى القاه فى افتتاح مؤتمر الدورة الثانية والعشرين وفى مقدمة بحثه « القواعد العامة لوضع المصطلحات العلمية » الذى قدمه الى مجلس المجمع فى جلسته التاسعة والعشرين من الدورة الثانية والعشرين وفى ثنايا بحثه « حاجتنا الى معجم مصفى » الذى قدمه فى الجلسة التاسعة والعشرين من جلسات مؤتمر المجمع فى دورته الرابعة والثلاثين وفى تعقيبه على بحث الدكتور محمود الجبيلى عضو المجمع العلمى العراقى الذى القاه فى الجلسة الرابعة من مؤتمر الدورة الثالثة والثلاثين ،وفى تعقيبه على بحث الدكتور حسنى سبح رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق « متى تدخل المصطلحات العربية دائرة الاستعمال » الذى القاه فى الجلسة الثالثة من مؤتمر الدورة السادسة والثلاثين .

يقرر كامل حسين فى البداية انه ليست هناك لغة تقصر عن مدارك اهلها واذا بدا لنا فى لغة ما قصورا فذلك فى الحقيقة راجع الى اهلها لا الى ذات اللغة . ويتعرض لقضية غنى اللغة فيقرر ان كثرة المترادفات وان عدت دليلا على سعة اللغة فهى عيب ولابد من فروق دقيقة بين المترادفات انما يكون الغنى فى اللغة بكثرة التصورات والأفكار واللغة التى لايضاف اليها شيء مدى ثلاثة عشر قرنا قد تجد نفسها اقل من غيرها . ويفرق كامل حسين بين لغة العلم ولغة الادب فيقول ان الصفات التى تدل على قوة اللغة العلمية تختلف تماما عن الصفات التى تدل على قوة اللغة عموما ولا يضير العربية أن يكون أسلوب العلم مختلفا عن اسلوب الادب بل لابد ان يكون هناك فرق ما . ويرى ان الصورة العلمية التى يجب ان تسير عليها لغة العلم فى العربية هى

الاطراد بحيث يكون القياس صحيحا دائما . ويذهب كامل حسين الى ابعد من ذلك حين يقرر ان اللغة لغتان : لغة تفاهم وهى الوسيلة التى نعبر بها عن مشاعرنا وآرائنا تعبيرا يراد به نقل هذه الأمور الى غيرنا وللألفاظ فى هذه اللغة قوة ذاتية تأتيها من ملابساتها وموسيقاها وتاريخها .. ولغة الفهم التى تختلف باختلاف موضوعاتها وهى لغة العلم .

وصفات اللغة العلمية أن تكون مطابقة لروح العلوم ، محددة الألفاظ ، واضحة المدلولات ، بعيدة عن المتشابه من القول ، بسيطة الاسلوب ، قابلة للنمو ، ذات طبيعة تسمح بالتصنيفات العلمية الحقة التى تبنى على صفات لها خطرها . وكامل حسين يطلب للعلم لغة عربية صحيحة ولو فى ادنى مراتب الصحة فالمهم فى اللغة عنده أن يتعود الطالب الكلام بها صحيحة والا يكون فى حاجة الى تذكر قواعدها عند كل خطوة ، والا اضطر الى الخطا فى حقها ان كان فى ذلك ما يعوق تفرغه للتفكير فى موضوعه ومن ثم فيجب أن نفرق بين اللغة الأدبية الفصحى وهى متأنقة وبين لغة العلم التى تدل على حقائق ووقائع، أى بين ما هو فصيح وما هو صحيح . وكامل حسين يدعو تارة الى الفصيح وتارة الى الصحيح ولكنه يدعو الى الفصيح عندما يتحدثون عن الأفصح فيقول ان كلمة الأفصح تعنى وجود الفصيح الذى ندعو اليه ، ويدعو الى الصحيح عندما يذكرون الفصيح فيجعل الصحيح للعلم والفصيح للأدب . وهو لا يفتأ يستحث المجمع أن يضع أسس هذه اللغة العلمية فيقول « وعلى المجمع أن يحدد أغراضه من وضع المصطلحات فان كان يريد لغة علمية حية تمثل حياة العلوم الحديثة وتنمو بنموها فلذلك سبيل ، وان أراد اثبات سعة العربية وقدرتها وانها لا تضيق اليوم عن وصف آلات وتنسيق أسماء لمخترعات فلذلك سبيل آخر .. وأحسب أن الفرض الأخير لا يليق بالمجمع ولا بالجهود التى يبذلها .

ولغة العلوم مهما يكن من أمر مصطلحاتها ومعاجمها لاتصلح وحدها لتقدم العلوم بل لابد من أن يكثر التأليف العلمى حتى يستقر أسلوبه ،

ولهذا فقد حان الوقت كما يقول « لأن نؤلف دائرة معارف عربية تكون هاديا للمؤلفين العلماء فاذا أرادوا نشر بحث علمى لهم وجدوا فى هـذه الدائرة ما يبغونه فيدخلون مؤلفهم فى الاطـار الذى تحـدده الموسـوعة ويحتـذون أسلوبها وهو عمل أرى ألا تتـأخر فيه كثيرا حتى تستقر لغـة العلوم فتكون لغة حية وعلما حيـا · ومن الآراء التى تمسك بهـا كامل حسين وكررها غير مرة ان وجود اللغـات الميتـة من حسن حظ العلم والعربية لا من حسن حظ اللغات الأوربية وحدها ومن ثم فلا تثريب علينـا نحن العرب اذا استعنا بكلمات من هذه اللغات فى لغتنا العلمية .

●● المصطلحات العلمية

فى الجلسة الثانية عشرة من جلسات مجلس المجمع فى دورته الحادية والعشرين تقدم الدكتور كامل ببحث عنوانه « القواعد العامة لوضع المصطلحات العلمية » أشار فيه الى ان الكثير من مستقبل الحياة العلمية فى البلاد العربية يتوقف على التوفيق فى وضع المصطلحات العلمية واستطرد الى المطالبة بجعل هذه المصطلحات صورة حية لتطور العلوم ، دقيقة ، منظمة ، قابلة للنمو ، وهذا مالم يتحقق فى المصطلحات التى وضعها المجمع فى دوراته السابقة على حد تعبيره .. ومن ثم اقترح بعض القواعد التى تحقق ما أشار اليه آنفا :

(١) كل مصطلح علمى خلق خلقا جديدا خاصا ويكون من أصل كلاسيكى ويكون دالا على عين من الأعيان يجب تعريبه (كالهيدروجين) واذا وجدت كلمة فى العربية تدل على هذا العين فلا تستعمل مصطلحا علميا بل تبقى جزءا من اللغة العامة ·

(٢) كل مصطلح علمى خلق خلقا جديدا ويكون من أصل كلاسيكى ويكون دالا على تصور علمى خاص يجب تعريبه مثال ذلك الانزيم والايون والالكترون لا تترجم لأن ترجمتها تذهب ببعض قيمتها من حيث هى مصطلح علمى ·

(٣) كل مصطلح يتبين انه جزء من تصنيف عام يجب تعريبه ومن هذا أسماء الأجناس والأنواع فى الحيوان والنبات وسلسلة المواد المتشابهة كيميائيا ·

(٤) كل مصطلح انتزع من اللغة العامة ليدل على معنى علمى خاص يترجم : (المناعة : Immunity) (الكبت : Refoulement) لاكتفاء

الحاجة الى جعلها اسم عين أو اسم تطور خاص ، ولأنه لابد من فهم أصلها قبل الوصول الى فهم مدلولها وليس ذلك الشأن في أسماء الأعيان حيث تمكن دراسة (الأكسجين) دون معرفة أصل اشتقاقها .

(٥) لا يكاد يوجد للنحت محل في المصطلحات فهو أثقل على الاذن من التعريب ولا داعي له ابدا .. وعنده ان كلمة (كلويد) على تقلها في كل اللغات أخف من (الشبغروى) ثم هي ليست غرويه ولا شبه غروية في الواقع فنكون قد أخذنا بالنحت كلمة ثقيلة ظنا انها أسهل فهما ، وفي سبيل الوضوح المزعوم أصبحت خطا (والكلويد) من أسماء التصورات الخاصة التي يصح ان تعرب حتما (كما سبق في (٢) .

(٦) ويحتاج الأمر الى وضع قواعد للتعريب تجعله وافيا بأغراضه :

(أ) مشكلة البدء بالساكن ، وقد حلت في الاعلام باضافة ألف في أول الكلمة ، ولا يجوز ذلك في المصطلحات العلمية وانما يكسر الحرف الاول كسرة خفيفة على الا يتبع ذلك ياء وانما يكون ذلك من باب التخفيف كما عمل العلماء في النطق بالاسماء الهيروغليفية .

(ب) لابد من تقسيم المصطلح العربي الى أصوله في الكتابة اذا كان طويلا والا أصبح في النطق مستحيلا .

(جـ) لا مفر من استبدال الحروف بالحركات ، والاعتماد على الشكل في المصطلحات العلمية فيه القضاء على هذه المصطلحات لأن احدا من العلماء لن يشكل هذه المصطلحات عند كتابتها وهي اكثر من أن يحفظها القارىء مشكلة ، أما تركها دون شكل فهو الفوضى بعينها ، واذا كان المجمع قد قرر كتابتها كما تكتب الألفاظ العامة العربية فأرجو ان يعدل عن هذا القرار .

(٧) وقد يكون التمسك بطريقة العرب في التعريب محبوبا ولكني لا ارى ما يدعو الى جعلها قاعدة فكثرة الطاءات كانت مقبولة في الذوق العربي القديم وربما لا تكون ضرورية في ذوقنا .

واظنك توافقني اذا قلت ان كامل حسين كان رائدا لاتجاه تعريب المصطلحات في المجمع اللغوى بعد أن رأيت نقاطه السبع السابقة تدور حول التعريب ، تجعل التعريب هو الوسيلة في ثلاثة أنواع من المصطلحات والترجمة وسيلة لنوع واحد ثم يخصص نقطة من نقاطه

السبع ليبين انه لا محل للنحت ، ثم يذهب فى النقطتين الاخيرتين الى وضع قواعد للتعريب حتى يتغلب بها على الصعوبات . وقد عقب الدكتور منصور فهمى على بحث الدكتور كامل حسين مخالفا له فى الرأى للاسباب الآتية :

(١) جعلت اللغة ليتصور منها الناس المدلولات بحروفهم ولغاتهم ولو فى اضيق حدود التصوير ، ولكى يتفاهموا .. ولو فى ادنى حدود الفهم ، وتحليل الصيغ وتنشيط الوعى العلمى ووضعه فى أساليب عربية عون بلاشك على خلق روح علمية وتراث ذهنى يسهم به العرب فى ميدان العلوم الانسانية البحتة والتطبيقية .

(٢) لا يرى الدكتور منصور فهمى ان كلمة ما من الكلمات العربية قد تقف فى سبيل المصنفات العلمية .

(٣) واذا كان بناء المصطلحات العلمية الشاهق قد قام على اصول اغريقية لظروف تتصل بتاريخ الحركة العلمية عند الاوربيين فجدير بنا أن نضع بناء شاهقا فى لغتنا .

ورد الدكتور كامل حسين بأن اللغة العلمية ليست مسألة كرامة ، وان اللغة العلمية ليست انجليزية او فرنسية او عربية وانما تقوم على الدقة والترتيب والقبول للنمو واشترك الدكتور احمد زكى فى المناقشة فأبدى اعجابه ببراعة كامل حسين فى صياغة بحثه ، واعلن انه لا يوافق كامل حسين فى العدول عن النحت ، وقال ان العلم كان ارستقراطيا ثم تمقرط وتساءل كيف يتقبل الدكتور كامل الكلمات فى لغاتها الأصلية ولا يرضى ان نتقبلها عندما تترجم . وقال الأستاذ مصطفى نظيف انه لا يجد داعيا للبحث عن الفاظ عربية لا تستعملها الجماهير ، وانه يوافق على أن يكون للعلماء الرأى الأول فى مصطلحات علومهم ودخل الأستاذ العقاد الحلبة فابدى رأيه فى تقسيم المصطلحات من حيث التعريب الى ما لا مقابل له (كالاكسجين) وما له مقابل ، وقال ان الدكتور كامل حسين ترجم Refoulement بالكبت والصحيح انها التعويق

او الاحباط او الحرمان وفى هذا دلالة (حسب ما يقول العقاد) على ان العلم ليس حكرا على من يعالجون العلم نفسه ٠

ودخل كامل حسين المناقشة مرة ثانية ليقول ان كل ما نطلبه هو أن نجعل التعريب أول ما نلجأ اليه فى المصطلحات وأشـار الى أن الترجمة للمتعلمين لا تغنى عن المصطلح فى بعض الحالات ٠ وأشار الدكتور عمار الى قاموس الدكتور شرف وهو عمل فردى ولفت الأستاذ عبد الوهاب خلاف النظر الى كتب القانون التى صارت الى اللغة العربية وتساءل الدكتور طه حسين : هل احطنا حقا بكل المصطلحات العربيـة القديمة ؟ واقترح استكمال المناقشة فى جلسة اخرى .

وفى الجلسة العشرين قال الأستاذ زكى المهندس ان قسم الرياضة فى علوم عين شمس قد بدأ يدرس بالعربية وأعلن الرئيس اننا لسنا ملزمين بما سلف ، لا نقيد أنفسنا بقواعد جامدة ، واقترح العقاد أن يقدم كامل حسين أمثلة من الألفاظ مثار انتقاده (من التى سبق للمجمع أن وافق عليها) فاذا ثبت أن المبدأ الأساسى غير ملائم عدلنا فوافق كامل حسين على ذلك ٠

وكانت نظرية كامل حسين فى وضع المصطلحات العلمية ببسـاطة شديدة هى انه يفضـل أن يتبنى طفلا أجنبيـا سليما على عربى مشوه ، ولهذا كان يرجو الا نعدل عن الالفاظ الاجنبية السهلة والمعروفة لكل انسان لنحصل على الفاظ قبيحة حتى وان شاعت « فشيوع مثل هذه الالفاظ لا يكفى لتسويغها » والامر فى ذلك عنـده يشبه تمـاما اننـا لا نستطيع ان نقتصر على الكارو لانها كانت منذ ٣٠ عاما .

وقد صدر هذا الكلام من كامل حسين حينمـا كان المؤتمر فى جلسته الثانية من دورته الثلاثين يناقش قوائم مصطلحات الجيولوجيا وجاء تعبير البطنقدميات ٠

ولما اقترح الأستاذ أمين الخـولى الأخـذ بالتركيب المزجى عنـد الحاجة أو الضرورة على أسـاس مقـابلة المصطلحات الأوربيـة لتحقيق

تثنيتها وجمعها والاضافة اليها (فى الجلسة الثـــامنة من مؤتمر الدورة الحادية والثلاثين للمجمع) ، قال كامل حسين انه لا وجود لهذه الضرورة المشار اليها فيجب منعه كل المنع لمخالفته للذوق العربى ولكن لجنـة الأصول انتهت الى قرار تضمن انه (يجوز صــوغ المركب المزجى فى المصطلحات العلمية عند الضرورة) واضاف المؤتمر الى قرار اللجنة (على الا يقبل منه الا ما يقره المجمــع) واعترض كامل حسين وطلب تسجيل اعتراضه على القرار كأنه اراد ان يبرىء ذمته أمام اللغـــة والأجيال القادمة من موافقة على شىء يأباه الذوق العربى وســـجل اعتراضه واعتراض الاستاذين محمد الفاسى وعبد الفتاح الصعيدى .

كانت غاية كامل حسين أن نجعل العربية حية فى مصطلحاتها وكان يرى أن التعريب هو وسيلتنا الناجحة فى اختيار الالفاظ العلميـــة الحديثة ، أما أن نرغم القديمة على أن تتخذ ثوب اللغة العلمية الحديثة فهذا يجعل اللغـة العربيـة لا تسـتعمل الا فى المعاجـم وفى مجـلة المجمع . أما خلق المصطلحات من العـدم فقـد استبعدها كامل حسـين تماما . وكان لا يرى ترجمـة الاصـول اللاتينيـة والاغريقية لهـذه المصطلحات الى العربيـــة (وهى الطـريق المحببـة الى اللغويين) عمـــلا مقبولا ولا معقولا . وأول الصـــفات التى يجب توافـــرها فى المصـــطلح العربى عند كامل حسين هو ان يكون لفظا لا عبارة ، وأن يكون غريبـا فسر نجـاح المصطلح يكمن فى غرابتـه وبعـد عن المتشـابه . وقد برز اتجـاه كامل حسين واضـحا فيما يتعلق بالمصطلحات الطبية فى لجنـة الطب بالمجمع عندما ألقى الدكتور أحمد عمار بحثه (دعوة الى التزام خطة منهجية فى صوغ المصطلحات الطبية) فى الجلسة الثالثة من مؤتمر الدورة السابعة والعشرين داعيا فيما دعا الى الفاظ عربية فى المقـام الاول عقب كامل حسين بالمعانى التى اوردناها — فى فقرة سابقة .

ونجدنا مضطرين هنا ان نكرر قول كامل حسين الذى كرره من ان اللجوء الى اللغات الميتة فى وضع المصـطلحات لكونهـا ميتة نعمـة ليس لنا أن نقصر الاستمتاع بها على غيرنا .

وفى الجلسة الرابعة والعشرين من جلسات المجلس فى الدورة الثلاثين قدم الدكتور كامل حسين اقتراحا اخر بشأن النهوض بالمصطلح العربى وعلى عادته فى المقدمات المنطقية الاحصائية اللطيفة قال ان المجمع أقر ألفا وخمسمائة من المصطلحات فى العام المنصرم ، واذا كانت مصطلحات علم الكيمياء كما ورد فى احصاء أخير حوالى نصف مليون ، على هذا فلابد للمجمع من ألف عام حتى ينتهى من مصطلحات اليوم اذا سار على هذه الطريقة. وقال الدكتور كامل ان فى مصر ثلاثة الاف من المشتغلين بالعلوم ولو بحث كل واحد منهم مصطلحا واحدا لجاءونا بثلاثة الاف مصطلح واستطرد الى الدعوة الى اشراك العلماء مع المجمعيين بمنهج مدروس . وقال الدكتور كامل ان ثلاثة ارباع القديم من المصطلحات عند اسلافنا قد بحث واستعمل الصالح منه وبقى القليل وهو لا يحل المشكلة الكبرى .

ووصف هذا الباقى بانه ثروة غير قابلة للتداول تخالف المعنى الحديث وكأنى بالدكتور كامل يرد على سؤال الدكتور طه حسين الذى وجهه أثناء مناقشة بحث الدكتور كامل (القواعد العامة للمصطلحات العلمية) وخلص الى القول بأن نظرية الاستعانة بالقديم لا فائدة منها . وبدأ الدكتور كامل حسين يمس الموضوع فيقول أن المصطلح بطبيعته هو الذى يحدد هل يعرب أو يترجم أو يبحث له عن كلمة فى المعاجم ونحن نريد أن نشجع العلماء أن تأخذ من كلال الناس وأن تبحث فيه . ونرى مدى استقامته مع ذوقنا العربى فان أعجبنا أخذناه وان كان لا يستقيم رفضناه » . وعبر عن نظرته الى قاعدة الالزام بالمجمعيات « فقال انه ليس لنا أن نضع للناس ما يقولونه ، وان كان من حقنا أن نخلق كلمات فانه حق لنا كأدباء وككتاب وليس كمجمع وعليه فاننا نطلب من أعضاء المجمع كأفراد ولما لهم من مكانة أن يستعملوا هذه الكلمات فاذا ذاعت نأخذها ونرى اذا كان من الممكن أن نضمنها المعاجم أولا .

ونبه كامل حسين الى انه لابد من بلورة خبرة المجمع فى ثلاثين سنة فى وضع المصطلحات ودعا الى تأليف لجنة لوضع نماذج للمصطلحات العلمية الحضارية يأخذ العلماء فى النسج على منوالها حتى ينتهى المجمع من هذا الأمر فى وقت معقول .

وبدأ الأستاذ محمد خلف الله المناقشة فاستبعد فكرة النموذج كقاعدة ملزمة واقترح أن يكون هناك جهازات : جهاز يصفى الكتب القديمة ، والآخر يتتبع ما يستعمله العلماء .

وذكر الدكتور ابراهيم مدكور ان المجمع قد اهتدى بآراء كامل حسين السابقة فى التعريب والترجمة وعبر عن تخوفه من جمود النماذج واشار الى ان الوعى اللغوى فى تقدم واعرب عن اتفاقه مع كامل حسين فى تسجيل الاستعمال الشائع لالفاظ الحضارة مادام لا يتعارض مع اصول اللغة . واقترح الدكتور محمد مرسى احمد وضع فهرس فى آخر الكتب المترجمة يشمل كل المصطلحات التى وردت فى الكتاب وتعرض لقول الدكتور كامل فى اشراك المشتغلين بالعلوم : كل يضع مصطلحا واحدا ، فقال ان كامل حسين متفائل . وعبر الأستاذ على عبد الرازق عن تأييده لاقتراح كامل حسين وابدى رغبته فى ان يكون اقتراحا مكتوبا حتى يناقش .. وذكر الأستاذ النجار ان لكامل حسين مقترحا سابقا رد عليه الدكتور منصور فهمى واقترح ضم المقترح والمذكرة الى المقترح الجديد وتوزيعهم . واستكملت المناقشة فى الجلسة الثلاثين وتقدم الأستاذان عبدالفتاح الصعيدى ومحمد خلف‌الله بمذكرتين فى الموضوع واقترح الدكتور السنهورى تشكيل لجنة لبحث الاقتراح تضم الرئيس ونائبه والأمين العام وأصحاب الاقتراحات ولكن طه حسين قال ان موضع الصعوبة فى اقتراح كامل حسين انه يلغى وجود المجمع اللغوى ، وقال كامل حسين ان عرض الألفاظ كلها على المجالس لمناقشتها لا ضرورة له ، والفكرة ان يضع المجمع الأسس للمصطلحات لا ان يناقش الألفاظ لفظا لفظا لأن هذا عمل لا ينتهى وقال الأستاذ عبد الفتاح الصعيدى ان كل ما يدعو اليه هو تفضيل اللفظ الواحد فى المصطلح على اللفظين ، والعربى على المعرب ، والمصطلح العربى القديم على الجديد واستخراج المصطلحات من الكتب العربية القديمة وهذا كله ليس الا تطبيقا لقرارات سابقة ورد الدكتور محمد مرسى أحمد بأنه لا يوافق على جدوى النظر فى المصطلحات القديمة .

وقال الدكتور طه حسين أن الأعمال المجمعية تستغرق أجيالا ، وقال الدكتور محمد أحمد سليمان : انه ليس من مهمتنا انشاء المصطلحات العلمية ، وعبر الأستاذ النجار عن ارتياحه لمنهج مجمل بالنسبة لمن يقومون بوضع المصطلحات ، وطلب أن يوزع النموذج على العلماء .

● ● **علم دراسة الأدوية أم الاقرباذين**

فى الجلسة التاسعة والعشرين لمجلس المجمع فى الدورة الثانية والعشرين عهد الى الدكتور كامل حسين بدراسة مقترح الدكتور عبد العزيز شرف الرامى الى استبدال كلمة علم الاقرباذين بـ « علم دراسة الأدوية » وفى الجلسة الأولى من جلسات المجلس فى الدورة الثالثة والعشرين قدم الدكتور كامل حسين تقريرا عما عهد اليه المجمع بدراسته نوجزه فيما يلى :

(١) وافق الدكتور كامل صاحب المقترح على أن الكلمة المعربة (الاقرباذين) لايدل اصلها الفارسى على كل ما يتناوله هذا العلم ، وان « دراسة الادوية » اعم واشمل .

(٢) ولكنى لا أرى فى هذا ما يدعو الى تغييرها ، لان التحديد الدقيق لمعانى أصول الكلمات المعربة ليس مطلوبا فى المصطلحات العلمية ، ومهما يكن من اصلها فقد اصبحت تدل على دراسة بعينها معروفة ولها معنى محدد لا يتعلق بمعناها الفارسى ، وتحديد موضوع بحوث هذا العلم يتم دون حاجة الى معرفة اصل اشتقاق الكلمة .

(٣) وفيما يتعلق باصطلاح (دراسة الأدوية) قال الدكتور كامل انها كلمة عامة لا يتعين بها موضوع علم الفارماكولوجيا وقد تتناول امورا لا علاقة لها بدراسة تأثير الادوية فى الجسم وهو اخص مايتناوله هذا العلم .

(٤) وانتهى الدكتور كامل الى القول بان الكلمة المعربة صالحة لان تكون مصطلحا علميا والاستعمال هو الذى يحدد معناها لا الاشتقاق .

وعقب الاستاذ عبد الوهاب عزام والدكتور احمد عمار فذكرا ان

اقرباذين اصلها يوناني لافارسي، وقال الدكتور احمد زكي ان أقرباذين تمثل معنى خاصا بخلاف دراسة الادوية فانها تحمل معنى عاما وليس الأقرباذين الا فرعا ، ودعا الى النظر فى مجموعة الكلمات المتعلقة بهذا العلم وهى :

pharmacologia,
pharmacognosy,
materia medica,
and pharmaceutical.

فوافقه الدكتور كامل قائلا ان المنهج الصحيح فى دراسة المصطلحات دراستها بالموضوع لا بالكلمة ، وقال « وقد شاعت الاقرباذين لـ Pharmacologia واستعملها الأطباء فى هذا المعنى ودخلت كتب التعليم » . واقترح الأستاذ احمد حمروش ان تحال الكلمات الأربع الى لجنة الطب لتقديم رايها فى شانها فوافق المجلس بعد ان قرر قبول مذكرة الدكتور كامل حسين .

●● أخطاء اللغويين ومفاهيم كامل اللغوية

في جلسة من جلسات المجلس في الدورة الثانية والثلاثين تقدم الدكتور كامل حسين ببحث عنوانه (أخطاء اللغويين) سنعرض له بعد قليل .

أما ما دفع كامل حسين الى تقديم هذا البحث فهو بحث للأستاذ الشيخ محمد علي النجار خطأ فيه كلمات لم ير الدكتور كامل تخطئتها على هذا النحو فنقب في بحث الشيخ النجار فوجد فيه ما يمكن مناقشته لغويا على أنه خطأ وتوصل الدكتور كامل الى أن أخطاء اللغويين أكثر من الأخطاء الشائعة .. فجمع هذه الكلمات وضمنها بحثه أخطاء اللغويين .

قدم الدكتور كامل بحثه بحديث عن عصر تحكم الأجرومية (ومحله موضع آخر من هذا الباب) وخلص الى أن اللغة ليست شيئا ذا بال اذا لم تكن عونا على التقدم الفكري ثم قال ملخصا أخطاء اللغويين :

(١) ان أكبر ما يباعد بين علوم اللغة والتفكير الحديث ان اللغويين يضعون المبنى فوق المعنى وانهم يعنون بالصيغة أكثر مما يعنون بالدلالة والواجب أن يكون تحديد المعنى غاية البحث في المبنى .

(٢) والخطأ الثاني منطق اللغويين في فهم عبارة (العربي لايخطىء أبدا) وهي في الأصل تدل على أن كل ما ورد عن عربي صحيح واللغويين فهموا انها تدل على أن ما لم يرد عن عربي خطأ « وشتان ما بين الفهمين فالفهم الأول فيه حرية وانطلاق وتوكيد لما هو صحيح فكل ما يشبه كلامهم صحيح ، والفهم الثاني يجعل كل ما لم يرد غير صحيح .

(٣) وثالث أخطائهم ظنهم ان الأفصح وحده هو الصحيح والأفصحية

تقوم على قصر استعمال عبارة ما على ما يليق بها ، والابتذال يقضى على صفتها الممتازة ، ولو قصر الناس كلامهم على الأفصح لقضى عليه بل ان استعمال الأفصح فيما لا يليق به يعد فسادا فى الذوق .

(٤) ورابع اخطاء اللغويين قصرهم الاشتقاق على صيغ ضيقة مقيدة بمصادرها ، وظنهم ان الاشتقاق يكون على هيئة بعينها تتعلق بباب فعل ما هى قيود لا داعى لها جعلت للفظ الواحد مدلولات مختلفة جدا وللشىء الواحد أسماء كثيرة جدا .

(٥) القول بأن غنى اللغة يقاس بما فيها من الفاظ كثيرة للشىء الواحد .

(٦) فهمهم معنى الدقة فى اللغة على انها اكتشاف أمور عويصة جدا ، والدقة فى الحقيقة (عند الدكتور كامل) يجب أن تكون تحديد المعنى الواجب التحديد واغفال ما يؤدى اليه الوصف البسيط .

(٧) ظنهم ان الاضافة الى اللغة اضعاف لها وان المحافظة عليها تكون بتقييدها ، بينما المحافظة على لغة ما لا تكون الا بجعلها مطابقة لتفكير أهلها .

(٨) اسرافهم فى تخطئة الناس وجدلهم حول ما هو خطأ .

وها نحن نرى الدكتور كامل فى النقاط الثمانية السابقة يتعرض لقضايا لغوية خطيرة : تعريف الصحيح والخطأ فى اللغة ؟ المبنى أم المعنى ؟ قضية الأفصح والصحيح ، قواعد الاشتقاق ، غنى اللغة وما هو ؟ الدقة فى اللغة وما هى ؟ الاضافة الى لغة اضعاف أم افادة ؟ فيعرض مفهوم اللغويين مبينا وجه الخطأ فيه ويخرج من وجه الخطأ الذى ذكره الى مفهومه — الصحيح — لهذه القضايا .

ثم يقول الدكتور كامل « ويجب علينا أن نقدر ان عهد تحكم الأجرومية فى العربية قد انقضى أو كاد وان علينا أن نسارع الى تنظيم يوائم عصرنا وهى دعوة الى تجديد النحو عمل لها كامل حسين بعد ذلك) . « **والتفكير اللغوى الحديث قوامه الوضوح والدقة فان لم نفعل فسيقوم عهد اللغة الجديد على الفوضى والاضطراب وتحكم من لا ذوق لهم ومن لا علم لهم بأصول اللغات والأساليب** » .

الا تجد فى نفسك الآن — كما أجد فى نفسى — تقدير بعد نظر هذا الرجل ؟

ويحدثنا الدكتور كامل حسين فى نهاية بحثه عن ظاهرة عجيبة : أن اللغويين جمعوا الأسماء أولا ثم بحثوا عن مسمياتها على حين أن الطبيعى أن يعرفوا الأشياء ثم يبحثوا عن كلمات تدل عليها ، ويذهب ليؤيد قوله بقولهم عن الواحد منهم انه كان يعرف كل كلمة تتعلق بالخيل .

وقد يكون فى قول الدكتور كامل هذا شيئا من المبالغة فى وصف الحقيقة ولكنه على كل حال ليس مبالغة كله .

والدكتور كامل يقول « ان اللغويين جمعوا كل ما سمعوه عن العرب على اختلاف قبائلهم ولهجاتهم وسموه اللغة العربية وهى مجموعة لغات تتفق فى أمور كثيرة وتختلف فى أمور كثيرة فلم يكن الرجل من تميم ينطق بالفعل يوما من باب نصر ويوما من باب فتح » . نعم جمع اللغويون ، ولكن هذه اللهجات لم تختلف اختلافا يجعلها لغات مختلفة وانما هى لهجات مختلفة للغة واحدة (وظنى ان الدكتور لم يقصد بكلمة « لغات » هذه الا الى « لهجات ») .

وضرب الدكتور كامل أمثلة لأخطاء اللغويين فى بحثه (سنوردها فيما بعد) وأحال المجلس البحث الى لجنة الأصول لدراسته وابداء الرأى فيه وفى الدورة الثانية والثلاثين تناقش المجلس حول (منطقة) وهى واحدة من الأمثلة التى أوردها الدكتور كامل فى بحثه ، وأعرب الدكتور كامل عن سعادته لرأى الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد (سنورده فيما بعد) وعن أمله فى مناقشة الفاظ أخرى يقصد تلك التى صدرها فى بحثه (أخطاء اللغويين) وطلب الأستاذ زكى المهندس منه تحضيرها فقال الدكتور كامل انها فى بحث أخطاء اللغويين ، ولكن منعنى من تقديم البحث وفاة الشيخ النجار (وكانت هذه الكلمات من بحث للشيخ النجار خطأ فيه مثلها كما قدمنا) .

وفى لجنة الاصول تقدم الشيخ عطية الصوالحى والأستاذ عباس حسن بمذكرات متعددة حول الكلمات التى ضمنها الدكتور كامل بحثه (أخطاء اللغويين) ... وتناقش أعضاء اللجنة (الاستاذ زكى المهندس، الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد ، الشيخ الدكتور عبد الرحمن تاج ، الدكتور مهدى علام ، الاستاذ عبد الحميد حسن ، الشيخ عطية الصوالحى ، الاستاذ عباس حسن) فى آراء الدكتور كامل والشيخ عطية والاستاذ عباس وانتهوا الى قرارات بشأنها .

وسنعرض الآن الأمثلة التى ذكرها الدكتور كامل فى بحثه معقبين عليها بقرارات لجنة الأصول فيها ·

(١) استنكر الدكتور كامل عدول اللغويين بكلمة متحف الى الضم عن الفتح واحتجاجهم بأن « تحف » لم ترد، واحتج الدكتور بأنه اذا أتى الفعل لازما ومتعديا ، فاسم المكان يشتق من معناه اللازم « وبان الحاجة التى دفعت العربى الى صياغة فاسدة أو شاذة ليست أشد من حاجتنا الى صوغ كلمة تدل على مكان تكثر فيه التحف » ·

ونلاحظ هنا ان الدكتور كامل يحتج لرأيه بالبرهانين النقلى والعقلى فيذكر القاعدة التى يمكنه بها ان يخرج رأيه ثم يدعو العقل الى التفكير · ويستطرد الدكتور كامل ليقول أن الكلمات المهجورة أشبه بورق أهل الكهف صحيحة ، ولكنها غير قابلة للتداول ، وهو تشبيه وسم الدكتور كامل به الكلمات المهجورة غير مرة · ، ومتحف ليس لها من العربية الا مظهرها » ·

وقد انتهت لجنة الأصول الى اقرار متحف بالفتح بناء على قرار المجمع بجواز الاشتقاق من أسماء الأعيان ، واقراره قواعد الاشتقاق من الجامد ، وما تراه اللجنة من التوسع فى جواز الاشتقاق من اسم العين دون تقيد بالضرورة العملية ، واستئناسا بأن وجود الثلاثى المزيد من الفعل يشعر بوجود المجرد منه · واخذت اللجنة من (تحفة) فعلا ثلاثيا من باب (نصر) واخذت من مصدره اسم مكان على وزن مفعل بفتح الميم والعين ، وقال الشيخ الصوالحى أن متحف أخذت من أتحف (أى أعطى تحفة وأول ذلك بانك اذ ترى الرجل الجمال فكأنك أعطيته تحفة ، واعترض الدكتور كامل على تأويل الشيخ عطية بقوله ان العرض غير الاعطاء ، واعترض كذلك بأنه لم يجد أن أفعل المتعدى لا يجىء منه اسم مكان أما مرساها فى « مجريها ومرسيها » فهى مصدر وكذلك مدخل فى « ندخلكم مدخلا كريما » فهى مصدر ، وقال الشيخ محيى الدين بانهما اسما مكان بلا شك وأصر الدكتور كامل على أنها مصدران ، فالتفت الدكتور مدكور الى المؤتمر بأخذ موافقته على قرار لجنة الأصول بشأن ضبط متحف فوافق المؤتمر

(٢) عاب الدكتور كامل حسين على اللغويين تعليلهم ضم الدال فى حدث فى قولنا ما قدم وما حدث بأنه للاتباع ، وذهب الدكتور كامل

الى اننا لو نطقنا بالفتح لدل على الحدوث لا الحـــداثة وهى المعنى المراد ٠

وقالت اللجنة ان قول الدكتور كامل بأن هناك بابين لحدث لا سند له فى نصوص اللغة ولا فى شواهد الاستعمال وقد أثبت اللغويون حدث من باب نصر وذكروا لمصــدره الحدوث والحداثة معـا ، على انه يتسنى تخريج استعمال (حدث) بالضم باعتبار انه من باب تحويل الفعـل الى فعل بضـم العين للالحاق بالغـرائز ، وتعفى أنفسنا هنا من المناقشات التى دارت حول جواز هذا الالحاق ٠

(٣) وتناول الدكتور اعتراض اللغويين على (مبرر) واستبدالهم (مسوغ) بها مع انها عربية فى صيغتها ، وقال ان هناك فرقا بين التسويغ والتبرير ، فالتسويغ هو ما تقوله قبل أن تعمل عملا ما ، والتبرير ما يكون بعد وقوع الأمر

ورأت اللجنة اجازة ما شاع من استعمال التبرير فى معنى التسويغ استنادا الى قرار المجمع فى قياسية تضعيف الفعل للتكثير والمبالغة ٠

(٤) وتعرض الدكتــور كامل فى بحثه لقصر اللغويين اســتعمال تعبير (تقدم الى فلان بكذا) على الأمر مستندين الى أن هـــــذا التعبير استعمل فى عصر المأمون للدلالة على الأمر يأمر به الخليفة عمله فقال ان هذا التعبير ليس من الأمور التى لها معنى أبدى لا يتغير على الزمن ٠

وأقرت لجنة الأصول استعمال التعبير فى المواضع الثلاثة : أن يكون المقـــدم والمتقدم اليه متســـاويين ، أو أن يكون المتقدم أدنى أو أعـــلى ٠

(٥) وذكر الدكتــور كامل حســين ان طبيعـة اللغــات تأبى أن يتعثر المتكلم دائما ليتبين حقيقة الموقف فى مثل «مصائر» والمتكلم ينطق بها هكذا مثل ماينطق بعمائر «واللغويون يخطئونه» وكان الدكتور كامل هنا حريصا على أن يطبق رأيه الذى يذهب فيه الى أن نبعد عن التفعيل عند الحديث عن الصيغ الصرفية » ٠

وكان قرار اللجنة انها ترى جواز الحاق المد الأصلي في صيغة «مفاعل» بالمد الزائدة في صيغة فعائل ، وعلى هذا يجوز في عين مفاعل قلبها همزة سواء كان أصلها واوا أو ياء فتقول مكايد ومكائد وتقول مغاور ومغائر .

(٦) وفيما يتعلق بأسلوب سواء واشتراط اللغويين استعمالها مع الهمزة وأم احتجاجا بقوله تعالى « وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم » قال الدكتور انه لا ينتظر من العامة أن ينسجوا على هذا النسج الرفيع والذوق يأبى أن يكون الأسلوب واحدا حين يتعلق الأمر بالوعظ المنزل أو بكلام الأسواق .

وقد اجازت اللجنة استعمال سواء مع ام ومع او بالهمزة وبغير الهمزة اعتبرت الأساليب الأربعة صحيحة كما أشار الدكتور كامل.

(٧) ودعا الدكتور كامل الى استعمال التقييم بمعنى التقويم أى بيان القيمة .

وقالت اللجنة انه يجوز أن يقال قيم الشيء تقييما بمعنى حدد قيمته للتفرقة بينه وبين قوم الشيء بمعنى عدله « وقد جاءت المعاقبة بين الواو والياء المشددتين للتخفيف فى أمثلة كثيرة من كلام العرب يستأنس بها فى قبول ذلك » .

(٨) أما كلمة « منطقة » التى أرادها اللغويون بالكسر لأنها وردت هكذا فى الدلالة على الحزام تتمنطق به المرأة فقد قال الدكتور كامل حسين رأيه فيها انها بالفتح عند الدلالة على منطقة الحديد بأسوان مثلا .

وقد تمت مناقشتها فى مجلس الدورة الثانية والثلاثين وعبر الدكتور كامل حسين عن سعادته باجابة الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد على سؤال « مم اشتقت منطقة بالفتح ؟ حين أجاب بقوله « مم اشتق منه منطقة بالكسر » .

وأورد الدكتور كامل حسين فى نهاية بحثه طائفة من الأسماء التى أوردها اللغويون للبن بلغ عددها مائة وستين لفظا، وعلق بقوله أنه من غير المعقول أن يكون كل عربى فى البادية يعرف مائة وستين حالة للبن وانما ذلك مثل ما فعلوا بالحب حين يمس شغاف القلب ولا أحسب أحدا يعرف بالضبط متى يكون ذلك ؟

●● السليقة

فى الجلسة التاسعة من جلسات مؤتمر الدورة الثامنة والعشرين القى الأستاذ عبد الله كنون بحثا عنوانه (السليقة عند العرب المحدثين) وعقب عليه الدكتور كامل مبديا بعض آرائه فيما يتعلق بالسليقة ، كذلك تضمن بحثه (حاجتنا الى معجم مصفى) بعض الاشارات الى مفهوم السليقة عنده ، وفى العدد الثانى والستين من (المجلة) الصـــادر فى اغســـطس ١٩٦٤ نشر الدكتور كامل حسين بحثا بعنوان أزمة الفصحى . . السليقة اللغوية ، وفى كتابه اللغة العربية المعاصرة تعرض كامل حسين لمفهـــوم السليقة عند القـــدامى كأول المســـلمات البـــالية ثم أعاد نشر آرائه فى الســـليقة « التى نشرها فى (المجلة ١٩٦٤/٨) مع تصرف يســـير فى الفقرات وترتيبها » .

ونعرض فيما يلى اتجاهات كامل حسين فيما يتعلق بالسليقة :

١ ـ يعرف كامل حسين السليقة عند المحدثين بأنهـــا : القدرة على أن يتكلم الانسان لغته صحيحا دون أن يتذكر قواعدها (المجلة ٦٤/٨) أو : قدرة المتعلم على معرفة الصواب فيما يكتب وما يقرأ دون حاجة الى التفكير فى القواعد التى وضعت لذلك .

٢ ـ ويرى كامل حسين ان السليقة ليست الا التعود ذلك أن السليقة تقوم على المحاكاة والتعود ، ومن المستحيل أن تكون السليقة بالمحاكاة فى هـــذا العصر ولابد أن نتعلم قواعد اللغـــة حتى ننطق بهـــا صحيحة .

٣ ـ ويتعرض لتعريف السليقة عند القدامى وخاصة فى المعاجم العربية ويتعجب من القائلين بأن السليقة خاصة بأهل البادية وكأنمـــا فى البادية شيء يقوم الألسنة .

٤ ـ والسليقة تتعلق بالمتكلم والسامع معا فان فسـدت عند أحدهما فسدت بينهما ٠

٥ ـ ويلفت كامل حسين النظر الى أن الكاتب يكتب كتابة صحيحة حتى اذا قرأ ما كتب أخطأ ، وهـذه حال غريبة أصلها اننا استطعنا أن نوجد سليقة بالنظر تحدد لنا الصواب عند الكتابة وهى مع ذلك لا تمنعنا من الخطأ عند الكلام ٠

٦ ـ ولا سبيل الى جعـل العربية سليقية الا بتغيير الكثير من قواعدهـا التى لا يمكن أن تكون سليقية ولو كانت سهلة ، والابقاء على القواعد التى يمكن أن تكون سليقية ولو كانت صعبة ٠

٧ ـ ولأن السليقة ليست الا التعود فهى حالة سيكولوجية لهـا أسس تجريبية معروفة ، ولا يكفى فى تعود العادات الحسنة شدة الرغبة فيها ولا الحماسة لها بل لابد من مقومات العادات .

٨ ـ ومقومات السليقة عند كامل حسين :

(١) تتحقق السليقة بسهولة واضحة اذا كانت الكلمة الفصيحة مخالفة تماما للعامية مثل سنمار ، معد يكرب ٠

(٢) وكذلك الحال فى الكلمات التى تتشابه فيها العامية والفصحى٠

(٣) الاطراد من أكبر مقومات السليقة ألا ترى اننا نكسر ياء المضارع فى العامية ومع هذا لا يصعب على أصغر التلاميذ فتحها ٠

٩ ـ ويعدد الدكتور كامل من معوقات السليقة :

(١) أن تكون الكلمتان الفصيحتان متشابهتين ثم تختلفان فى حرف واحد كالفرسان والولدان ٠

(٢) أن يكون للكلمة الواحدة صورتان صحيحتان كالرشوة ٠

(٣) أن يكون للفعل بابان ٠

(٤) القول فى الاعراب بالوجهين ٠

(٥) القيـاس خصوصا اذا كان مشروطا بشروط لابد أن يذكرها المتكلم قبل أن يصـح القياس (وهنا لا بد من لفت النظر الى

الفرق بين الأطراد والقياس) « هذه الوقفة الفكرية الصغيرة كافية جدا فى تعويق السليقة » ٠

(٦) الألفية أكبر نكبة على السليقة ولا سليقة لمن حفظوها ٠

(٧) اصرار اللغــويين على التمثيــل بالتفعيــل ٠٠ من النكبــات الصــغرى ٠

(٨) ان يكون بين الكلمتين فرق بسيط غير مشهور كما فى القزم ، الحفــن ٠

١٠ ـ والسليقة ليست شيئا فى طبع العرب وانما هى امتداد وحفــظ وكلاهما يجوز عليه الخطأ ٠ « وقد كانت رخصة ثم أصبحت قيدا » يشير الدكتور الى أولئك الذين يحتجون لقواعد العربية الصعبة بأنها ترد بالسليقة ٠

١١ ـ الأمر فى القــواعد النحوية شبيه بقواعد المرور تنفذها بيسر اذا كانت بسيطة كما هى ، أما اذا قيل لك انه لو كانت الاشارة أمامك خضراء وعلى يمينك ٠٠ وعلى يسارك ٠ ٠ وبعدها ٠٠ فلن تستطيع أن تتبع قواعد المرور ٠ فاعراب غير مثلا لا يمكن أن يكون سليقيا ، اسم المكان من المكسور عين مضارعة وجنس العدد « لا أرى كيف يكون ســليقيا الا فى قوله تعالى « **سبع ليــال وثمانية أيــام**» لأننا حفظناها هكذا فى القرآن ٠

١٢ ـ وخلاصة القول فى هذا الموضوع ان كامل حســين الخبير بمواطن الشكوى من العربية وبأسرارها يرى علاجها على ألسنة الناس كامنا فى حل بسيط هو « التسليق » ولهذا يدعو الى تطويع القواعد بحيث تصبح سليقية لا الى تجديدها أو تسهيلها ٠ وهو أمر « يلتقى فيه المحافظون وحجتهم لها قيمتها ، والمجددون وحجتهم واضحة » ٠

الفصـــل السادس

●● المعـــاجم

ذكرنا فى الباب الأول ان كامل حسين ضم الى لجنة المعجم الوسيط عقب استقباله • وقد درس كامل حسين المعاجم العربية – كمـــا حدثنى أستاذنا الدكتور مدكور – دراســة لا تقل عن دراسة المتخصـــصين فى المعاجم • كما كان الحديث عن (معجم حديث) واحد من البحوث الأربعة عشر التى تضمنها بحثه « أصول علم اللغة » •

وفى الجلسة التاسعة من جلسات مؤتمر الدورة الرابعة والثلاثين ألقى الدكتور كامل حسين بحثا عنوانه (حاجتنا الى معجم مصفى) •

وفى الفقرات التالية عرض لآراء كامل حسين فى هذا الموضوع :

يقرر الدكتور ان غاية المحدثين من البحث فى المعاجم هى أن يحدد الكلمة التى تدل بالضبط على المعنى الذى يريدونه » • ولكن « أحـــدا لا يستطيع البحث فى المعاجم الا اذا كان من المتخصصين فى اللغة وهـــو وضع مقلوب » • ويذهب الدكتور كامل حسين فى نهاية مقدمته الأخاذة – كالعادة – الى القول ببســاطة شديدة بأن « **ما فى المعاجم لغــة اللغويين لا العرب** » •

أما عيوب المعاجم التى انتهت بها الى هذا الوضع فهى :

(١) ألفاظ معجمية لا يمكن أن تكون من العربية ، والمعـــانى المرذولة وألفاظها التى تمثل نسبة ما من ألفاظ المعاجم يجب ألا تذكرهـــا المعاجم أبدا •

(٢) وطائفة كبيرة من الألفاظ التى تتعلق بالابل وأوصافها وبخاصة تلك

التي على وزن أفعل مثل (أعاف الرجل) أى عافت ابله عن المـاء هذه الطائفة لم تعد تعني شيئا فلا داعى لها ٠

(٣) التفريع عن المعانى الأصلية والاستطراد الى ذكر أشياء لامحل لها من القبول ٠

(٤) الالفاظ التى يكنى بها عن المعانى الجنســية لا داعى لذكرها ويجب ان نكتفي بالألفاظ الصريحة عند الحـديث عن معنى من المعانى لا أن نحمل اللفظ معنا جنسيا فوق طاقته مثل قولهـم فى (أتى) : — اتى المراة .

(٥) التخصيص المفتعل والتعميم حـين يجب التخصيص وكلا الأمرين مفسدة لدلالات الالفاظ ٠ ألا ترى الى قولهم فى معنى الجيوب أنهـا الأرض الغَلّيظة من الصخر لا من الطين (غاية التخصيص) ثم يقولون أو هى الأرض عامة (غاية التعميم) ٠

(٦) المعانى العشرة التى ابتدعها الصرفيون لاضافة الهمزة الى أول الفعل ، وما نتج فى المعاجم عن أخذ واضعيها بهذا الرأى لعلمـاء الصرف — والهمزة لا تدل (عند الدكتـور كامـل) الا على معنى واحــد هو تعديه اللازم ٠

(٧) كثرة الصيغ المختلفة للكلمة الواحدة ذات المعنى الواحد ٠

(٨) الأبواب المتعددة للثلاثى

(٩) غموض عبارات المعاجم كقولهم « أبض العرق أبضا أى تحرك تقول « العروق الآبضات » ٠

(١٠) التفسير بالسياق : والدكتور كامل يقصد به تفسيرهم الاربة بالحاجة الفرج ، الدين ٠٠ الخ « وهو ليس تفسيرا بالسياق وانما كما قال الدكتور ابراهيم أنيس فى تعقيبه :٠ « التفسيرات بالهوى »٠

(١١) الشواهد ، وأكثرها مصنوع يجب حذفه واستبداله بشواهد ممـا كتب كبـــار الادبـاء فى كـل عصر « فليس هنـــاك عصر بعينيه للاستشهاد » ٠

(١٢) الاضداد : ان لم نستطع تحديد معنى داحد للفظ فلتسقط الكلمة بكلا المعنيين ٠

ثم يذهب الدكتور كامل لينبه الى الناحية الايجابية التى يريدها فى المعجم بعد أن نبه الى نواح سلبية كثيرة فيدعو الى :

(١) البحث فى مدلول الكلما ت وما يكون بينها من فروق : فـلا بد من التفريق بين الأسر بالفتح والأسر بالكسر ثم يفـرق بين أى والهمزة وبين يا فيقول أن أى ، والهمـزة تكونان للمناجـاة ، اما يا فتكون للنداء .

(٢) تخصيص المصادر العديدة للفعـل الواحد بمعان تقصر عليهـا دون نظيرها : فالأوب يكون من الخطأ والاياب من السفر .

(٣) توحيد اللهجة للكلمة متعددة الصيغ .

(٤) اختيار الجمع الأقرب الى الذوق من الجموع .

(٥) تحديد مصدر واحد بمعنى واحد للفعل الواحد (وهذا لا يتعارض مع (٤)) .

(٦) الاقتصار على باب واحد للفعل .

والدكتور كامل يريد معجما حديثا فى تفكيره وتعاريفه واختيـاره للألفاظ وتحديده لمعانيها .

وقد توسم اقتراحات الدكتور كامل عند تنفيذها بأنها تلجـأ الى « التحكمية » ولا يرى الدكتور بأسا فى ذلك فاللغة كلها تحكمية .

وطموح الدكتور فى المعجم الحديث لا يلبيه المعجم الوسيط فهـو يطمع فى معجم خال مما ينفر الناس منه ، فيه من الشواهد ما يفيد الكاتب والمتأدب .

واخيرا فان كامل حسين لا يريد أن يعلم بالمعجم الطالب فقط ولكنه يريد أن يتعلم منه المتأدب والمثقف .

●● كتابة الاعلام الأجنبية بحروف عربية

قدمنا فى الحديث عن المصطلحات أن الدكتور كامل حسين لـم يكن يوافق على اضـــافة ألف حل لمشكلة البــدء بالســاكن ، وهو أمر يتعلق بهذا الموضوع فلزمت الاشارة ثانية ٠

وفى الدورة الثامنة والعشرين للمجمع تعرض المجلس لموضـــوع « كتابة الاعلام الأجنبية بحروف عربية » واشترك كامل حسين فى المناقشة فوضع الأعضاء أمام بدائل ثلاثة :

(١) التشكيل وهو بسيط معقول ولكنه غير عملى ٠

(٢) كتابة العلم دون شكل أو حركات بشرط أن نكتب بجانبه العلم مرة أخرى بالحروف اللاتينية ، وبذلك نظل عالة على الاعلام الأجنبية ٠

(٣) الكتابة بالطريقة التى اقترحها وهى تمثيل الحركات بحروف ٠

وكان المجمع قد قرر أربعا وعشرين قاعدة من قبل فى هــذا الموضوع وكانت هناك ثلاث عشرة قاعدة جــديدة تنتظر الاقــرار ، وأحس كامــل حسين من زملائه تقاعسا عن الأخذ باقتراحه وانهم يميلون الى اقرار القواعد الجديدة مما لا يساعد على حل الصعوبة فقال « نحن نريد طريقة منطقية للقارىء العربى يستطيع بها أن ينطق العلم الأجنبى صحيحا ٠٠ ولقــد قضيتم على صلاحية العربية لأن تكون لغة للرياضة حين رفضتم ما اقترح بصدد قواعد العدد ، وستقضون على صلاحيتها لأن تكون لغـــة للجغرافية والتاريخ وأسماء الاعلام اذا قررتم كل هذه ٠

وقال الشيخ النجار أن رأى كامل حسين يوافق رأى سيبويه ، أما الدكتور محمد مهدى علام فكان يرى أن نكتب طوعا للنطق لا لكتابة الحرف

فى لغته كما يقول الدكتور كامل : وكان كامل حسين يقول ان الصحة تجود بأكل العسل الا انه لا يمكن أن يكون الطعام الدائم لجميع الناس هو العسل فالتشكيل أحسن الحلول حقا للمنطق الصحيح الا انه يستحيل أن تشكل جميع حروف الكلمات . وكان يرى أن نتفق على الحروف التى تكتب بها الاعلام أولا ثم على كيفية نطقها بطريقة واحدة .

ولما تعرض مؤتمر المجمع فى دورتيه الرابعة والثلاثين (فى الجلسة الرابعة) والخامسة والثلاثين فى (الجلسة الثامنة) لكتابة الحرف الفرنسى (U) فى العربية قال كامل حسين انه يصعب على غير الفرنسيين نطقه ويعرف الأجانب فى فرنسا من طريقة نطقهم لهذا الحرف ولكن ليس معنى ذلك ترك الأمر فوضى بين الياء والواو ولابد من طريقة واحدة سواء بالواو أو بالياء « وان كنت أفضل الياء » • وخلاصة القول فى رأى الدكتور كامل انه كان يريد لنا طريقة عربية مستقلة تقوم بذاتها فى كتابة الاعلام الأجنبية لا تحتاج الى ما يصعب تحقيقه (كالشكل) ولا نتقيد بما يكون عند أهل اللغة الاصلية من نطق لانستطيعه •• وهى فى الوقت نفسه محددة غير قابلة للتأويل ولا للتبديل •

●● رسم الهمزة

ودعا الدكتور كامل فى الجلسة الثانية والعشرين للمجلس فى دورته الثامنة والعشرين الى أن :

« **ترسم الهمزة على الحرف الذى تؤول اليه اذا لانت فاذا لم يستسغ الذوق أن يقلبها حرفا لينا رسمت على نبرة** » ، ويكون تطبيق هذه القاعدة على النحو التالى :

(١) ترسم الهمزة فى أول الكلام ألفا (ولا خلاف فى ذلك) ٠

(٢) الهمزة فى مثل (لئن ، لئلا ، لايلاف) تعد فى أول الكلمة فيطبق عليها ما جاء فى (١) ٠

(٣) ترســـم الهمزة على الحرف الذى تؤول اليه اذا استساغ الذوق أن يلحقها اللين وهذا واضح فى (فأس ، وبئر ، ومئة ، وخطيئة ، يجرؤ ، ويبدأ ، ويستهزىء ، وقرأ ، ويقرأ ، وسأل ، ويسأل ٠

(٤) لا يغير من رسم الهمزة ما يلحق الكلمـات من زوائد عارضة : وعلى هذا تكتب قرأوا ، يقرأون ، يستهزئون ، يجرؤون ، بريئون ، مشيئة ٠

(٥) فاذا لم يستسغ الذوق أن يقلبها حرف لين كتبت على نبرة كما فى بئر ، شئون ، هيئـة ، على أن أكثر هذه الكلمـــات يمكن أن يلين الى الياء بشىء من العسر وهو ما يسوغ كتابتها على الياء ٠

(٦) وتسرى هذه القواعد على الهمزة التى تقع فى أواخر الكلمات ، ان لانت كتبت على ما تؤول اليه كما فى هزؤا ، امرؤ ، شىء فان لم تلن كتبت مفردة كما فى جزء ٠ ولا يتغير رسم الهمزة أيضا بمـــا يضاف الى الكلمة من زوائد فتكتب جزءين هكذا ٠

(٧) لا بأس من وجود بعض الشواذ وهى قليلة العدد ولا تغير القـاعدة العامة فى شىء ٠

هذا وقد تقرر احالة هذا البحث الى لجنة الأصول ٠

●● أخطاء الاملاء

كان الدكتور يدعو الى اصلاح الاملاء وكان يرى أنه « أمر هام جدا ، لا يجوز أن نتهاون فيه بعد الآن » . وقد نشر الدكتور فى كتابه « اللغة العربية المعاصرة » ص ۱۱۹ – ۱۲۳ تجربة له أجراها على طلبة من الثانوية العامة – القسم الأدبى – المستوى الرفيع فى اللغة العربية واختار لهـــم فصلا من مقدمة ابن خلدون ، وهو فصل البيعة (حوالى ۲٦٠ كلمة) وذكر نصه فى كتابه وخرج من تجربته بالنتائج الآتية :

(۱) القراءة الصامتة التى لا تحتـــاج الى تحقيق بنـــاء الكلمة ولا الى صحة اعرابها هى أسهل الطرق الى فهم المعنى واستيعاب المراد .

(۲) حصر الدكتور الأخطاء فى القراءة المسموعة فكانت نسـبة الخطأ فيها أكثر من عشرة فى المائة من الكلمات على أحسن الحالات « وهى نسبة عالية جدا تدل على اخفاق الوسائل المتبعة فى تعليم الفصحى كما تعلم الآن » .

(۳) صنف الدكتور الأخطاء تصنيفا علميا الى :

(أ) أخطاء بناء الكلمة : مثل يقصد بضم الصاد بدل كسرها .

(ب) أخطاء رفع وجر المنصـوب : مثل « عقدوا ، عهدوا » فيأخـذ به نفسـه .

(جـ) أخطاء المجرور بحرف الجر : مثل من رعيته بضـــم التاء .

(د) أخطاء نصب وجر المرفوع : مثل ومنه ايمان بالكسر بدلا من الضـــم .

(هـ) تفادى الاعراب بالتسكين .

(و) أخطاء أخرى عامة .

(٤) ولما أجرى الدكتور التجربة على أحد خريجى كليات العلوم « وجدته لا يستطيع أن يقرأ ، أو يفهم شيئا مما جاء فى هذا الفصل – وهذا يدل على أن الطالب يفقد قدرته على القـــراءة الصـــحيحة بمرور الزمـــن » .

●● تاريخ النحو :

قد يكون طبيعيا أن نتحدث عن كامل حسين واهتمامه بتاريخ العلوم عند العرب وبخاصة الطب ، أو بتاريخ العلم عموما ، والأمر الذى لا يقل فى طبيعته عن الأمر الأول وان لم يشتهر بعد هو تاريخ كامل حسين للنحو العربى • ففى بحثه (أصول علوم اللغة) الذى ألقاه أمام مجمع اللغة العربية فى دورته السادسة والعشرين والذى ضم أربعة عشر بحثا فرعيا كانت « نشأة النحو » موضوع واحد من هذه البحوث • وفى كتابه (اللغة العربية المعاصرة) أفرد كامل حسين لتاريخ النحو بابا وضع له عنوان (طبقات النحويين) •

وسنعرض فى الفقرات التالية لتاريخ النحو عند كامل حسين :

يحدثنا كامل حسين عن جوهر الطريقة العملية حين أخذ علم النحو طريقه الى الحياة والتى امتد أثرها بالطبع الى النحو وعلوم اللغة فيقول: قام هذا الجوهر على أن يختار العلماء بعض الظواهر الطبيعية (أو اللغوية) ويستخلصون منها قاعدة عامة ، ثم لا يلبثون أن يتبينوا أنها لا تنطبق على عدد كبير من الظواهر الأخرى فيضعون لها تفسيرات تقوم على فروض كلها مفتعلة لا مسوغ لها من الواقع ثم يمعنون فى التأويل والتعليل ابقاء على الكلية الأولى •

وعلى هذا كان مذهبهم « ايجاد كليات تجعل أكثر الصواب خطا تتبعها تأويلات تجعل أكثر الخطأ صوابا » •

ويرى كامل حسين ان الناحية الاجتماعية كان لها أثرها فى تعقيد النحو وكثرة مسائله ذلك أن النحويين رأوا أن يأخذوا بأساليب غيرهم من العلماء ابقاء على مكانتهم واخذوا يحققون فى رواة اللغة من وثق منهم ومن لم يوثق كما كان يفعل أهل الحديث .

ويمضى الدكتور كامل حسين فى بحثه (أصول علوم اللغة) يحدثنا عن بعض مباحث النحويين ليبين طريقتهم فى التفكير ويضرب لذلك الأمثال ومن هذه الأمثال « ان الأصل فى المبتدأ الا يكون نكرة ويجوز ذلك عند ابن مالك فى أربعة مواضع ويجوز عند ابن عقيل فى أربعة وعشرين موضعا وهو يقول ان غيره يجعلها ستة وثلاثين » . ثم يلتفت الدكتور كامل حسين بذكائه المعهود ليتساءل « فهل يراد من الكاتب أو المتكلم قبل أن ينطق المبتدأ أن يذكر المواضع الأربعة والعشرين ليعلم أيجوز له ذلك أم لا يجوز ؟

والخليل بن احمد عالم العربية الأشهر (ت ١٧٠ هـ) يمثل الطبقة الأولى من النحويين خير تمثيل ، ويحدثنا كامل حسين عن هذه الطبقة فيقول ان همها لم يكن وضع نظام يهتدى به من يجيء بعدهم من القراء والكتاب وانما كان غرضهم تحليل المادة اللغوية التى عرفوها تحليلا يفسر نظامها ويشرح خصائصها بحثا عن الحقيقة لذاتها ومن هنا أسرفوا فى التحليل واهملوا التركيب مع انه هو العقلية المتممة للتحليل .

« وكان طبيعيا حين أرادوا أن يكشفوا عن قواعد اللغة ونظامها أن يجمعوا كل ما يمكن جمعه وأن يدونوا كل ما يسمعونه عن العرب مشافهة مهما يكن حظهم من الذكاء أو الفصاحة أو العلم وظنوا أن كل ما سمعوه من العرب موثوق به ، وكانت الثقة بهذه المصادر خطأ وقع فيه النحويون وان كان لهم فيه بعض العذر واستمر هذا الخطأ يؤثر فى النحو قرونا عديدة » .

وينتقل الدكتور كامل الى الحديث عن نشأة التدوين واضطرار علماء اللغة الى الاعتماد على الشعر الجاهلى من حيث هو مصدر من مصادر اللغة . وللدكتور كامل موقف من قضية الاستشهاد بالشعر أفردنا له فصلا خاصا .

ويذكر كامل حسين أن نمو اللغة العربية تم على نحو غريب فى نمو اللغات ، فاللغات تكون سماعية مضطربة مختلطة أول الأمر ثم يكتب الأدباء والمفكرون كتبا يستحسن الناس بعض ما فيها فيحتذونه ، ثم يجيء بعدهم آخرون من هذا الطراز يحددون الصيغ والأساليب والقواعد ثم يقرهم على ذلك الذوق العام عند أهل هذه اللغة ، ثم يجيء علماء اللغة فيضعون قواعدها مسترشدين بما كتبه الكتاب واستحسنه الناس ، وتصبح هذه القواعد أصلا تتبعه الأجيال اللاحقة ولا تزال هذه القواعد تزداد استقرارا

واطرادا وبساطة وهذا هو تاريخ نمو كل فن ، أما اللغة العربية فقد أنعم الله عليها بنزول القرآن ــ وهو أكبر حدث فى تاريخها لا نزاع ــ فبلغت العربية بين عشية وضحاها أوج مجدها وتمام نموها وعرفت أرفع أساليبها .

ويلقى الدكتور كثيرا من الشك على ما أخذ به اللغويون مما قاله الاعراب « ولا أظن أحدا يقول ان هذا يدل على غنى اللغة بل هو فى الواقع دليل على التخبط الذى أصاب اللغة فى أول عهدها بالتدوين » .

ويخلص الدكتور فى حديثه عن (الطبقة الأولى) من النحاة الى القول بتشابه تفكير الطبقة الأولى فى جميع العلوم ويمثل لذلك ● أما كتاب سيبويه فهو من الكتب العالمية التى عرفت فى العلوم القديمة ككتاب أرسطو فى الطبيعيات ، وكتاب اقليدس فى الهندسة ، وكتاب بطليموس فى الفلك (المجسطى) ، وكتاب أبقراط فى الطب وفيه تجلت قدرة سيبويه على التأليف « وهذه الكتب الكاملة ــ التى اعتقد الناس انها غاية العلم ــ كانت سببا فى منع العلوم القديمة أن تتقدم ، وظل الناس يؤمنون بعظمة هذه الكتب ومؤلفيها ، واقتصر التابعون لهم على الشروح المستفيضة التى لا تتناول الا التفصيلات » حتى كان علماء اللغة يقولون لكل من أراد الاجتهاد ليس هذا فى كتابه سيبويه فلا محل للاجتهاد » .

والدكتور كامل يعرض تاريخ النحو من وجهة نظره العامة فى تاريخ العلوم المقارن وهى صحيحة الى حد كبير جدا ، وتراه مثلا يقول « على أن تاريخ العلوم المقارن يبين لنا انه يأتى وقت يكسر فيه العلماء الاغلال التى وضعتها هذه الكتب فى سبيل الاجتهاد وتنشأ مناهج جديدة فى التفكير تخالف ما جرى عليه العلماء وكانت هذه هى السبل الوحيدة التى تقدمت بها العلوم فى مختلف الميادين » .

ويأتى دور الطبقة الثانية طبقة التابعين وتفكيرهم متشابه فى كل العلوم حرصوا على البقاء فى الحدود التى وضعها شيوخهم ، وساعدهم ذكاؤهم على أن يوفقوا بين الكليات التى وضعها أسلافهم وبين ما لاقوه من صعوبات فى تطبيق الكليات ومن أبرزهم المبرد . وعهد الطبقة الثانية هو عهد تحكم الاجرومية ويعرف الدكتور هذا العهد فيقول : « يدرس فيه الناس علوم اللغة على انها غاية تراد لذاتها بل كان بعضهم يعدها غاية العلم » .

ويستطرد الدكتور الى الحديث عن بيان النزعة الفلسفية فى النحو فيقرر انه كان طبيعيا أن تؤثر الفلسفة التي عرفها العرب وتعمقوا فى

بحوثها فى النحو ولعل اعجاب ابن جنى بالفلسفة اليونانية كان سببا فى محاولته أن يجعل للنحو أصلا فلسفيا وكتابه « الخصائص » شاهد على ذلك ·

ويقول الدكتور كامل حسين « كثيرا ما تهكم الناس على الفلسفة فى بعض نواحيها انها محاولة ايجاد أسباب واهية غامضة لما يعرفه الناس كلهم بداهة » · وهذا ينطبق تماما على مافعله ابن جنى فى النحو ويمثل الدكتور كامل حسين لذلك بتخصيص ابن جنى فصلا فى الخصائص عن هجوم الحركات على الحركات ، وتعليله نصب جمع المؤنث السالم بالكسر بأن ذلك حمل للفرع على الاصل ·

وينتقل الدكتور كامل الى الحديث عن الطبقة الثالثة فيقول :

« كان عهد التابعين من أهل الطبقة الثانية عهدا مشرفا برغم العيوب التى شرحناها ·· وظلت هذه حال اللغة الى القرن الخامس ، ثم بدأ عهد الانحطاط وتدهورت الحضارة العربية فأصاب علوم اللغة تدهور واضح جعل العلماء غير قادرين على أى نوع من أنواع التجديد أو الابتكار ولم يتجاوز عملهم الشروح العويصة التى لاغناء فيها وتنافسوا فى تخريجاتهم ولم يكن من الصعب عليهم أن يجدوا فى أقوال القدماء ما يطعنون به فى علم زملائهم فالفيروزابادى يكثر من قوله « ووهم الجوهرى » ·

وهنا يأتى دور الحديث عن الألفية :

« من أكبر الدلائل على تدهور علوم اللغة ما فعله ابن مالك حين وضع ألفيته المعروفة ، وليس من المبالغة أن نقول انها ساعدت بدورها فى هذا التدهور ، وعندى انها عادت بأضرار جسيمة على العربية ، والعناية بها من الاسباب التى باعدت بين النحويين والكتاب » ·

والاضرار التى الحقتها الفية ابن مالك باللغة العربية كثيرة · منها انها نظم سقيم لا يقبله من عنده أقل قدر من الذوق الأدبى ، ولا أظن أن أحدا ممن حفظوها يستطيع أن يكتب شيئا ذا بال فى غير النحو ، وهى من الأمور التى ساعدت على انطواء النحويين على أنفسهم كأن النحو بمعزل عن كل ما يفيد منه الكاتب والاديب ، ثم انها ركزت جهد المتعلمين على درس القواعد كأنها غاية فى ذاتها ، والتأكيد على قواعد اللغة والحاجة الى تذكر تفاصيلها يعوق المتعلمين عن الانطلاق فى التفكير · ومن هنا أصبح العلم باللغة احترافا » ·

والألفية مجموعة طلاسم لا تفهم الا بعد شرحها شرحا وافيا ، ولا يفيد احد منها الا بعد شرح هذا الشرح حتى اذا بلغ الانسان جوهر القاعدة وجد أنها لا تستحق شيئا من هذا الجهد ، قيل انها سهلت العلم

بالقواعد ولكن فائدة هذا النظم تضيع بين سوء النظم وشرح الشراح ولذلك تعددت الشروح والتقارير والحواشي ولولا الألفية لاستطعنا أن نحتفظ من قواعد اللغة بما نكون فى حاجة اليه » .

« والالفية ظاهرة من ظواهر الانحطاط فى علوم اللغة ، وهى كذلك سبب من أسبابه ، ومن العجيب ان علوما أخرى كتبت فيها الفيات مثلها حتى فى الحساب » • وأنا أضيف الى الجملة الأخيرة من كلام الدكتور فأقول ان واحدا من علماء الأزهر تمكنت الالفية من لحمه ودمه فلما اجاد الانجليزية ألف فى قواعدها ألفية • **وللألفية مكانة كبيرة في نفوس ذوى العلم بالعربية** ولا تزال هذه المكانة الى اليوم ، **ولم يكن الدكتور بغافل عن هذه المكانة ولكن ذلك لم يمنعه أن يهاجم الألفية هذا الهجوم العنيف** •

وقد يكون من المناسب أن نستطرد هنا الى موقف كامل حسين من بعض كتب النحو الأخرى بعد أن ذكرنا بحروفه موقفه من الالفية ، كان الدكتور كامل معجبا بشواهد الكامل للمبرد (أبدى هذا الاعجاب فى بحثه حاجتنا الى معجم مصفى) ، وكان معجبا بصفة خاصة بكتاب التفاحه لأبى جعفر النحاس (فى التعقيب على بحث الفصحى والعامية للأستاذ عزيز أباظة) أما موقفه من كتاب الاشمونى فقد ذكرنا فى فصل (جنس العدد) ولا مانع من أن نذكر ان الصورة التى كانت لكتاب الأشمونى فى ذهن كامل حسين انه « **جحر ضب خرب** » •

وكانت النهضة العربية الحديثة ، وأدرك بعض العلماء أننا فى حاجة الى احياء علوم اللغة فكتب الشيخ حسين المرصفى كتابه (الوسيلة الأدبية) حذا فيه حذو الأقدمين •• « وعكف كثير من المتعلمين على درس هذه العلوم وكتبوا فيها كثيرا ثم تبين أن المتعلمين ينصرفون عن القواعد اللغوية لصعوبة اتقانها ، وبذلت محاولات كثيرة لوضع كتب مبسطة يسهل على المتعلمين اتقانها ولم تنجح هذه المحاولات لسبب واضح جدا وهو **أن علوم اللغة لا تحتاج الى تيسير بل تحتاج الى وضع علوم جديدة** تقوم على أسس تختلف كل **الاختلاف عن نظريات العلماء القدماء** » • وهذا هو ما حاوله الدكتور كامل حسين •

فى النقاط السابقة عرضنا لتاريخ النحو كما صوره كامل حسين وقد حرصنا أن ننتقل الصورة العلمية على نحو يتبدى فيه تاريخ النحو عند كامل حسين من ناحيتين الناحية الأولى التاريخية ، والناحية الثانية ما يتعلق بآراء كامل حسين وفى الحقيقة انى أحس فى تواصل فقرات هذا الفصل بعضا من الاضطراب غير انى أومن أن محافظتى على الترتيب الزمنى لتطور النحو ، وعلى عرض آراء الرجل ، هما شفيعاى عند القارىء لهذا العذر •

●● أثر الاستشهاد بالشعر فى علوم اللغة

نورد فيما يلى آراء الدكتور كامل حسين فى موضوع عنى به فى أكثر من موضع ، وأفاض التحدث عنه فى كتابة اللغة العربية المعاصرة :

١ ــ قيل ان الشعر ديوان العرب . وقد يكون حقا ديوان عاداتهم واخـلاقهم وأيامهم وما يحبون وما يكرهون ولكنه لا يصلح ديوانا للغة دون تحقيق دقيق .

٢ ــ الشعر فى اللغات كلهـا له أسلوب خاص وأوضاع وترتيب فى الكلام يقبل من الشعراء ولا يقبل من الكتاب عادة ، وهـذا فى الشعر العربى بالاضـافة الى أن اوزانه محدودة محكمة لا تقبل الا قليلا من المرونة ، وقافية القصيدة واحدة مما يزيد فى صعوبة النظم ولو التزم الشعراء العرب صحة الألفاظ واستقامة الاسلوب وجودة المعنى معهذه الأوزان القاسـية والقافية الواحدة دون تجاوز عن بعض الصـيغ وتهاون فى الصرف ما استطاع اكثرهم ان يقول الا القليل من الشعر .

على ان النظم يجعل هذه الانحرافات فى اللغة والاسلوب مقبولة ولكن النحويين يخطئون حين يجعلون ذلك أصلا من أصول اللغة .

٣ ــ والشعر مهما يكن جيدا يكون فيه تساهل فى معانى الالفاظ فالشاعر لا يقف عند الفرق بين الهجوع والنوم او السير والسرى بل يختار ما يوافق النظم ولا نزاع فى أن هذا التساهل قد أفسد كثيرا من الدلالات الدقيقة للألفاظ .

٤ ــ والشاعر قد يخترع جموعا ومصادر لم يسـمعها من قبل ولا يعنى ذلك انها تصبح مباحة لغير الشعراء .

٥ – والدكتور كامل حسين مع الذين يقولون بأن اكثر شعر الشواهد مصنوع واضح الصنعة .

٦ – ولا يرى كامل حسين غضاضة فى اقرار قاعدة ما دامت مقبولة دون تكليف انفسنا الاستشهاد بالشعر .

٧ – وعند كامل حسين أن من الشعراء من لا تعنيهم الدقة فى القول بل أن منهم من لا تعنيهم الدقة فى المعنى وقد يكونون مع ذلك من كبار الشعراء ومن هؤلاء الكبار ايضا من يكون غير متأنق فى قوله .

٨ – والدكتور كامل حسين يرى أن « الشعر لم يفسد النحو كثيرا لأن النحو لا يعترض النظم الا نادرا ولكنه أفسد الصرف وصيغ المصادر وجموع التكسير ومعانى الألفاظ التى أصبحت كلها متداخلة متقاربة تدل الكلمات الواحدة على معان كثيرة ويدل على المعنى الواحد الفاظ كثيرة » .

وخلاصة القول أن الدكتور كامل حسين يدعو الى التحرر مما قيدنا انفسنا به من كلام الشعراء ومعه الحق فى ذلك .

●● مسلمات العربية

يرى الدكتور ان فى علوم اللغة العربية مسلمات لا يجـوز لنا أن نبقى عليها .

١ ــ واول هذه المسلمات هو **فهم القدماء للسليقة** وقد تعرضنا لها بالتفصيل فى الفصل الخامس .

٢ ــ اما المسلمة الثانية فهى ان **اللغـة العربية أوســع اللغـات وأغناها** :

(١) وهى شنشنة نعرفها فى أهل اللغات قديما « وفى هذا اعزاز للقومية يرتاح اليه الوطنيون ، ولكن هذا التفاخر خطر جدا اذا ادى الى وقوف اللغة عند حد لا تتعداه وهو ما وقع للعربية » .

(٢) « ولا ادرى على التحديد ما يراد بسـعة اللغة ، واللغات كلها تتسع لتصـورات أهلها ، والتفاضل بين اللغات يكون فى كثرة انتاجها الأدبى والفكرى لا فى عدد الفاظها . وقد كان القدماء يعدون من غنى اللغة أن يكون للاسد مئات الأسـماء وهى حجة واهيـة فطن الى ضعفها بعض القدماء فقالوا ان للاسد اسما واحدا وما عداه أوصاف» .

(٣) وكثـرة المترادفات التى لا تفترق مدلولاتهـا يعـد عيبـا فى اللغة لا سعة فيها ، « وواجب التفريق بين المترادفات يقع على عاتق الكتاب والأدباء وحسن اختيارهم لما يستعملونه منها » .

(٤) والمعـانى الكثيرة للكلمة الواحدة نشـأت من تأخر التدوين « وهى دليل على ضعف اللغة » .

(٥) « وليس من غنى اللغة أن يقال للنوم هجوع اذا كان فى أول الليل او وسطه أو آخره . وهى مزية لا حقيقة لها ما دام المعنى على هذا النحو من التناقض » .

(٦) « والدقة عندهم دقة فى المبنى وتخريج وهمى لأسباب ذلك ، والدقة عند المحدثين منصبة على المعنى » .

(٧) وانما تقاس سعة اللغة بما يستعمله الكتاب والأدباء من الفاظ وعبارات لها دلالتها الخاصة » .

(٨) واللغويون يخشون اضافة الجديد الى اللغة وهى السبيل الوحيد لاغنائها ، وكثير جدا مما جاء فى علوم الحضارة العربية كان اضافة الى اللغة لم يعرفها أهل البادية ويجب ان تكون مباحة لنا فى حدود ما يستسيغه الأدباء ويستحسنه الكتاب .

٣ ـ والمسلمة الثالثة هى أن **«الفصحى العالية تصلح لكل مقام»** ورأى الدكتور فى هذه المسلمة :

(١) « أن استعمال الفصحى العالية فى غير ما يليق بها يشبه من يضع قطعة من الحرير الغالى ليسد بها فتحة فى نافذة ، دون أن يدرى أن فى هذا اهدارا لقيمتها ، ثم انه ليس من المستطاع أن نتكلم بالغناء دائما » .

(٢) « خير ما تصلح له الفصحى العالية ارقى مراتب الأدب والمواعظ والحكم . وهذه لا تصلح الا بالفصحى العالية » .

(٣) « وعلى ذلك يجب على العرب أن يختاروا من المقامات ما تصلح فيه الفصحى العالية وما لا يصلح الا بها » .

(٤) « والمشكلة هنا هى العمل على جعل هذه الفصحى ميسرة لمن يريدون أن يتأنقوا فى علمهم دون أن يكون ذلك عائقا عن التفكير الحر » . وهو ما سماه الدكتور « تسليق الفصحى » .

(٥) واللغة العربية لغة معربة اعرابا دقيقا ، ثم هى اشتقاقية وكلا الأمرين يحول بينها وبين أن تكون لغة للعلوم الحديثة كلها وان كان ذلك مستطاعا بعد جهد عنيف ، ولن تكون فيه فائدة لا للغة ولا للعلوم » .

(٦) « وعلى ذلك يكون للعربية ثلاث درجات :

(أ) العالية وتتبع فى الادب الرفيع الذى يحتاج فيه الى قوة تعبيرية وجمال فى الاسلوب .

(ب) الفصحى المخففة التى تتبع فيها بعض القواعد الكبرى اذا كان الانسان مهيأ لاتباعها ، ويتبع فيها البناء المألوف للكلمة دون بحث فى صوابه أو خطه او جواز مخالفته .

(ج) أما العلوم الطبيعية الرياضية فلا يصلح لها الا العامية المنقحة تنقيحا يخرج بها عن الابتذال .

٤ ــ والمسلمةالرابعة هى « **وجوبالمحافظة على قواعد الاملاء** » :

(١) فقواعد الاملاء فى العربية اليوم غير منطقية وغير معقولة وهى لا تتبع نظاما خاصا .

(٢) واعجب ما فى قواعد الاملاء رسم الهمزة « وقد عرضنا رأى الدكتور فى رسم الهمزة فى الفصل التاسع من هذا الباب » .

(٣) ومن الصعوبات : الكلمات التى تكتب مشتبكة وحقها أن تكون منفصلة مثل لئن ولئلا وطالما .

(٤) ومما يزيد فى صعوبات الاعراب ربط الكلمات بعضها ببعض وهو يرى أن تكتب مسئولياتنــا هكذا : مسئوليات نا « حتى يسهل على القــارىء أن يعرف ان التاء فى وســط هــذه الكلمة هى تاء جمع المؤنث السالم التى تنصب بالكسر » .

(٥) ويقترح الا نكتب الألف بعد الواو فى مثل : كتبوا .

(٦) وقد تكون معرفة الصواب ميسرة اذا عرف السياق اما فى الكلمات التى تدل على أسماء الأماكن والاعلام فلا يمكن أن يدل عليهــا السياق .

وهنا يكرر الدعوة الى اســتعمال حروف العلة على انها حركات وهى الدعوى التى طالما نادى بها فى كتابه الأسماء الأجنبية .

(٧) ولا ضير على اللغة العربية من اغفال القواعد التى تؤدى الى مثل هذه الصعوبات ، ولا عبرة بما يقال من أن هذا يقطع الصلة بين الكتب العربية القديمة وبين المتعلمين فى العصر الحاضر ، والواقع ان الصلة مقطوعة لصعوبة الاملاء ، ثم ان الاتراك ــ وقد غيروا حروفهم الى اللاتينية ــ لم تنقطع صلتهم بادبهم القديم .

٥ ـ والمسلمة الخامسة هى « **ان القواعد اللغوية متساوية قدرا** »

والدكتور يرى ان القواعد اللغوية ليست متساوية فى اقدارها ووجوب اتباعها فهى على أنواع مختلفة :

(أ) ما يجب المحافظة عليه .

(ب) ما يحسن اتباعه .

(جـ) ما يمكن التساهل فى تطبيقه اذا كان فى اتباعه ارهاق او تردد أو امعان فكر .

(د) مالا يفيد منه الكاتب أو القارىء .

(هـ) ما هو مفتعل افتعالا لا اصل له من اللغة .

(و) ما يجب ان ننبذه حتى لا يعرفه الا من يرونه مثل هذا العلم من بين المحترفين .

وهكذا يقسم الدكتور قواعد اللغة تقسيما فى مدى الأخذ بها وقد يكون فى تقسيمه ثلاثة الأنواع الأولى شبها بالتقسيمات الفقهية التى تتعلق بأحكام الأعمال .

ويمضى الدكتور (ص ٨٠ ، ٨١ / اللغة العربية المعاصرة) فيفصل القول فى هذه الأنواع ، وما يجب ان يكون عليه موقفنا منها .

●● الفصحى المخففة

يقصد الدكتور بالفصحى المخففة تلك اللغة الشائعة بين المتعلمين وهى وسط بين العامية المنقحة والفصحى العالية . ويدعو الدكتور الى دراسة خصائص هذه اللغة ووضع قواعد تنظيمها حتى لا تصبح مهلهلة كالعامية ، أو عسيرة كالفصحى العالية .

ومن أمثلة الفصحى المخففة أن يكون جنس العدد على النحو الذى اقترحه الدكتور وبيناه من قبل .

وما النحو المعقول الا وسيلة الدكتور الى تحقيق دعوته وهو نحو « براجماتى » بمعنى انه يعتمد فى صحته على ما يكون فيه من فوائد .

اما خصائص الفصحى المخففة فهى :

(١) عدم التمسك بالاعراب الا فى الحالات الواضحة جـدا ، واطراد أبواب الفعل ، وصيغ المصادر ، وجموع التكسير الا فيما هو مشهور .

(٢) العدول عن مطابقة الفعل للفاعل المثنى .

(٣) اغفال الفرق بين مخاطبة الرجال والنساء فى الضمائر فى حالات الجمع .

(٤) اباحة النطق بالكلمات غير المعروفة للكاتب أو القارىء بالصيغ المختلفة بحيث لا يتوقف عندها للتفكير فى صحتها (وقد فصلنا القول في هذا الأمر في الفصل الخامس من هذا الباب .

- **العامية المنقحة**
- **تعليم اللغة العربية للمبتدئين**

ينبه الدكتور فى بداية فصله الخاص بتعليم العربيـة من كتـابه « اللغة العربية المعاصرة » الى :

(١) ان تعلم اللغة أشق على الطلبة من تعلم غيرها من العلوم .

(٢) ان اكثر الطرق الحديثة المتبعة فى تعليم العربية مستوحاة من طرق تدريس اللغات الأخرى لاهلها ولغير أهلها وبعض هذه الطرق لا تتفق مع خصائص العربية بسبب البون الشـاسع بين اللغة التى يتكلمها المبتدئون وبين الفصحى العالية التى يكتبها المثقفون .

ويقوم اقتراحه على :

(١) أن تعلم القراءة خطوة تسبق تعلم اللغة ، وهى تمهيد لها .

(٢) أن الغرض الأول من تعلم القراءة فى السن الأولى هو المطابقة بين الكلمة المسموعة والمرئية .

ثم يقول فاذا دخل الاطفـال المدارس فانهم يتكلمون لغة عامية يسمعونها فى كل مكان ويتحدثون بها بطلاقة وثقة .

وعلينا أن ننقحها تنقيحا يسيرا وسنجد أن ذلك أسهل كثيرا مما نظن .

ويقدم الدكتور بعض الامثلة على ذلك :

(١) يقول الطفل : أنا جيت المدرسـة وكان التـلامذة كلهم فى الامتحان ، ويقول أيضا انت لابس بدلة حلوة .

والتنقيح فى هذين المثالين يسير .

(٢) ويقول الطفل	والتنقيح
ــ احنا لعبنا الكورة فى حصة الألعاب .	نحن بدلا من احنا
ــ بدى استريح فى البيت .	بودى بدلا من بدى

ويلاحظ ان هذه الجمل كلها مثبتة . والتنقيح فيها بسيط جدا ، ويلاحظ أن تكون الجمل فيها الضمائر المختلفة .

(٣) النطق بالقاف :

بعض اللهجات تنطق القاف الفا ، وبعضها جيما ، وليس من الصعب أن نعود الطفل على أن يقول قعد وقال ولقى ، فهذه الصعوبة يمكن التغلب عليها حتى عند الاطفال .

(٤) **اما الجمل المنفية :** فتحتاج الى تنقيح اكثر من الجمل السابقة :

يقول الطفل	والتنقيح
ــ ما كانش حد فى المدرسة .	ــ ما كان
ــ ما جبتش الكتاب معايا .	ــ ماجبت
ــ هو ما قعدش جنبى	ــ هو ما قعد

والشين المذكورة فى النفى اما أن تكون بدلا من شىء كما فى «بلاش» او هى فى الواقع علامة النفى فى العامية . ولعلها لهجة من لهجات

القبائل التى نزلت فى بعض البلاد العربية . وحذفها له أثر كبير فى تحويل العامية الى ما يشبه اللغة الصحيحة .

(٥) **الاستفهام** : وهناك صعوبة فى الاستفهام الذى يبدأ عند الاطفال بكلمة « ليه »

يقول الطفل	والتنقيح
ــ ليه ضربتنى ؟	ــ لماذا بدلا من ليه .

(٦) **الاشارة** : ــ

يقول الطفل	والتنقيح
ــ النهارده كان حر .	ــ هذا النهار كان حر .

(٧) **الاستمرار** : ــ

يوجد فى العامية حرف الباء الذى يلحق بالأفعال فتدل على الاستمرار حيث يقول الطفل : انا باكتب ، والواقع أن « هذا الحرف غير موجود فى العربية . وأنا حائر فى أمره لأن له دلالة خاصة ، ويصعب الاستغناء عنه . ولا أدرى هل نبقيه علامة على الاستمرار ، أو نحذفه عند التنقيح » .

(٨) **المستقبل** : ــ

يقول الطفل	والتنقيح
ــ أنا (ح) أروح المدرسة يوم السبت .	ــ سأروح

(٩) **الملكية** : ــ

يقول الطفل	والتنقيح
ــ الكتاب بتاعى ضاع .	ــ كتابى ضاع .

ولعل أصل كلمة بتاع هذه هو متاع كأنه يقول « الكتاب متاعى ضاع» ويمكن أن يستغنى عن هذه الكلمة ويستعاض عنها بياء الملكية .

هذا الاسلوب فى تعليم اللغة للأطفال يقنعهم بأن اللغة التى

يتعلمونها ليست غريبة عن اللغة التى يتكلمونها ، ويصح أن نشجعهم على التعبير عن افكارهم بهذه العامية المنقحة الى ان يبلغوا السن الذى يستطيعون فيها التدرج من هـذه اللغة الفصحى المخففة ، وسـنترك للاخصائيين تحديد المدة التى يتم فيها هذا الانتقال من لغة الى اخرى، وكذلك نترك لهم ضرب الأمثلة العديدة على هذا التنقيح .

التعبير بالعامية المنقحة :

يقول الطفل حاكيا ما حدث له فى يوم من الأيام :

« احنـا رحنـا البحر ، وركبنـا المركب ، ونزلنا الميه ، واعدنا نسوء المركب ورجعنا تانى ، وطلعنا ، وشفنا النادى ، وتفرجنا على الحتت اللى بيلعبوا فيها بس ما كانوش بيلعبوا ، وبعد ما تفرجنا رجعنا البيت واستريحنا ، ونزلنا الجنينة بعد كده » .

ويمكن تنقيح كلام الطفل هذا :

«نحن رحنا البحر، وركبنا المركب، ونزلنا الماء ، وقعدنا نسوق ورجعنا تانى · وطلعنا من المركب وشفنا النادى واتفرجنا على الحتت التى بيلعبوا فيها ، ولكن ما كانوا يلعبوا ، وبعـدما اتفرجنا رجعنـا البيت وغيرنا هدومنا المبلولة واستريحنا ونزلنا الجنينة بعد كده » .

وهذا خير فى تعويد الطفل على الصـدق فى التعبير من أن يحفظ عبارات بالفصحى العالية .

●● تعليم العربية لكبار السن

يدعو الدكتور الى التفريق بين تعليم العربيـــة لكبار السن وصغاره للأسباب الآتية :

(١) صغار السن يسهل عليهم تعلم كل شيء للمرونة الكاملة فى قدرتهم على الاستيعاب .

(٢) كبـــار السـن لديهم حصيلة كبيرة من الألفـــاظ والتراكيب يعرفونها معرفة جيدة حتى قبل ان يعرفوا القراءة والكتابة .

والعامة فى البلاد العربية يعرفون من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ما يجعلهم فى الواقع غير أميين .

ويحسن بالمعلمين أن يفيـــدوا من هــــذا الموقف فيعلموهم قراءة الكتب الدينية والرجل يفرح اذا عرف كيف يقرأ « **وعسى أن تكرهوا شـــيئا وهو خير لكم** » و « **لا حـــول ولا قوة الا بالله** » أما ان نعلمهم « ذهب عادل ليلعب الكرة » فعمل لا يعنيهم ولا يشـــوقهم ولعله هو السبب فى ارتدادهم الى الأمية وعدم اقبالهم على الاطلاع .

الفصل السادس عشر

●● النحو المعقول

نعرض فيما يلى منهج الدكتور كامل حسين فى « النحو المعقول » او « النحو الحديث » .

❋ الاعراب ❋

١ ــ الاسم :

يرفع الاسم على الخبرية حين يكون متحدثا عنه أو خبرا متعلقا به ، ويجر الاسم على الاضافة بأن يسبقه حرف جر أو اسم مضاف اليه ، وينصب الاسم على التكملة فى كل ما عدا ذلك .

(١) رفع الاسم :

يرفع الاسم المتحدث عنه والخبر المتعلق به وما يتبع ذلك من اوصاف أو معطوفات كما فى الامثلة الآتية :

الجملة	المتحدث عنه	الخبر	ملاحظات
قام محمد	محمد	قام	لا يؤثر التقديم او التأخير فى اعراب المتحدث عنه . الفرق بين هـذه الجمـل بلاغى وليس اعرابيا .
محمد قائم	محمد	قائم	
ما محمد قائم	محمد	قائم	التقديم والتأخير والنفى والاستفهام لا يؤثر فى الاعراب .
هل قائم محمد ؟	محمد	قائم	
ما قام الا محمد	محمد	قائم	
ما محمد الا قائم	محمد	قائم	الاستثناء لا يغير من اعـراب المتحدث عنه
كتب الكتاب	الكتاب	كتب	الكتاب متحدث عنه .
المؤلفة قلوبهم	قلوبهم	—	المتحدث عنه القلوب .
الحسن خلقه	خلقه	—	المتحدث عنه الخلق .
كان محمد قائما	محمد	كان	الواقـع أن كان هى الخبر ولا داعى لانفراد كان وأخواتها بأحكام خاصة .
ان محمدا قائم	محمدا	قائم	هـذه هى الحالة الوحيـدة التى ينصب فيها المتحدث عنه لأن الضمائر التى تلى هذه الكلمات منصوبة ، فجرت العـادة أن ينصب ما بعدها وان كان متحدثا عنه .

مواضع اخرى للرفع :

يا محمد — المنـادى الحقيقى يجب أن يكون مقصودا بذاته وهو مرفوع وينصب فى غير ذلك

(أ) الضمة : جاء محمد ، ولا تظهر الضمة فى الكلمات المنتهية بياء او بالف مقصورة .

فنقول جاءنا قاض عادل ، وجاء القاضى العادل ، وجاءنا قاضى المدينة ، وتقول الغنى غنى النفس ، وهذا رضا من الله .

(ب) الألف والنـون أو الألف فى المثنى : جاء القاضيان ، وجاء صاحباك .

(جـ) الواو والنون فى جمع المذكر السالم أو الواو اذا أضيفت الى ما بعدها : جاء المحافظون ، وجاء حافظو القرآن .

(د) الواو فى الأسماء الخمسة : هذا ابوك .

(٢) جر الاسم :

(أ) أن يكون الاسم مضافا اليه اسم قبله : كتاب محمد

(ب) أن يسبقه حرف جر : من محمد

(جـ) أو حرف قسم : والله وتا الله

(د) أو واو رب : وفارس من غمار الموت

علامات الجر :

(أ) الكسرة : مررت بمحمـد ، ولا تظهر الكسرة فى الكلمـات المنتهية بياء أو بألف مقصورة ، فتقول : مررت بقاض ، ومررت بالقاضى العادل ، ومررت بقـاضى المدينـة . وتقـول مررت بمرعى جيـد ، وبمرعى السعدان .

(ب) الياء والنون أو الياء فى المثنى

(جـ) الياء والنون أو الياء فى جمع المذكرالسالم : رب العالمين.

(د) الياء فى الأسماء الخمسة : بأبيك

(هـ) يكون الجر بالفتحة فى الأسماء الممنوعة من التنوين اذا كانت خالية من ال والاضافة ، فاذا لحقتها ال أو الاضافة كان الجر بالكسرة جريا على القاعدة العامة .

الأسماء الممنوعة من التنوين هى :

(أ) من الصفات : ما كان على وزن أحسن ، وأحمر ، وبيضاء ، وسكران .

فتقول مررت بأحسن منهم

(ب) من الاعلام ما كان

ـ اعجميا	: مررت بيعقوب
ـ على وزن الفعل	: مررت بيزيد
ـ مؤنثا	: مررت بعائشة
ـ أو على صيغة التأنيث	: مررت بطلحة
ـ او على وزن عثمان	مررت بعثمان

(جـ) من الجموع ما كان على وزن شفعاء ، وأنبياء ، ومفاتيح وصهاريج .

ولا بأس على من يجد صعوبة فى تذكر قواعد الممنوع من الصرف أن يقتصر على أفعل التفضيل تاركا للمختصين أن يراعوا ذلك فى الصيغ الأخرى .

(٣) **نصب الاسم :**

ينصب الاسم اذا كان تكملة للخبر كأن يكون بيانا لما عليه الحديث ، أو توكيدا ، أو تحديدا لزمانه أو مكانه ، او هيئته ، او حاله ، أو سببه ، الى غير ذلك من الأغراض التى لا داعى لتحديدها . ويكفى فى **النصب الا يكون الاسم متحدثا عنه ولا خبرا عنه ولا مجرورا ولا وصفا ولا معطوفا على مرفوع أو مجرور .**

الجملة	المنصوب	ملاحظات
كتب محمد كتابا	كتابا	وقع عليه الحدث وهو الكتابة
منجز وعده	وعده	وقع عليه الانجاز
حذر امورا	امورا	وقع عليه الحذر
الكاتب الكتاب	الكتاب	ال والتنوين والاضافة تجعل وظيفة
هو كاتب كتابا	كتابا	الكلمة فى الجملة منتهية ويكون ما
أغاثتك البائس	البائس	بعدها تكملة منصوبة .
جاء محمد صباحا	صباحا	بيان الزمان
قام محمداحتراما لك	احتراما	بيان السبب
انطلق انطلاقا	انطلاقا	توكيد

الجملة	المنصوب	ملاحظات
جاء محمد مرجعه من السفر	مرجعه	بيان الزمان
فسجدوا الا ابليس	ابليس	الاستثناء تكملة للخبر وليس من صميمه
جاء محمد امامك	امامك	بيان المكان
كان محمد قائما	قائما	كان وأخواتها لا تنصب خبرها لخاصية فيها بل ينصب لأنه تكملة .

وينصب الاسم كذلك حين لا يراد منه ان يكون متحدثا عنه أو خبرا له .

الجملة	المنصوب	ملاحظات
الجهاد الجهاد	الجهاد	الجهاد ليس متحدثا عنه .
ما أحسن السماء	السماء	المراد التعجب لا الأخبار .
عليكم انفسكم	أنفسكم	انفسكم ليست متحدثا عنها .
سرت والنيل	النيل	لا يمكن أن يكون النيل عطفا على التاء في « سرت » فليست متحدثا عنه .

علامات النصب :

(أ) الفتحة : كتب محمد كتابا (ولا تظهر فى الكلمات المنتهية بألف مقصورة) .

(ب) الكسرة : فى جمع المؤنث السالم الحسنات يذهبن السيئات .

(جـ) الياء والنون او الياء فى المثنى : اكرم محمد الصديقين وصديقه .

(د) الياء والنون أو الياء فى جمع المذكر السالم : يعذب الله

الظالمين وظالميك .

(هـ) الياء : فى الأسماء الخمسة أبيك واخيك

٢ – الفعل :

القاعدة : الفعل لا يتغير اذا كان ماضيا لأن الأحداث الماضية لا تتغير ، والفعل المضارع **يرفع** اذا دل على تقرير حقيقة . **ويجزم** اذا دل على حدث معلق على حدث آخر كما فى فعل الأمر وجواب الشرط، أو لم يتم كما فى المضارع المنفى بلم . **وينصب** فى كل ما عدا ذلك .

الفعل الماضى :

الفعل الماضى لا تتغير حركة آخره لأن معناه ليس قابلا للتغيير باختلاف التراكيب ، وصيغته ثابتة وتختلف باختلاف الضمائر .

الفعل المضارع :

(١) الرفع : يرفع الفعل المضارع اذا أريد به تقرير حدث بعينه .

(٢) الجزم : يجزم الفعل اذا دل على حدث ناقص كأن يكون نفيا لمضارع لم يتم أو فعل أمر لا يقع الا اذا أطيع أو دل على حدث معلق وقوعه على حدث آخر .. الخ)

الجملة	الفعل المجزوم	ملاحظات
لم يحضر	يحضر	النفى بلم
اكتب	اكتب	امر لا يقع الا اذا اطيع
ارسله معنا يرتع	يرتع	الرتع لا يحدث الا اذا تم الارسال .
ان تقم أقم	تقم – اقم	كلا الحدثين لم يقع وكلاهما معلق على الآخر وهذا هو الشرط .

٣ – **النصب** : ينصب الفعل المضارع فيما عدا ذلك .

مواضع النصب :

الجملة	الفعل المنصوب	ملاحظات
جئت لأكرمك	اكرمك	
جئت كي أكرمك	اكرمك	
جئت حتى اكرمك	اكرمك	
الا تزورنى فاكرمك	اكرمك	
ليتك تزورنى فأكرمك	اكرمك	كلها منصوبة لأنها غاية لما قبلها .
تزورنى اذن اكرمك	اكرمك	الاكرام هنا نتيجة للزيارة فالنصب لا يتعلق بكلمة اذن ، وانما يتعلق بأن بعدها نتيجة لما قبلها .
او ابلغ المنى	ابلغ	بلوغ المنى غاية
لبس عباءة وتقر عينى	تقر	تنصب اذا كانت معلقة على لبس العباءة ، ولا تنصب اذا كانت عطفا .

« تعليقات على الاعراب »

المتحدث عنه :

(١) اختار الدكتور اصطلاح « المتحدث عنه » بدلا من «الموضوع» التى استعملها المناطقة ، وبدلا من « المسند ، والمسند اليه » **فهما** عسيرتان على المبتدئين .

(٢) لا يحتاج المتحدث عنه دائما الى خبر متعلق به فلا داعى لذكر محذوف ، **فالحذف والتقدير لا وجود لهما فى النحو الحديث .**

(٣) ليس من الضرورى أن نحدد اى الاسمين متحدث عنه ، وايهما خبر فهذا بحث بلاغى لا يتعلق به اعراب أى منهما .

(٤) التقديم والتاخير والنفى الاستفهام :

ليس لهذه الأمور اثر فى الاعراب ، **فالمتحدث** عنــه مرفوع دائما سواء تقدم أو تأخر .

(٥) الاستثناء :

الاستثناء لا يؤثر فى الاعراب شيئا :

(أ) اذا كان المستثنى متحدثا عنه أو متعلقا به كان حقه الرفع .

(ب) فيما عدا ذلك يكون المستثنى تكملة منصــوبة كما فى الآية **« فسجدوا الا ابليس »** .

(٦) الاستثناء بغير وسوى :

(أ) لا يرى الدكتور داعيا لاعراب سوى، وفرض حركات مقدرة على يائها .

(ب) أما اعراب (غير) فان كامل حسين لا يرى **قاعدة أقل فائدة للمتكلمين والقراء من قاعدة اعراب غير اعراب المستثنى بالا .**

(جـ) أما غير فهى كلمة ككل كلمــات اللغة ترفع اذا كانت متحدث عنها، مثل (لا يقع فى الشر غير فاعله) .. وهكذا يمضى الدكتور فى عرض فيه فذلك نفى بسيط ويكون الضم أولى .

« ولا داعى لوضع قاعدة خاصة بها »

(٧) جملة كان واخواتها :

(أ) ليس هناك ما يدعو الى البحث فى اسم كان وخبرها فاسمها مرفوع بالطبع لأنه متحدث عنه وخبرها منصــــوب بالطبع لأنه تكملة « وقد تكون التكملة الزم لهــذه الأفعال منهــا لأكثر الأفعال الاخرى ، وليس هذا سببا لانفرادها بقواعد خاصة .

(ب) أما (كان) فتدل على الكينونة فى الماضى، وغير الماضى، كما فى قوله تعالى « **وكان الله غفــورا رحيمــا** » والفرق بينهما بلاغى وليس اعرابيا .

(٨) أفعال القلوب والتحويل :

يرى الدكتور انه من التعقيد ان نفرد بابا خاصا لظن واخواتها فكل اخبارها منصوب على التكملة .

(٩) ان واخواتها :

يخرج الدكتور من مأزق ان بقوله « يقال فى اعراب هذه الجمل ان المتحدث حقه الرفع لولا ان سبقته ان » وبذلك يستقيم هذا الباب مع ابواب الرفع والنصب الأخرى .

(١٠) المنادى :

(أ) « ليس المنادى من الأبواب الصعبة فى النحو وقد يكون أسهل لو قلنا ان المنادى المقصود لذاته يرفع ، فاذا لم يكن مقصودا لذاته كأن يكون نكرة غير مقصودة او مقصودة لصفة فيها نصب مثل : يا محمد ، يا رجل ، يا أيها الرجل ، يا حاضرا فى فؤادى ، يا صاحب الدار .

(ب) والبحث الهام فى المنادى ــ عند الدكتور يجب أن يكون فى ادوات المنادى ودلالتها .

(١١) كم :

(أ) اذا أريد بها الاستفهام عن العدد فلا عمل لها أبدا فى اعراب ما بعدها فتقول « كم ثوبا اشتريت » و (ثوبا) منصوبة لوقوع حدث الشراء عليها « وبكم درهم اشتريت » فدرهم مجرورة بالباء « ولا أرى مانعا من أن نسأل فنقول « كم رجل قام » وان لم يرد هذا التعبير فى مأثور القول » .

(ب) «والواقع ان كم كانت للتكثير فخير عبارة تدل على ذلك ان تتبعها (من) مثل « **كم من فئة قليلة** » وحذف (من) جائز ويبقى اعراب (فئة) بالكسرة .

(١٢) كلا وكلتا :

يرى الدكتور أن الألف فى كلا وكلتا من أصل الكلمة وليست علامة

تثنية اذا جاءت قبل المثنى والدليل على ذلك أنك تقول « كلا الرجلين قام » .

اما اذا جاءتا عقب المثنى فتكونان صفتين، ويعربان كذلك فتقول « مررت بالرجلين كليهما » « والصحيح ان تقول : « ان المعلم والطبيب كليهما لا ينصحان» ، أو «ان المعلم والطبيب كلاهما لا ينصح» والخطأ أن تقول : « ان المعلم والطبيب كلاهما لا ينصحان » .

(١٣) أى :

(أ) يرى الدكتور أن العيب ليس فى اى ، وانما فى القواعد التى وضعت لها .

(ب) أما اعرابها فى النحو الحديث فيسير على النحو التالى :

* ترفع حين تكون متحدثا عنها مثل : أيكم يأتينى بعرشها .

* تنصب حين يقع عليها الحدث سواء تقدمت أو تأخرت مثل أيما الأجلين قضيت . فليس اعرابها غريبا ولا داعى لتقدير فعل ينصبها حين تنصب .

(١٤) حتى :

يدعو الدكتور الى أعراب ما بعدها بالمعنى فتقول « أكلت السمكة حتى رأسها » بالكسر ان أردت أن تقول أكلتها الى رأسها ، وبالفتح اذا أكلت رأسها .

أما الرفع فى مثل قول جرير «حتى شط دجلة أشكل» فان مثل كلمة الشط مرفوعة لأنها متحدث عنها (وهذا لا معنى له فى مثل السمكة فلا مسوغ للتأويل بقولنا « حتى رأسها مأكول » .

(١٥) لا :

«لا» تدل فى مذهب الدكتور على أحد معنيين: اما النفى البسيط، واما النفى البات القاطع الذى يراد تأكيده ، فالنفى البسيط كما فى عبارة « **لاخوف عليهم** » والنفى البات كما فى عبارة « **لاريب فيه** » حيث يكون المراد النفى القاطع .

واذا جاء رجل متلهف يستغيث بك قلت له هنا لا خوف عليك بالفتح ، أما اذا تحدث رجلان عن مكان ما فقالا انه آمن لا خوف فيه فذلك نفى بسيط ويكون الضم أولى .

(١٦) جزم الفعل :

يقوم الجزم أو عدمه على **المعنى المراد** أكثر من قيامه على **عوامل الجزم فقد يكون عامل الجزم موجودا ويرفع جوابه ، وقد يكون عامل** الجزم غير موجود ويجزم جوابه : فالمثل على الحالة الأولى والآية الكريمة « **لئن اخرجوا لا يخرجون » الحشر /١٢ ، « ولئن قوتلوا لا ينصرونهم »** الحشر / ١٢ . فعدم الخروج وعدم نصرهم المقاتلين واقع سواء وقع الحدث الأول أم لم يقع ذلك يكون الرفع فى جواب « ان » أول على المعنى المراد . والمثل على الحالة الثانية الآية الكريمه « **لولا اخرتنى الى أجل قريب فاصدق وأكن من الصالحين** » المنافقون /١٠ أن لولا ليست من عوامل الجزم عادة الا أن معناها فى هذه الآية . شرطى وعبارة اكن من الصالحين معلق على التأخير فى المعنى ، وعلى ذلك وجب الجزم .

(١٧) نصب الفعل :

يقترح الدكتور ان يترك الحكم فى أدوات نصب الفعل التى وضع لها النحاة **بعض الشروط الخاصة للمعنى ولما يريده المتكلم** . ومثال ذلك « ولبس عباءة ، وتقر عينى » فاذا أردت أن تكون قرة العين نتيجة للبس العباءة كان النصب ، واذا أردت مجرد العطف فيجب الرفع .

(١٨) ان وان :

جرت عادة العرب على ألا يذكروا بعد كلمة قال الا ما كان نصا وعلى ذلك يجب أن تكسر همزة أن بعد قال . ولكنا فى هذا العصر توسع فى استعمال كلمة قال ، فاذا كان ما بعدها نصا وضع بين علامتى تنصيص وتكون همزة ان مكسورة ، وان لم يكن نصا جاز فتح همزة أن أو كسرها بحسب المعنى المراد .

●● الصرف الحديث

١ ـ أبواب الفعل (جدول الصرف) :

(١) خلاصة فكرة الدكتور كامل حسين فى جدول الصرف أنه جمع تقسيمين فى تقسيم واحد فالتقسيم الأول هو تقسيمنا الفعل الى صحيح ومعتل ·· الخ ، والتقسيم الثانى هو تقسيمنا الفعل ستة أبواب من حيث حال عينه فى الماضى والمضارع ، وتقسيم الدكتور يجعل الفعل تابعا لباب المثال المضارع أو الناقص الماضى مثلا .

(٢) وقد نشر الدكتور جدول الصرف (الاول) مع بحثه أصول علوم اللغة الذى القاه أمام مجمع اللغة فى « متنوعات جـ ٢ » .

أما (جدول الصرف) (الثانى) فقد نشره فى بحثه النحو المعقول .

ولو درسنا الجدول الأول على ضوء معلوماتنا الصرفية لوجدنا فيه بعض النقص ، فهو لم يذكر مثلا باب المثال الذى من باب ضرب يضرب ومثاله وعد .

أما الجدول الثانى فقد زاد فيه الدكتور كامل حسين ، وتدارك ما ترك من قبل حتى بلغ مبلغا كبيرا من الكمال حتى بلغ به مبلغ علمى وهو قليل .

(٣) وكان الدكتور كامل فى الجدول الاول يتناول الفعل فيذكر الماضى والمضارع والمجزوم المبنى للمجهول واسم الفاعل واسم المفعول واسم المصدر واسم الزمان . ثم يبين اتصاله بضمائر المتكلم (المفرد، والجمع)، والمخاطب (المفرد ، والمفردة ، والجمع) ، الغائب (المفرد ، المفردة ، الجمع) فى الماضى والمضارع . ثم يتناول صيغة الأمر (للمفرد وللمفردة وللجمع) .

أما فى الجدول الثانى فقد تناول الأفعال تناولا أكثر علمية وترتيبا على النحو الآتى :

الماضى ، المضارع ، الأمر ، اسم الفاعل ، اسم المفعـــول ، المبنى للمجهول (فى الماضى والمضارع) ، اسم الزمان . وهى (المشتقات) التى لا تتعلق بالضمير .

ثم المشتقات التى تتغير طوعا للضمير بالضمير : المتكلم ، المخاطب (المذكر المؤنث) ، الغائب (المذكر والمؤنث) فى حالتى الاثبات والنفى .

(٤) أما فى كتابه (اللغة العربية المعاصرة) فانه تناول جـــدول الصرف بالتخفيف فجعل جميع الأفعال السالمة من باب نصر ينصر ، المعتل الأول على بابين (وعد يعـد ، ووضـع يضع) المعتل الوسـط على بابين (قال ، باع) ، المعتل الآخر ... (دعا ، رمى) .

ودعا الى اختيار باب واحد للفعل ذى الأبواب المتعددة :

(أ) فاذا كان الفعل من الأفعال المشهورة وكان لكل باب من الأبواب معنى خاصا به بقيت الحال كما هى عليه كما فى كبر وكبر .

(ب) واذا كانت الابواب المتعددة كلها بمعنى واحد فيجب اختيار واحد منها ويفضل الباب الذى تكون عينه مفتوحة ، ويفضـــل الباب المضموم العين على مكسورها .

٢ ــ المصادر :

خلاصة رأى الدكتور كامل يضمها قوله : ــ

« وعندى اننـــا نـــؤدى للغة خـــدمة كبرى اذا خصـــصنا لكل مصدر معنى خاصا كأن نقول ان الاوب يكون من الذنب ، أما الاياب من السفر لأن فى ذلك غنى كبيرا للغة وتجديدا لمعانى الفاظها ودقة فى دلالتها وكلها صفات مرغوبة من حيث أن وظيفة اللغة هى الابانة ولا عبرة بقول من يقول أين النص على هذا التخصيص » .

٣ ــ الجموع :

ويرتبها الدكتـــور فى أربع مجموعات : المشـــهورة ، القياسية ، والتى ترد كثيرا ، وقليلة الورود ، فالمشــــهورة تبقى على حالهـــا ، والقياسية واجبة الاتباع ، وكثيرة الورود تفضل على غيرها من الصيغ ، وقليلة الورود تظل سماعية .

الباب الخامس

ببليوجرافيا

● ● اعمال الدكتور محمد كامل حسين

اولا : كتب

١ ـ متنوعات

الجزء الاول ، ١٩٥١ ، القاهرة ، مطبعة مصر .

« يتضمن هذا الكتاب الفصول الآتية ، وقد نشرت بعض هذه الفصول فى دوريات » .

(١) القرآن

(٢) أحسن القصص : قصة الخروج والعقلية اليهودية .

(٣) المتنبى

(٤) الحرمان : أثره فى الافراد والجماعات .

(٥) محنتان متشابهتان .

(٦) قصة أقدم رسالة علمية .

(٧) أحمد لطفى السيد والدعوة الى ارسطو .

(٨) الفلسفة والعلم فى كتاب القانون لابن سينا .

(٩) جو الاصلاح .

(١٠) التفكير المستقيم .

(١١) الدكتور على باشا ابراهيم .

(١٢) العلوم عند العرب .

(١٣) تاريخ الكيمياء القديمة .

(١٤) تاريخ الطب عند العرب .

وفى آخر الكتاب نص الترجمة العربية لبردية ادوين سميث.

٢ ـ **التحليل البيولوجي للتاريخ .**

١٩٥٧ ، القاهرة ، المطبعة العالمية .

٣ ـ **وحدة المعرفة .**

١٩٥٨ ، القاهرة ، مكتبة النهضة .

٤ ـ **متنوعات**

الجزء الثانى ، ١٩٦١ ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية .

« يتضمن هذا الكتاب الفصول الاتية ، وقد نشرت بعض هذه الفصول فى دوريات » :

(١) معنى الظلم فى القرآن الكريم

(٢) التفسير العلمى للقرآن بدعة حمقاء .

(٣) قصة آدم .

(٤) الحياة الفكرية فى مصر الحديثة .

(٥) فى عيد العلم .

(٦) أسلوب المعرى ودلالته .

(٧) أدب الهجاء .

(٨) الفرزدق .

(٩) النابغة الذبيانى .

(١٠) اللغة والعلوم .

(١١) البحث العلمى .

(١٢) المصطلحات العلمية

(١٣) أصول علوم اللغة

٥ ـ **الوادى المقدس**

١٩٦٨ ، القاهرة ، دار المعارف

٦ ـ مختارات

١٩٦٩ ، القاهرة ، الجمعية العلمية بكليـة طب القـاهرة

« يضم هذا العدد الخاص من مجلة الجمعية العلمية أربعة فصول للدكتور محمد كامل حسين هى » :

(١) ما قال الناس فينا .

(٢) دراسة الطب .

(٣) الجدب والخصب فى البيئات العلمية .

(٤) مقال بالانجليزية عن العلاج الطبى .

٧ ـ الذكر الحكيم

١٩٧١ ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية

٨ ـ الشعر العربى والذوق المعاصر

١٩٧١ ، القاهرة ، مطبوعات الاذاعة والتليفزيون

٩ ـ النحو المعقول

١٠ ـ اللغة العربية المعاصرة

١٩٧٧ ، القاهرة ، دار المعارف

ثانية : روايات

١ ـ قرية ظالمة

١٩٥٤ ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية

ثالثا : قصص قصيرة في دوريات

١ ـ فراق	مجلة الهلال	فبراير ١٩٦٢
٢ ـ قصة جريمة شفاء	« «	مارس ١٩٦٢
٣ ـ أى الطريقتين أهدى	« «	ابريل ١٩٦٢
٤ ـ قوم لا يتطهرون	« «	مايو ١٩٦٢
٥ ـ الطريد	مجلة القصة	يونيو ١٩٦٤
٦ ـ ماء مدين	« «	أغسطس ١٩٦٤

رابعا : كتب بالاشتراك

١ – أثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية

القاهرة ، باشراف مركز تبادل القيم الثقافية بالتعاون مع منظمة اليونسكو .

بالاشتراك مع الدكاترة : سهير القلماوى ، محمـود مكى ، ابراهيم مدكور ، عبد الحليم منتصر ، محمد محمـود الصياد ، حسين فوزى ، جمال الدين الشيال ، احمـد فكرى ، محمـود الحفنى .

« وقد كتب الدكتور كامل حسين الفصـل الرابع : الطب والأقربازين » .

٢ – طب الرازى

جزآن : ١٩٧٧ ، القاهرة ، دار الشروق ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .

بالاشتراك مع الدكتور محمد عبد الحليم العقبى .

خامسا : مقدمات كتب

١ – الطبيب معالجا وعالما

١٩٦٤ ، القاهرة ، دار الفكر العربى

تأليف : دانا أتشلى

ترجمة : زكريا فهمى

٢ – الموجز فى تاريخ الطب والصيدلية عند العرب

١٩٧٨ ، القاهرة ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

تقديم واشراف : الدكتور محمد كامل حسين

سادسا : اشراف على الترجمة

١ ـ تاريخ العلم :

(العلم القديم فى العصر الذهبى لليونان) (١٩٥٧ ـ) ، القاهرة ، دار المعارف .

أشرف على ترجمة الأجزاء الثلاثة الأولى بالاشتراك مع الدكاترة : ابراهيم بيومى مدكور ، محمد مصطفى زيادة ، قسطنطين زريق .

سابعا : دراسات ومقالات

١ ـ **التعقيد فى شعر المتنبى**
الكاتب — نوفمبر ١٩٤٥

٢ ـ **محنتان متشابهتان**
الكاتب — فبراير ١٩٤٦

٣ ـ **الدكتور على باشا ابراهيم**
الكاتب — مارس ١٩٤٧

٤ ـ **أحمد لطفى السيد والدعوة الى ارسطو**
الكاتب — نوفمبر ١٩٤٧

٥ ـ **كلمة الشكر والتعقيب**
مجلة مجمع اللغة العربية — ١٩٥٢

« وهى الكلمة التى القاها فى حفل استقباله عضـوا بالمجمع »

٦ ـ **أدب النقائض وحقيقة أمر الفرزدق**
مجلة مجمع اللغة العربية جـ ١٠ — ١٩٥٤

٧ ـ **القواعد العامة لوضع المصطلحات العلمية**
مجلة مجمع اللغة العربية جـ ١١ — ١٩٥٥

٨ ـ **اقتراح باستخدام التقسيم العشرى للعلوم أساسا لتنظيم أعمال اللجان**
محاضر جلسات مجلس المجمع — ١٩٥٦

٩ ـ **اللغة والعلوم**
مجلة مجمع اللغة العربية جـ ١٢ — ١٩٥٦

١٠ ــ علم دراسة الأدوية أم الاقرباذين
محاضر جلسات مجلس المجمع د ٢٣ ١٩٥٧

١١ ــ معنى الظلم فى القرآن الكريم
مجلة مجمع اللغة العربية ج ١٣ ١٩٥٧

١٢ ــ رأى فى جنس العدد
مجلة مجمع اللغة العربية ج ١٤ ١٩٥٨

١٣ ــ أصول علوم اللغة
مجموعة البحوث والمحاضرات ١٩٦٠

١٤ ــ أصول علوم اللغة (١)
الأدب يوليو ١٩٦٠

١٥ ــ أصول علوم اللغة (٢)
الأدب يوليو ١٩٦٠

١٦ ــ أسلوب أبى العلاء المعرى ودلالته
مجموعة البحوث والمحاضرات (دورة ٢٧) ١٩٦١

١٧ ــ رسم الهمزة
محاضر جلسات المجلس (دورة ٢٨) ١٩٦٢

١٨ ــ الدكتور محمد كامل حسين يرد على اتهام الاستاذ العقاد
الأخبار ١٩٦٢/١١/٢١

١٩ ــ الرعب عند بعض المفكرين
الأخبار ١٩٦٢/١١/٢٧

٢٠ ــ حول وحدة المعرفة
المجلة ١٩٦٣/١

٢١ ــ المرحوم الاستاذ احمد لطفى السيد
مجلة مجمع اللغة العربية ج ١٨ ١٩٦٤

٢٢ ــ اقتراح بشأن النهوض بالمصطلح العربى
محاضر جلسات مجلس المجمع ١٩٦٤

٢٣ ـ ازمة الفصحى « السليقة اللغوية »
المجلة ١٩٦٤/٨

٢٤ ـ أخطاء اللغويين
مجلة مجمع اللغة العربية جـ ٢٢ ١٩٦٥

٢٥ ـ التعاون الدولى والسلام العالمى
المجلة ١٩٦٥/٤

٢٦ ـ حاجتنا الى معجم مصفى
مجموعة البحوث المحاضرات ١٩٦٨

٢٧ ـ الشعر العربى
المجلة ١٩٦٩/٧

٢٨ ـ الموسيقى والتصوير فى الشعر العربى
مجموعة الحوث والمحاضرات د ٣٤ ١٩٧٠

٢٩ ـ امرؤ القيس .. معلقته ومغامراته
المجلة ١٩٧٠/١

٣٠ ـ الحكم فى شعر المتنبى
مجموعة البحوث والمحاضرات د ٣٧ ١٩٧١

٣١ ـ النحو المعقول
مجلة مجمع اللغة العربية جـ ٢٧ ١٩٧١

٣٢ ـ اللهم أعز الاسلام
الزهراء ١٩٧١

٣٣ ـ طه حسين مفكراً
مجلة مجمع اللغة العربية جـ ٣٣ ١٩٧٥

ثامنا : أحاديث وندوات صحفية

١ ـ لقاء مع الدكتور محمد كامل حسين صاحب قرية ظالمة
محمد عبد الحليم عبد الله ، القصة ١٩٦٤/٨

د : دورة ج : جزء

٢ ــ تدريس العلوم الحديثة باللغة العربية فى الجامعات

ندوة المجلة ، المجلة ١٩٦٦/٦

٣ ــ لقاء مع الاستاذ الفلاح والعالم الوزير (محمد نجيب حشاد) ومع العالم الفنان والمؤرخ الفيلسوف (محمد كامل حسين)

بمناسبة حصولهما على جائزة الدولة التقديرية فى العلوم .

عواطف عبد الجليل ، الجمهورية ١٩٦٦/١٢/٥

٤ ــ استقلال الجامعة

أحمد الجندى ورجاء عبد الملك وفاطمة صقر

الاخبار ١٩٦٧/٨/٨

تاسعا : أعمال أدبية فى الانجليزية

1. International Co-operation and Work Peace, Cairo, 1965, Ain Shams University.

وهى المحاضرة التى القاها امام الجمعية العامة للامم المتحدة

عاشرا : أعمال أدبية فى الفرنسية

1. Notice Nécrologie sur le Prof. Aly Ibrahim, 1946, Bulletin de l'Institut d'Egypte, vol. XXIX.

حادى عشر : مقالات ودراسات طبية فى الانجليزية

1. Parathyroidectomy.
   Congrès de la Société Internationale de Chirurgie.
2. Multiple Congenital Dislocation.
   Journal of Bone and Joint Surgery, vol. XX, No. 2, April 1938.
3. Annual Report, Red Crescent Hospital, No. 1, 1937-1938.

4. Annual Report, Red Crescent Hospital, No. 2, 1938-1939.

5. Annual Report, Orthopaedic Department, Kasr El-Aini Hospital, 1940. J.E.M.A., vol. XXX, No. 7-8, 1940.

6. Intra Medullary Mailing. J.E.M.A., vol. XXXII, No. 6-7, 1940.

7. Separation of Capitulum. J.E.M.A., vol. XVII, No. 6.

8. Clinical Research. Bulletin of Clinical and Scientific Society of Abbassieh Faculty of Medicine, vol. III, No. 1, May, 1951.

9. Planning for a Higher Standard of Treatment (S.S.S. Selections).

ثاني عشر : مقالات في تاريخ الطب بالانجليزية

1. The Edwin Smith Papyrus. Journal of the Egyptian Medical Association. J.E.M.A., No. 33, June 1934.

2. An Ancient Egyptian Treatise on Traumatology. The Edwin Smith Papyrus. Bone and Joint Surgery, British, No. May 1949.

3. Kocher's method of reducing dislocated shoulder is 3000 years old. Bone and Joint Surgery British, No of August 1968.

4. Quelques spécimens de pathologie osseuse de l'Ancienne Egypte.

● ● اعمال عن الدكتور محمد كامل حسين

اولا : كتب تناولته فى فصول

١ ــ دراسات فى الأدب العربى المعاصر

يوسف الشارونى

يتناول هــــذا الكتــاب « قــرية ظالمة » فى الصفحات من « ٢٣٧ ــ ٢٤١ »

٢ ــ رأى فى ادبنا المعاصر

محمد عطا

يتناول هذا الكتاب « قرية ظالمة » فى فصل بعنوان « قرية ظالمة » القصة التاريخية ص « ٩١ ــ ٩٢ »

٣ ــ المجمعيون

الدكتور محمد مهدى علام ، ١٩٦٦ ، القــاهرة « محمــد كامل حسين » « ص ١٩١ ، ١٩٢ »

٤ ــ الجنس والواقعية فى القصة

فتحى الابيارى ،

٥ ــ نقد واصلاح

الدكتور طه حسين ، بيروت ، ١٩٦٦ ،
« القرية الظالمة » « ص ٦١ ــ ٧٨ » .

٦ ـ معارك العقاد الأدبية

عامر العقاد ، بيروت ، ١٩٧١ ،

٧ ـ معارك العقاد فى السياسة والأدب

عامر العقاد ، القاهرة

٨ ـ شخصيات

محمود عوض ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، دار المعارف ، سلسلة اقرأ .

نصل بعنوان « رجل بنصف لسان »

٩ ـ افكار الكبار

فتحى رضوان ، القاهرة ، ١٩٧٨ الهيئة المصرية العامة للكتاب .

ثانيا : مقالات ودراسات ونقد

١ ـ متنوعات

المحرر مجلة الثقافة ١٩٥١/١٢/٣١

٢ ـ الدكتور محمد كامل حسين

الدكتور ابراهيم بيومى مدكور مجلة مجمع اللغة العربية وهى الكلمة التى القاها الدكتور مدكور فى استقبال الدكتور كامل عضوا بمجمع اللغة العربية وقد طبعت هذه الكلمة فى كتيب خاص » .

٣ ـ التحليل البيولوجى للتاريخ

الدكتورة بنت الشاطىء مجلة الأدب ابريل ١٩٥٧

٤ ـ قرية ظالمة

الدكتور سهير القلماوى المجلة ديسمبر ١٩٥٧

٥ ــ **قرية ظالمة**
يوسف الشاروني — الآداب فبراير ١٩٥٨

٦ ــ **محاولة لنقد قرية ظالمة**
توفيق حنا — الآداب مارس ١٩٥٨

٧ ــ **كتب وكتاب : متنوعات (جـ ٢)**
يحيى حقى — المساء ١٩٦١/٦/٢٩

٨ ــ **متنوعات جـ ٢**
المحرر — المجلة يوليو ١٩٦١

٩ ــ **العدد فى العربية**
الشيخ محمد على النجار — مجلة مجمع اللغة العربية جـ ١٥ ١٩٦١

١٠ ــ **اقتراح تيسير العدد**
الشيخ محمد على النجار — مجلة مجمع اللغة العربية جـ ١٥ ١٩٦١

١١ ــ **جنس العدد**
الشيخ محمد على النجار — مجلة مجمع اللغة العربية جـ ١٥ ١٩٦١

١٢ ــ **تذكير العدد وتانيثه**
الشيخ أمين الخولى — مجلة مجمع اللغة العربية جـ ١٥ ١٩٦١

١٣ ــ **« العـــدد »**
ابراهيم مصطفى — مجلة مجمع اللغة العربية جـ ١٥ ١٩٦١

١٤ ــ **اقتباس أم توارد خواطر**
عباس محمود العقاد — الأخبار ١٩٦٢/١١/١٤

١٥ ــ مثل في التواضع والخبرة بالدراسة

عباس محمود العقاد الأخبار ١٩٦٢/١١/٢٢

١٦ ــ ((أقسم بالله انني ضربت كفا بكف)) ((الدكتور زكي نجيب محمود ينضم الى الاستاذ العقاد في اتهام الدكتور محمد كامل حسين)) .

د . زكي نجيب محمود الأخبار ١٩٦٢/١١/٢٦

١٧ ــ تعليق الأستاذ العقاد على رد الدكتور كامل

عباس محمود العقاد الأخبار ١٩٦٢/١١/٢٧

١٨ ــ مثل من التحقيق والخبرة للدراسة العلمية

عباس محمود العقاد الأخبار ١٩٦٢/١١/٢٨

١٩ ــ قرية ظالمة

فتحي الابياري القصة ١٩٦٤/١٢

٢٠ ــ الأربعة الكبار الذين فازوا بجوائز الدولة

رجاء النقاش المصور ١٩٦٦/١٢/٩

٢١ ــ رجل بنصف لسان

محمود عوض اخبار اليوم ١٩٦٨/٨/١٠

٢٢ ــ تأملات حول الوادي المقدس

د . سهير القلماوي المجلة ١٩٦٩/٤

٢٣ ــ الطبيب محمد كامل حسين اديبا

د . ابراهيم بيومي مدكور الهلال ١٩٧٣/٣

٢٤ ــ عالم عظيم فقدناه

محمد فهمي عبد اللطيف الأخبار ١٩٧٧/٣/٩

٢٥ ــ نحو النور

محمد زكي عبد القادر الأخبار ١٩٧٧/٣/١٠

٢٦ ــ رحلوا عن الدنيا على ميعاد .. وخلفونا بها يتامى يها يتامى غرباء

بنت الشاطىء الاهرام ١٩٧٧/٣/١١

٢٧ ــ محمد كامل حسين

د . حسين فوزى الاهرام ١٩٧٧/٣/١٢

٢٨ ــ ذكريات سريعة عن محمد كامل حسين المفخرة الفكرية التى فقدناها

فؤاد مسلم الاهرام ١٩٧٧/٣/١٢

٢٩ ــ جراح القرية الظالمة

محرر صفحة الأدب الاخبار ١٩٧٧/٣/١٦

٣٠ ــ ظلمناه حيا فهل ننصفه ميتا ؟

يوسف القعيد المصور ١٩٧٧/٣/١٨

٣١ ــ وادى محمد كامل حسين المقدس

فتحى رضوان الثقافة ابريل ١٩٧٧/٣/١٨

٣٢ ــ قرية محمد كامل حسين المظلومة

فتحى رضوان الثقافة مايو ١٩٧٧

٣٣ ــ القرية الظالمة

فتحى رضوان الثقافة يونيو ١٩٧٧

٣٤ ــ قرية ظالمة

فتحى رضوان الثقافة يوليو ١٩٧٧

٣٥ ــ طالب طب يفوز بجائزة الأدب الدولى

ابراهيم قاعود آخر ساعة ١٩٧٨/٦/٢٩

ثالثا : كلمات وقصائد حفلات التأبين

فى حفل التأبين الذى أقامته نقابة الأطباء صباح يوم ١٩٧٧/٤/٢٢

١ ـــ كلمة الدكتور عبد العزيز السيد

٢ ـــ كلمة الدكتور ابراهيم جميل بدران

٣ ـــ كلمة الدكتور مصطفى كمال حلمى

٤ ـــ كلمة الدكتور حمدى السيد

٥ ـــ كلمة الدكتور أحمس الحمامصى

وفى حفل التأبين الذى أقامه مجمع اللغة العربية مساء يوم الخميس ١٩٧٧/٤/٢٨ بقاعة الجمعية المصرية للاقتصاد والاحصاء والتشريع :

٦ ـــ كلمة الدكتور ابراهيم بيومى مدكور

٧ ـــ كلمة الدكتور أحمد عمار

٨ ـــ كلمة الشعر : قصيدة الدكتور ابراهيم أدهم الدمرداش

وفى حفل التأبين الذى أقامه الاتحاد العلمى المصرى بدار الاتحاد مساء يوم الاربعاء ١٩٧٧/١١/٧ :

٩ ـــ كلمة الدكتور حسين فوزى

١٠ ـــ كلمة الاستاذ محمد شوقى أمين

١١ ـــ كلمة الدكتور أحمس الحمامصى

١٢ ـــ قصيدة الدكتور ابراهيم أدهم الدمرداش

١٣ ـــ كلمة وقصيدة للاستاذ الغزالى حرب

رابعا : فصول من كتب بغير العربية

١ ـــ فى الانجليزية :

1. Arabic Thought in the Liberal Age, London, 1970. Albert Hourany.

٢ ـــ فى الفرنسية:

Livres égyptiens sur le problème religieux.

الفهـــارس

النصوص القرآنية

النص القرآنى	الآية السورة	الصفحة
« كان النــاس أمة واحـدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين »	١٣٢/البقرة	٩٤
« واذا سالك عبــادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان »	١٨٦/البقرة	١٢٣
« ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفــر ما دون ذلك لمن يشاء »	٤٨ /النساء	١٢٤
« لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن ينــاله التقوى منكم »	٣٧ /الحج	١٢٤
« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون »	٥٦ /الذاريات	١٢٤
« وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى الســماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا فى كتاب مبين »	٦١ /يونس	١٣٨
« فلا أقسم بمواقع النجوم »	٧٥ /الواقعة	١٣٨
« ان الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها »	٢٦ /البقرة	١٤١
« منه آيات محكمــات هن أم الكتاب وأخــر متشابهات »	٧ آل عمران	١٤١
« ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتــال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله »	١١ /الانفال	١٤٣
« ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كانهم بنيان مرصوص »	٤ /الصف	١٤٣
« واقتلوهم حيث ثقفتموهم »	١٩١/البقرة	١٤٣
« اياك نعبد واياك نستعين »	٥ /الفاتحة	١٤٦

النص القرآني	الآية	السورة	الصفحة
« وكان الله غفورا رحيما »	٩٦	/النساء	٣٧٨
« كم من فئة قليلة »	٢٤٩	/البقرة	٣٧٩
« لا خوف عليهم »	٣٨	/البقرة	٣٨٠
« لا ريب فيه »	٢	/البقرة	٣٨٠
« لئن اخرجوا لا يخرجون معهم »	١٢	/الحشر	٣٨١
« ولئن قوتلوا لا ينصرونهم »	١٢	/الحشر	٣٨١
« لولا اخرتنى الى اجل قريب فاصدق واكن من الصالحين »	١٠	/المنافقون	٣٨١

رتبت الآيات فى هذا الفهرس حسب ورودها فى الكتاب

الأعلام

(أ)

(ب)

(ت)

(ج)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

عند تكرار ذكر العلم غير مرة فى الصفحة الواحدة اكتفى بذكر رقم الصفحة مرة واحدة .

المحتويات

الباب الرابع

الفهـارس ٤٠٣

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٩/٣١٥٥
ISBN ٩٧٧ ٢٠١ ٦٩٨ ٢